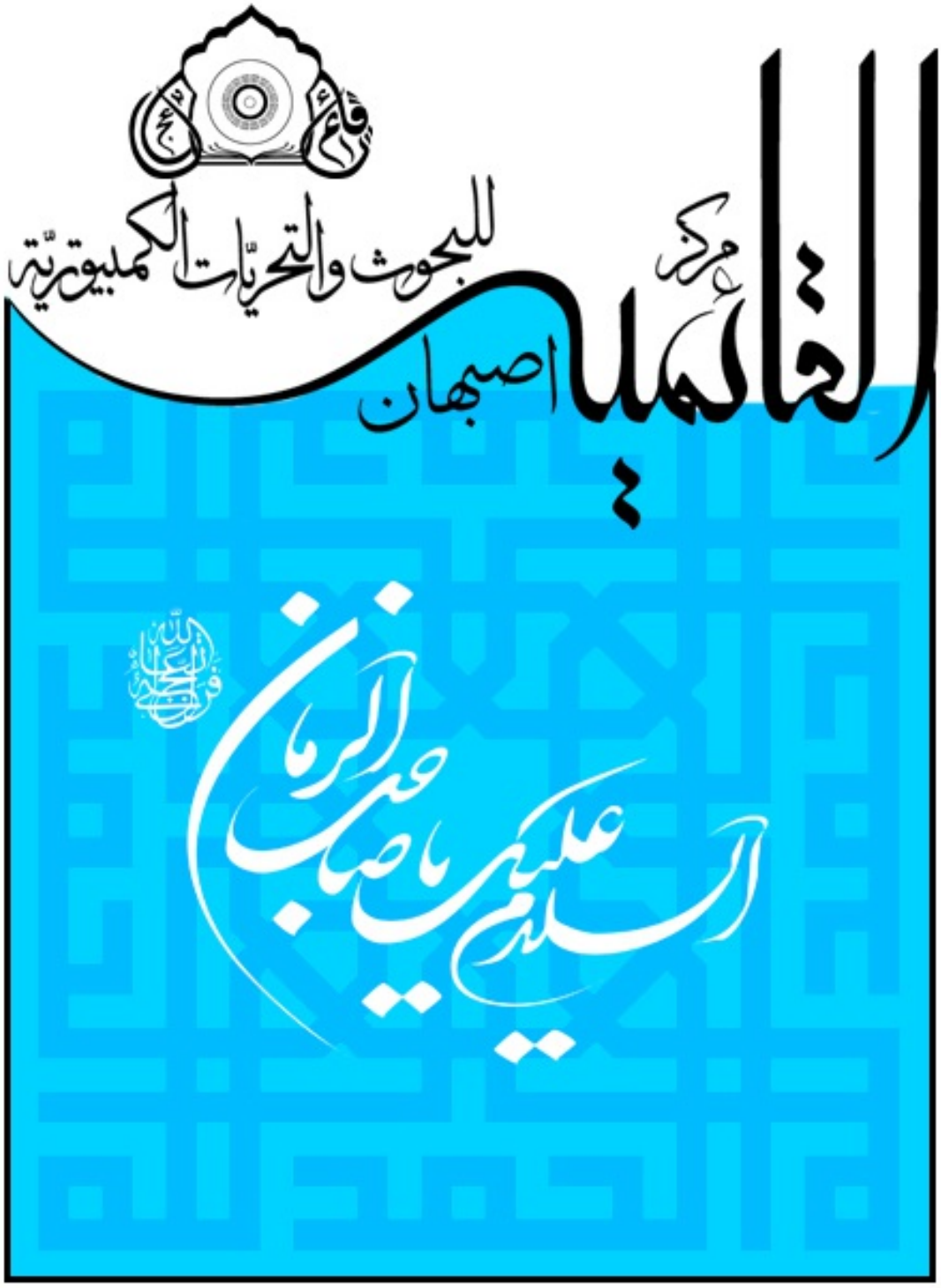

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الإحاطة
في
أخبار غرناطة

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن سعيد
المعروف بلسان الدين بن الخطيب
المتوفى سنة ٧٧٦هـ

تحرير صفحة وتعليقه

الأستاذ الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ اللغة العربية وآدابها بالجامعة الأردنية

تقديم

سعادة الفريق أحمد الشرع رئيس أركان القوات المسلحة

المجلد الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الاحاطة فى اخبار غرناطة

كاتب:

ابن خطيب، محمد بن عبد الله

نشرت فى الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الاحاطة فی اخبار غرناطة المجلد ۲ ----- ۱۱
اشاة ----- ۱۱
[تتمة قسم الثانی] ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
محمد بن یوسف بن إسماعیل بن فرج بن إسماعیل بن فرج ابن یوسف بن نصر الخزرجی ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
شیخ الغزاة و رئیس الجند الغربی لأول أمره: ----- ۱۲
الأحداث فی أیامه: ----- ۱۵
الحادثة التی جرت علیه: ----- ۱۶
ترتیب الدولة الثانیة السعیدة الدور إلی بیعة الکور: ----- ۱۷
ظرف السلطان و حسن توقیعه: ----- ۲۰
و من ملوک النصاری: ----- ۲۱
بعض مناقب الدولة لهذا العهد: ----- ۲۳
الجهاد فی شعبان من عام سبعة و ستین و سبعمائة: ----- ۳۲
الغزاة إلی حصن أشر : ----- ۳۴
الغزاة المعملة إلی أطریرة : ----- ۳۴
الغزاة إلی فتح جیّان: ----- ۳۴
الغزاة إلی مدینة أبدة: ----- ۳۵
مولده السعید النّشیئة ، المیمون الطلوع و الجیئة: ----- ۳۷
محمد بن یوسف بن محمد بن أحمد بن خمیس بن نصر ابن قیس الخزرجی الأنصاری ----- ۳۷
اشارة ----- ۳۷
الملوک علی عهده: ----- ۳۹

محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن أبی عامر ابن محمد بن أبی الولید بن یزید بن عبد الملک المعافری، المنصور بن أبی عامر ---- ۴۱
اشارة ---- ۴۱
غزواته و ظهوره علی أعدائه: ---- ۴۱
محمد بن عباد بن محمد بن إسماعیل بن محمد بن إسماعیل ابن قریش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف ابن نعیم، لخمی النسب ۰ ۴۳
اشارة ---- ۴۳
توقیعه و نثره فی البدیهة: ---- ۴۵
محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنیش الجذامی ---- ۴۸
اشارة ---- ۴۸
ما نقم علیه و وصم به: ---- ۴۸
بعض الأحداث فی أیامه، و نبذ من أخباره: ---- ۵۰
محمد بن یوسف بن هود الجذامی ---- ۵۰
اشارة ---- ۵۰
بعض الأحداث فی أیامه : ---- ۵۱
محمد بن أحمد بن زید بن أحمد بن زید بن الحسن ابن أیوب بن حامد بن زید بن منخل الغافقی ---- ۵۲
اشارة ---- ۵۲
حاله و نباهته و محنته و وفاته: ---- ۵۲
خبر فی وفاته و معرجه: ---- ۵۳
محمد بن أحمد بن محمد الأشعری ---- ۵۳
محمد بن فتح بن علی الأنصاری ---- ۵۴
محمد بن أحمد بن علی بن حسن بن علی ابن الزیات الکلاعی ---- ۵۴
محمد بن علی بن عبد اللّه بن محمد بن الحاج ---- ۵۴
محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهیم ابن أرقم النّمیری ---- ۵۵
محمد بن محمد بن إبراهیم بن محمد بن إبراهیم ابن محمد بن خلف بن محمد بن سلیمان بن سوار ابن أحمد بن حزب اللّه بن عامر بن سعد الخیر بر
محمد بن عبد اللّه بن منظور القیسی ---- ۶۶

محمد بن علی بن الخضر بن هارون الغسانی ---- ۶۷
محمد بن یحیی بن محمد بن یحیی بن أحمد بن محمد ابن أبی بکر بن سعد الأشعری المالقی ---- ۶۸
اشارة ---- ۶۸
محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد ابن محمد بن محمد بن علی بن موسی بن إبراهیم بن محمد ابن ناصر بن حیّون بن القاء
محمد بن أحمد بن عبد الملک الفشتالی ---- ۷۲
محمد بن محمد بن أحمد بن أبی بکر بن یحیی ابن عبد الرحمن بن أبی بکر بن علی بن داود القرشی المقری ---- ۷۳
اشارة ---- ۷۳
و من فصل الاتصال : [الطویل] ---- ۷۹
و من فصل الإدلال : [الطویل] ---- ۸۰
و من فصل الاحتفال : [الطویل] ---- ۸۱
و من فصل الاعتقال : [الطویل] ---- ۸۲
محمد بن عیاض بن محمد بن عیاض بن موسی الیحصبی ---- ۸۹
محمد بن عیاض بن موسی بن عیاض بن عمر بن موسی ابن عیاض الیحصبی ---- ۹۰
محمد بن أحمد بن جبیر بن سعید بن جبیر بن محمد بن سعید ابن جبیر بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان ابن عبد السلام بن جبیر الکنانی
محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علی بن شبرین ---- ۹۳
محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ---- ۹۸
محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ---- ۹۹
محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدّوسی ---- ۹۹
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ---- ۱۰۰
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ---- ۱۰۰
محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن یحیی ابن عبد الرحمن بن یوسف بن جزیّ الکلبی ---- ۱۰۰
محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهیم ابن یحیی بن محمد بن الحکیم اللخمی ---- ۱۰۵
محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن علی ابن محمد اللّوشی الیحصبی ---- ۱۰۶
محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهیم بن یحیی ابن الحکیم اللخمی ---- ۱۰۷

محمد بن محمد بن علی بن العابد الأنصاری ---- ۱۱۱
محمد بن مالک المرّی الطّغنری ---- ۱۱۱
محمد بن علی بن محمد بن عبد اللّه بن عبد الملک الأوسی ---- ۱۱۲
محمد بن علی بن عبد اللّه بن علی القیسی العرادی ---- ۱۱۳
محمد بن علی بن العابد الأنصاری ---- ۱۱۳
محمد بن هانی بن محمد بن سعدون الأزدی الإلبیری الغرناطی ---- ۱۱۳
محمد بن یحیی بن محمد بن یحیی بن علی بن إبراهیم ابن علی الغسّانی البرجی الغرناطی ---- ۱۱۵
محمد بن یوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن یوسف ابن محمد الصّریحی ---- ۱۱۹
محمد بن أحمد بن محمد بن أبی خیثمة الجبّائی ---- ۱۲۵
محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن أحمد الإستجّی الحمیری ---- ۱۲۵
محمد بن أحمد بن علی الهوّاری ---- ۱۳۱
محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادی آشی ---- ۱۳۳
محمد بن إبراهیم بن خیرة ---- ۱۳۵
محمد بن إبراهیم بن علی بن باق الأموی ---- ۱۳۵
محمد بن إبراهیم بن سالم بن فضیلة المعافری ---- ۱۳۶
محمد بن إدریس بن علی بن إبراهیم بن القاسم ---- ۱۳۷
اشارة ---- ۱۳۷
شعره و دخوله غرناطة ---- ۱۳۸
حمد بن محمد بن أحمد الأنصاری ---- ۱۴۰
محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمی ---- ۱۴۴
محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمی ---- ۱۴۷
محمد بن محمد بن حزب اللّه ---- ۱۴۸
محمد بن إبراهیم بن عیسی بن داود الحمیری ---- ۱۵۰
محمد بن محمد بن عبد اللّه بن مقاتل ---- ۱۵۴

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القیسی ----- ۱۵۵
محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوی ----- ۱۵۵
محمد بن محمد بن الشّدید ----- ۱۵۷
محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد ابن أبی الخصال الغافقی ----- ۱۵۹
محمد بن مفضل بن مهیب اللخمی ----- ۱۷۰
محمد بن عبد اللّه بن داود بن خطاب الغافقی ----- ۱۷۴
محمد بن عبد اللّه بن محمد بن لب الأمی ----- ۱۷۷
محمد بن عبد اللّه بن الحاج البضیعة ----- ۱۸۲
محمد بن عبد اللّه بن فطیس ----- ۱۸۳
محمد بن عبد الرحمن العقیلی الجراوی ----- ۱۹۷
محمد بن عبد الرحمن المتأهل ----- ۱۹۷
محمد بن عبد الملک بن محمد بن محمد بن طفیل القیسی ----- ۱۹۸
اشارة ----- ۱۹۸
حظوته و دخوله غرناطة: ----- ۱۹۸
محمد بن عبد العزیز بن عبد الرحمن بن عبید اللّه ابن عیّاش التّجیبی البرشانی ----- ۱۹۹
اشارة ----- ۱۹۹
بعض أخباره مع المنصور و محاورته الدّالة علی جلالة قدره: ----- ۲۰۰
محمد بن علی بن محمد بن إبراهیم بن محمد الهمدانی ----- ۲۰۱
محمد بن علی بن محمد بن علی بن محمد ابن خاتمة الأنصاری ----- ۲۰۳
محمد بن عیسی بن عبد الملک بن قزمان الزّهری ----- ۲۰۴
محمد بن غالب الرّصافی ----- ۲۱۰
محمد بن قاسم بن أبی بکر القرشی المالقی ----- ۲۱۵
محمد بن سلیمان بن القصیرة ----- ۲۱۶
محمد بن یوسف بن عبد اللّه بن إبراهیم التمیمی المازنی ----- ۲۱۸

محمد بن حسن العمرانی الشریف ---- ۲۱۹
محمد بن محمد بن إبراهیم بن المرادی ابن العشاب ---- ۲۲۰
محمد بن محمد بن عبد الملک بن محمد بن سعید الأنصاری الأوسی ---- ۲۲۱
محمد بن خمیس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد ابن خمیس الحجری حجر ذی رعین التّلمسانی ---- ۲۲۱
محمد بن عمر بن علی بن إبراهیم المالیکشی ---- ۲۳۹
محمد بن علی بن الحسن بن راجح الحسنی ---- ۲۴۴
محمد بن علی بن عمر العبدری ---- ۲۴۷
فهرس المحتویات ---- ۲۴۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۲۵۲

الاحاطة فی اخبار غرناطة المجلد ۲

اشاة

نام کتاب: الإحاطة فی أخبار غرناطة

نویسنده: ابن خطیب، محمد بن عبد الله

تاریخ وفات مؤلف: ۷۷۶ ه. ق

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۴

ناشر: دار الکتب العلمیة

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۴ ه. ق

نوبت چاپ: اول

[تتمة قسم الثانی]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم و صلّی اللّه علی سیّدنا محمد و آله و صحبه و سلّم

محمد بن یوسف بن إسماعیل بن فرج بن إسماعیل بن فرج ابن یوسف بن نصر الخزرجی

اشارة

أمیر المسلمین لهذا العهد بالأندلس، صدر الصدور، و علم الأعلام، و خلیفة اللّه، و عماد الإسلام، و قدوة هذا البیت الأصیل، و نیر هذا البیت الکریم، و لباب هذا المجد العظیم، و معنی الکمال، و صورة الفضل، و عنوان السّعد، و طائر الیمن، و محول الصّنع، الذی لا تبلغ الأوصاف مداه، و لا توفی العبارة حقّه، و لا یجری النظم و النثر فی میدان ثنائه، و لا تنتهی المدائح إلی علیائه.

أوّلیّته: أشهر من إمتاع الضّحی، مستولیة علی المدی، بالغة بالسّعة بالانتساب إلی سعد بن عبادة عنان السماء، مبتجحة فی جهاد العدا، بحالة من ملک جزیرة الأندلس، و حسبک بها، و هی بها فی أسنی المزاین و الحلی، و قدما فیه بحسب لمن سمع و رأی.

حاله: هذا السلطان أیمن أهل بیته نقیبة، و أسعدهم میلادا و ولایة، قد جمع اللّه له بین حسن الصورة، و استقامة البنیة، و اعتدال الخلق، و صحّة الفکر، و ثقوب الذّهن، و نفوذ الإدراک، و لطافة المسائل، و حسن التأنّی؛ و جمع له من الظّرف ما لم یجمع لغیره، إلی الحلم و الأناة اللذین یحبّهما اللّه، و سلامة الصدر، التی هی من علامة الإیمان، و رقّة الحاشیة، و سرعة العبرة، و التبریز فی میدان الطهارة و العفّة، إلی ضخامة التّنجّد، و استجادة الآلات، و الکلف بالجهاد، و ثبات القدم، و قوة الجأش، و مشهور البسالة، و إیثار الرّفق، و توخّی السّداد، و نجح المحاولة. زاده اللّه من فضله،

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴

و أبقی أمره فی ولده، و أمتع المسلمین بعمره. ساق اللّه إلیه الملک طواعیة و اختیارا، إثر صلاة عید الفطر علی بغتة وفاة المقدّس أبیه،

من عام خمسة و خمسين و سبعمائة، لمخايل الخير، و مزية السّن، و مظنّة البركة، و هو يافع، قريب العهد بالمراهقة، فأنبته اللّه النّبات الحسن، و سدل به السّتر، و سوّغ العافية، و هنّأ العيش؛ فلم تشحّ فى مدته السماء، و لا كلب الأعداء، و لا تبدّلت الألقاب، و لا عونيت الشدائد، و لا عرف الخوف، و لا فورق الخصب، إلى أن كانت عليه الحادثة، و نابه التّمحيص الذى أكسبه الحنكة، و أفاده العبرة، فشهد بعناية اللّه فى كفّ الأيدى العادية، و أخطأ ألم السّهام الرّاشقة، و تخييب الآمال المكايدة، و انسدال أروقة السّتر و العصمة، ثم العودة، الذى عرف الإسلام بدار الإسلام قدرها، و تملّأ عزّها و رجح وزنها، كما اختبر ضدّها فرصة الملك، و شاع العدل، و بعد الصيت، و انتشر الذّكر، و فاض الخير؛ و غزر القطر، فظهرت البركات، و توالت الفتوح، و تخلّدت الآثار. و سيرد من بيان هذه الجمل، ما يسعه الترتيب بحول اللّه.

ترتيب دولته الأولى: إذ هو ذو دولتين، و مسوّغ ولايتين، عزّزهما اللّه، بملك الآخرة، بعد العمر الذى يملأ صحايف البرّ، و يخلّد حسن الذّكر، و يعرف إلى الوسيلة، و يرفع فى الرفيق الأعلى الدّرجة، عند اللّه خير و أبقى للذين آمنوا، و على ربّهم يتوكلون.

وزراؤه و حجّابه: انتدب إلى النّيابة عنه، و التّشمير إلى الحجابة ببابه، الشيخ القائد المعتمد بالتّجلّة، المتحول من الخدّام النّبهاء، المتسود الأبوة؛ المخصوص بالقدح المعلّى من المزية، المسلّم فى خصوصيّة الملك و التربية، ظهير العلم و الأدب، و أمين الجدّ، و مولى السّلف، و مفرغ الرأى إلى هذا العهد، و عقد سفرة السلطان، و بقية رجال الكمال من مشيخة المماليك، و خيار الموالى، أبا النعيم رضوان، رحمه اللّه، فحمد الكلّ، و خلف السلطان، و أبقى الرّتب، و حفظ الألقاب، و بذل الإنصاف، و أوسع الكنف، و استدعى النّصيحة، و لم يأل جهدا فى حسن السّيرة، و تظاهر المحض، و أفردنى بالمزيّة و عاملنى بما يرتدّ عنه جسر أطرف الموالاة و الصّحبة، و وفّى لى الكيل الذى لا يقتضيه السّن، و القربة من الاشتراك فى الرتبة، و التّزحزح عن الهضبة، و الاختصاص باسم الوزارة على المشهر و الغيبة، و المحافظة على التّشيّع و القدمة، بلغ فى ذلك أقصى الغايات، مدارج التخلق المأثور عن الجلّة،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵

و التودّد إلىّ المرّة بعد المرّة، و اختصصت بفوت المدّة بالسلطان، فكنت المنفرد بسرّه دونه، و مفضى همّه، و شفاء نفسه، فيما ينكره من فتنة تقع فى سيرته، أو تصيّر توجيه السّذاجة فى معاملاته، و صلاح ما يتغيّر عليه من قلبه، إلى أن لحق بربّه.

شيخ الغزاة و رئيس الجند الغربى لأول أمره:

أقر على الغزاة شيخهم على عهد أبيه، أبا زكريا يحيى بن عمر بن رحّو بن عبد اللّه بن عبد الحق، مطمح الطّواف ، و موفى الاختيار، و لباب القوم، و بقيّة السلف، جزما و دهاء، و تجربة و حنكة و جدّا و إدراكا، ناهيك من رجل فذّ المنازع، غريبها، مستحقّ التقديم، شجاعة و أصالة، و رأيا و مباحثة، نسّابة قبيله، و أضحى قسّيهم، و كسرى ساستهم، إلى لطف السّجية، و حسن التأنّى، لغرض السلطان، و طرق التّنزل للحاجات، و رقّة غزل الشّفاعات، و إمتاع المجلس، و ثقوب الذّهن و الفهم، و حسن الهيئة. و زاده خصوصيّة ملازمته مجلس الرّقاع المعروضة، و الرسّل الواردة. و سيأتى ذكره فى موضعه بحول اللّه تعالى.

كاتب سرّه: قمت لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التى أسندها إلىّ أبوه المولى المقدّس، رحمه اللّه، من الوقوف على رأسه، و الإمساك فى التهانى و المبايعة بيده، و الكتابة و الإنشاء و العرض و الجواب، و الخلعة و المجالسة، جامعا بين خدمة القلم، و لقب الوزارة، معزّز الخطط برسم القيادة، مخصوصا بالنيابة عنه فى الغيبة، على كل ما اشتمل عليه سور القلعة و الحضرة، مطلق أمور الإيالة، محكما فى أشتاته تحكيم الأمانة، مطلق الراية، ظاهر الجاه و النعمة. ثم تضاعف العزّ، و تأكد الرّعى، و تمحّض القرب، فنقلنى من جلسة المواجهة، إلى صفّ الوزارة؛ و عاملنى بما لا مزيد عليه من العناية، و أحلّنى المحل الذى لا فوقه فى الخصوصيّة، كافأ اللّه فضله، و شكر رعيه، و أعلى محلّه عنده.

و أصدر لى هذا الظّهير لثانى يوم ولايته: هذا ظهير كريم، صفى شربه. و سفّرنى فى الرسالة عنه، إلى السلطان، الخليفة الإمام، ملك

المغرب، و ما إليه من البلاد الإفريقيـة، أبى عنان، حسـبما يأتى ذكره. ثم أعفانى فى هذه المدة الأولى، عن كثير من الخدمة، و نوّه بى عن مباشـرة العرض بين يـديه بالجملة، فاخترت للكلّ و البدلة، و ما صان عنه فى سبيل التجلّة، و إن كان منتهى أطوار الرّفعة، الفقيه أبا محمد بن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶

عطية ، مستنزلا عن قضاه وادى آش و خطابتها، فكان يتولّى ما يكتب بنظرى، و راجعا لحكمى، و متردّدا لبالى، مكفى المؤنة فى سبيل الحمل الكلى، إلى وقوع الحادثة، و نفوذ المشيئة بتحويل الدولة.

قضاته: جـدّد أحكام القضاء و الخطابـة لقاضـى أبيه الشـيخ الأسـتاذ الشـريف ، نسـيج وحـده، و فريـد دهره، إغرابا فى الوقار، و حسـن السّـمت، و أصالـة البيت ، و تبحّرا فى علوم اللّسـان، و إجهازا فى فصل القضايا، و انفرادا ببلاغـة الخطبـة، و سـبقا فى ميـدان الـدهاء و الرّجاحة، أبى القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسـنى، الجانح إلى الإيالة النّصـرية من مدينة سبتة . و سيأتى التعريف به فى مكانه، إن شاء اللّه.

و توفى، رحمه اللّه، بين يـدى حـدوث الحادثـة، فـأرجىء الأمر بمكانه، إلى قـدوم متلقّف الكرة، و متعاور تلك الخطّـة، الشـيخ الفقيه القاضـى، أبى البركـات قاضـى أبيه، و وليهـا الأـحقّ بهـا بعـده، إذ كان غايبا فى السّـفارة عنه، فوقع التّمحيص قبل إبرام الأمر على حال الاستنابة.

الملوك على عهـده: و أوّلهم بالمغرب، السـلطان، الإمام ، أمير المسـلمين، أبو عنان ابن أمير المسـلمين أبى الحسن ابن أمير المسـلمين أبى سـعيد ابن أمير المسـلمين أبى يوسف يعقوب بن عبـد الحقّ، البعيد الشأو فى ميدان السّـعادة، و المصـمى أغراض السّداد، و معظّم الظّفر، و مخوّل الموهبة، المسـتولى على آماد الكمال ، عقلا و فضـلا و أبّهة و رواءا، و خطّا و بلاغة، و حفظا و ذكاء و فهما و إقداما ، تغمّده اللّه برحمته، بعثنى إلى بابه رسولا على إثر بيعته، و تمام أمره،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷

و خاطبـا إثره و ودّه، مسترفـدا من منحـة قبوله، فألفيت بشـرا مبـذولا، و رفـدا ممنوحا، و عزّا باذخا، يضـيق الزمان عن جلالته، و تقصـر الألسـنة عن كنه وصـفه، فكان دخولى عليه فى الثامن و العشرين من شهر ذى قعدة عام خمسة و خمسين المذكور، و أنشدته بين يدى المخاطبة، و مضمن الرسالة: [المنسرح]

خليفة اللّه ساعد القدرعلاك ما لاح فى الدّجى قمر

فـأحسب و كفى، و احتفل و احتفى، و أفضت بين يـديه كرمته، إلى الحضور معه فى بعض المواضع المطلـة على مورد رحب. هاج به الخدّام أسدا، أرود، شـثن الكفّين، مشعر اللّبدة، حتى مرق عن تابوت خشبى كان مسجونا به، من بعد إقلاعه، من بعض كواه، و أثارته من خلفه، و اسـتشاط و توقّـد بأسـا. و جلب ثـور عبـل الشّوى، منتصب المروى، يقـدمه صوار من الجواميس، فقربت الخطى، و حميت الوغى، و بلغ الزئير و الجوار ما شاء، فى موقف من ميلاد الشـيم العلى يخشـى الجبان مقارعـة العـدا، و يوطن نفسه الشـجاع على ملاقاة الرّدى، و خار الأسـد عن المبارزة، لما بلغ منه ثقافا عن رد المناوشـة، و مضـطلعا بأعباء المحاملـة، فتخطاه إلى طائفـة من الرّجالة، أولى عدّة، و ذوى دربة، حمل نفسه متطارحا كشهاب الرّجم، و سرك الدّجى، و أخذته رماحهم بإبادته، بعد أن أردى بعضهم، و جدّل بين يدى السلطان، متخبطا فى دمه.

و عرّض بعض الحاضرين، و أغرى بالنظم فى ذلك، فأنشدته: [الكامل]

أنعام أرضك تقهر الآساداطبعا كسا الأرواح و الأجسادا

و خصائص للّه بثّ ضروبهافى الخلق ساد لأجلها من سادا

إن الفضائل فى حماك بضائعلم تخش من بعد النّفاق كسادا

كان الهزبر محاربا فجزيتهبجزاء من فى الأرض رام فسادا

فابغ المزيد من آلائه بشكرهو ارغم بما خوّلته الحسّادا

فاستحسن تأتّى القريحة، و إمكان البديهة، مع قيد الصّفة، و هيبة المجلس.

و كان الانصراف بأفضل ما عاد به سفير، من واد أصيل، و إمداد موهوب، و مهاداة أثيرة، و قطار مجنوب، و صامت محمول، و طعمة مسوعة. و كان الوصول فى وسط محرم من عام ستة و خمسين و سبع مائة، و قد نجح السّعى، و أثمر الجهد، و صدقت المخيلة، و قد تضمّن رحلى الوجهة، و الأخرى قبلها جزء. و الحمد للّه الذى له الحمد فى الأولى و الآخرة. و توفى، زعموا، بحيلة، و قيل: حتف أنفه، لمّا نهكه المرض، و شاع عنه الإرجاف، و تنازع ببابه الوزراء، و تسابق إلى بابه الأبناء. و خاف مدبّر أمره، عايدة ملامته، على توقع برئه، و كان سيفه يسبق على سوطه، و القبر أقرب إلى من

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸

تعرض لعتبه من سجنه، فقضى موضع هذا السبيل خاتمة الملوك الجلّة، من أهل بيته. جدّد الملك، و حفظ الرسوم، و أجرى الألقاب، و أغلظ العقاب، و صيّر إيالته أضيق من الخدّ. و أمدّ الأندلس، و هزم الأضداد، و خلّد الآثار، و بنى المدارس و الزوايا، و استجلب الأعلام. و تحرّك إلى تلمسان فاستضافها إلى إيالته، ثم ألحق بها قسنطينة و بجاية، و جهز أسطوله إلى تونس، فدخلها و تملكها ثقاته فى رمضان عام ثمانية و خمسين و سبعمائة، و استمرّت بها دعوته إلى ذى قعدة من العام، رحمة اللّه عليه. و كانت وفاته فى الرابع عشر لذى حجة من عام تسعة و خمسين و سبعمائة.

و صار الأمر إلى ولده المسمى بالسّعيد، المكنى بأبى بكر، مختار وزيره ابن عمر الفدودى. و رام ضبط الإيالة المشرقية فأعياه ذلك، و بايع الجيش الموجّه إليها منصور بن سليمان ، و لجأ الوزير و سلطانه إلى البلد الجديد، مثوى الخلافة المرينيّة، فكان أملك بها. و نازله منصور بن سليمان، ثم استفضى إليه أمر البلد لحزم الوزير و قوّة شكيمته. و غادر السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبى الحسن ، أخو الهالك السلطان أبى عنان، الأندلس، و قد كان استقرّ بها بإزعاج أخيه إيّاه عن المغرب، كما تقدم فى اسمه، فطلع على الوطن الغربىّ بإعانة من ملك النصارى، عانى فيها هولا كثيرا، و استقرّ بآخرة بعد إخفاق شيعته المرّاكشية، بساحل طنجة، مستدعى ممن بجبال غمارة، و دخلت سبتة و طنجة فى طاعته. و فرّ الناس عن منصور بن سليمان، ضربة لازب، و تقبّض عليه و على ابنه، فقتلا صبرا، نفعهما اللّه.

و تملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين و سبعمائة، بنزول الوزير و سلطانه عنها إليه. ثم دالت الدولة. و كان من لحاق السلطان برندة، و استعانته على ردّ ملكه ما يأتى فى محلّه، و البقاء للّه سبحانه.

و بتلمسان السلطان أبو حمّو موسى بن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمرس بن زيان، قريب العهد باسترجاعها، لأول أيام السعيد.

و بتونس الأمير إبراهيم ابن الأمير أبى بكر ابن الأمير أبى حفص ابن الأمير أبى بكر بن أبى حفص بن إبراهيم بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد، لنظر الشيخ

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹

رأس الدولة، و بقية الفضلاء، الشهير الذكر، الشائع الفضل، المعروف السياسة، أبى محمد عبد اللّه بن أحمد بن تافراقين، تحت مضايقة من عرب الوطن.

و من ملوك النصارى بقشتالة ، بطره بن ألهنشه بن هراندة بن شانجه بن ألفنش بن هرانده، إلى الأربعين ، و هو كما اجتمع وجهه، تولى الملك على أخريات أيام أبيه فى محرم عام أحد و خمسين و سبعمائة. و عقد معه سلم على بلاد المسلمين. ثم استمرّ ذلك بعد وفاته فى دولة ولده المترجم به، و غمرت الرّوم فتنة و ألقت العصا، و أغضت القضاء، و أجالت على الكثير من الكبار الرّدى، بما كان

من إخافته سائر إخوانه لأبيه، من خاصّيته، العجلة الغالبة على هواه، فنبذوه على سوء بعد قتلهم أمّهم، و انتزوا عليه بأقطار غرسهم فيها أبوهم قبل موته بمرعيّة أمّهم. و سلك لأول أمره سيرة أبيه فى عدوله عن عهوده بمكابيه لمنصبه، إلى اختصاص عجلة، أنف بحراه كبار قومه، من أجل ضياع بذره و انقراض عقبه، فمال الخوارج عليه، و دبّروا القبض عليه، و تحصّل فى أنشوطة، يقضى أمره بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلع، لو لا أنه أفلت و تخلّص من شرارها. فاضطره ذلك إلى صلة السّلم، و هو الآن بالحالة الموصوفة.

الأحداث فى أيامه:

لم يحدث فى أيامه حدث إلّا العافية المسحّة و الهدنة المتّصلة، و الأفراح المتجدّدة، و الأمنة المستحكمة، و السّلم المنعقدة. و فى آخر جمادى عام ستة و خمسين و سبعمائة لحق بجبل الفتح ، فشمّم شعبته، و أبرّ مبتوته ، كان على ثغره العزيز على المسلمين، من لدن افتتاحه، الموسوم الخطة، المخصوص بمزية تشييده، عيسى بن الحسن بن أبى منديل ، بقيّة الشيوخ أولى الأصالة و الدّهاء، و التزيّى بزى الخير، و المثل السائر فى الانسلاخ من آية السعادة، و الإغراق فى سوء العقبى، و اللّه غالب على أمره، فكان أملك بمصامّه، و قرّ عينه بلقاء ولده، و التمتع منه بجواد عتيق. ملّى من خلال السياسة، أرداه سوء الحظ، و شؤم النّصبة، و اظلمّ ما بينه و بين

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰

سلطانه، مسوغه برداء العافية على تفه صغر، و ملبسه رداء العفّة على قدح الأمور، أبدى منها الخوف على ولده، و عرض ديسم عزمه، على ذوبان الجبل، فانحطّوا فى هواه، و غرّوه بكاذب عصبة، فأظهر الامتناع سادس ذى قعدة من العام المذكور، و اتصلت الأخبار، و ساءت الظنون، و ضاقت الصدور، و نكست الرءوس لتوقّع الفاقرة، بانسداد باب الصّريخ، و انبتات سبب النّصرة، و انبعاث طمع العدوّ، و انحطّت الأطماع فى استرجاعه و استقالته، لمكان حصانته، و سموّ الذّروة، و وفور العدّة، و وجود الطّعمة، و أخذه بتلاشى الفرصة. ثم ردفت الأخبار بخروج جيشه صحبة ولده إلى منازلة أشتبونة ، و إخفاق أمله فيها، و امتساك أهلها بالدعوة، و انتصافهم من الطائفة العادية؛ فبودر إليها من مالقة بالعدد. و خوطب السلطان من ملك المغرب، أيّده اللّه، بالجليّة، فتحققت المنابذة؛ و استقرّت الظنون. و فى الخامس و العشرين من شهر ذى قعدة، ثار به أهل الجبل، و تبرّأ منه أشياعه، و خذلوه بالفرار، فأخذت شعابه و نقابه، فكرّ راجعا أدراجه إلى القاعدة الكبيرة، و قد أعجله الأمر، و حملته الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها، و كوثر فألقى به، و قد لحق به بعض الأساطيل بسبتة، لداعى تسوّر توطّى على إمارته، فقيّد هو و ابنه، و خيض بهما البحر للحين، و لم ينتطح فيها عنزان، رحمه اللّه؛ سنام فئة ألقت بركها، و أناخت بكلكلها، و قد قدّر أنها واقعة، ليس لها من دون اللّه كاشفة، فقد كان من بالجبل برموا على إيالة ذينك المرتسمين، و ألقوا أجوارها، و أعطوهما الصفقة، بما أطمعهما فى الثورة، و لكل أجل كتاب. و احتمل إلى الباب السلطانى بمدينة فاس، و برز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوبين فى منصّة الشهرة، مرفوعين فى هضبة المثلة. ثم أمضى السلطان فيهما حكم الفساد، بعد أيام الحرابة، فقتل الشيخ بخارج باب السمّارين من البلد الجديد، بأيدى قرابته، فكان كما قال الأول: [الكامل]

أضحت رماح بنى أبيه تنوشهللّه أرحام هناك تشقّق

و قطعت رجل الولد و يده، بعد طول عمل و سوء تناول، و لم ينشب أن استنقذه حمامه فأضحى عبرة فى سرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة، حسن طلعة، و ذياع حمد، و فضل شهرة، و استفاضة خيريّة، و نباهة بيت، و أصالة عزّ، إلى ضدّ هذه الخلال، و قانا اللّه مصارع السوء، و لا سلب عنا جلباب السّتر و العافية.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱

و سدّ السلطان ثغر الجبل بآخر من ولده اسمه السعيد، و كنيته أبو بكر، فلحق به فى العشر الأول من المحرم من عام سبعة و خمسين و سبعمائة، و رتّب له بطانته، و قدّر له أمره، و سوّغه رزقا رغدا، و عيشا خفضا. و بادر السلطان المترجم له، إلى توجيه رسوله؛ قاضيا حقّه، مقرّر السّرور بجواره، و أتبع ذلك ما يليق من الحال من برّ و مهاداة و نزل، و تعقبت بعد أيام المكافات، فاستحكم الودّ، و

تحسنت الألفة إلى هذا العهد، و اللّه وليّ توفيقهم و مسنى الخير و الخيرة على أيديهم.

الحادثة التى جرت عليه:

و استمرت أيامه كأحسن أيام الدول، خفض عيش، و توالى خصب، و شياع أمن، إلّا أنّ شيخ الدولة القائد أبا النعيم، رحمه اللّه، أضاع الحزم. و إذا أراد اللّه إنفاذ قضائه و قدره، سلب ذوى العقول عقولهم، بما كان من أمنه جانب القصر الملزم دار سكناه، من علية فيها أخو السلطان، بتهاونه، يحيل أمّه المداخلة فى تحويل الأمر إليه، جملة من الأشرار، دار أمرهم على زوج ابنتها الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف، و إبراهيم بن أبى الفتح، و الدليل المورورى، و أمدّته بالمال، فداخل القوم جملة من فرسان القيود، و عمرة السّجون، و قلاميد الأسوار.

و كانت تتردّد إليه فى سبيل زيارة بنتها الساكنة فى عصمة هذا الخبيث، المنزوع العصمة، خارج القلعة حتى تمّ يوم الأربعاء الثامن و العشرين لرمضان من العام، اجتمعوا و قد خفى أمرهم، و قد تألّفوا عددا يناهز المائة بالقوس الداخل من وادى هدارّه إلى البلد، لصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء، و كان بسورها ثلم، لم يتمّ ما شرعوا فيه من إصلاحه؛ فنصبوا سلما أعدّ لذلك، و صعدوا منه. و لمّا استوفوا، قصدوا الباب المضاع المسلحة، للثقة بما قبله؛ فلمّا تجاوزوه أعلنوا بالصياح، و استغلظوا بالتهويل، و راعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء، فقصدت طائفة منهم دار الشيخ القائد أبى النّعيم؛ فاقتحمته غلابا و كسرت أبوابه؛ و قتلته فى مضجعه؛ و بين أهله و ولده، و انتهبت ما وجدت به. و قصدت الأخرى دار الأمير، الذى قامت بدعوته، فاستنجزته و استولت على الأمر. و كان السلطان متحوّلا بأهله إلى سكنى «جنّة العريف» خارج القلعة، فلمّا طرقه النبأ؛ و قرعت سمعه الطبول سدّده اللّه؛ و ساند أمره فى حال الحيرة، إلى امتطاء جواد كان مرتبطا عنده فى ثياب تبذّله و مصاحبا لأفراد من ناسه؛ و طار على وجهه، فلحق بوادى آش قبل سبوق نكبته، و طرق مكانه بأثر ذلك، فلم يلف فيه، و اتّبع فأعيا المتبع. و من الغد، استقام الأمر لأولى الثورة، و استكملوا لصاحبهم أمر البيعة، و خاطبوا البلاد فألقت إلى صاحبهم بالأزمّة، و أرسلوا إلى ملك النصارى فى عقد الصلح. و شرعوا فى منازلة وادى آش، بعد أن ثبت أهلها مع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲

المعتصم بها، فلازمته المحلات و ولى عليه التضييق، و خيف فوات البدر و نفاد القوة، فشرع السلطان فى النظر لنفسه، و خاطب السلطان أبا سالم ملك المغرب فى شأن القدوم عليه، فتلقاه بالقبول و بعث من يمهد الحديث فى شأنه، فتمّ ذلك ثانى يوم عيد النّحر من العام. و كنت عند الحادثة على السلطان، ساكنّا بجنتى المنسوبة إلىّ من الحضرة، منتقلا إليها بجملتى، عادة المترفين، إذ ذاك من مثلى، فتخطانى الحتف، و نالتنى النكبة، فاستأصلت النعمة العريضة، و الجدة الشهيرة، فما ابتقت طارفا و لا تليدا، و لا ذرت قديما و لا حديثا، و الحمد للّه مخفّف الحساب، و موقظ أولى الألباب، و لطف اللّه بأن تعطّف السلطان بالمغرب إلى شفاعة بى بخطّه، و جعل أمرى من فصول قصده. ففكّت عنى أصابع الأعداء، و استخلصت من أنيابهم، و لحقت بالسلطان بوادى آش، فذهب البأس، و اجتمع الشّمل. و كان رحيل الجميع ثانى عيد النحر المذكور، فكان النزول بفحص ألفنت، ثم الانتقال إلى لوشة، ثم إلى أنتقيره، ثم إلى ذكوان، ثم إلى مربلّة، يضم أهل كلّ محل من هذه مأتما للحسرة، و مناحة للفرقة. و كان ركوب البحر صحوة الرابع و العشرين من الشهر، و الاستقرار بمدينة سبتة، و كفى بالسلامة غنما، و الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده، و العاقبة للمتقين.

و كان الرحيل إلى باب السلطان، تحت برّ لا تسعه العبارة، و لقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد لإلمام ألمّ عاقه عن الإصحار و التغنّى على البعد، يوم الخميس السادس لمحرم من عام أحد و ستين بعده، فى مركب هائل، و احتفال رائع رائق، فعورض فيه النزول عن الصّهوات، و البرّ اللائق بمناصب الملوك، و الوصول إلى الدار السلطانية، و الطعام الجامع للطبقات و شيوخ القبيل. و قمت يومئذ فوق رأس السلطان و بين يدى مؤمّله، فأنشدته مغريا بنصره، كالوسيلة بقولى : [الطويل]

سلا هل لديها من مخبّرة ذكر؟و هل أعشب الوادى و نمّ به الزّهر؟

فهاج الامتعاض، و سالت العبرات، و كان يوما مشهودا، و موقفا مشهورا، طال به الحديث، و عمرت به النوادى، و توزّعتنا النزائل على الأمل، شكر اللّه ذلك و كتبه لأهله، يوم الافتقار إلى رحمته. و استمرّت الأيام، و دالت الدولة للرئيس بالأندلس، و السلطان تغلبه المواعيد، و تونسه الآمال، و الأسباب تتوفّر، و البواعث تتأكّد. و إذا أراد اللّه أمرا هيّأ أسبابه، و استقرّت بى الدار بمدينة سلا، مرابطا، مستمتعا بالغيبة، تحت نعمة كبيرة، و إعفاء من التكليف.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳

و فى اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، قعد السلطان بقبّة العرض بظاهر جنّة المصارة لتشييعه ، بعد اتخاذ ما يصلح لذلك؛ من آلة و حلية، و قد برز الخلق، لمشاهدة ذلك الموقف المسيل للدموع، الباعث للرّقّة، المتبع بالدّعوات، لما قذف اللّه فى القلوب من الرحمة، و صحبه به فى التغرّب من العناية، فلم تنب عنه عين، و لا خمل له موكب، و لا تقلّصت عنه هيبة، و لا فارقته حشمة، كان اللّه له فى الدنيا و الآخرة. و أجاز، و اضطربت الأحوال، بما كان من هلاك معينه السلطان أبى سالم، و غدر الخبيث المؤتمن على قلعته به، عمر بن عبد اللّه بن على، صعّر اللّه حزبه، و خلّد خزيه، و سقط فى يده، إلّا أنّه ثبتت فى رندة من إيالة الأندلس، الراجعة إلى إيالة المغرب، قدمه، فتعلّل بها، و ارتاش بسببها، إلى أن فتح اللّه عليه، و سدّد عزمه، و أراه لمّا ضعفت الحيل صنعه، فتحرّك إلى برّ مالقة، و قد فغر عليها العدوّ فمه، ثم أقبل على مالقة، مستميتا دونها، فسهّل اللّه الصّعب، و أنجح القصد، و استولى عليها، و انثالت عليه لحينها البلاد، و بدا الريّس المتوثّب على الحضرة، بعد أن استوعب الذّخيرة و العدّة، فى جملة ضخمة ممن خاف على نفسه، لو وفّى بذمّة الغادر و عهده، و استقرّ بنادى صاحب قشتالة، فأخذه بجريرته ، و حكّم الحيلة فى جنايته و غدره، و ألحق به من شاركه فى التّسوّر من شيعته، و وجّه إلى السلطان برءوسهم تبع رأسه. و حثّ السلطان أسعده اللّه خطاه إلى الحضرة، يتلقّاه الناس، مستبشرين، و تتزاحم عليه أفواجهم مستقبلين مستغفرين، و أحقّ اللّه الحقّ بكلماته، و قطع دابر الكافرين.

و كان دخول السلطان دار ملكه، و عوده إلى أريكة سلطانه، و حلوله بمجلس أبيه و جدّه، زوال يوم السبت الموفى عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة و ستين و سبعمائة، جعلنا اللّه من همّ الدنيا على حذر، و ألهمنا لما يخلص عنده من قول و عمل. و تخلّف الأمير و ولده بكره، أسعده اللّه، بمدينة فاس فيمن معه من جملة، و خلّفه من حاشية ولد المستولى على ملك المغرب فى إمساكه إلى أن يسترجع رندة فى معارضة هدفه. ثم إن اللّه جمع لأبيه بجمع شمله، و تمّم المقاصد بما عمّه من سعده. و كان وصولى إليه معه، فى محمل اليمن و العافية، و على كسر التّيسير من اللّه و العناية يوم السبت الموفى عشرين شعبان عام ثلاثة و ستين و سبعمائة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور:

هنّأ المسلمين ببركتها الوافرة، و مزاياها المتكاثرة، السلطان، أيّده اللّه، قد مرّ ذكره، و يسّر اللّه من ذلك ما تيسّر.

وزراؤه: اقتضى حزمه إغفال هذا الرّسم جملة، مع ضرورته فى السياسة، و عظم الدخول، حذرا من انبعاث المكروه له من قبله، و إن كان قدّم بهذا اللقب فى طريق منصرفه إلى الأندلس، و أيّاما من مقامه برندة، فنحله عن كره، على بن يوسف بن كماشة، من عتاق خدّامه و خدّام أبيه، مستصحبا إيّاه، مسدول التّجمّل على باطن نفرة، مختوم الجرم، على شوكه، فى حطبه فى حبل المتغلب، و إقراضه السيئة من الحسنة، و المنزل الخشن، إلى الإنفاق منه على الخلال الذّميمة، ترأسها خاصّة الشّوم، علاوة على حمل الشيخ الغريب الأخبار، و الطّمع فى أرزاق الدور، و الاسترابة بمودّة الأب، و ضيق العطن، و قصر الباب، و عىّ اللّسان، و مشهور الجبن. و لمّا وقع القبض، و ساء الظنّ، بعثه من رندة إلى الباب المرينى ليخلى منه جنده، و يجسّ مرض الأيام، بعد أن نقل من الخطة كعبه، فتيسّر بعد منصرفه الأمر، و تسنّى الفتح.

و حمله الجشع الفاضح، و الهوى المتّبع، على التشطّط لنفسه، و الكدح لخويصته بما أقطعه الجفوة، و عسر عليه العودة على السلطان بولده، إلى أن بلغ الخبر برجوع أمره، و دخول البلاد فى طاعته، فألقى ما تعيّن إليه، و أهوى به الطمع البالغ فى عرش الدولة، و يرتاش فى ريق انتقامها. و تحرّك و راية الإخفاق خافقة على رأسه، قطب مخلصه، و جؤجوة عوده، من شيخ تدور بين فتكه رحى جعجعة، و تثور بين أضلاعه حيّة مكيدة، و ينعق فوق مساعيه غراب شوم و طيرة. و حدّث حرفاؤه صرفا من مداخلة سلطان قشتالة، أيام هذه المجاورة، فبلغ أمنيته من ضرب وعد؛ و اقتناء عهد، و اتخاذ مدد، و ترصيد دار قرار، موهما نفسه البقاء و التعمير و التملّى، و انفساح المدة و الأمر، و قيادة الدّجن عند تحوّل الموطن لملّة الكفر، يسمح لذلك، لنقصان عقله، و قلّة حيائه و ضعف غيرته. و طوى المراحل، و قيّض حمّى تزلزل لها فكّاه، أضلّها الحسرة، و انتزاء الخبائث. و تلقّاه بمالقة، إيعاز السلطان بالإقامة بها، لما يتّصل به من سوء تصريفه، ثم أطلع شافع الحياء فى استقامة وطنه طوق عتبه، و صرفه إلى منزله، ناظرا فى علاج مرضه. ثم لمّا أفاق وقفه دون حدّه، و لم يسند إليه شيئا من أموره، فشرع فى ديدنه من الفساد عليه، و تمرّس سلطان قشتالة، شاكيا إليه بثّه، و أضجر لسكنى باديته بالثّغر، فراب السلطان أمره، و أهمّه شأنه، فتقبّض عليه و على ولده، و صرفا فى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵

جملة من دائرة السّوء ممن ثقلت وطأته، فغرّبوا إلى تونس، أوائل شهر رمضان من عام ثلاثة و ستين. ثم لما قفل من الحجّ، و استقرّ ببجاية يريد المغرب، حنّ إلى جوار النّصرانية، التى ريم سلفه العبوديّة إليها، فعبر البحر إلى برجلونة ، ينفض عناء طريق الحجّ على الصّلبان، و يقفو على آثار تقبيل الحجر الأسود، تقبيل أيدى الكفّار.

ثم قصد باب المغرب رسولا عن طاغية برجلونه فى سبيل فساد على المسلمين، فلم ينجح فيه قصده، فتقاعد لمّا خسر فيه ضمانه، و صرف و كره إلى الاتصال بصاحب قشتالة، و عنّ على كتب إليه بخطّه، يتنفّق عنده و يغريه بالمسلمين، فتقبّض عليه، و سجن بفاس مع أرباب الجرائم. و على ذلك استقرّ حاله إلى اليوم، و أبرأ إلى اللّه من التّجاوز فى أمره. و من يضلل اللّه فما له من هاد.

و لمّا وفدت على السلطان بولده، و قرّت عينى بلقائه، تحت سداده و عزّه، و فوق أريكة ملكه، و أدّيت ما يجب من حقّه؛ عرضت عليه غرضى، و نفضت له خزانة سرّى، و كاشفته ضميرى بما عقدت مع اللّه عهدى، و صرفت إلى التّشريق وجهى، فعلقت بى لركومه علوق الكرامة، و لاطفنى بما عاملت البرّ بين الدّعر و الضّنانة، و يضرب الآماد، و خرج لى عن الضرورة، و أرانى أن مؤازرته أبرّ القرب، و راكننى إلى عهد بخطّه، فسح فيه لعامين أمد الثواء، و اقتدى بشعيب، صلوات اللّه عليه، فى طلب الزّيادة على تلك النّسبة، و أشهد من حضر من العلية، ثم رمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه، و حكّم عقلى فى اختيار عقله، و غطّى من جفائى بحلمه، و حثا فى وجوه شهواته تراب زجرى، و وقف القبول على وعظى، و صرف هواه فى التحول ثانيا و قصدى، و اعترف بقبول نصحى، فاستعنت باللّه، و عاملت وجهه فيه. و صادقنى مقارضة الحقّ بالجهاد، و رمى إلىّ بدنياه، و حكّمنى فيما ملكته يداه، و غلّبنى على أمره لهذا العهد، و اللّه غالب على أمره. فأكمل المقام ببابه إلى هذا التاريخ مدّة أجرى اللّه فيها، من يمن النّقيبة، و اطّراد السّداد، و طرد الهوى، و رفض الزّور، و استشعار الجدّ، و نصح الدّين، و سدّ الثغور، و صون الجباية، و إنصاف المرتزقة، و محاولة العدوّ، و قرع الأسماع بلسان الصّدق، و إيقاظ العيون من نوم الغفلة، و قدح زناد الرّجولة، ما هو معلوم، يعضّد دعواه، و للّه المنّة، سجية السّذاجة، و رفع التّسمّت، و تكوّر المنسأة، و تفويت العقار فى سبيل القربة، و الزّهد فى الزّبرج ، و بثّ حبال الآمال، و التّعزيز بالله عن الغنيمة، و جعل الثوب غطاء الليل، و مقعد المطالعة فراش

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶

النّوم، و الشغل لمصلحة الإسلام، لريم الأنفاس، فأثمر هذا الكرخ، و أثبج هذا المسعى مناقب الدولة، بلغت أعنان السماء ، و آثارا خالدة ما بقيت الخضراء على الغبراء، و أخبارا تنقل و تروى، إن عاندها الحاسد، فضحه الصّباح المنير، و كاثره القطر المنثال، و أعياه السّيل المتدافع.

فما يختص من ذلك بالسلطان، فخامة الرتبة، و نباهة الألقاب، و تجمّل الرياش، و تربع الشريعة، و ارتفاع التّشاجر ببابه، و المنافسة و الاغتباط منه، بمجالس التنبيه و المذاكرة، و بدار الدموع فى حال الرّقة، و الإشادة باحتقار الدنيا بين الخاصة، و تعيين الصدقات فى الأوقات العديدة، و القعود لمباشرة المظالم ستة عشر يوما فى كل شهر من شهور الأهلّة، يصل إليه فيها اليتيم و الأرملة، فيفرح الضعيف، و ينتظر حضور الزمن، و يتغمّد هفوة الجاهل، و يتأثر لشكوى المصاب، و يعاقب الوزعة على الأغلاط، إلى إحسان الملكة فى الأسرى، و الإغراب فى باب الحلم، و الإعياء فى ترك الحظ، و التبرّى من سجيّة الانتقام، و الكلف بارتباط الخيل، و اقتناء أنواع السلاح، و مباشرة الجهاد، و الوقار فى الهيعات ، و إرسال سجيّة الإيمان، و كساد سوق المكيدة، و التصامم عن السعاية؛ هذا مع الشباب الغضّ، و الفاحم الجعد، و تعدّد حبائل الشيطان فى مسالك العمر، و مطاردة قانص اللّذات فى ظلّ السّلم، و مغازلة عيون الشهوات من ثنايا الملوك. و أيم اللّه الذى به تستخلص الحقوق، و تيسّر السّتور، و تستوثق العهود، و لا تطمئن القلوب إلّا به؛ ما كاذبته، و لا راضيت فى الهوادة طوله، و لا سامحته فى نقيض هذه الخلال. و لقد كنت أعجب من نفاق أسواق الذّكرى لديه، و انتظام أقيسة النصح عنده، و إيقاع نبات الرّشد فيه نصيحة، و أقول: بارك اللّه فيها من سجيّة، و هنّأ المسلمين بها من نفس زكيّة. و سيأتى بيان هذه النتائج، و تفسير مجمل هذه الفضائل بحول من لا حول إلّا به سبحانه.

و الحال متصلة على عهده الوثير من إعانته بالوسوع و الخروج له عن هذه العهدة، و التسليم له فى البقيّة، إرهافا لسيف جهاده، و جلاء لمرآة نصحه، و تسوية لميزان عدله، و إهابة لمحمد رشده، شدّ العقدة، عقدة و غيرة على حرمة ماله و عرضه، و رعاية للسان العلم المنبئ عن شأنه، و نيابة عنه فى معقل ملكه، و مستودع ماله و ذخيرته، و محافظة على سرّه و علانيته لحرمه و ولده، و عمرانا للجوانح بتفضيله و حبّه، معاملة أخلص اللّه قصدها لوجهه، و أمحضها من أجله، ترفعه عن جراية

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷

رحل هلالها، و إقطاع تنجع قدرته، أو فصلة تعبث البنان بنشيرها، و خطّة تشدّ إليه على منشورها. و اللّه يرجح ميزانى عنده، و يحظى وسيلتى لديه، و يحرّك مكافأة سعيى فى خواطر حجّه، و يبّه لتبليغ أملى من حجّ بيت اللّه، و زيارة رسول اللّه، بمنّه و كرمه، فما على استحثاث الأجل من قرار، و لا بعد الشّيب من إعذار، و حسبنا اللّه و نعم الوكيل.

أولاده : كمل له فى هذا الوقت من الولد أربعة؛ ثلاثتهم ذكور، يوسف بكره، و أراه يتلوه سعد، ثم نصر، غلمة روقة، قد أفرغهم اللّه فى قالب الكمال، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا، فسح اللّه لهم أمد السعادة، و جعل مساعيهم جانحة إلى حسنى العقبى، سالكا بهم سبيل الاهتداء بفضل اللّه و رحمته.

قضاته : قدّم لأول قدومه، الفقيه القاضى، الحسيب، الخيّر، أبا جعفر بن أحمد بن جزى، شاكرا بلاءه بمالقة، إذ كان قد ألقاه قاضيا بها للمتغلّب، فلم يأل جهدا فى الإجلاب على من اعتصم بقصبتها، و التحريض على استنزالهم، فاتّخذ زلفة لديه، فأجرى الأحكام، و توخّى السّداد. ثم قدّم إليها الفقيه القاضى الحسيب، أبا الحسن على بن عبد اللّه بن الحسن، عين الأعيان ببلده مالقة، و المخصوص برسم التّجلّة، و القيام بوظيفة العقد و الحلّ بها فى الدولة الأولى، و أصالة البيت، و الانقطاع إليه، و مصاحبة ركابه فى طلب الملك، و متسوّر المشاق من أجله، و أولى الناس باستدرار خلف دولته، فسدّد و قارب، و حمل الكلّ ، و أحسن فصاحة الخطبة و الخطّة، و أكرم المشيخة و أرضى، و استشعر النّزاهة، و لم يقف فى حسن التأنّى عند غاية، و اشتمل معها لفق الخطابة، فأبرز و أعلم، تسمّيا و حفظا و جهوريّة، فاتّفق فى ذلك على رجاحته، و استصحب نظره على الأحباس، فلم يقف فى النصح عند غاية، أعانه اللّه.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸

كتّابه : أسند الكتابة إلى الفقيه المدرك، المبرّز فى كثير من الخلال، ملازمه أيضا فى طلب الملك، و مطاردة قنص الحظّ، أبى عبد اللّه بن زمرك، و يأتى التعريف بجميعهم.

شيخ غزاته: متولى ذلك فى الدولة الأولى، الشيخ أبو زكريا يحيى بن عمر بن رحّو بن عبد اللّه بن عبد الحق ، قدّمه إليها معتبا إياه،

طاويا بساط العدوّ بالجملة، قدّموها بابنه عثمان على الخاصّة يومئذ، لمظاهرته فى الوجهة، و سعيه فى عودة الدّولة، و استمرّت الحال إلى اليوم الثالث عشر لشهر رمضان من عام أربعة و ستين و سبعمائة، و كان القبض على جملتهم، و أجلى هذا البيت من سفرة السياسة مدّة، مجتزيا فيه بنظره على رسمه فى الوزارة من قبيله. ثم قدّم إليها موعوده بها القديم الخدمة، و سالف الأدمة، لمّا لجأ إلى وادى آش مفلتا من وبقة الحادثة، الشيخ أبا الحسن على بن بدر الدين بن موسى بن رحّو بن عبد اللّه بن عبد الحق، حلف السّداد أيامه، و المقاربة و الفضل و الدّماثة، المخصوص على اختصار بيمن النّقيبة، و استمرّت أيامه إلى نقبة القفول عن غزوة جيّان أخريات محرم من عام تسعة و ستين، و توفى، رحمه اللّه، حتف أنفه، فاحتفل لمواراته، و إقرابه من تأبّيه، و استغفاره، و الاعتراف بصدق موالاته، و تفجيعه لفقده، و ما أعرب به من وفاء نجده، و قدّم لها عهدا طرف اختياره، الأمين، الشّهم، البهمة، خدن الشّهرة، و المشار إليه بالبسالة، و فرع الملك و الأصالة، عبد الرحمن ابن الأمير أبى الحسن على بن السلطان أبى على عمر ابن أمير المسلمين أبى سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق، إذ كان قد لحق به، بعد ظهور أتيح له بوطنه من المغرب، استقرّ مبايعا بعمالة سجلماسة و ما إليها، وطن جدّه، و ميراث سلفه، ففسح له جانب قبوله، و أحلّه من قربه محلّ مثله، و أنزله بين ثغر الاغتباط و نحره، ثم استظهر به على هذا الأمر، فأحسن الاختيار، و أعزّ الخطة، و هو القائم عليها لهذا العهد، و إلى اللّه أسباب توفيقه.

ظرف السلطان و حسن توقيعه:

بدّ فى هذا الباب من تقدّمه، و كثرة وقوعه، بحيث لا يعدّ نادره، و قليل الشىء يدلّ على كثيره. مرّ بى يوما و معى ولده، يروم اتخاذ حذق القرآن، فقلت له: أيّدك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹

اللّه، الأمير يريد كذا، و لا بدّ له من ذلك، و أنا وكيله عليك فى هذا، فقال: حسبنا اللّه و نعم الوكيل. و لا خفاء ببراعة هذا التوقيع، و غرابة مقاصده، و مجالسه على الأيام معمورة بهذا و مثله.

الملوك على عهده: بالمغرب السلطان الجليل إبراهيم ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان أبى سعيد ابن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق. تولّى ملك المغرب حسبما تقدم فى اسمه ، و ألقى إليه بالمقاليد، و استوسقت له الطاعة، و بحسب ما بثّ اللّه من اشرباب الخلق إليه، و تعطّشهم إلى لقائه، و رغبتهم فى إنهاضه إلى ملك أبيه، كان انقلابهم إلى ضد هذه الخلال، شرقا بأيامه و إحصاء لسقطاته، و ولعا باغتيابه و تربصا لمكروه به، إذ أخفقت فيه الآمال، و استولت الأيدى من خدّامه على ملكه. و قيّض اللّه لإبادة أمره، و تغيّر حاله و هدّ ركنه، الخائن الغادر نسمة السوء و قذار ناقة الملك، و صاعقة الوطن و حرد السّيد عمر بن عبد اللّه بن على مؤتمنة على البلد الجديد، دار ملكه و مستودع ماله و ذخيرته، فسدّ الباب دونه، و جهر بخلعانه. و فض فى اتّباع الناعق المشؤوم سور ماله، و أقام الدّعوة باسم أخيه أبى عمر، ذى اللّوثة، الميؤوس من إفاقته، و ذلك ضحوة اليوم الثامن عشر لشوال من عام اثنين و ستين و سبعمائة. و بادر السلطان أبو سالم البيعة من متحول سكناه بقصر البلد القديم ، و صابر الأمر عامة اليوم. و لمّا جنّ الليل، فرّ لوجهة، و أسلم وزراءه و خاصّته، و قيّدت خطاه الخيريّة، فأوى إلى بعض البيوت، و به تلاحق متبوعه، فقيد إلى مصرعه السّوء بظاهر بلده، و حز رأسه، و أوتى به إلى الغادر. و كان ما بين انفصال السلطان عنه مودّعا إلى الأندلس بإعانته، و مطوّق فضل تلقيه و قفوله و حسن كفالته، ثمانية أشهر و يوم واحد. و استمرّت دعوة أخيه المموّه به إلى الرابع و العشرين من صفر من عام ثلاثة و ستين و سبعمائة،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰

و استدعى من باب قشتالة الأمير محمد أبو زيّان ابن الأمير أبى زيد بن عبد الرحمن ابن السلطان المعظّم أبى الحسن. و قد استقرّ نازعا إليه أيام عمّه السلطان أبى سالم، وقع عليه اختيار هذا الوزير الغادر، إذ وافق شنّ تغلّبه طبق ضعفه ، و أعمل الحيلة فى استجلابه، فوصل حسب غرضه، و أجريت الأمور باسمه، و أعيد أخوه المعتوه إلى مكانه، و استمرّت أيام هذا الأمير مغلوبا عليه، مغرى بالشراب على فيه

و بين الصّيحب إلى أن ساءت حاله، و امتلأت بالموجدة على الوزير نفسه، فعاجله بحتفه، و باشر اغتياله، و أوعز إلى خدامه بخنقه، و طرحه بحاله فى بعض سواقى قصره، متبعا ببعض أوانى خمره، يوهم بذلك قاتله، تردّيه سكرا، و هويه طفوحا.

و وقف عليه بالعدول عند استخراجه، و ندب النّاس إلى مواراته، و بايع يومه ذلك أبا فارس عبد العزيز وارث ملك أبيه السلطان أبى الحسن، المنفرد به، و خاطب الجهات بدعوته، و هو صبىّ ظاهر النبل و الإدراك، مشهور الصّون، و أعمل الحيلة لأول أمره، على هذا الوزير مخيف أريكة ملكه، و مظنّة البدا فى أمره، فطوّقه الحمام و استأصل ما زراه من مال و ذخيرة، شكر اللّه على الدولة صنيعة، و فى ذلك يقول: [الطويل]

لقد كان كالحجاج فى فتكاتهتحاذره البرّاء دوما و تخشاه

تغدّى به عبد العزيز مبادراو عاجله من قبل أن يتعشّاه

و كان بعده وليّه الحق و نصيره لا إله إلّا هو. و هو اليوم ملك المغرب، مزاحما بابن أخيه، السلطان أبى سالم، المعقود البيعة بمرّاكش و ما إليها، جمع اللّه شتات الإسلام، و رفع عن البلاد و العباد مضرّة الفتنة.

و بتلمسان السلطان أبو حمو موسى ابن الأمير أبى يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيّان. حسبما كان فى الدولة الأولى، متفقها منه على خلال الكرم و الحزم، مضطلعا بأمره و القيام على ما بيده.

و بتونس ، الأمير أبو سالم إبراهيم ابن الأمير أبى يحيى بن أبى حفص، حسبما تقدم ذكره.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱

و من ملوك النصارى:

فبقشتالة سلطانها المتقدم الذكر فى الدولة الأولى، بطره ابن السلطان ألهنشة بن هراندة بن شانجه بن ألهنشة بن هراندة، متأكّدة بينهما السلم الجمّة، و الهدنة المبرمة، بما سلف من مظاهرته إيّاه، و الحرص على ما استحانه من المغرب فى أسطوله، و بعثه إليه برأس عدوّه المتوثّب على ملكه، و رؤوس أشياعه، الظالمين الغدرة، و أتباعه الفجرة، مستمرّة أيامه إلى وسط شعبان عام سبعة و ستين، صارفا وجهه إلى محاربة صاحب برجلونة ، مستوليا على كثير من قواعده الشهيرة، و قلاعه المنيعة، لما أسلفه به من إجازته، أخيه أندريق المدعوّ بالقند، و مظاهرته حتى ساءت أحواله و أحوال عدوّه، و أوهنت الحركات قوى جيشه، و أضعف الاحتشاد عمرة أرضه، و اشرأبّت القلوب إلى الانحراف عن دعوته، و مالت النفوس إلى أخيه، و قامت البلاد بدعوته، و تلاحقت الوجوه بجهته، و رام التمسّك بإشبيلية دار ملكه، فثار أهلها به فى عام سبعة و ستين. فخرج فارّا عنها ... به و السلاح يهشّ إليه، و بعد أن استظهر بخويصته، و أحمل ما قدر عليه من ذخيرة، و رفع من له من ولد و حرمة، رأى سخنة العين من انتهاب قصوره، و تشعيث منازله، و عياث الأيدى فى خزائنه، و أسمعه الناس من محض التأنيب و أعراض الشمّات، ما لا مزيد عليه، و لاذ بصاحب برتغال، فنأى عنه جانبه لما يجنيه أبواه من مخالفة رأى الأمّة فيه، فقصد بلاد غليسية، و تلاحق أخوه أندريق بحضرة إشبيلية، فاستوى على الملك و طاعت لأمره البلاد، و عاجله المسلمون لأول أمره، فاستولوا على كثير من الثغور، و الحمد للّه.

و لمّا توسّد له الأمر تحوّل لاستئصال شأفة المخلوع، فأجلى عن غليسية فى البحر، و استقرّ ببلد بيونة، ممّا وراء دروب قشتالة، و انتبذ عن الخطّة القشتالية و أمر نفسه، و لجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة ، و هو المعروف ببرقسين أبى الأمير، و بين أول أرضه و بين قشتالة؛ ثمانية أيام، فقبله ولد السلطان المذكور، الساكن بأول ما تلقّاه من تلك الأرض، و سفر بينه و بين أبيه فأنكر الأب استئذانه إياه، و المراجعة فى نصره، حميّة له، و امتعاضا للواقع. و حال هذه الأمة غريبة فى الحماية الممزوجة بالوفاء و الرقّة، و الاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمد، و بين يدى العشائق، عادة العرب الأول. و أخبارهم فى القتال غريبة، من الاسترجال و الزحف على الأقدام، أميرهم و مأمورهم، و الجثوّ فى الأرض، أو دفن ببعض الأرض فى التّراب، و الاستظهار فى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲

حال المحاربة ببعض الألحان المهيّجة، و رماتهم قسيّهم غريبة جافية، و كلّهم فى دروع، و الإحجام عندهم، و التقهقر مقدار الشّبر ذنب عظيم، و عار شنيع، و رماتهم يثبتون للخيل فى الطّراد، و حالهم فى باب التّحلىّ بالجواهر، و كثرة آلات الفضة، غريب. و بعد انقضاء سبعة عشر يوما كان رجوعه و رجوع البرنس المذكور معه مصاحبا بأمراء كثيرين من خترانه و قرابته، و بعد أن أسلفوه مالا كثيرا، و اختصّ منه صاحب الأنتكيرة، بمائتى ألف دينار من الذهب إلى ما اختصّ به غيره، و ارتهنوا فيه ولده و ذخيرته. و كان ينفق على نفسه و جيشه بحسب دينار واحد من الذهب للفارس فى ثلاثة أيام. و كان تأليف الجيوش فى بنبلونة فى أزيد من ثلاثين ألفا، و عسر عليهم المجاز على فحص أحدونيه، لبلاد تمسك لطاعة القند أخيه؛ فصالح القوم صاحب نبارّه على الإفراج لهم، و نزلت المحلّات فى فحص نبارّة، ما بين حدود أرض نبارّة و قشتالة، و نزل المتصيّر إليه أمر قشتاله، القند بإزائها فى جموع لم تنتظم لمثله، إلّا أنه لشهامته و اغتراره، أجاز خندقا كان بين يديه، و عبر جسرا نشب فيه عند الجولة. و كان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس إبريل العجمى، و بموافقة شعبان من عام ثمانية و ستين. و كان هذا الجمع الإفرنجى الآتى من الأرض الكبيرة فى صفوف ثلاثة، مرتبة بعضها خلف بعض، ليس فيهم فارس واحد، إنما هم رجّالة، سواء أميرهم و مأمورهم، فى أيديهم عصى جافية فى غلظ المعاصم؛ يشرعونها أمامهم، بعد إثبات زجاجها فيما خلفهم من الأرض، يستقبلون منها وجوه عدوّهم، و نحور خيله، و يجعلونها دعائم و تكآت لبناء مصافّهم، فلم تقلقهم المحلات، و بين أيديهم من الرّماه النّاشبة الدّارعة، ما لا يحصيهم إلّا اللّه عزّ و جلّ. و سايرهم السلطان، مستدعى نصرهم راجلا- أميالا برأيهم؛ إلى أن أعيا بعد ميلين منها فأركبوه بغلة حملوه بينهم عليها، إلى موقف اللقاء و القند، و كان على مقدمة القوم الدك أخو البرنس، و البرنس مع السلطان مستجيره فى القلب، و القند المعروف بقند أرمانيان، و كثير من الأمراء؛ ردى و سيفه دونهم، و من خلف الجميع الخيل بجنبها ساستهم و غلمانهم و خدّامهم، و وراءها دوابّ الظّهر و أبغالهم، و فى أثناء هذه العبيّة من البنود و آلات الحرب و الطرب و الأبواق ما يطول ذكره. و كان فى مقدمة القند المستأثر بملك قشتالة؛ أخوه شانجه فى رجل قشتالة، قد ملأ السّهل و الجبل، و من خلفهم أولو

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳

الخيل الجافية القبيلية، المسبغة الدّروع، من رأس إلى حافر، فى نحو ألف و خمسمائة، و فى القلب أخوه الآخر دنطية فى جمهور الزّعماء و الفرسان و الدّرق، و هو الأكثر من رجال الجيش اليوم، و من ورائهم السلطان أندريق فى لفيف من الناس. و لما حمل بعضهم على بعض أقدم رماة الفرنج، ثقة بدروعهم، فعظم أثرهم فيمن بإزائهم من رماة عدوهم و رجالهم، لكونهم كشفاء، فكشفوا إياهم.

و حملت خيل قشتالة الدّارعة، فزحزحت كرّ المصافّ الإفرنجى، و اتصل الحرب بالبرنس، و هو مطلّ عليهم فى ربوة، فصاح بهم بحيث أسمع، و تناول شيئا من التراب فاستفه، و كسر ثلاث عصيى، و فعل من معه مثل فعله، و هى عادتهم عند الغضب، و علامة الإقدام الذى لا نكوص بعده. و وجّه إلى أخيه فى المقدمة، يقول له: إن وجدت فى نفسك ضعفا، فاذكر أنك ولد صاحب الأنتكيرة. و حمل الكلّ حملة رجل واحد، فلم تجد الخيل الدّارعة سبيلا، و قامت فى نحورها تلك الأسنّة، فولّوا منهزمين.

و لمّا رأى القند هزيمة أخيه، تقدّم بنفسه بمن معه من مدد الأمة الرّغونية ، و هو ينادى: يا أهل قشتالة، يا موالى، إياكم و العار، ها أنذا، فلم يثبت أمره، و تراجع فلّه. فعند ذلك فرّ فى أربعة من أولى ثقته، و استولى القتل و الأسر على خاصّته، و تردّى المنهزمون فى الوادى خلفهم، فكان ذلك أعون الأسباب على هلكهم، فأناف عدد من هلك فى هذه الوقيعة، حسبما اشتهر، خمسين ألفا. و امتلأت أيدى هذه الأمة من الأسلحة و الأموال و الأمتعة و الأسرى الذين يفادونهم بمال عظيم، و اتصل القند المنهزم بأرض رغون، ثم نجم من البلاد الفرنسية، و دخل أخوه بهذه الأمة أوائل البلاد معترفا بحميد سعيهم، و عزيز نصرهم، و قد رابه استيلاؤهم، و أوجسه تغلبهم، و ساءه فى الأرض الرّعّادة عياثهم فاستأذنهم فى اللّحوق بقواعد أرضه، و قبض الأموال التى تجبى منها نفقاتهم، و قبض منها ديونهم

قبله. و حثّ السّير، فوصل طليطلة، لا يصدّق بالنجاة، و خاطب السلطان المترجم به، و قدر ودّه، و حذّره سورة هذه الأمة التى فاض بحرها و أعيا أمرها، و أنهى إليه شرّها، و شره إلى استئصال المسلمين، و حدّ له مواعدها التى جعلت لذلك. و وصل إشبيليّة؛ و انثالت البلاد عليه، و عادت الإيالة إلى حكمه، ثم شرع فى جعل الضرائب، و فرض الأموال، و أخاف الناس بالطّلب و التّبعات، فعاد نفورهم عنه جزعا، و امتنعوا من الغرم، و طردوا العمّال، و أحسّ

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴

بالشّرّ، فتحصّن بإشبيلية و جهاتها على نفسه، و طال على الأمة الواصلة فى سبيل نصره الأمر. فرجعت إلى بلادها، و وقيت نفرة الفرسان، و أولى الأتباع، و أظهروا الخلاف، و كشفت جيّان وجهها فى خلعانه، و الرّجوع إلى دعوة أخيه المتصرّف، فتحرّك إليها السلطان المترجم به، بعد أن احتشد المسلمين، فكان من دخولها عنوة، و استباحة المسلمين إياها و تخريبها، ما هو مذكور فى موضعه. ثم ألحقت بها مدينة أبّدة، الذاهبة فى مخالفة مذاهبها و الحمد للّه. و خالفت عليه قرطبة، و استقرّ بها من الكبار جملة، كاتبوا أخاه، و استعجلوا، فتعرّف فى هذه الأيام، أنه قد بلغ أرض برغش، و نار الفتنة بينهم، و يد الإسلام لهذا العهد، و المنية للّه، وحده غالبة.

و إنما مددنا القول فى ذكر هذه الأحوال الرّومية، لغرابة تاريخها، و ليستشعر الحذر، و يؤخذ من الأمة المذكورة و غيرها، و اللّه ولىّ نصر المؤمنين بفضله.

و بأرض رغون سلطانها الكائن على الدولة الأولى.

بعض مناقب الدولة لهذا العهد:

و أولا ما يرجع إلى مناقب الحلم و الكظم من مآزق الجهاد الأكبر، و هو جهاد النفس.

فمن ذلك أن السلطان لمّا جرت الحادثة، وعظه التمحيص، و ألجأ إلى وادى آش، لا يملك إلّا نفسه فى خبر طويل، بادر إلى مخاطبة ثقته بقصبة ألمريّة، قلعة الملك، و مظنّة الامتناع، و مهاد السّلامة، و مخزن الجباية و العدّة، و قد أصبح محلّ استقراره، بينها، و بين المنتزى سدّا، و بيعة أهلها لم ينسخ الشرع منها حكما يناشده اللّه فى رمقه، و يتملّقه فى رعى ذمّته، و الوفاء له، و إبراء غربته، و تمسّكه من أمانته، فردّ عليه أسوأ الردّ، و سجن رسوله فى المطبق، و خرج منها لعدوّه، و ناصح بعد فى البغى عليه. فلمّا ردّ اللّه الأمر، و جبر الحق، أعتب و أجرى عليه الرّزق. و لمّا ثار فى الدولة الثانية الدليل البركى ، هاتفا بالدعوة لبعض القرابة، و أكذبه اللّه، و عقّه الشيطان بعد نشر راية الخلاف، و جعل للدولة، علوّ اليد، و حسن العاقبة، و تمكّن من المذكور، أبقى عليه، و غلّب حكم المصلحة العامة فى استحيائه، و هو من مغربات الحلم المبنى على أساس الدين، و ابتغاء وجه اللّه.

و لمّا أجلى عن الترشيح من القرابة، بعد تقرّب التهمة، و غمس الأيدى فى المعصية، صرفوا إلى المغرب صرف العافية، و أجرى على من تخلّفوه عوائد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵

الأرزاق، و مرافق المواسم، و وعد ضعفاءهم بالإرفاد، و تجوفى عمّا يرجع للجميع من عقار و رباع، و أسعفت آمالهم فى لحاق ذويهم من أهل و ولد.

و ممّا يرجع إلى عوائد الرّفق، و مرافق العدل من مأزق فى جهاد النفس، وقوف وكيل الدولة، مع من يجاور مستخلص السلطان من العامرين و مما ولى الفلاحة، و قد ادّعوا أضرارا، يجرّه الحوار بين يدى القاضى بالحضرة، حتى بعد منقطع الحقّ، على ما يخصّ السلطان من الأصول التى جرّها الميراث عن كريم السّلف. و لا كقضية التاجر المعروف بالحاج اللبّاس، من أهل مدينة وادى آش، و قد تحصّلت فى داره، من قبل التاجر المذكور جارية من بنات الروم، فى سبيل تفوّت الذّمم، و مستهلك المتولات، و ترقّت إلى تربية ولده، و أصبحت بعض الأظآر لأمرائه، و اتّصل بها كلفه، و زاد هيمانه، و غشى مدافن الصّالحين من أجلها، و أنهيت إليه خبره و بثّه، و

قرّرت عنده شجوه، و ألمعت بما ينقل فى هذا الباب عن الملوك قبله، فبادر إلى إخراجها من القصر بنفسه، و انتزاعها من أيدى الغبطة، انتزاع القهر، بحاله فى جميل الزّى، فمكّنت منها يد عاشقها الدّاهل، و قد خفّت نفسه، و سكن حسّه، و كاد لقاؤه إيّاها أن يقضى عليه. و نظائر هذا الباب متعددة.

و من مواقف الصّدق و الإحسان من خارق جهاد النفس، بناء المارستان الأعظم، حسنة هذه التخوّم القصوى، و مزيّة المدينة الفضلى. لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول، مع توفّر الضرورة، و ظهور الحاجة، فأغرى به همّة الدّين، و نفس التقوى، فأبرزه موقف الأخدان ، و رحلة الأندلس، و فذلكة الحسنات، فخامة بيت، و تعدّد مساكن، و رحب ساحة، و درور مياه، و صحّة هواء، و تعدّد خزائن و متوضآت، و انطلاق جراية، و حسن ترتيب، أبرّ على مارستان مصر ، بالسّاحة العريضة، و الأهوية الطيّبة، و تدفّق المياه من فورات المرمل، و أسود الصخر، و تموّج البحر، و انسدال الأشجار، إلى موافقته إياى، و تسويغه ما اخترعته بإذنه، و أجريته بطيب نفسه، من اتخاذ المدرسة و الزاوية، و تعيين التّربة، مغيرا فى ذلك كله على مقاصد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶

الملوك، نقشا عليه، بطيب اسمه فى المزيد، و تخليد فى الجدرات للذّكر، و صونا للمدافن غير المعتادة، فى قلب بلده بالمقاصر و الأصونة، و ترتيل التلاوة، آناء الليل ، و أطراف النهار. و كل ذلك إنما ينسب إلى صدقاته، و علوّ همّته. و يشهد بما ينبّه الحسّ إلى المنقبة العظمى، فى هذا الباب، من إمداد جبل الفتح، مع كونه فى إيالة غيره، و خارج عن ملكة حكمه، و ما كان من إعانته، و سدّ ثغره، فانهار إليه على خطر السّرى، و الظهر البعيد المسعى، ما ملأ الأهواء، و قطع طمع العداة، أنفقت عليه الأموال، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، بودر بذلك، بين يدى التفاؤل، بنزول العدوّ إياه، فكان الكرى على إيصال الطعام إليه، بحساب درهم واحد و ربع درهم للرّطل من الطعام، منفعة فذّة، و حسنة كبرى، و بدعا من بدع الفتوى.

و فى موقف الاستعداد لعدوّ الإسلام، من خارق جهاد النفس، إطلاق البنى ، للمدّة القريبة، و الزمان الضيق، باثنين و عشرين ثغرا من البلاد المجاورة للعدوّ، و المشتركة الحدود، مع أراضيه، المترامية النيران لقرب جوابه، منها ثغر أرجدونة ، المستولى عليه الخراب، أنفق فى تجديد قصبته؛ و اتخاذ جبّه، ما يناهز عشرين ألفا من الذهب، فهو اليوم شجى العدو، و معتصم المسلمين، و حصن أشر، و ما كان من تحصين جبله بالأسوار و الأبراج، على بعد أقطاره، و اتخاذ جباب الماء به، و احتفار السانية الهايلة بربضه، ترك بها من الآثار ما يشهد بالقوة للّه، و العناية بالإسلام. ثم ختم ذلك بنديد حصن الحمراء، رأس الحضرة، و معقل الإسلام، و مفزع الملك، و معقد الأيدى، و صوان المال و الذّخيرة، بعد أن صار قاعا صفصفا، و خرابا بلقعا، فهو اليوم عروس يجلى المهضب، و يغازل الشهب، سكن لمكانه الإرجاف، و ذوت نجوم الأطماع، و نقل إليه مال الجباية، المتفضّل لهذا العهد، بحسب التدبير، و نفّد الخراج، و صوّن الألقاب، و قمع الخزانة بما لم يتقدّم به عهد، من ثمانين سنة، و الحمد للّه، و تجديد أساطيل الإسلام، و إزاحة علل جيوش المرج، و عساكر البحر، فهى لهذا العهد، ملس الأديم، شارعة الشّبا، منقضّة جفاتها إلى مساواة الأعداء، راكبة ظهور المحاسن، قلقة الموافق، قدما إلى الجهاد، قد تعدّد إغزاؤها، و جاست

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷

البحر سوابحها، و تعرّفت بركتها، و الحمد للّه، و أنصاب جيش الجهاد، استغرق الشهور المستقبلة، لرود الصفراء و البيضاء الأهلّة إلى أكفّ أهلها، على الدوام، بعد أن كانت يتحيّفها المطل، و ينقصها المطال، و الحمد للّه.

و فى مواقف الجهاد الحسّى، و بيع النّفوس من اللّه، و هو ثمرة الجهاد الأول، ما لا يحتاج عليه إلى دليل، من الجوف إلى حصن أشر، قبل الثغر، و الجارح المطلّ على الإسلام، و العزم على افتتاحه، و قد غاب الناس من مساورته، و أعيا عليهم فتحه، فلزمه السلطان بنفسه، بياض يوم القيظ، محرضا للمقاتلة، مواسيا لهم، خالطا نفسه بالمستنفرة، يصابر لهيب النار، و وقع السلاح، و تعميم الدّخان، مفديا للكلمات، محرّضا لذوى الجراح، مباشرا الصلاة على الشهداء، إلى أن فتحه اللّه على يده، بعزمه و صبره، فباشر رمّ سوره بيده، و

تحصين عورته بنفسه، ينقل إليه الصّخر، و ينال الطّين، و يخالط الفعلة، لقرب محلّ الطاغية، و توقع المفاجأة. ثم كان هذا العمل قانونا مطّردا فى غيره، و ديدنا فى سواه، حسبما نذكر فى باب الجهاد.

و فى باب النصيحة للمسلمين من مآزق الجهاد الأكبر، ما صدر فى هذه الدولة، من مخاطبة الكافة، بلسان الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، صدعت بذلك الخطباء من فوق أعواد المنابر، و أسمعت آذان المحافل، ما لم يتقدم به عهد فى الزمان الغابر.

نص الكتاب: و لمّا صحّت الأخبار بخروج الأمة الإفرنسية إلى استئصال هذه البقيعة، و اللّه متمّ نوره، و لو كره الكافرون، صدر من مخاطبة الجمهور فى باب التحريض بما نصّه:

«من أمير المسلمين عبد اللّه محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد نصر، أيّده اللّه و نصره، و أوى أمره، و خلّد مآثره، إلى أوليائنا الذين نوقظ من الغفلة أحلامهم، و ندعوهم لما يطهّر من الارتياب إيمانهم، و يخلص للّه أسرارهم و إعلانهم، يرثى لعدم إحسانهم، و خيبة قياسهم، و يغار من استيلاء الغفلات على أنواعهم و أجناسهم، و نسأل اللّه لهم و لنا إقالة العثرات، و تخفيض الشدائد المعتورات، و كفّ أكفّ العوادى المبتدرات. إلى أهل فلانة، دافع اللّه عن فتنهم الغريبة، و عرّفهم فى الذرارى و الحرم عوارف اللطائف القريبة، و تداركهم بالصنائع العجيبة، سلام عليكم أجمعين، و رحمة اللّه و بركاته.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸

أما بعد حمد اللّه الذى لا نشرك به أحدا، و لا نجد من دونه ملتحدا، مبتلى قلوب المؤمنين أيها أقوى جلدا، و أبعد فى الصبر مدى، ليزيد الذين اهتدوا هدى، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الذى أنقذ من الردى، و تكفل الشفاعة لمن غدا، ضاربا هام العدا، و مجاهدا من اتخذ مع اللّه ولدا، و الرضى عن آله الذين كانوا لسماء ملّته عمدا، فلم ترعهم الكتائب الوافرة و كانوا لهم أقل عددا، و لا هالتهم أمم الكفر و إن كانت أظهر جمعا و أكثر عددا، صلاة لا تنقطع أبدا، و رضى لا يبلغ مدى. فإنا كتبنا إليكم، كتبكم اللّه فيمن امتلأ قلبه غضبا لأعدائه و حميّة، و رمى بفكره غرض السّداد، فلم يخط منه هدفا و لا رمية. و قد اتصل بنا الخبر الذى يوجب نصح الإسلام، و رعى الجوار و الذّمام، و ما جعل اللّه تعالى للمأموم على الإمام، فوجب علينا إيقاظكم من مراقدكم المستغرقة، و جمع أهوائكم المفترقة ، و تهيئكم إلى مصادمة الشدائد المرعدة المبرقة، و هو أنّ كبير النصرانية، الذى إليه ينقادون، و فى مرضاته يصادقون و يعادون، و عند رؤية صليبه يبكون و يسجدون، لما رأى الفتن قد أكلتهم خضما و قضما ، و أوسعتهم هضما فلم تبق لهم عصبا و لا عظما، و نثرت ما كان نظما، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق، و يرفع ما طرق، و يرفو ما مزّق الشّتات و خرق، فرمى الإسلام بأمة عددها كالقطر المنثال، و الجراد الذى تضرب به الأمثال، و عاهدهم و قد حضر التمثال، و أمرهم و شأنهم الامتثال، أن يدمنوا لمن ارتضاه الطاعة، و يجمعوا من ملّته الجماعة، و يطلع الكلّ على هذه الفئة القليلة الغريبة بغتة كقيام السّاعة، و أقطعهم، قطع اللّه بهم، العباد و البلاد، و الطّارف و التّلاد ، و سوّغهم الحريم المستضعف و الأولاد، و باللّه نستدفع ما لا نطيقه، و منه نسأل عادة الفرج، فما سدّت لديه طريقة، إلّا أنّا رأينا غفلة الناس مع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹

تصميمهم مؤذنة بالبوار ، و أشفقنا للذين من وراء البحار، و قد أصبح معظمهم فى لهوات الكفّار، و أردنا أن نهزّهم بالموعظة التى تكحل البصائر بميل الاستبصار، و تلهمكم الاستنصار باللّه عند عدم الانتصار، فإن جبر اللّه الخواطر بالضراعة إليه، و الانكسار، و نسخ الإعسار بالإيسار، و أنجد اليمين بانتهاء اليسار، و إلا فقد تعيّن فى الدنيا و الآخرة حظّ الخسار، فإنّ من ظهر عليه عدوّ دينه ، و هو عن اللّه مصروف، و بالباطل مشغوف، و بغير العرف معروف، و على الحطام المسلوب ملهوف ، فقد تلّه الشيطان للجبين، و خسر الدنيا و الآخرة، و ذلك هو الخسران المبين. و من نفذ فيه قدر اللّه عن أداء الواجب و بذل المجهود، و آجر بالعبودية وجه الواحد الأحد المعبود، و وطّن النفس عن الشهوات الموبقة فى دار الخلود، العائدة بالحياة الدّائمة و الوجود، أو الظّهور على عدوّه المحشور إليه المحشود ، صبرا على المقام المحمود، و بيعا تكون الملائكة فيه من الشهود، حتى تعيث يد اللّه فى ذلك البناء المهدوم، بقوة اللّه

المحمود، و السّواد الأعظم الممدود، كان على أمر ربّه بالحياء المردود: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (۵۲) . فاللّه اللّه فى الهمم، فقد خبت ريحها. و اللّه اللّه فى العقائد، فقد خفتت مصابيحها. و اللّه اللّه فى الرّجولة ، فقد فلّ حدّها. و اللّه اللّه فى الغيرة، فقد نعس جدّها، و اللّه اللّه فى الدّين، فقد طمع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰

العدوّ فى تحويله. و اللّه اللّه فى الحريم، فقد مدّ إلى استرقاقه يد تأميله. و اللّه اللّه فى المساكن التى زحف لسكناها، و اللّه اللّه فى الملّة التى يريد إطفاء نورها و سناها ، و قد كمل فضلها و تناهى، و اللّه اللّه فى القرآن العظيم . و اللّه اللّه فى الجيران. و اللّه اللّه فى الطّارف و التّالد، و اللّه اللّه فى الوطن الذى توارثه الولد عن الوالد. اليوم تستأسد النفوس المهينة، اليوم يستنزل الصبر و السكينة. اليوم تحتاج الهمم أن ترعى هذه النفوس الكريمة الذّمم، اليوم يسلك سبيل العزم و الحزم و الشدة و الشّمم، اليوم يرجع إلى اللّه تعالى المصرّون، اليوم يفيق من نومه الغافلون و المغترون، قبل أن يتفاقم الهول، و يحقّ القول، و يسدّ الباب، و يحيق العذاب، و يسترق بالكفر و الرّقاب، فالنساء تقى بأنفسهنّ أولادهنّ الصغار، و الطّيور ترفرف لتحمى الأوكار ، إذا أحست العياث بأفراخها و الإضرار. تمرّ الأيام عليكم مرّ السحاب، و ذهاب الليالى لكم ذهاب، فلا خبر يفضى إلى العين، و لا حديث فى اللّه تعالى يسمع بين اثنين، و لا كدّ إلّا لزينة يحلّى بها نحر وجيد، و لا سعى إلّا فى متاع لا يغنى فى الشدائد و لا يفيد. و بالأمس ندبتم إلى التماس رحمى أو رضى مسخّر السحاب، و استقالة كاشف العذاب، و سؤال مرسل الدّيمة، و محيى البشر و البهيمة، و قد أمسكت عنكم رحمة السماء؛ و اغبرّت جوانبكم المخضرّة احتياجا إلى بلالة الماء وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (۲۲) و إليها الأكفّ تمدّون، و أبوابها بالدعاء تقصدون، فلم يصحر منكم عدد معتبر، و لا ظهر للإنابة و لا للصدقة خبر، و تتوقّون عن إعادة الرغبة إلى الغنى الحميد، و الولى الذى إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

و أيم اللّه لو كان لهوا لارتقبت الساعات، و ضاقت المتّسعات، و تزاحمت على جماله و غصّت الجماعات . أ تعزّزا على اللّه و هو القوى العزيز؟ و تلبيسا على اللّه و هو

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱

الذى يميّز الخبيث من الطيب و الشّبه من الإبريز؟ أ منابذة و النواصى بيده ؟ أغرورا فى الشدائد بالأمل و الرجوع بعد إليه؟. من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ثم ينزل الرزق و يفيده؟ من يرجع إليه فى الملمّات؟ من يرجّى فى الشدائد و الأزمات؟ من يوجد فى المحيا و الممات؟ أفى اللّه شكّ يختلج القلوب؟ أم غير اللّه يدفع المكروه، و ييسّر المطلوب؟ تفضلون على اللجإ إليه فى الشدائد، بواسم الجهل ، و ثرة الأهل و طائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته، تمدّ إليه الأيدى و الرقاب، و تستكشف بالخضوع لعزته العقاب، و تستعجل إلى مواعد إجابته الارتقاب، و كأنكم أنتم عن كرمه قد استغنيتم، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم. أما تعلمون كيف كان نبيّكم صلوات اللّه و سلامه عليه من التبلغ باليسير، و الاستعداد إلى دار الرحيل الحقّ و المسير، و مداومة الجوع، و هجر الهجوع، و العمل على الإياب إلى اللّه و الرجوع؛ دخلت عليه فاطمة، رضى اللّه عنها، و بيدها كسرة شعير، فقال: ما هذه يا فاطمة؟ فقالت: يا رسول اللّه، خبزت قرصة، و أحببت أن تأكل منها.

فقال: يا فاطمة، أما أنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث؟ و كان صلى اللّه عليه و سلم يستغفر فى اليوم سبعين مرة، يلتمس رحماه، و يقوم و هو المغفور له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر، حتى تورّمت قدماه، و كان شأنه الجهاد، و دأبه الجدّ و الاجتهاد، و مواقف صبره تعرفها الرّبى و الوهاد. فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون؟ و إذا لم تهتدوا بهديه فبمن تهتدون؟ و إذا لم ترضوه باتّباعكم فكيف تعتزون إليه و تنتسبون؟ و إذا لم ترغبوا فى الاتّصاف بصفاته غضبا للّه تعالى و جهادا، و تقللا من العرض الأدنى و سهادا، ففيم ترغبون؟ فابتروا حبال الآمال، فكلّ آت قريب، و اعتبروا بمثلات ما دهم من تقدم من أهل البلاد و القواعد، فذهولكم عنها غريب، و تفكّروا فى منابرها التى كان يعلوها واعظ أو خطيب، و مطيل و مطيب، و مساجدها المتعدّدة الصفوف، و الجماعات

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲

المعمورة بأنواع الطّاعات ، و کیف أخذ اللّه فیها بذنب المترفین من دونهم، و عاقب الجمهور بما أغمضوا عیونهم، و ساءت بالغفلة عن اللّه عقبی جمیعهم، و ذهبت النقمات بعاصیهم، و من داهن فی أمره من مطیعهم، و أصبحت مساجدهم مناصب للصلبان، و استبدلت مآذنهم بالنواقیس من الأذان. هذا و الناس ناس، و الزمان زمان.

فما هذه الغفلة عن من إلیه الرّجعی و إلیه المصیر؟ و إلی متی التّساهل فی حقوقه و هو السمیع البصیر؟ و حتی متی مدّ الأمل فی الزمن القصیر؟ و إلی متی نسیان اللّجإ إلی الولی النصیر؟ قد تداعت الصلبان مجلبة علیکم، و تحرّکت الطواغیت من کلّ جهة إلیکم. أفیخذلکم الشیطان و کتاب اللّه قائم فیکم؟ و ألسنة الآیات تنادیکم؟ لم تمح سطورها، و لا احتجب نورها، و أنتم بقایا من افتتحها من عدد قلیل، و صابر فیها کلّ خطب جلیل، فواللّه لو تمحّض الإیمان، و رضی الرحمن، ما ظهر التّثلیث فی هذه الجزیرة علی التوحید، و لا عدم الإسلام فیها عزم التأیید. و لکن شمل الداء، و صمّ النداء، و عمیت الأبصار، فکیف الاهتداء و الباب مفتوح، و الفضل ممنوح؟ فتعالوا نستغفر اللّه جمیعا، فهو الغفور الرحیم، و نستقبل مقیل العثرات ، فهو الرّءوف الحلیم، و نصرف الوجوه إلی الاعتراف بما قدّمت أیدینا، فقبول المعاذیر من شأن الکریم. سدّت الأبواب، و ضعفت الأسباب، و انقطعت الآمال إلّا منک یا کریم ، یا فتّاح، یا وهّاب یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ یَنْصُرْکُمْ وَ یُثَبِّتْ أَقْدامَکُمْ (۷) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِینَ یَلُونَکُمْ مِنَ الْکُفَّارِ وَ لْیَجِدُوا فِیکُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ (۱۲۳) وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۳۹) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۲۰۰) . أعدّوا الخیل و ارتبطوها، و روّضوا النفوس علی الشهادة و اغبطوها ، فمن خاف الموت رضی بالدنیّة، و لا بدّ علی کلّ حال من المنیّة، و الحیاة مع الذلّ لیست من شیم أهل العقول و النفوس السّنیّة، و اقتنوا السلاح و العدّة، و تعرّفوا إلی اللّه فی الرّخاء یعرفکم فی الشدّة، و استشعروا القوة باللّه تعالی علی أعدائه و أعدائکم، و استمیتوا من دون أبنائکم، و کونوا کالبنیان المرصوص

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳

لحملات العدو النازل بفنائکم، و حطّوا بالتعویل علی اللّه وحدة بلادکم، و اشتروا من اللّه جلّ جلاله أبناءکم .

ذکروا أنّ امرأة احتمل السبع ولدها، و شکت إلی بعض الصالحین، فأشار علیها بالصدقة فتصدّقت برغیف، فأطلق السبع ولدها. و سمعت النداء: یا هذه، لقمة بلقمة، و إنّا لما استودعناه لحافظون. اهجروا الشهوات، و استدرکوا الباقیات من قبل الفوات، و أفضلوا لمساکینکم من الأقوات، و اخشعوا لما أنزل اللّه تعالی من الآیات، و خذوا نفوسکم بالصّبر علی الأزمات، و المواساة فی المهمّات، و أیقظوا جفونکم من السّنات. و اعلموا أنکم رضّع ثدی کلمة التوحید، و جیران البلد الغریب، و الدّین الوحید، و حزب التمحیص، و نفر المرام العویص ، فتفقّدوا معاملتکم مع اللّه تعالی، فمهما رأیتم الصّدق غالبا، و القلب للمولی الکریم مراقبا، و شهاب الیقین ثاقبا، فثقوا بعنایة اللّه التی لا یغلبکم معها غالب، و لا ینالکم من أجلها عدوّ مطالب، و أنکم فی السّتر الکثیف، و عصمة الخبیر اللّطیف. و مهما رأیتم الخواطر متبدّدة، و الظنون باللّه متردّدة، و الجهات التی تخاف و ترجی متعدّدة، و الغفلة عن اللّه ملابسها متجدّدة، و عادة دواعی الخذلان دائمة، و أسواق الشهوات قائمة، و اعلموا أنّ اللّه منفّذ فیکم وعده و وعیده فی الأمم الغافلین، و أنکم قد ظلمتم أنفسکم و لا عدوان إلّا علی الظّالمین. و التوبة تردّ الشارد و اللّه یحبّ التّوابین، و یحب المتطهّرین، و هو القائل: إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ ذلِکَ ذِکْری لِلذَّاکِرِینَ . و ما أقرب صلاح الأحوال، إذا صلحت العزائم، و توالت علی حزب الشیطان الهزائم، و خملت الدّنیا الدنیّة فی العیون، و صدقت فیها عند اللّه الظّنون:

حزب الشیطان الهزائم، و خملت الدّنیا الدنیّة فی العیون، و صدقت فیها عند اللّه الظّنون:

یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا وَ لا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۵) .

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴

و ثوبوا سراعا إلى طهارة القلوب، و إزالة الشّوب ، و اقصدوا أبواب غافر الذنوب و قابل التّوب، و اعلموا أنّ سوء الأدب مع اللّه يفتح أبواب الشدائد، و يسدّ طريق العوائد، فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم، و لا تأمنوا مكر اللّه فتغشوا إيمانكم، و لا تعلّقوا متابكم بالصّرائر ، فهو علّام السرائر، و إنما علينا معاشر الأولياء أن ننصحكم و إن كنّا أولى بالنّصيحة، و نعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة- علم اللّه- عن صدق القريحة، و إن شاركناكم فى الغفلة، فقد ناديناكم إلى الاسترجاع و الاستغفار، و إنما لكم لدنيا نفس مبذولة فى جهاد الكفّار، و تقدّم إلى ربّكم العزيز الغفّار، و تقدّم لديكم إلى مواقف الصّبر التى لا- ترتضى بتوفيق اللّه الفرار، و اجتهاد فيما يعود بالحسنى و عقبى الدّار، و الاختيار للّه وليّ الاختيار، و مصرّف الأقدار. وها نحن نسرع فى الخروج إلى مدافعة هذا العدوّ، و نفدى بنفوسنا البلاد و العباد، و الحريم المستضعف و الأولاد، و نصلى من دونهم نار الجلاد، و نستوهب منكم الدّعاء إلى من وعد بإجابته، و تقبّل من صرف إليه وجه إنابته. اللّهمّ كن لنا فى هذا الانقطاع نصيرا، و على أعدائك ظهيرا، و من انتقام عبدة الأصنام مجيرا . اللّهمّ قوّ من ضعفت حيلته، فأنت القوى المعين، و انصر من لا نصير له إلّا أنت، إياك نعبد، و إياك نستعين.

اللّهمّ ثبّت أقدامنا و انصرنا عند تزلزل الأقدام، و لا تسلمنا عند لقاء عدوّ الإسلام، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام. اللّهمّ دافع بملائكتك المسوّمين، [عمّن ضيّقت أرجاؤه، و انقطع إلّا منك رجاؤه. اللّهمّ هيّئ لضعفائنا، و كلّنا ضعيف فقير، إليك، ذليل بين يديك حقير، رحمة تروى بالأزمة و تشبع، و قوة تطرد و تستتبع. يا غلاب الغلّاب، يا هازم الأحزاب، يا كريم العوائد، يا مفرّج الشدائد، ربّنا أفرغ علينا صبرا، و ثبّت أقدامنا، و انصرنا على القوم الكافرين]. اللّهمّ اجعلنا ممن تيقّظ فتيقّظ، و ذكر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵

فتذكّر، و من قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (۱۷۳) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (۱۷۴) . و قد وردت علينا المخاطبات من قبل إخواننا المسلمين الذين عرفنا فى القديم و الحديث اجتهادهم، و شكرنا فى ذات اللّه تعالى جهادهم، بنى مرين، أولى الامتعاض للّه و الحميّة، و المخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية، بعزمهم على الامتعاض لحقّ الجوار، و المصارخة التى تليق بالأحرار، و النّفرة لانتهاك ذمار نبيّهم المختار، و حركة سلطانهم محلّ أخينا بمن له من الأولياء و الأنصار، إلى الإعانة على هؤلاء الكفّار، و مدافعة أحزاب الشيطان و أهل النّار، فاسألوا اللّه تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار، و السعى الضّمين للعزّ و الأجر و الفخار، و السّلام الكريم يخصّكم أيها الأولياء، و رحمة اللّه و بركاته . فى الثانى عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع و ستين و سبعمائة. عرّفنا اللّه خيره، صحّ هذا، فكان دفاع اللّه أقوى، و عصمته أكفى. و الحمد للّه على عوائده الحسنى.

و من الغيرة على الدين، و تغيّر أحوال الملحدين، من مآزق جهاد النفس، ما وقع به العمل من إخماد البدع، و إذهاب الآراء المضلة، و الاشتداد على أهل الزّيغ و الزّندقة. و قد أضاقت أرباب هذه الأضاليل الشريعة، و سدّت مضرّهم فى الكافّة، فيسلّط عليهم الحكّام، و استدعيت الشهادات، و أخذهم التّشريد، فهل تحسّ منهم أحدا، أو تسمع لهم ركزا؟

و قيّد فى ذلك عنى مقالات أخرى. منها رسالة «الغيرة على أهل الحيرة»، و رسالة «حمل الجمهور على السنن المشهور». و رسالة «أنشدت على أهل الرّد».

فارتفع الخوض، و كسدت تلك الأسواق الخبيثة، و صمّ منها الصّدى، و وضح نار الهدى، و الحمد للّه، و لو تتبعت مناقب الهدى، لأخرج ذلك عن الغرض.

الأحداث: و فى غرة ذى الحجة كانت الثورة الشّنعاء المجحفة بالدولة، و قد كان السلطان أنذر بطائفة، تداخل بعض القرابة، فعاجله بالقبض عليه، و هو فى محل ولايته، فصفّد و أحمل إلى قصبة ألمريّة، و خاف أرباب المكيدة افتضاح الأمر، فتعجّلوا إبراز الكامن، و إظهار الخبث، و تولّى ذلك جملة من بنى غرون ذنابى بيت

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶

الإدبار، و قد عابهم من بنى مطرون، يدور أمرهم على الدّليل البركى ، فأكذب اللّه دعوتهم، بعد أن أركبوا الشيخ عليّا بن نصر، و نصبوه تلقاء القلعة بباب البنود ، و دعوا الناس إلى بيعته. و أخذ السلطان حذره، و ناصبهم القتال، و أشاع العطا، و استركب الجيش. و عمّر الأسوار، فأخفق القصد، و فرّ الدليل البركى، و تقبّض على الرئيس المذكور، و جعل اللّه العاقبة الحسنة للسلطان.

و كان ممّا أمليته يومئذ بين يدى السلطان، من الكلام المرسل، ما هو نصه، بعد الصّدر: و إلى هذا فممّا أفادته الفطر السليمة، و الحلم و القضاء بالشريعة، و النّقل الشرعى و السّنن المرعى، أنّ مغالب الحقّ مغلوب، و مزاحم اللّه مهزوم، و مكابر البرهان بالجهل موسوم، و مرتع الغىّ مهجور، و سيف العدوان مفلول، و حظّ الشيطان موكوس، و حزب السلطان منصور. و لا خفاء بنعمة اللّه علينا، التى اطّردها فى المواطن العديدة؛ و الهضبات البعيدة، و الشّبهات غير المبينة، و الظّلمات الكثيفة، معلن بوفور الحظّ من رحمته، و إبراز القداح فى مجال كرامته، و الاختصاص بسيما اختياره، فجعل العصمة ليلة الحادث علينا من دون مضجع أمانا، و نهج لنا سبيل النّجاة بين يدى كسبه علينا، و سخّر لنا ظهرى الطّريف و الطريق، بعد أن فرّق لنا بحر الليل، و أوضح لنا خفىّ المسلك، و عبّد لنا عاصى الحزم، و دمّث غمر الشّعراء ، و أوطأنا صهوة المنعة، و ضرب وجوه الشّرذمة المتبعة، بعد أن ركضوا قنيب البراذن البادئة، من خزائن إهدائنا، المتجمّلة بحلى ركبنا؛ و تحمّلوا السلاح و الرّياش المختار من أثير صلاتنا، و أبهروا الأنفاس التى طال ما رفعها إيناسنا و أبلغها الريق تأميننا، و صبّبوا العرق الذى أفضله طعامنا، شرهين إلى دمنا، المحظور بالكتاب و السّنّة، المحوط بسياج البيعة، المحصّن عنهم بتقديم النّعمة، و حرمة الأب و متعدّد الأذمّة، فجعل اللّه بيننا و بينهم حاجزا، و سدّ ليأجوجهم من المردة مانعا، و انقلبوا يعضّون الأنامل الغضّة من سريط جفاننا، و يقلّبون الأكفّ التى أجدبها الدّهر، ترفيعا من المهن المترتّبة فى خدمتنا، قد حالهم صغار القدر، و ذلّ الخيبة، و كبح اللّه جماعتهم عن التّنفق بتلك الوسيلة. و احتللنا قصبة وادى آش، لا نملك إلّا أنفسنا، لم يشبها غشّ الملّة، و لا كياد الأمّة، و لا دنّسها و الحمد للّه عار الفاحشة، و لا وسمها الشّوم فى الولاية، و لا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷

أحبط عمل نجابتها دخل العقيدة، و لا مرض السّريرة، مذ سلّمنا المقادة لمن عطف علينا القلوب، و صيّر إلينا ملك أبينا من غير حول و لا حيلة، نرى أنّها أملك لحرمتنا، و أعلم بما كنّا، و أرحم بنا، فتشبّثت بها القدم، و حميت لنا من أهلها، رعاهم اللّه الهمم، و صدقت فى الذّبّ عنّا العزائم، و حاصرنا جيش العدو، و أولياء الشياطين، و ظهر الباطل، فبان الظّفر و الاستقبال، و ظهرت الفئة القليلة، و اللّه مع الصابرين، فغلبوا هناك و انقلبوا صاغرين. و مع ما لنا من الضّيق، و أهمّنا من الأمر، فلم نطلق به غارة، و لا شرهنا إلى تغيير نعمة، و لا سرّحنا عنّا اكتساح على هجمة، و لا شعنا لبسا فى بيت و لا حلّة، و أمسكنا الأرماق بيسير الحلال الذى اشتملته خزائننا من أعشار و زكوات، و حظوظ من زراعات، و ارتقبنا الفرج ممّن محّص بالشّدة، و الإقالة ممن نبّه من الغفلة، و ألهم الإقلاع و التّوبة. ثم وفّقنا سبحانه، و ألهمنا من أمرنا رشدا، و سلك بنا طريقا فى بحر الفتنة يبسا، فدناه بحقن الدماء، و تأمين الأرجاء، و شكرنا على البلاء؛ كشكرنا إيّاه على الآلاء. و خرجنا على الأندلس، و لقد كاد، لو لا عصمته، بأن نذهب مذاهب الزّوراء، و نستأصل الشّأفة ، و نستأصل العرصة ، سبحانه ما أكمل صنعه، و أجمل علينا ستره، إلى أن جزنا البحر، و لحقنا بجوار سلطان المغرب. لم تنب عنّا عين، و لا شمخ علينا أنف، و لا حمل علينا بركب ، و لا هتفت حولنا غاشية، و لا نزع عنّا للتقوى و العفاف ستر، بل كان الناس يوجبون لنا الحقّ الذى أغفله الأوغاد من أبناء دولتنا، و الضّمادع ببركة نعمتنا، حتى إذا الناس عافوا الصّيحة، و تملّوا الحسرة، و سيموا الخسار و الخيبة، و سامهم الطّغام الذين يرجون للّه و قارا، و لا يألون لشعائره المعظّمة احتقارا، كلاب الأطماع، و عبدة الطاغوت ، و مدبّر و حجون الجهل، و مياسيس أسواق البعد عن الرّب، و عرائس محرم الزينة، و دود القزّ، و ثغار النّهم الأعزّة على المؤمنين بالباطل، الأذلّة فى أنفسهم بالحق، ممن لا يحسن المحاولة، و لا يلازم الصّهوة، و لا يحمل السلاح، و لا ينزه مجتمع الحشمة عن الفحشاء، و لا يطعم المسكين، و لا يشعر بوجود اللّه، جاروا من شقيّهم المحروم، على مضعوف ملتفّ فى الحرم المحصور، محتف بلطف المهد، معلّل بالخداع، مسلوب الجرأة بأيدى انتهازهم، شؤم على الإسلام، و معرّة فى وجه الدين، أخذ اللّه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸

منهم حقّ الشريعة، و أنصف أئمّة الملّة، فلم ينشبوا أن تهارشوا، فعضّ بعضهم، و استأصلهم البغى، و ألحم للسيف، و تفنن القتل، فمن بين مجدّل يوارى بأحلاس الدّواب الوبرة، و غريق يزفّ به إلى سوء الميتة، و استبينت حرمة اللّه، و استضيم الدّين، و استبيحت المحرّمات، و استبضعت الفروج فى غير الرّشدة، و ساءت فى عدوّ الدّين الحيلة، فتحرّكنا عن اتفاق من أرباب الفتيا، و عزم من أولى الحريّة، و تحريض من أولى الحفيظة و الهمّة، و تداحر من الشوكة، و تحريك من وراء البحر من الأمة، فكان ما قد علمتم من تسكين الثّائرة و إشكا العديم، و إصمات الصارخ، و شعب الثّأى ، و معالجة البلوى، و تدارك القطر، و قد أشفى، و كشف الضرّ و البأساء، أما الحبوة فالتمسها، و جلّ الرّبّ، و استشاط عليها جوّ السماء. و أمّا مرافق البحر و مرافده، فسدّت طرقها أساطيل الأعداء. و أما الحميّة، فبدّدها فساد السيرة، و غمط الحق، و تفضيل الأذى. و أمّا المال، فاصطلم السّفه بيضاءه و صفراءه، و كبس خزائنه حتى وقع الإدقاع و الإعدام، و أقوى العامر، و افتقرت المجابى و المغابن، و اغتربت جفون السيوف من حلاها، و جردتموا الآلة إلى أعلاها، و الدّغل المستبطن الفاضح، و يمحض الحين، و أسلمت للدواء العرصة، و تخرّبت الثغور من غير مدافعة، و اكتسحت الجهات فلم يترك بها نافخ، و وقع القول، و حقّ البهت، و خذل الناصر، و تبرّأت الأواصر، فحاكمنا العدو إلى النّصفة، و لم نقرّه على الدّنيّة، و باينّاه أحوج ما كنّا إلى كدحه، و أطمع ما أصبحنا فى مظاهرته على الكفّار مثله، اعتزازا باللّه، و ثقة به، و لجأ إليه، و توكلا عليه، سبحانه ما أبهر قدرته، و أسرع نصرته، و أوجى أمره، و أشدّ قهره. و ركبنا بحر الخطر، بجيش من التجربة، و نهدنا قدما، لا نهاب الهول و لا نراقبه، و أطللنا على أحواز ريّه فى الجمع القليل، إلّا من مدد الصّبر المفرد، إلّا من مظاهرة اللّه الغفل، إلّا من زينة الحق المظلّل جناح عقابه يجتاح الروح، تسدّ جياده بصهيل العزّ، المطالعة غرره بطليعة النصر. فلمّا أحسّ بنا المؤمنون المطهّرون بساحتهم انتزوا من عقال الإيالة الظالمة، و الدّعوة الفاجرة، و تبرأوا من الشّرذمة الغاوية، و الطّائفة المناصبة للّه المحاربة، و أقبلوا ثبّات و أفرادا، و زرافات و وحدانا، ينظرون بعيون لم ترو من غيبتنا، من محيّا رحمة، و لا اكتحلت بمنظر رأفة، و وجوه عليها قسوة الخسف، و إبشار عليها بوس الجهد، يتعلّقون بأذيالنا تعلّق الغريق، يئنّون من الجوع و الخوف أنين المرضى، و يجهشون بالبكاء، و يعلنون للّه و لنا بالشكوى، فعرّفناهم الأمان من الأعداء، و أول عارفة جعلونا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹

عليهم، و صرفنا وجه التّأمين و التّأنيس، و جميل الودّ إليهم، و خارطناهم الإجهاش و الرّقعة، و وثّبنا لهم من الذّلة، و استولينا على دار الملك ببلدهم، فأنزلنا منها أخابيث كان الأشقياء مخلّفوهم بها، من أخلاف لا يزال تطأ إبشارهم الحدود، و تأنف من استكفائهم اليهود، و انثالت علينا البلاد، و شمّر الطاغية ذيله عن الجهات، و راجع الإسلام رمق الحياة، و حثثنا السير إلى دار الملك، و قد فرّ عنها الشقى الغاصب، بشوكة بغيه، التى أمدّته فى الغىّ، و أجرته على حرمة اللّه. و قصد دار قشتالة، بكل ما صانت الحقاق من ذخيرة، و حجبت الأمهاء من خرزة ثمينة، يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان، و اقتياد جيوش الصّلبان، و شدّ الحيازم إلى تبديل الأرض غير الأرض، و سوم الدّين، و طمس معالم الحق، كيادا لرسول اللّه فى أمته، و مناصبة له فى حنيفيّته، و تبديلا لنعمة اللّه كفرا، و لمعروف الحقّ نكرا، أصبح له الناس على مثل الرّضف، يرتقبون إطلال الكريهة، و سقوط الظّلّة، و عودة الكرّة، و عقبى المعرّة، و اللّه من ورائهم محيط، و بما يعملون محيط، و لدعاء المستضعفين من المؤمنين مجيب، و منهم و إن قعدوا فى أقصى الأرض قريب. و لم نقدم مذ حللنا بدار الملك شيئا على مراسلة صاحب قشتالة فى أمره، نناشده العهد، و نطرى له الوفاء، و نناجزه إلى الحقّ، و نقوده إلى حسن التلطّف، إلى الذى نشاء من الأمن، فحسم الداء، و اجتثّ الأعداء، و ناصح الإسلام و هو أعدا عدوه، و حزم الدين، و هو المعطل من أدوائه، و صارت صغرى عناية اللّه بنا، التى كانت العظمى، و اندرجت أولاها فى الأخرى، و أتت ركائب اليمن و اليمين تترى، و رأى المؤمنون أن اللّه لم يخلق هذا الصّقع سدى و لا هباء عبثا، و أن له فينا خبيئة غيب، و سرّ عناية، يبلّغنا إيّاها، و يطوّقنا طوقها، لا مانع لعطائه، و لا معدّد لآلائه، له الحمد ملء أرضه و سمائه.

فمن اضطردت له هذه العجائب، فحملته عوائق الاستقامة مزية جيوب التقوى، كيف لا يتمنّى، و يدين للّه بمناصحته، و يحذر عناد اللّه بمخالفته، و يخشى عاقبة أمره، إنها لا تعمى الأبصار، و لكن تعمى القلوب التى فى الصدور. فقلّمنا أظفار المطالبة و أغضينا عن البقيّة و سوّغنا من كشف وجهه فى حربنا نعمة الإبقاء، و أقطعنا رحم من قطع طاعتنا جانب الصّفح، و أدررنا لكثير ممن شحّ عنّا و لو بالكلمة الطيّبة جورية الرزق، و وهنا ما وجب لنا من الحق، و دنّا له بكظم الغيظ؛ و عمرنا الرّتب بأربابها،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰

و جردنا الألقاب بعد خرابها، و قبضنا الجباية محمّلة كتد العادة، مقودة بزمام الرّفق، ممسوحا عطفها بكفّ الطواعية، فبلّلنا صدأ الجيش الممطول بالأمانى، المعلّل بالكذب، المستخدم فى الذبّ عن مجاثم الفحشاء، و مراقد العهر، و دارينا الأعداء، و حسمنا الداء، و ظهر أمر اللّه و هم كارهون، إلّا أن تلك الشّر ذمة الخبيثة أبقت جراثيم نفاق، ركبها انحجار الغدر، و بذر بها حصيد الشّرّ، و أخلطوا الحقائب اللّعنة ممن ساء ظنّه، و خبث فكره، و ظنّ أن العقاب لا يفلته، و الحقّ لا يذره، و السياسة لا تحفزه، فدبّت عقاربهم، و تدارت طوافاتهم، و تأبّت فسادهم، فدبّروا أمرا تبره اللّه تتبيرا، و أوسعه خزيا و بيلا، و جفلوا يرتادون من أذيال القرابة، من استخلصه الشيطان و أصحبه الخذلان، من لا يصلح لشىء من الوظائف، و لا يستقلّ ببعض الكلف، فحركوا منهم زاهق زمانه، من شرّ الدّواب الذين لا يسمعون، فأجّرهم رسنه، و توقف وقفة العين بين الورد و الصّدر، بخلال ما أطلعنا اللّه طلع نيّته، فعاجلناه بالقبض، و استودعناه مصفدا ببعض الأطباق البعيدة، و الأجباب العميقة، فخرج أمرهم، و خافوا أن نحترش السعايات، صباب مكرهم، و تتبع نفاقهم، فأقدموا إقدام العير على الأسد، استعجالا للحين، و رجعا لحكم الخيار، و إقداما على التى هى أشدّ، تولّى كبرها، و كشف وجهه فى معصيتها الخبيث البركى حلف التهور و الخرق، المموّه بالبسالة و هو الكذوب النّكوث الفلول، تحملنا هفوته، و تغمّدنا بالعفو قديما و حديثا زلّته، و أعرضنا فيه عن النّصيحة، و أبقينا له حكم الولاية، و أنسنا من نفرته، و تعاففنا عن غرّته، و سوّغنا الجرائم التى سبقت، و الجرائر التى سلفت، من إفساد العهد و أسر المسلمين، و الافتيات على الشرع، و الصّدوع بدعوى الجاهلية، فلم يفده إلّا بطرا، و لم يزده إلّا مكرا، و الخير فى غير أهله يستحيل شرّا، و النفع ينقلب ضرّا. و التفّت عليه طائفة من الخلائق، بنو غرّون قرعاء الجبل و المشأمة، و أذناب بيت الإدبار، و نفاية الشرّار، عرك جرأتهم مكان صهرهم البائس، ابن بطرون، الضعيف المنّة السقيط الهمّة، الخامل التفصيل و الجملة، و غيرهم ممن يأذن اللّه بضلال كيدهم و تخييب سعيهم، فاقتحموا البلد صبيحة يهتفون بالناس أن قد طرق حمامهم، و أن العدو قد دهمهم، ملتفتين يرون أنهم فى أذيالهم، و أنّ رماحهم تنهشهم و تنوشهم، و سرعانهم ترهقهم، كأنهم سقطوا من السماء، أو ثاروا من بين الحصباء، ثم جالوا فى أزقّة البلد يقذفون فى الصّفاح نار الحباحب ركضا فوق الصّخر المرصوف،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱

و خوضا فى الماء غير المرهوف. ثم قصدوا دار الشيخ البائس على بن أحمد بن نصر، نفاية البيت، و دردى القوم، ممسوخ الشكل، قبيح اللّثغ، ظاهر الكدر، لإدمان المعاقرة، مزنون بالمعاقرة و الرّبت على الكبرة، ساقط الهمّة، عديم الدّين و الحشمة، منتمت فى البخل و الهلع، إلى أقصى درجات الخسّة، مثل فى الكذب و النميمة، معيّب المثانة، لا يرق بوله، و لا يجفّ سلسه، فاستخرجوه مبايعا فى الخلافة، منصوبا بأعلى كرسى الإمامة، مدعوما بالأيدى لكونه قلقا لا يثبت على الصّهوة، مختارا لحماية البيضة، و العدل فى الأمة، مغتما للذبّ عن الحنيفية السّمحة، و صعدوا به إلى ربوة بإزاء قلعتنا، منتثرا باب البنود ، مستندا إلى الربض، مطلا على دار الملك، قد أقام له رسم الوزارة ابن مطرون الكارى، الكسح الدروب برسم المسومة، الحرد، المهين الحجة، فحل طاحونة الغدر، و قدر السّوق و الخيانة، و اليهودى الشكل و النّحل، و قرعت حوله طبول الأعراس، إشادة بخمول أمره، و استهجان آلته، و نشرت عليه راية فال رأيها، و خاب سعيها، و دارت به زعنفة من طغام من لا يملى و لا يزيد المكا و الصّغير من حيله، و انبثّت فى سكك البلد مناديه، و هتف أولياء باطله باسمه و كنيته، و انتجزوا مواعيد الشيطان فأخلفت، و دعوا سماسير الغرور فصمّت، و قدحوا زناد الفتنة فصلدت و ما أوارت. و لحين شعرنا بالحادثة، و نظرنا إلى مرج الناس، و اتصل بنا ريح الخلاف، و جهير الخلعان، استعنّا باللّه و توكلنا عليه، و فوّضنا

أمرنا إلى خير الناصرين، و قلنا: ربّنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق، و أنت خير الفاتحين، و استركبنا الجند، و أذعنا خبر العطاء، و أطلقنا بريح الجهاد، و نفير الجلاد. و ملأنا الأكفّ بالسلاح، و عمرنا الأبراج بالرجال، و قرعنا طبول الملك، و نشرنا ألوية الحق؛ و استظهرنا بخالصة الأمراء أولياء الدعوة، و خاطبنا فقيه الرّبض، نخبر مخبره؛ و نسبر غوره، فألفيناه متواريا فى وكره، مرعيا على دينه، مشفقا من الإخطار برمّه، مشيرا بكمّه. و تفقّدنا البلد، فلم نرتب بأحد من أهله. فلما كملت البيعة، و فخمت الجملة، أنهدنا الجيش، وليّ أمرنا، الذى اتخذناه ظهيرا؛ و استنبطناه مشيرا، و التزمناه جليسا و صهيرا، و لم ندخر عنه محلّا أثيرا، الشيخ الأجلّ، أبا سعيد عثمان ابن الشيخ أبى زكريا يحيى بن عمر بن رحّو، ممهّد الرعب بقدومه، و السّعد فى خدمتنا بخدمه، فى جيش كثيف الجملة، سابغ العدّة، مزاح العلة، وافر النّاشية، أخذ بباب الربض و شعابه، و لفّ عليه أطنابه، و شرع إليه أمله. و لم يكن إلّا كلّا و لا، حتى داسه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۲

بالسّنابك، و تخلّفه مجرّ العوالى، و مجرى السوابق، و هو الحمى الذى لا يتوعد، و المجد الذى لا يغرب، فلو لا تظاهر مشيخته بشعار السّلم؛ و استظلاله بظلال العافية، لحثّ الفاقرة، و وقعت به الرّزيّة. و فرّ الأعداء لأول وهلة، و أسلموا شقيّهم أذلّ من وتد فى قاع، و سلحفة فى أعلى يفاع، فتقبّض عليه، و أخذت الخيل أعقاب الغدرة أشياعه، و قيد إلينا يرسف فى قيد المهزم، ثعلبان مكيدة، و شكيّة ضلال و مظنّة فضيحة، و أضحوكة سمر. فتضرّع بين أيدينا، و أخذته الملامة، و علاه الخزى، و ثلّ إلى المطبق، حتى نستدعى حكم اللّه فى جرمه، و نقتضى الفتيا فى جريرته، و نختار فى أقسام ما عرضه الوحى من قتلته. و هدأت الثائرة، و الحمد للّه من يومها، و اجتثّت شجرة الخلاف من أصلها، فالحمد للّه الذى أتمّ نوره و لو كره الكافرون إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۹) . و ما ذا رابهم منّا، أصغر اللّه منقلبهم، و أخزى مردّهم، و استأصل فلكهم؟ أولا يتبنى أمر وارثه، ثم عوده إلينا طواعية، ثم رفعنا وطأة العدو و حربه، و مددنا ظلال الأمن دفعة، و أنفأنا رمق الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلّا ما عرفوا من أمنه، و بلوا من حيطته و تسوّغا من هدنة، و انسحبت فوق آمالهم و حريمهم من عفّة، و أظهر اللّه علينا من نعمة. ربّنا أنك تعلم ما نخفى و ما نعلن، و ما يخفى على اللّه من شىء فى الأرض و لا فى السماء. اللهمّ ألبسنا سريرتنا، و عاملنا بدخلتنا فيهم، و إن كنّا أردنا لجماعتهم شرّا، و فى دينهم إغماضا، و عن العدل فيهم عدولا، فعاملنا بحسب ما تبلوه من عقيدنا، و تستكشفه من خبيئتنا، و إن كنت تعلم صحة مناصحتنا لسوادهم؛ و استنفادنا الجهد فى إتاحة عافيتهم، و رعى صلاحهم، و تكيف آمالهم، فصل لنا عادة صنعك فيهم، و مسّلنا طاعتهم، واهد بنا جماعتهم، و ارفع بنظرنا إطاعتهم، يا أرحم الراحمين.

و لما أسفر صبح هذا الصّنع عن حسن العفو، و استقرّ على التى هى أزكى، و ظهر لنا، لا تخاف بالله دركا و لا تخشى، و أن سبيل الحق أنجى و محجّته أحجى، خاطبنا كم نجلو نعم اللّه قبلنا عليكم، و نشيد بتقوى اللّه بناديكم، و عنايته لدينا ولديكم، و نهدى طرف صنعه الجميل قبلنا إليكم ليكسبكم اعتبارا، فزجّوا اللّه و قارا، و تزيّدوا يقينا و استبصارا، و تصفّوا العين من اختار لكم اختيارا. و هو حسبنا و نعم الوكيل، و اللّه يصل سعدكم، و يحرس مجدكم. كتب فى كذا. و السلام عليكم، و رحمة اللّه و بركاته.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۳

الجهاد فى شعبان من عام سبعة و ستين و سبعمائة:

اقتضى نظر الحزم، و رأى الاجتهاد للإسلام إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، و شهر الذكر، و اكتسحت الماشية، و ألحم السيف. و كان ثغر برغة، الفائزة به يد الكفرة، لهذه السنين القريبة، قد أهمّ القلوب، و شغل النفوس، و أضاق الصدور، لانبتات مدينة رندة، بحيث لا يخلص الطّيف، و لا تبلغ الرسالة من الطّير و غيرها إلى ناحية العدو، فوقع العمل على قصده و استعانة اللّه عليه، و استنفر لمنازلته أهل الجهات الغربية من مالقة و رندة، و ما بينهما، و يسّر اللّه فى فتحه، بعد قتال شديد، و حرب عظيمة، و جهاد شهير، و استولى المسلمون عليه، فامتلأت أيديهم أثاثا و سلاحا و رياشا و آلة، و طهّرت للحين مساجده، و

زيّنت بكلمة اللّه مشاهده، و أنست بالمؤمنين معاهده، و رتّبت فيه الحماة و الرماة، و الفرسان الكماة، و اتّصلت بفتحة الأيدى، و ارتفعت العوائق، و أوضحت بين المسلمين و أخوانهم السبل، و الحمد للّه. و توجّهت بفتحه الرسائل، و عظمت المنن الجلائل، و فرّ العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحفرة اللّويشيّة، و سدّ الطريق الماثلة، و ذلك كله فى العشر الأوسط لشعبان من هذا العام. ثم أجلب المسلمون فى رندة فى أخرياته و قصدوا باغة و جيرة فاستنزلوا أهلها، و افتتحوها، فعظمت النعمة، و اطّرد الفتح، و اتسعت الجهة.

و كانت مما خوطبت به الجهة المرينيّة من إملائى:

المقام الذى نبشره بالفتح و نحيّيه، و نعيد له خبر المسرّة بعد أن نبديه؛ و نسأل اللّه أن يضع لنا البركة فيه، و نشرك مساهمته فيما نهصره من أغصان الزهور و نجنيه، و نعلم أن عزّة الإسلام و أهله أسنى أمانيه، و إعانتهم أهمّ ما يعنيه. مقام محلّ أخينا الذى نعظم قدره، و نلتزم برّه، و نعلم سرّه فى مساهمة المسلمين و جهره؛ السلطان الكذا، الذى أبقاه اللّه فى عمل الجهاد و نيّته؛ متكفلة بنشر كلمة اللّه طويّته، متممة من ظهور الدين الحنيف أمنيته، معظّم جلاله، و مجزل ثنائه، و مؤمّل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادى و اعتنائه، أيّد اللّه أمره، و أعزّ نصره. سلام كريم عليكم، و رحمة اللّه و بركاته. أما بعد حمد اللّه، و اصل سبب الفتوح، و مجزل مواهب النّصر الممنوح، و مؤيد الفئة القليلة بالملائكة و الرّوح، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد نبيّه، الآتى بنور الهدى بيّن الوضوح، الداعى من قبوله و رضوانه إلى المنهل المورود و الباب المفتوح، و الرّضا عن آله و أصحابه، أسود السّروج و حماة السّروح، و المقتفين

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۴

نهجه فى جهاد عدوّ اللّه بالعين القارّة و الصدر المشروح، و الدعاء لمقامكم العلى بالعز الرفيع الصّروح، فإنا كتبناه إليكم، كتب اللّه لكم سبوغ المواهب، و وضوح المذاهب، و عزة الجانب، و ظفرة الكتائب. من حمراء غرناطة حرسها اللّه، و نعم اللّه واكفة السحائب، كفيلة بنيل الرغائب، و اللّه يصل لنا و لكم عوارف اللطائف، و يجعل الشّهيد دليلا على الغائب. و إلى هذا وصل اللّه إعزازكم، و حرس أحوازكم، و عمر بالحقيقة من أمراد مجازنا و مجازكم. فإنّا بادرنا تعريفكم بما فتح اللّه علينا من الثغر العزيز على الإسلام، العائد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام، ركاب الغارات، و ممكّن حياة المضرّات، و مخيف الطريق السابلة؛ و المسارح الآهلة، حصن برغة. و يسّر اللّه فى استرجاعه، مع شهرة امتناعه، و تطهّر من دنس الكفّار، و أنيرت مئذنته بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار، و عجلنا ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها، و وفت الأوتار أوبارها، فسار الكتاب إليكم، و أجير الأجر لم يجفّ عرقه، و عذر الاستعجال لاحبة طرقه. و لما عدنا إلى حضرتنا، بعد ما حصّناه و عمّرناه، و أجزلنا نظر الحزم له و فرقناه، لم تكد البنود لمسرّة فتحه أن تعاد إلى أماكن صونها، مرتقبة عادة اللّه فى عونها، حتى طرقت الأنباء السارة بتوالى الصنع و انفراده، بتشفيع أفراده، و ذلك أن أهل رندة، حرسها اللّه، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة، كان اللّه لجميعهم، و تولّى شكر صنيعهم، فيما كان من امتيازهم بحصن برغة، الجار المصاقب لها، فحميت هممهم السنيّة، و هانت فى اللّه موارد المنيّة، و تضافر العمل و النيّة، و ظهر نجح المقاصد الدينية فى إتاحة الفتوح الهنيّة، فوجهوا نحو حصن و حبر، و هو الداين صحر المدينة و نحرها، و العدوّ الذى لا يفتر عن ضرّها، و الحيّة الذكر التى هى مروان أمرها؛ ففتحوه بعون اللّه و قوته، و تهنّوا بعده سلوك الطريق، و إشاعة الريق، و مراصد الحرس، و مجلوّ الجرس، و أنصفوا، و انصرفوا إلى حصن باغة، من مشاهد تلك الحفرة، فناشبوه القتال، و أذاقوه الوبال، و فوقوا إليه النّبال، ففتحه اللّه فتحا هنيا، لم تفتّ فيه للمسلمين نفس، و لا تطرّق لنصر التيسير لبس، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتوالية، و المنن المتقدّمة و التالية، و أعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة المراقب، و الطبول إلى قرعها عملا من الإشارة بالواجب، و شكرنا اللّه على اتصال المواهب، و وضوح المذاهب، و خاطبنا مقامكم الذى نرى الصّنائع متواترة بنيّته الصالحة و قصده، و يعتد فى الحرب و السلم بمجده، علما بأن هذه المسرّات، نصيبكم منها النصيب الأوفى؛ و ارتياحكم إلى مثلها لا يخفى. و نحن نرقب ما تنجلى عنه هذه النكايات التى تفتّت كبد العدو تتاليها، و تروع

أحوازه و ما يليها، و لا بدّ له من امتعاض يروم به صرع المعرّة، و يأبى اللّه أن ذلك يأتى بالكرّة، و اللّه يجعلها محركات لحتفه المرقوب، و حينه المجلوب، و يحقق حقّ القلوب، فى نصرة المطلوب، عرّفناكم بما تريدون

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ۲، ص: ۴۵

عملا بواجب برّكم، و معرفة بقدركم، و ما يتزايد نعرفكم به، و يتصل سبب التأكيد و التعجيل بسببه، و السلام.

الغزاة إلى حصن أشر :

و فى أوائل شهر رمضان بعده، أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أشر، و هو قفل الثغر الذى فضّه الطاغية، و سورها الذى فرغه الكفر، و جارحه المحلّق على البلاد، و المتحكم لو لا فضل اللّه فى الأموال و الأولاد، فتأذن اللّه برد مغتصبه، و الشّفا من وصبه، و أحاط به و ناصبه الحرب، ففتحه اللّه على يده عنوة، على سموّ ذروته، و بعد صيته و شهرته، و اختيار الطاغية فى حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، و حمل كلّها فوق كاهله، و اتّقاد ما حمد من الحميّة بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من استخلاص القصبة و سدّ ثلمها بيده، و مصابرة جو القيظ عامّة يومه، فحاز ذكرا جميلا و حلّ من القلوب محلّا أثيرا، و رحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة متخيرة، و من الرّماة جملة، و تخلّف سلاحا و عدّة، فكان الفتح على المسلمين، فى هذا المعقل العزيز عليهم جليلا و المنّ من اللّه جزيلا و الصنع كثيرا، و صدرت المخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلى من السجع الغنى.

الغزاة المعملة إلى أطريرة :

فى شهر شعبان من عام ثمانية و ستين و سبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أطريرة بنت إشبيلية، و بلدة تلك الناحية الآمنة، مهاد الهدنة البعيدة عن الصّرمة، حرك إليها بعد المدى، و آثرها بمحض الرّدى، من بين بلاد العدا، ما أسلف به أهلها المسلمين، من قتل أسراهم فى العام قبله. فنازلها السلطان أول رمضان، و ناشبها الحرب و استباح المدينة و ربضها عنوة، و لجأ أهلها إلى قصبتها المنيعة، ذات الأبراج المشيّدة، و أخذ القتال بمخنّقهم، و أعان الزحام على استنزالهم، فاستنزلوا على حكم المسلمين، فيما يناهز خمسة، بما لم يتقدمه عهد؛ و لا اكتحلت به فى هذه المدة عين، و لا تلقته عنها أذن، و امتلأت أيدى المسلمين، بما لم يعلمه إلّا اللّه، من شتّى الغنائم، و أنواع الفوائد، و اقتسم الناس السّبى ربعا على الأكفال و الظهور، و تقديرا بقدر الرجال، و حملا فوق الظهور للفرسان، و عمرانا للسروج

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ۲، ص: ۴۶

و الأعضاد بالصّبية، و برز الناس إلى ملاقاة السلطان، فى هول من العزّ شهير من الفخر، و بعيد من الصيت، قرّت له أعينهم، و قعد لبيعتهم أياما تباعا، و ملأ بهم البلاد هدايا و تحفا و الحمد للّه، و صدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائى.

الغزاة إلى فتح جيّان:

و فى آخر محرم من عام تسعة و ستين و سبعمائة، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جيان، إحدى دور الملك، و مدن المعمود، و كرسيّة الإمارة، و لو أن المدن الشهيرة افتتحها اللّه عنوة، و نقل المسلمون ما اشتملت عليه من النّعم و الأقوات و الأموال و الأنعام و الأثواب و الدّواب و السّلاح، و مكّنهم من قتل المقاتلة، و سبى الذرية، و تخريب الديار، و محو الآثار، و استنساف النّعم، و قطع الأشجار. و هذا الفتح خارق، تعالى أن يحيط به النّظم و النثر. فذكره أطير، و فخره أشهر. و صدرت فى ذلك المخاطبة من إملائى

إلى ملك المغرب. و أصاب الخلق عقب القفول فى هذه الغزاة، مرض وافد، فشا فى الناس كافة، و كانت عاقبته السّلامة؛ و تدارك اللّه بلطفه، فلم يتّسع المجال لإنشاد الشعراء، و مواقف الإطراء، إلى شغل عن ذلك.

الغزاة إلى مدينة أبدة:

و فى أول ربيع الأول من هذا العام، كان الغزو إلى مدينة أبدة، و احتلّ بظاهرها جيش المسلمين، و أبلى السلطان فى قتالها، و قد أخذت بعد جارتها جيّان أقصى أهبة، و استعدّت بما فى الوسع و القوة، و كانت الحرب بها مشهورة. و افتتحها المسلمون فانتهبوها، و أعفوا مساكنها العظيمة البناء، و كنائسها العجيبة المرأى، و ألصقوا أسوارها بالثّرى، و رأوا من سعة ساحتها، و بعد أقطارها، و ضخامة بنائها، ما يكذّب الخبر فيه المرأى، و يبلّد الأفكار، و يحيّر النّهى. و للّه الحمد على آلائه التى لا تحصى. و قفل المسلمون عنها، و قد أخربوها، بحيث لا تعمر رباعها، و لا تأتلف حجورها و جموعها. و صدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائى بما نصّه: و إلى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة، بطره بن أدفونش بن هراندة بن شانجه، و هو الذى تهيأ به الكثير من الصّنع للمسلمين، بمزاحمة أخيه أندريق فى الملك و تضييقه عليه، و حياز سبعة من كبار أصحابه، و أهل ملّته إليه، و افتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين، و إجلابهم على من آثر طاعته ضدّه، فانهزم بظاهر حصن منتيل، و معه عدد من فرسان المسلمين، و لجأ إلى الحصن على غير أهبة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۷

و لا استعداد، فأخذ أخوه الذى هزمه بمخنّقه، و أدار على الحصن البناء، و فرّ جيش المحصور، فاجتمع فلّه بأحواز أبدة، و راسلوا المسلمين فى مظاهرتهم على استنقاذهم، فتوجهت الفتيا بوجوب ذلك. و وقع الاستنفار و الاحتشاد حرصا على تخليصه، ليسبّب بقاؤه بقاء الفتنة تستأصل الكفر، و تشغل بعض العدو ببعضه.

و فى أثناء هذه المحاولة تباطن الحاين المحصور بمن معه، و بعد عليه الخلاص من ورطته، و مساهمة المسلمين إياه فى محنته؛ و انقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته، فداخل بعض أمراء أخيه و ظهرائه، ممن يباشر حصاره، و كان قومسا شهيرا من المدد الذى ظاهره، من أهل إفرنسية، و وعده بكل ما يطمع من مال و مهد، و توفية عهد، فأظهر له القبول، و أضمر الخديعة. و لما نزل إليه، سجنه و من لحق به من الأدلّاء و أولى الحرّة بالأرض و أمسكه، و قد طيّر الخبر إلى أخيه، فأقبل فى شرذمة من خواصّه و خدّامه، فهجم عليه و قتله، و أوسع العفو من كان محصورا معه، و طير إلى البلاد برأسه، و أوغر التّبن فى جثّته، و لبس ثياب الحزن من أجله، و إن كان معترفا بالصّواب فى قتله، و خاطب البلاد التى كانت على مثل الجمر من طاعة الجاهر بمظاهرة المسلمين، و ما جرّ ذلك من افتتاح بلادهم، و تخريب كنائسهم، و الإتيان على نعمهم، فأجابته ضربة، و اتفقت على طاعته، فلم يختلف عليه منها اثنان، إلّا ما كان من مدينة قرمونة. و اجتمعت كلمة النصارى، و وقع ارتفاع شتاتهم، و صرفوا وجوههم إلى المسلمين، و شاع استدعاؤهم جميع من بأرض الشرق من العدوّ الثقيل ببرجلونة ، و عدوّ الأشبونة، و العدو الثّقيل الوطأة بإفرانسيّة. و قد كان اللّه، جلّ جلاله، ألهم أهل البصائر النظر فى العواقب، و الفكر فيما بعد اليوم أعمل. و وقع لى إذن السلطان، المخلى بينى و بين النصائح، فى مخاطبة سلطان النصارى المنكوب لهذا العهد، فأشرت عليه بالاحتراز من قومه، و التّفطّن لمكايد من يحطب فى حبل أخيه، و أريته اتخاذ معقل يحرز ولده و ذخيرته، و يكون له به الخيار على دهره، و استظهرت له على ذلك بالحكايات المتداولة، و التواريخ المعروفة، لتتّصل الفتنة بأرضهم، فقبل الإشارة و شكر النصيحة، و اختار لذلك مدينة قرمونة المختصّة بالجوار المكتّب، من دار ملكهم إشبيلية، فشيّد هضابها، و حصّن أسوارها، و ملأها بالمخازن طعاما و عدّة، و استكثر من الآلات، و استظهر عليها بالثّقات، و نقل إليها المال و الذخيرة، و سجن بها رهان أكابر إشبيلية، و أسرى المسلمين، و بالغ فى ذلك، فيما لا غاية وراءه و لا مطمع، و لا ينصرف إلى مصرعه الذى دعاه القدر إليه، حتى تركها عدّة خلفه، و أودع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۸

بها ولده و أهله، و لجأ إليها بعض من خدّامه ممن لا يقبل مهدنة ضدّه، و لا يقرّ أمان عدوه، و التفوا على صغير من ولده كالنّحل على شهده، و لجأوا إلى المسلمين، فبغّض عليهم الكرّة و الفتح بقاء هذا الشّجى المعترض فى حلقه، و أهمّه تغيير أمره، و جعجع به المسلمون لأجله، و أظهروا لمن انحاز بقرمونة الامتساك بعهده، فعظم الخرق، و أظهر اللّه نجح الحيلة، و صدّق بها المخيّلة، و تفتّر الأمر، و خمدت نار ذلك الإرجاف، و اشتغل الطاغية بقرمونة، بخلال ما خوطب به صاحب الأرض الكبيرة ، فطمّعه فى المظاهرة، و تحطّب له ملك قشتالة، و عقد السّلم مع صاحب برطغال و الأشبونة، و نشأت الفتن بأرضهم، و خرجت عليهم الخوارج، فأوجب إزعاجه إلى تلك الجهة، و إقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان و الحماة تقاتل و تدافع عن أحوازها، و جعل الخصص موجّهة قرمونة، و انصرف إلى سدّ الفتوق التى عليه بلطف الحيلة، ببواطن أرضه، و أحشاء عمالته، و صار فى ملكه أشغل من ذات النّحيين، فساغ الرّيق، و أمكن العذر، و انتهز الغرّة، و استؤنفت الحركة، فكانت إلى حصن منتيل و الحويز، ففتحهما اللّه فى رمضان من عام سبعين و سبعمائة، ثم إلى ثغر روطة، ففتحه اللّه عن جهد كبير، و اتصل به حصن زمرة، فأمّن الإسلام عادية العدوّ بتلك الناحية، و كبس أهل رندة بإيعاز من السلطان إليها و إلى من بالجبل، جبل الفتح، حصن برج الحكيم و القشتور، فيسّر اللّه فتحهما فى رمضان أيضا.

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء ، باب الأندلس، و بكر الفتح الأول، فكانت الحركة إليها شهر ذى الحجة من العام المذكور. و وقع تحريض الناس بين يدى قصدها فى المساجد بما نصّه:

معاشر المسلمين المجاهدين، و أولى الكفاية عن ذوى الأعذار من القاعدين، أعلى اللّه بعلوّ أيديكم كلمة الدين، و جعلكم فى سوى الأجر و الفخر من الزاهدين، اعلموا، رحمكم اللّه، أن الإسلام بالأندلس ساكن دار، و الجزيرة الخضراء بابه، و مبعد مغار، و الجزيرة الخضراء ركابه، فمن جهتها اتصلت فى القديم و الحديث أسبابه، و نصرته على أعدائه و أعداء اللّه أحبابه، و لم يشكّ العدو الكافر الذى استباحها، و طمس بظلمة الكفر صباحها، على أثر اغتصابها، و اسوداد الوجوه المؤمنة لمصابها، و تبديل محاربها، و علوق أصله الخبيث فى طيّب تراثها، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف لا ينتعش و لا يقوم، بعد أن فرى الحلقوم، و أن الباقى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۹

رمق يذهب، و قد سدّ إلى التّدارك المذهب، لو لا أن اللّه دفع الفاقرة و وقاها، و حفظ المسكنة و استبقاها، و إن كان الجبل عصمة اللّه نعم البقية، و بمكانه حفّت التقية، فحسبك من مصراع باب فجع بثانيه، و مضايق جوار حيل بينه و بين أمانيه.

و الآن، يا عباد اللّه، قد أمكنكم الانتهاز، فلا تضيّعوا الفرصة، و فتر المخنّق فلا تسوّغه غصّة، و اعمروا البواطن بحميّة الأحرار، و تعاهدوا مع اللّه معاهد الأولياء الأبرار، و انظروا للعون من الذّرارى و الأبكار، و النشأة الصّغار، زغب الحواصل فى الأكوار، و الدين المنتشر بهذه الأقطار، و اعملوا للعواقب تحمدوا عملكم، و أخلصوا للّه الضمائر يبلّغكم من فضله أملكم، فما عذر من سلّم فى باب و كره، و ما ذا ينتظر من أذعن لكيد عدوّه و مكره. من هذه الفرضة، دخل الإسلام تروّع أسوده، و من هذه الجهة طلع الفتح الأول تخفق بنوده، و منها تقتحم الطير الغريب، إذا رامت الجواز و فوده، فيبصر بها صافّات و الدليل يقوده. الباب المسدود، يا عباد اللّه، فافتحوه، وجه النّصر تجلّى يا عباد اللّه فالمحوه، الداء العضال يا عباد اللّه فاستأصلوه، حبل اللّه يا رجال اللّه قد انقطع فصلوه. فى مثلها ترخص النفوس الغالية، فى مثلها تختبر الهمم العالية، فى مثلها تشهر العقائد الوثيقة، و تدسّ الأحباس العريقة، فنضّر اللّه وجه من نظر إلى قلبه، و قد امتلأته حميّة الدين، و أصبح لأن تكون كلمة اللّه هى العليا متهلّل الجبين.

اللهمّ إنّا نتوسّل إليك بأسرار الكتاب الذى أنزلته، و عناية النبىّ العربى الذى أوفدت من خصوص الرّحمات و أجزلت، و بكل نبىّ ركع لوجهك الكريم و سجد، و بكل ولىّ سدّه من إمدادك كما وجد، ألا ما رددت علينا ضالّتنا الشاردة، و هنّأتنا بفتحها من نعمك الواردة، يا مسهل المآرب العسرة، يا جابر القلوب المنكسرة، يا ولىّ الأمة الغريبة، يا منزل اللطائف القريبة، اجعل لنا من ملائكة

نصرك مددا، و أنجز لنا من تمام نورك الحقّ موعدا. ربّنا آتنا من لدنك رحمة، و هيّئ لنا من أمرنا رشدا.

فوقع الانفعال، و انتشرت الحميّة، و جهزت الأساطيل. و كانت منازلتها يوم السبت الثالث و العشرين من الشهر المذكور، و عاطاها المسلمون الحرب، فدخلت البنية و هى المدينة الملاصقة لها عنوة، قتل بها من الفرسان الدّارعة عدّة، و صرفت الغنائم إلى المدينة الكبرى، فرأوا من أمر اللّه، ما لا طاقة لهم به، و خذلهم اللّه جلّ

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۰

جلاله، على منعة الأسوار و بعد مهاوى الأغوار، و كثرة العدّ و العدد، و طلبوا الأمان لأنفسهم، و كان خروجهم عنها يوم الاثنين الخامس و العشرين من الشهر المذكور، السعيد على المسلمين، فى العيد و السرور، برد الدين، و للّه الحمد على آلائه، و توالى نعمه و إرغام أعدائه.

و فى وسط ربيع الأول من عام أحد و سبعين و سبعمائة، أعمل الحركة إلى أحواز إشبيلية دار الملك، و محل الشّوكة الحادّة، و بها نائب سلطان النصارى، فى الجمع الخشن من أنجاد فرسانهم، و قد عظم التضييق ببلدة قرمونة، المنفرد بالانتزاء على ملك النصارى، و الانحياز إلى خدمة المسلمين، فنازل المسلمون مدينة أشونة ، و دخلوا جفنها عنوة، و اعتصم أهلها بالقصبة، فتعاصت، و استعجل الإقلاع منها لعدم الماء المروى و المحلّات، فكان الانتقال قدما إلى مدينة مرشانة و قد أحدقوا بها، و بها العدّة و العديد من الفرسان الصّناديد، ففتحها اللّه سبحانه، إلّا القصبة، و استولى المسلمون فيها، و فى جارتها، من الدواب و الآلات على ما لا يأخذه الحصر، و قتل الكثير من مقاتلتها، و عمّ جميعها العدم و الإحراق، و رفعت ظهور دواب المسلمين من طعامها ما تقلّه أظهر مراكب البحار، ما أوجب فى بلاد المسلمين التّوسعة، و انحطاط الأسعار، و أوجب الغلاء فى أرض الكفّار، و قفل، و الحمد للّه، فى عزّ و ظهور، و فرح و سرور.

مولده السعيد النّشيئة ، الميمون الطلوع و الجيئة:

المقترن بالعافية، منقولا من تهليل نشأته المباركة، و حرز طفولته السعيدة، فى نحو ثلث ليلة الاثنين و العشرين من جمادى الآخرة عام تسعة و ثلاثين و سبعمائة. قلت: و وافقه من التاريخ الأعجمى رابع ينير من عام ألف و ثلاثمائة و سبعة و سبعين لتاريخ الصّفر. و اقتضت صناعة التعديل بحسب قيمودا و بطليموس، أن يكون الطالع ببرج القمر؛ لاستيلائه على مواضع الاستقبال المتقدم للولادة، و يكون التخمين على ربع ساعة و عشر ساعة، و ثلث عشر الساعة السادسة من ليلة الاثنين المذكورة، و الطالع من برج السّنبلة، خمس عشرة درجة، و ثمان و أربعون دقيقة من درجة. كان اللّه له فى الدنيا و الآخرة، و حسبنا اللّه و نعم الوكيل.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۱

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجى الأنصارى

اشارة

من ولد سعد بن عبادة، صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ابن سليمان بن حارثة بن خليفة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمر بن يعرب بن يشجب بن قحطان بن هميسع بن يمن بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم صلّى اللّه عليه و على محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس و دايلها خدمة النّصريين بها. يكنى أبا عبد اللّه، و يلقب بالغالب بالله.

أوّليته: و قد اشتهر عند كثير ممن عنى بالأخبار أن هذا البيت النّصرى من ذرّية سعد بن عبادة سيد الخزرج، و صاحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و صنّف الناس فى اتصال نسبهم بقيس بن سعد بن عبادة غير ما تصنيف. و أقوى ما ذكر قول الرّازى: دخل الأندلس من ذرّية سعد بن عبادة رجلان، نزل أحدهما أرض تاكرونّا، و نزل الآخر قرية من قرى سقر سطونة، تعرف بقرية الخزرج، و نشأ

بأحواز أرجونـة من كنبانيّة قرطبـة، أطيب البلاد مـدرة، و أوفرها غلّة، و هو بلده، و بلد جدّه، فى ظل نعمة، و علاج فلاحة، و بين يدى نجدة و شـهرة، بحيث اقتضى ذلك، أن يفيض شريان الرياسة، و انطوت أفكاره على نيل الإمارة، و رآه مرتادو أكفاء الدول أهلا، فقد حوا رغبته، و أثاروا طمعه.

حدّث شـيخنا الكاتب الشاعر، محمد بن محمد بن عبد اللّه اللّوشـى اليحصبى، و قد أخبرنى أنه كان يوجد بمدينة جيّان رجل من أهل الماليّة، و كان له فرس أنثى من عتاق الخيل، على عادة أولى المالية، و كان له من أهل الثغور، من ارتباط الخيل، و التنافس فى إعداد القوة. و شـهرت هـذه الفرس فى تلك الناحيـة، و بعث الطّاغيـة ملك الروم فى ابتياعها، فعلقت بها كفّ هذا الرجل، و آثر بها نفسه، و ازداد غبطة بها لديه، و رأى فى النوم قائلا يقول له: سر إلى أرجونة، بفرسك، و ابحث عن رجل اسمه كذا، و صفته كذا، فأعطه إياها، فإنه سيملك جيّانا و سواها، ينتفع بها عقبك. و أرجىء الأمر، فعرض عليه ثانيـة، و حثّ فى ذلك فى الثّالثة، فسأل ثقة له خبيرا بتلك الناحية و أهلها، فقال له المخبر، و كان يعرف بابن يعيش، فوصفه له، فتوجه الفقيه إلى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۲

أرجونـة، و نزل بهـا، و تسومع به، و أقبل السـلطان و أظهاره، و تكلموا فى شأنه، فـذكر غرضه فيه، و أظهر العجز عن الثّمن، و سأل منه تأخير بعضه، فأسـعفه، و اشترى منه الفرس بمال له خطر. فلما كمل له القصـد، طلب منه الخلوة به فى المسـجد من الحصن، و خرج له عن الأمر، و أعطاه بيعته، و صرف عليه الثّمن، و استكتمه السلطان خيفة على نفسه، و انصرف إلى بلده.

قال: و فى العام بعده، دعا إلى نفسه بأرجونة، و تملّك مدينة جيّان، و اختلف فى السـبب الذى دعاه إلى ذلك، فقيل: إن بعض العمال أساء معاملته فى حقّ مخزنى، و قيل غير ذلك.

حاله: هـذا الرجل كان آية من آيات اللّه فى السّذاجة و السـلامة و الجمهورية، جنديّا، ثغريّا شـهما، أيّدا، عظيم التّجلّد، رافضا للدّعة و الرّاحة، مؤثرا للتقشف، و الاجتراء باليسير، متبلغا بالقليل، بعيدا عن التّصنّع، جافى السلاح، شديد العزم، مرهوب الإقدام، عظيم التّشمير، مقريا لضيفه، مصطنعا لأهل بيته، فظّا فى طلب حظّه، محميا لقرابته و أقرانه و جيرانه، مباشرا للحروب بنفسه، تتغالى الحكاة فى سلاحه، و زينة دبوره. يخصف النعل، و يلبس الخشن، و يؤثر البداوة، و يستشعر الجدّ فى أموره. سعد بيوم الجمعة، و كان فيه تملّكه جيّان؛ ثم حضرة الملك غرناطة، و قيل: يوم قيامه شرع فيه الصّدقة الجارية على ضعفاء الحضرة، و منائهم إلى اليوم.

و تملك مدينة إشبيلية فى أخريات ربيع الأول من عام ظهوره، و هو عام تسـعة و عشرين و ستمائة نحوا من ثلاثين يوما. و ملك قرطبة فى العشر الأول لرجب من العام المذكور، و كلاهما عاد إلى ملك ابن هود.

و لمـا تمّ له القصـد من تملّك البيضـة، و الحصول على العمّال، مباشـرا للحسابات بنفسه، فتوفّر ماله، و غصّت بالصامت خزائنه، و عقد السّلم الكبير، و تهنّأ أمره، و أمكنه الاسـتعداد، فـأنعم الأهواء، و ملأ بطن الجبل المتصل بالقلعـة حبوبا مختلفـة، و خزائن درّة، و مالا و سلاحا وارية ظهرا، و كراعا، فوجد فائدة استعداده، و لجأ إلى ما ادّخره من عتاده.

سيرته: تظاهر لأول أمره بطاعـة الملوك بالعـدوة و إفريقية، يخطب لهم زمانا يسـيرا، و توصل بسـبب ذلك إلى إمداد منهم و إعانة، و لقبل ما افتتح أمره بالدعاء للمستنصـر العباسـى ببغداد، حاذيا حذو سميّه ابن هود، للهجة العامة فى وقته، بتقلد تلك الدعوة، إلى أن نزع عن ذلك كله.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۳

و كان يعقد للناس مجلسا عاما، يومين فى كل أسـبوع، فترتفع إليه الظلامات، و يشافه طالب الحاجات، و تنشده الشـعراء، و تدخل إليه الوفود، و يشافه أرباب النصائح فى مجلس اختصّ به أهل الحضـرة، و قضاة الجماعة، و أولى الرتب النّبيهة فى الخدمة، بقراءة أحاديث من الصّحيحين، و يختم بأعشار من القرآن. ثم ينتقل إلى مجلس خاص، ينظر فيه فى أموره، فيصرف كل قصد إلى من يليق به ذلك، و يؤاكل بالعشيّات خاصته من القرابة؛ و من يليهم من نبهاء القوّاد.

أولاده: أعقب ثلاثة من الذكور، محمدا وليّ عهده و أمير المسلمين على أثره؛ و الأميرين أبا سعيد فرج، و أبا الحجاج يوسف؛ توفّيا على حياته؛ حسبما يتقرر بعد إن شاء اللّه.

وزراء دولته: وزر له جماعة؛ الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد، زعيم قاعدة جيّان؛ و هو الذى مكّنه من ناصية جيّان المذكورة. و استوزر على بن إبراهيم الشّيبانى من وجوه حضرته، و ذوى النّسب من الفضلاء أولى الدّماثة و الوقار. و استوزر الرئيس أبا عبد اللّه ابن الرئيس أبى عبد اللّه الرّميمى. و استوزر الوزير أبا يحيى ابن الكاتب من أهل حضرته، و غيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغا فيهم.

كتّابه: كتب له من الجلّة جماعة، كالكاتب المحدّث الشهير أبى الحسن على بن محمد بن محمد بن سعيد اليحصبى اللّوشى، و لما توفى كتب عنه ولده أبو بكر بن محمد. هؤلاء مشاهير كتّابه، و من المرؤوسين أعلام، كأبى بكر بن خطاب و غيره.

قضاته: ولى له قضاء الجماعة، القاضى العالم الشهير، أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى، من جلّة أهل الأندلس فى كبر البيت، و جلالة المنصب، و غزارة العلم. ثم ولى بعده الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن عبد الجليل بن غالب الأنصارى الخزرجى. ثم ولى بعده الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن عبد السلام التميمى، و هذا الرجل من أهل الدين و الأصالة، و آخر قضاة العدل. ثم ولى بعده الفقيه القاضى أبو عبد اللّه محمد بن عياض بن موسى اليحصبى. ثم ولى بعده الفقيه القاضى الحسيب أبو عبد اللّه بن أضحى، و بيته شهير، و لم تطل مدته. و ولى بعده آخر قضاته أبو بكر محمد بن فتح بن على الإشبيلى، الملقب بالأشبرون.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۴

الملوك على عهده:

بمرّاكش المأمون إدريس، مأمون الموحّدين، مزاحما بأبى زكريا يحيى بن الناصر بن المنصور بن عبد المؤمن بالجبل. و لما توفى المأمون ولى الرشيد أبو محمد عبد الواحد فى سنة ثلاثين و ستمائة، و ولى بعده أبو حفص عمر بن إسحاق المرتضى، إلى أن قتله إدريس الواثق أبو دبّوس فى عام خمسة و ستين. و ولى بعده يسيرا بنو عامر بن على بمراكش، و تعاقب منهم على عهده جلّة؛ كالأمير عثمان و ابنه حمو، و أخيه أبى يحيى بن عبد الحق. و استمرّ الملك فى أسنّ أملاكهم، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو إلى آخر أيامه.

و بتلمسان، شبيهه يغمراسن بن زيّان، أول ملوكهم، و تقدمه أخوه أكبر منه برهة. و يغمراسن أول من أثّل الملك، و حاز الذّكر، و استحق الشهرة.

و بتونس، الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص. و خاطبه السلطان المترجم به، و التمس رفده، و قد حصل على إعانته، و ولى بعد موته ولده المستنصر أبو عبد اللّه، و دامت أيامه إلى أول أيام ولد السلطان المترجم له عام أربعة و سبعين.

و بقشتالة هرانذة بن ألهنشة بن شانجه الإنبرطور. و هرانذة هذا هو الذى ملك قرطبة و إشبيلية، و لما هلك ولى بعده ألفنش ولده ثلاثا و ثلاثين سنة، و استمرّ ملكه مدة ولايته، و صدرا من دولة ولده بعده.

و برغون جايمش ابن بطره ابن ألفونش قمط برجلونه. و جايمش هذا هو الذى ملك بلنسية و صيّرها دار ملكه من يد أبى جميل زيّان بن مردنيش.

لمع من أخباره: قام ابن أبى خالد بدعوته بغرناطة، كما ذكر فى اسمه، و دعاه و هو بجيّان، فبادر إليها فى أخريات رمضان من عام خمسة و ثلاثين و ستمائة، بعد أن بعث إليه الملأ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مشيختهم؛ أبى بكر الكاتب، و أبى جعفر التّيزولى.

قال ابن عذارى فى تاريخه : أقبل و ما زيّه بفاخر، و نزل عشى اليوم الذى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۵

وصل بخارج غرناطة، على أن يدخلها من الغد، ثم بدا له فدخلها عند غروب الشمس، نظرا للحزم.

و حدّث أبو محمد البسطى قال : عاينته يوم دخوله و عليه شاشيّة ملفّ مضلعة أكتافها مخرّقة . و عند ما نزل بباب جامع القصبة، كان مؤذن المغرب فى الحيعلة، و إمامه يومئذ أبو المجد المرادى قد غاب، فدفع الشيخ السلطان إلى المحراب، و صلّى بهم، على هيئته تلك، بفاتحة الكتاب. و إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (۱) . و الثانية ب قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) . ثم وصل قصر باديس، و الشمع بين يديه .

و فى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، صالح طاغية الروم، و عقد معه السّلم الذى طاحت فى شروطه جيّان. و كان واقع بالعدو الراتب تجاه حضرته، المختص بحصن بليلش على بريد من الحضرة، و كان الفتح عظيما، ثم حالفه الصّنع بما يضيق المجال عن استيعابه. و فى حدود اثنين و ستين و ستمائة صالح طاغية الروم، و عقد معه السلم، و عقد البيعة لولى عهده، و استدعى القبائل للجهاد.

مولده: فى عام خمسة و تسعين و خمسمائة بأرجونة، عام الأرك .

وفاته: فى منتصف جمادى الثانية من عام واحد و سبعين و ستمائة، ورد عليه و قد أسنّ، جملة من كتّاب الزّعائم، يقودون جيشا من أتباعهم، فبرز إلى لقائهم بظاهر حضرته، و لما كرّ آئبا إلى قصره، سقط ببعض طريقه، و خامره خصر، و هو راكب، و أردفه بعض مماليكه، و اسمه صابر الكبير، و كانت وفاته ليلة الجمعة التاسع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۶

و العشرين لجمادى الثانية المذكورة، و دفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السّبيكة، و على قبره اليوم منقوش:

«هذا قبر السلطان الأعلى، عزّ الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالى و الأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة، قطب الملة، نور الشريعة، حامى السنّة، سيف الحق، كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الأعداء، قوام الأمور، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قامع الطغاة، قاهر الكفرة و البغاة، أمير المؤمنين، علم المهتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك و السلاطين، الغالب بالله، المجاهد فى سبيل اللّه، أمير المسلمين، أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى، رفعه اللّه إلى أعلى عليّين، و ألحقه بالذين أنعم اللّه عليهم من النبيّين و الصّدّيقين، و الشهداء و الصالحين. ولد، رضى اللّه عنه، و أتاه رحمة من لدنه، عام أحد و تسعين و خمسمائة، و بويع له يوم الجمعة السادس و العشرين من رمضان عام خمسة و ثلاثين و ستمائة، و كانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع و العشرين لجمادى الآخرة عام أحد و سبعين و ستمائة، فسبحان من لا يفنى سلطانه، و لا يبيد ملكه، و لا ينقضى زمانه، لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم».

و من جهة أخرى: [البسيط]

هذا محلّ العلى و المجد و الكرمقبر الإمام الهمام الطاهر العلم

للّه ما ضمّ هذا اللحد من شرفو من شيم علوية الشّيم

بالجود و الباس ما تحوى صفائحهلا بأس عنترة و لا ندى هرم

مغنى الكرامة و الرضوان يعهدهفخر الملوك الكريم الذات و الشيم

مقامه فى كلا يومى ندى و وغى كالغيث فى مجد و كالليث فى أجم

مآثر تليت آثارها سوراتقرّ بالحق فيها جملة الأمم

كأنه لم يسر فى محفل لجب تضيق عنه بلاد العرب و العجم

و لم يباد العدا منه ببادرةيفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم

و لم يجهز لهم خيلا مضمرةلا تشرب الماء إلّا من قليب دم

و لم يقم حكم عدل فى سياستهتأوى رعيته منه إلى حرم

من كان يجهل ما أولاه من نعمو ما حواه لدين للّه من حرم

فتلك آثاره فى كل مكرمةأبدى و أوضح من نار على علم

لا زال تهمى على قبر تضمّنه‌سحائب الرحمة الوكّافة الدّيم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۷

محمـد بن عبـد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن أبى عامر ابن محمد بن أبى الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى، المنصور بن أبى عامر

اشارة

معظّم الظّفر، و خدن السّعد، و ملقى عصىّ الجدّ، و جوّ رياح الشهرة، و ديوان فنون السياسة، و حجاج الدولة العبشميّة ، فى التّخوم المغربية، المزىّ بالظّرف و كمال السّجية، و الجهاد العظيم، العريق فى بحبوحة بلاد الكفار، رحمه اللّه تعالى.

أوّليّته: دخل جدّه عبد الملك الأندلس مع طارق مولى موسى بن نصير فى أول الداخلين من المغرب، و كان له فى فتحها أثرا جميلا، و إلى ذلك أشار مادحه محمد بن حسان : [الطويل]

و كلّ عدوّ أنت تهزم عرشه‌و كلّ فتوح عنك يفتح بابها

و إنّك من عبد المليك الذى له‌حلى فتح قرطاجنّة و انتهابها

و نزل عبد الملك الجزيرة الخضراء لأول الفتح، فساد أهلها، و كثر عقبه بها؛ و تكررت فيهم النّباهة، و جاوروا الخلفاء بقرطبة. و كان والد محمد هذا، من أهل الدين و العفاف و الزهد فى الدنيا و القعود عن السلطان. سمع الحديث، و أدّى الفريضة، و مات منصرفا عن الحج بإطرابلس.

حاله: كان هذا الرجل بكر الدهر، و فائدة الأيام، و بيضة العمر، و فرد الخلق فى اضطراد السّعد، و تملد العاجل من الحظ، حازما، داهية، مشتملا على أقطار السؤدد، هويّا إلى الأقاصى، و طموحا، سوسا حميّا، مصطنعا للرجال، جالبا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۸

للأشراف، مستميلا للقلوب، مطبقا المفاصل، مزيحا للعلل، مستبصرا فى الاستبداد، خاطبا جميل الذكر، عظيم الصبر، رحيب الذّرع، طموح الطرف، جشع السيف، مهادى جياد العقاب و المثوبة، مهيبا، جزلا، منكسف اللون، مصفر الكفّ، آية اللّه، جلّ جلاله، فى النّصر على الأعداء و مصاحبة الظّفر، و توالى الصّنع.

نباهته: قال المؤرخ : سلك سبيل القضاء فى أوّليّته، مقتفيا آثار عمومته و خؤولته، يطلب الحديث فى حداثته. و كتب منه كثيرا، و لقى الجلّة من رجاله، ثم صحب الخليفة الحكم متحزّبا فى زمرته، و ولى له الأعمال من القضاء و الإمامة، ثم استكفاه، فعدل عن سبيله، و صار فى أهل الخدمة. ثم اختصّه بخدمة أمّ ولده هشام، فزاد بخاصّيته لولى العهد، عزّا و مكانة من الدولة، فاحتاج الناس إليه، و غشوا بابه، و بلغ الغاية من أصحاب السلطان معه، إسعاف، و كرم لقاء، و سهولة حجاب، و حسن أخلاق، فاستطار ذكره، و عمّر بابه، و ساعده الجدّ. و لمّا صار أمر المسلمين إليه، بلغ التى لا فوقها عزّا و شهرة.

الثناء عليه: قال: و فى الدولة العامرية، و أعين محمد على أمره، مع قوة سعده، بخصال مؤلفة لم تجتمع لمن قبله، منها الجود، و الوقار، و الجدّ و الهيبة، و العدل و الأمن، و حبّ العمارة، و تأمير المال، و الضبط للرعية، و أخذهم بترك الجدل و الخلاف و التّشغّب، من غير وهن فى دينه، و صحّة الباطن، و شرح كل فضل، و جلب كلّ ما يوجب عن المنصور فيه.

غزواته و ظهوره على أعدائه:

واصل، رحمه اللّه، الغزو بنفسه، فيما يناهز خمسين غزوة، و فتح فيها البلاد، و خضد شوكة الكفر، و أذلّ الطواغيت و فضّ مصاف

الكفّار، و بلغ الأعماق، و ضرب على العدو الضرائب، إلى أن تلقّاه عظيم الروم بنفسه و أتحفه بابنته فى سبيل الرغبة فى صهره، فكانت أحظى عقائله، و أبرّت فى الدين و الفضل على سائر أزواجه، و عقد اثنى عشر بروزا إلى تلقى ملوك الروم القادمين عليه مصطهرين بإلحاح سيفه، منكبّين على لثم سريره.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۵۹

شعره: و مما يؤثر من شعره : [الطويل]

رميت بنفسى هول كلّ عظيمة و خاطرت و الحرّ الكريم يخاطر

و ما صاحبى إلّا جنان مشيّعو أسمر خطّىّ و أبيض باتر

و من شيمتى أنى على كلّ طالبأجود بمال لا تقيه المعاذر

و إنى لزجّاء الجيوش إلى الوغىأسود تلاقيها أسود خوادر

فسدت بنفسى أهل كلّ سيادةو كاثرت حتى لم أجد من أكاثر

و ما شدت بنيانا و لكن زيادةعلى ما بنى عبد المليك و عامر

رفعنا العوالى بالعوالى سياسة و أورثناها فى القديم معافر

و بلغ فى ملكه أقطار المغرب، إلى حدود القبلة ، و بمدينة فاس، إثر ولده المقلّد فتح تلك الأقطار، و نهد أولئك الملوك الكبار.

دخوله غرناطة: قال صاحب الديوان فى الدولة العامرية، و قد مرّ ذكر المنصور، قومس الفرنجة بمدينة برشلونة: و هذه الأمة أكثر النصرانية جمعا، و أوسعها، و أوفرها من الاستعداد، و ما أوطىء من الممالك و البلاد، و فتح من القواعد، و هزم من الجيوش. و قفل المنصور عنها، و هو أطمع الناس فى استئصالها؛ ثم خصّهم بصائفة سنة خمس و سبعين، و هى الثالثة عشرة لغزواته؛ الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۵۹

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۰

و قد احتفل لذلك، و استبلغ فى النّفير، و استوفى أتمّ الأبّهة، و أكمل العدّة، فجعل طريقه على شرقى الأندلس؛ لاستكمال ما هنالك من الأطعمة، فسلك طريق إلبيرة، إلى بسطة، إلى تدمير؛ و عزم فى هذه الغزوات بريل ملك فرنجة و نازل مدينة برجلونة؛ فدخلها عنوة يوم الاثنين النصف من صفر، سنة أربع و سبعين أو خمس بعدها.

قلت: و فى دخول المنصور بجيشه بلد إلبيرة؛ ما يحقق دعوى من ادّعى دخول المعتمدين من أهل الأندلس لذلك العهد؛ إذ كان يصحب المنصور فى هذه الغزوة، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر؛ فضلا عن سائر الأصناف على ندارة هذا الصنف من الخدام؛ بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم.

و الذى صحّ أنه حضر ذلك، أبو عبد اللّه محمد بن حسين الطّبنى، أبو القاسم حسين بن الوليد، المعروف بابن العريف، أبو الوضّاح بن شهيد، عبد الرحمن بن أحمد، أبو العلاـ صاعد بن الحسن اللغوى، أبو بكر زيادة اللّه بن على بن حسن اليمنى، عمر بن المنجم البغدادى، أبو الحسن على بن محمد القرشى العباسى، عبد العزيز بن الخطيب المحرود، أبو عمر يوسف بن هارون الزيّادى، موسى بن أبى طالب، مروان بن عبد الحكم بن عبد الرحمن، يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل المكفوف، سعد بن محمد القاضى، ابن عمرون القرشى المروانى، على النقاش البغدادى، أبو بكر يحيى بن أميّة بن وهب، محمد بن إسماعيل الزبيدى، صاحب المختصر فى اللغة، أحمد بن درّاح القسطلىّ، متنبّى الأندلس، أبو الفرج منيل بن منيل الأشجعى، محمد بن عبد البصير، الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، محمد بن عبد الملك بن جهور، محمد بن الحسن القرشى، من أهل المشرق، أبو عبيدة حسان بن مالك بن هانى، طاهر بن محمد المعروف بالمهنّد، محمد بن مطرّف بن شخيص، سعيد بن عبد اللّه الشّنترينى، وليد بن مسلمة المرادى، أغلب بن سعيد، أبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب، أحمد بن أبى غالب الرّصافى، محمد بن مسعود البلخى، عبادة بن محمد بن ماء السماء، عبد الرحمن

بن أبى الفهد الإلبيرى، أبو الحسن بن المضىء البجلى الكاتب، عبد الملك بن سهل، الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيرى، قاسم بن محمد الجيّانى.

قال المؤرخ: هؤلاء من حفظته منهم، و هم أكثر من أن يحصوا، فعلى هذا يتبنى القياس فى ضخامة هذا الملك، و انفساح هذا العزّ.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۱

وفاته: توفى، رحمه اللّه، منصرفا من غزاته المسمّاة بقنالش و الرّيد، و قد دوّخ أقطار قشتالة، ليلة الاثنين سبع و عشرين لرمضان عام اثنين و تسعين و ثلاثمائة ، و قد عهد أن يدفن ببلد وفاته، بعد وصية شهيرة صدرت عنه، إلى المظفّر ولده، فدفن بمدينة سالم، التى بناها فى نحر العدو من وادى الحجارة، و بقصرها، و قبره معروف إلى اليوم. و كان قد اتخذ له من غبار ثيابه الذى علاها فى الجهاد، و عاء كبيرا بحديه، رحمه اللّه. و كتب على قبره هذا الشعر : [الكامل]

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنّك بالعيان تراه

تاللّه لا يأتى الزمان بمثلهأبدا و لا يحمى الثغور سواه

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ابن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف ابن نعيم، لخمى النسب

اشارة

أوّليّته: دخل الأندلس جدّه عطاف مع بلج بن بشر القشيرى، من أشراف الطّالعة البلجية، و هم من عرب حمص من أرض الشام، و موضعه بها يعرف بالعريش فى آخر الجفار بين مصر و الشام. و نزل عطاف بقرية تعرف بيومين من إقليم طشانة على ضفة النهر الأعظم من أرض إشبيلية. و لمّا هلك قريش، ورث السيادة إسماعيل بن قريش، و هو القاضى المشهور بالفضل و الدهاء، يكنّى أبا الوليد. ولى الشرطة الوسطى لهشام بن الحكم، و خطّة الإمامة إلى صلاة الجمعة.

ثم خلفه أبو القاسم المنفرد برئاسة إشبيلية، المتحف فيها بخطط الوزارتين و القضاء

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۲

و المظالم. و عزّ جاهه، و كثرت حاشيته، و تعدّدت غلمانه، و أذعنت له عداته. ثم خلفه الأمير المعتضد ولده، و كان خيّرا حازما، سديد الرأى، مصنوعا له فى الأعداء، فلمّا توفى، تصيّر الأمر إلى ولده المترجم به، المكنى أبا القاسم إلى حين خلعه.

حاله: قالوا كلّهم: كان المعتمد، رحمه اللّه، فارسا شجاعا، بطلا مقداما، شاعرا ماضيا، مشكور السيرة فى رعيته. و قال أبو نصر فى قلائده : «و كان المعتمد على اللّه ملكا قمع العدا، و جمع بين البأس و النّدا، و طلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوما كفّه و لا بنانه، آونة يراعه و آونة سنانه، و كانت أيامه مواسم، و ثغور برّه بواسم». لقبه أولاـ الظّافر، ثم تلقب بالمعتمد، كلفا بجاريته اعتماد، لمّا ملّكها، لتتّفق حروف لقبه بحروف اسمها، لشدة ولوعه بها.

وزراؤه: ابن زيدون. و ابن عمّار، و غيرهما.

أولاده المملّكون: عبيد اللّه، يكنى أبا الحسن، و هو الرّشيد، و هو الذى لم يوافق أباه على استصراخ المرابطين، و عرّض بزوال الملك عنهم، فقال: أحبّ إلىّ أن أكون راعى إبل بالعدوة من أن ألقى اللّه، و قد حوّلت الأندلس دار كفر، و كان قد ولّاه عهده، و بويع له بإشبيلية، و هو المحمول معه إلى العدوة. ثم الفتح، و هو الملقب بالمأمون، كان قد بويع له بقرطبة، و هو المقتول بها، المحمل رأسه إلى محلّة العدوّ المرابطين، المحاصرة لأبيه بإشبيلية. ثم يزيد الراضى، و كان قد ولّاه رندة، فقتل لما ملكها اللمتونيون. ثم عبد اللّه، و يكنّى أبا بكر. هؤلاء الأربعة من جاريته اعتماد، السيدة الكبرى، و المدعوة بالرّميكيّة منسوبة إلى مولاها رميك بن حجاج، الذى ابتاعها منه المعتمد.

ملمّته: لمّا تكالب أدفونش بن فردلانـد على الأندلس بعد أخذه مدين طليطلة ضـيق بالمعتمد، و أجحف فى الجزية التى كان يتّقى بها على المسـلمين عاديته، و على ذلك أقسم أخذها و تجنّى عليه، و طمع فى البلاد، فحكى بعض الإخباريين أنه وجّه إليه رسله فى آخر أمره لقبض تلك الضـريبة، مع قوم من رؤساء النصارى، و نزلوا خارج باب إشبيليـة، فوجّه إليهم المال، مع بعض الوزراء، فـدخلوا على اليهودى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۳

المـذكور فى خبائه، و أخرجوا المال، فقال لهم: لا أخـذت منه هذا العيار و لا أخذت منه إلّا ذهبا مشـجّرا، و لا يؤخذ منه فى هذا العام إلّا أجفان البلاد، و نقل كلامه إلى المعتمـد، فبادر بالقبض عليه و على النصارى، و نكّل بهم، و قتل اليهودى بعد أن بذل فى نفسه زنة جسـمه ذهبـا، فلم يقبـل منه، و احتبس النصـارى، و راسـله الطاغيـة فى إطلاقهم، فأبى إلّا أن يخلى منه حصن الحـدود، فكان ذلك. و استصـرخ اللّمتونيّين، و أجاز البحر بنفسه، و أقسم الطاغية بإيمانه المغلّظة ألّا يرفع عنه يده. و هاجت حفيظة المعتمد، و اجتهد فى جواز المرابطين، و كـان ممـا هو معلوم من الإيقـاع بالطاغيـة فى وقعـة الزّلاقـة ، فإنه الـذى أصـلى نارها بنفسه، فعظم بلاؤه، و شـهر صبره، و أصابته الجراح فى وجهه و يده، رحمه اللّه. و فى ذلك يقول أبو بكر بن عبادة المرّى :

[الوافر]

و قالوا كفّه جرحت فقلناأعاديه تواقعها الجراح

و ما أثر الجراحة ما رأيتمفتوهنها المناصل و الرّماح

و لكن فاض سيل البأس منهافقيها من مجاريه انسياح

و قد صحّت و سحّت بالأمانىو فاض الجود منها و السّماح

رأى منه أبو يعقوب فيهاعقابا لا يهاض له جناح

فقال له لك القدح المعلّىإذا ضربت بمشهدك القداح

و لما اتصـلت به الصّيحة؛ بين يدى دخول المدينة، ركب فى أفراد من عبيده؛ و عليه قميص يشفّ عن بدنه، و السيف منتضى بيده، و يمّم بـاب الفرج، فقـدّم الـداخلين، فردّهم على أعقـابهم؛ و قتـل فارسـا منهم؛ فـانزعجوا أمـامه؛ و خلّفوا الباب؛ فأمر بإغلاقه؛ و سـكنت الحال؛ و عاد إلى قصره. و فى ذلك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۴

يقول : [مجزوء الكامل]

إن يسلب القوم العدا ملكى و تسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعهلم تسلم القلب الضّلوع

قد رمت يوم نزالهمألّا تحصّننى الدّروع

و برزت ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع

أجلى تأخّر لم يكنبهواى ذلّى و الخضوع

ما سرت قطّ إلى القتال و كان من أملى الرجوع

شيم الأولى أنا منهمو الأصل تتبعه الفروع

جوده: و أخبـار جوده شـهيرة، و مما يؤثر من ذلك، على استصـحاب حال العزّ، و وفور ذات اليـد، و أدوات الملك، غريب. و الشاهد المقبول بقاء السـجيّة و مصاحبـة الخلق الملكيـة، مع الإقتار و الإيسار، و تقلّب الأطوار. و تعرّض له الحصـرى القرمونى الضـرير بخارج طنجـة؛ و هو يجتـاز عليها فى السواحل من قهر و اعتقال، بأشـعار ظاهرة المقت، غير لائقـة بالوقت، و لم يكن بيـده، زعموا، غير ثلاثين

دينارا كانت بخفّه، معدّة لضرورة ضرر و أزمة، و أطبع عليها دمه، و أدرج قطعة شعر طيّها اعتذار عن نزرها، راغبا فى قبول أمرها، فلم يراجعه الحصرى بشىء عن ذلك، فكتب إليه : [مجزوء الرمل]

قل لمن جمع العلم و ما أحصى صوابه

كان فى الصّرة شعرفتنظّرنا جوابه

قد أثبناك فهلّاجلب الشّعر جوابه ؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۵

حلمه: رفع إليه صدر دولته شعر، أغرى فيه بأبى الوليد بن زيدون، و هو شهير، و تخيّر له موقع و ترصّد حين، و انتظر به مؤجره، و هو : [الكامل]

يا أيها الملك الأعزّ الأعظماقطع و ريدى كلّ باغ يسلم

و احسم بسيفك داء كلّ منافقيبدى الجميل و ضدّ ذلك يكتم

لا تتركن للناس موضع شبهة و احزم فمثلك فى العظائم يحزم

قد قال شاعر كندة فيما مضىقولا على مرّ الليالى يعلم

«لا يسلم الشّرف الرفيع من الأذىحتى يراق على جوانبه الدّم »

فوقّع على الرقعة : [الكامل]

كذبت مناكم، صرّحوا أو جمجموااللّذين أمتن و السجيّة أكرم

خنتم و رمتم أن أخون و إنماحاولتم أن يستخفّ يلملم

و أردتم تضييق صدر لم يضقو السّمر فى صدر النّحور تحطّم

و زحفتم بمحالكم لمجرّبما زال يثبت للمحال فيهزم

أنّى رجوتم غدر من جرّبتممنه الوفاء و ظلم من لا يظلم

أنا ذا كم لا السّعى يثمر غرسهعندى و لا مبنى الصّنيعة يهدم

كفّوا و إلّا فارقبوا لى بطشةيبقى السّفيه بمثلها يتحلّم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۶

توقيعه و نثره فى البديهة:

كتب مع الحمائم إلى ولده الرشيد عقب الفراغ من وقعة الزّلّاقة:

يا بنى، و من أبقاه اللّه و سلّمه، و وقاه الأسواء و عصمه، و أسبغ عليه آلاءه و أنعمه، كتبته، و قد أعزّ اللّه الدين، و أظهر المسلمين، و فتح لهم على يدى مستدعيات الفتح المبين، بما يسّره اللّه فى أمسه و سناه، و قدّره سبحانه و قضاه، من هزيمة أدفونش ابن فردلند لعنه اللّه و أصلاه، و إن كان طاح للجحيم، و لا أعدمه و إن كان أهل العيش الذّميم، كما قنعه الخزى العظيم. و أتى القتل على أكثر رجاله و حماته، و اتصل النّهب سائر اليوم، و الليلة المتصلة به، جميع محلّاته، و جمع من رؤوسهم بين يدىّ، من مشهورى رجالهم، و مذكورى أبطالهم، و لم يختر منهم إلّا من شهر و قرّب، و امتلأت الأيدى ممّا سلب و نهب. و الذى لا مرية فيه، أن الناجى منهم قليل، و المفلت من سيوف الجزع و البعد قتيل، و لم يصبنى بفضل اللّه إلّا جرح أشوى، و حسن الحال عندنا و اللّه و زكى، و لا يشغل بذلك بال، و لا يتوهم غير الحال التى أشرت إليها حال، و الأدفونش بن فرذلاند، إن لم يصبح تحت السيوف فسيموت لا محالة كمدا، و إن كان لم تعلقه أسراد الحمام فغدا، فإن برأسه طمرة و لحام. فإذا ورد كتابى هذا، فمر بجمع الخاص و العام، من أهل

إشبيلية، و جيرانها الأقربين، و أصفيائنا المحبين، فى المسجد الجامع، أعزّهم اللّه، و ليقرأ عليهم فيه، ليأخذوا من المسرّة بأنصبائهم، و يضيفوا شكرا للّه إلى صالح دعائهم، و الحمد للّه على ما صنع حقّ حمده، جلّ المزيد لأمر حين، إلّا من عنده و السلام.

تلطّفه و ظرفه: قال أبو بكر الدانى: سألنى فى بعض الأيام عند قدومى عليه بأغمات، قاضيا حقّ نعمته، مستكثرا من زيارته، مستمتعا برائق أدبه، على حال محنته، عن كتبى، فأعلمته بذهابها فى نهب حضرته. و كنت قد جلبت فى سفرتى تلك، الأشعار الستة، بشرح الأستاذ أبى الحجاج الشّنتمرى الأعلم، و كانت مستعارة، فكتمتها عنه. و وشى إليه أحد الأصحاب، فخجل بكرمه و حسن شيمته، من الأخذ معى فى ذكر ما كتمته، فاستطرد إلى ذلك بغرض نبيل، و نحا فيه نحوا، يعرب عن الشّرف الأصيل، و أملى علىّ، فى جملة ما كان يمليه: [الكامل]

و كواكب لم أدر قبل وجوههاأنّ البدور تدور فى الأزرار

نادمتها فى جنح ليل دامسفأعرنه مثلا من الأنوار

فى وسط روضة نرجس كعيونهاما أشبه النّوار بالنّوار

فإذا تواصفنا الحديث حسبتنىألهو بملتقط لدرّ نثار

فإذا اكتحلت برقّ ثغر باسمسكبت جفونى أغزر الأمطار

حذر الملام و خيفة من جفوةتذر الصدور على شفير هار

ترك الجوارى الآنسات مذاهبىو سوّلها ظفر بريشة الأشعار

فلم أتمالك عند ذلك ضحكا، و علمت أن الأمر قد سرّى إليه، فأعلمته قصّتها، فبسط العذر بفضله، و تأوّل الأمر، و قسّم الأشعار، على ثلاثة من بنيه؛ ذوى خطّ رائع، و نقل حسن، و أدب بارع، أخذوا فى نسخها، و صرفوا الأصل لأجل قريب.

محنته: و لم يلبث أمير اللمتونيين بعد جوازه إلى الأندلس، و ظهوره على طائفة الروم، أن فسد ما بينه و بين رؤساء الطوائف بالأندلس، و عزم على خلعهم، فأجاز من سبتة العساكر، و سرب الأمداد. و أخذ المعتمد بالعزم يحصّن حصونه، و أودع المعاقل عدّته، و قسّم على مظان الامتناع ولده، و صمدت الجموع صمدة بنيه، و نازل الأمير سير إشبيلية، دار المعتمد، و حضرة ملكه، و نازل الأمير محمد ابن الحاج قرطبة، و بها المأمون، و نزل جرور من قواده رندة، و بها الرّاضى ابن المعتمد. و استمرّ الأمر، و اتصلت المحاصرة، و وقعت أمور يضيق الكتاب على استقصائها. فدخلت قرطبة فى جمادى الآخرة عام أربعة و ثمانين و أربعمائة، و قتل الراضى، و جلب رأسه فطيف به بمرأى من أبيه. و كان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القهر و الغلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب، و شملت الغارة، و اقتحمت الدّور، و خرج ابن عباد فى شكّته ، و ابنه مالك فى أمّته معهما، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة و رهقت الخيل، و كثر، فدخل القصر ملقيا بيده. و لما جنّ الليل، وجّه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير، فحجب عنه، و وكّل بعض خدمه به، و عاد إلى المعتمد فأخبره بالإعراض عنه، فأيقن بالهلكة، و ودّع أهله، و علا البكاء، و كثر الصّراخ، و خرج هو و ابنه، فأنزلا فى خباء حصين، و رقبا بالحرس، و أخرج الحرم من قصره، و ضمّ ما اشتمل عليه، و أمر بالكتب إلى ولده برندة ففعل. و لمّا نزل، و استوصلت ذخيرته، سلا، و أجيز المعتمد البحر، و من معه إلى طنجة، فاستقرّ بها فى شعبان من العام، و فى هول البحر عليه فى هذا الحال، يقول رحمه اللّه: [البسيط]

لم أنس و الموت يدنينى و يقصينىو الموت كأنّ المنى يأتينى

أبصرت هولا لو أنّ الدهر أبصرهلما خوّفا لأمر ليس بالدّون

قد كنت ضانّا بنفس لا أجود بهافبعتها باضطرار بيع مغبون

كم ليلة بتّ مطويا على حرقفى عسر من عيون الدبر فى العين

فتلك أحسن أم ظللت بهفى ظلّ عزّة سلطان و تمكين؟

و لم يكن و الذى تعنو الوجوه لهعرضى مهانا و لا مالى بمخزون

و كم خلوت من الهيجا بمعتركو الحرب ترفل فى أثوابها الجون

يا ربّ إن لم تدع حالا أسرّ بهفهب لعبدك أجرا غير ممنون

و جرى على بناته شىء يوم خروجهن، و اضطرتهن الضيقة إلى معيشتهنّ من غزل أيديهن، و جرت عليه محن طال لها شجنه و أقعده قيده، إلى أن نقل إلى أغمات و ريكة، و حلّ عنه الاعتقال، و أجرى عليه رزقه، تبلّغ به لمدة من أعوام أربعة، و استنقذه حمامه، رحمة اللّه عليه.

وصوله إلى غرناطة: قال ابن الصّيرفى: و قد أجرى ذكر تملّك يوسف بن تاشفين غرناطة، و خلع أميرها عبد اللّه بن بلقّين حفيد باديس، يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب عام ثلاثة و ثمانين ، و لحق ابن عباد و حليفه ابن مسلمة بخيل و رجل و رماة و عدد، و حلّ ذلك من ابن عباد تضمّنا لمسرّة أمير المسلمين، و تحقّقا بموالاته، فدخلا عليه، و هنّئاه، و قد تحكّمت فى نفس ابن عباد الطماعيّة فى إسلام غرناطة إلى ابنه، بعد استصفاء نعمة صاحبها، عوضا عن الجزيرة الخضراء، و كان قد أشخصه معه، فعرّض بغرضه، فأعرض أمير المسلمين عن الجميع إعراضا، كانت منية كل منهما التخلّص من يده، و الرجوع إلى بلده، فأعمل ابن عباد الحيلة، فكتب، يزعم أنه وردت عليه تحثّه من إشبيلية فى اللحاق أنباء مهمة طرقت بتحرك العدو، و استأذن بها فى الصّدور، فأخذ له و لحليفه ابن مسلمة، فانتهزا الفرصة، و ابتدرا الرجعة، و لحق كل بموضعه يظنّ أنه ملك رئاسة أمره.

مولده: ولد المعتمد على اللّه بمدينة باجة سنة إحدى و ثلاثين و أربعمائة. و ولّى سنة إحدى و ستين. و خلع سنة أربع و ثمانين.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۶۹

وفاته: كانت وفاة المعتمد على اللّه بأغمات فى ربيع الأول سنة ثمان و ثمانين و أربعمائة، بعد أن تقدمت وفاته وفاة الحرة اعتماد، و جزع عليها جزعا أقرب سرعة لحاقه بها. و لما أحسّ بالمنية رثى نفسه بهذه الأبيات و أمر أن تكتب على قبره :

[البسيط]

قبر الغريب سقاك الرّائح الغادىحقّا ظفرت بأشلاء ابن عبّاد

بالحلم بالعلم بالنّعمى إذا اتصلتبالخصب إن أجدبوا بالرّىّ للصادى

بالطّاعن الضارب الرّامى إذا اقتتلوابالموت أحمر بالضّرغامة العادى

بالدهر فى نقم بالبحر فى نعمبالبدر فى ظلم بالصّدر فى النادى

نعم هو الحقّ فاجانى على قدرمن السماء و وافانى لميعاد

و لم أكن قبل ذاك النّعش أعلمهأنّ الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرمروّاك كلّ قطوب البرق رعّاد

يبكى أخاه الذى غيّبت وابلهتحت الصّفيح بدمع رائح غادى

حتى يجودك دمع الطّلّ منهمرامن أعين الزّهر لم تبخل بإسعاد

فلا تزل صلوات اللّه نازلة على دفينك لا تحصى بتعداد

بعض ما رثى به: قال ابن الصّيرفى: و خالف فى وفاة المعتمد، فقال:

كانت فى ذى حجة. فلمّا انفصل الناس من صلاة العيد، حفّ بقبره ملأ، يتوجعون و يترحمون عليه، و أقبل ابن عبد الصمد، فوقف على قبره و أنشد :

[الكامل]

ملك الملوك، أ سامع فأنادىأم قد عدتك عن السّماع عوادى؟

لمّا خلت منك القصور فلم تكن‌فيها كما قد كنت فى الأعياد

أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاو تخذت قبرك موضع الإنشاد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۰

ثم خرّ يبكى، و يقبّل القبر و يعفر وجهه فى التّراب، فبكى ذلك الملأ حتى أخضلوا ملابسهم، و ارتفع نشيجهم، فللّه درّ ابن عبد الصمد، و ملاذ ذلك البلد.

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامى

اشارة

قال بعضهم: ينتمى فى تجيب، الأمير أبو عبد اللّه.

أوّليّته: معروفة. و على يد أبيه جرت الوقيعة الكبرى بظاهر إفراغة ، على ابن رذمير الطاغية، فجلّت الشّهرة، و عظمت الأثرة. قال بعضهم: تولى أبوه سعد قيادة إفراغه و ما إليها، و ضبطها. و نازلها ابن رذمير، فشهر غناؤه بها فى دفاعه، و صبره على حصاره، إلى أن هزمه اللّه عزّ و جلّ، على يدى ابن غانية. و ظهر بعد ذلك فحسن بلاؤه، و بعد صيته. و رأس ابنه محمد، و نفق فى ألفته. و كان بينه و بين ابن عياض المتأمّر بمرسية صهر، ولّاه لأجله بلنسية. فلما توفى ابن عياض، بادرها ابن سعد، و بلغه أثناء طريقه غدر العدوّ بحصن جلال، فكرّ و قاد له و فتحه. و عاد فملك بلنسية، و قد ارتفع له صيت شهير، ثم دخلت مرسية فى أمره، و استقام له الشّرق، و عظمت حاله.

حاله: قال ابن حمامة: ساد من صغره بشجاعته و نجابته، وصيت أبيه، فمال بذلك إلى القيادة، و سنّه إحدى و عشرون سنة. ثم ارتقى إلى الملك الراسخ، و السلطان الشامخ، بباهر شجاعته و شهامته، فسما قدره، و عظم أمره، و فشى فى كل أمة ذكره.

و قال غيره: كان بعيد الغور، قوىّ السّاعد، أصيل الرأى، شديد العزم، بعيد العفو، مؤثرا للانتقام، مرهوب العقوبة.

و قال فى مختصر «ثورة المريدين» : كان عظيم القوة فى جسمه، ذا أيد فى عظمته، جزّارة فى لحمه، و كان له فروسيّة، و شجاعة، و شهامة، و رئاسة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۱

بطالته وجوده: قال: و كان له يومان فى كل جمعة؛ الاثنين و الخميس، يشرب مع ندمائه فيهما، و يجود على قوّاده، و خاصته و أجناده، و يذبح البقر فيهما، و يفرق لحومها على الأجناد، و يحضر القيان بمزاميرهن و أعوادهن، و يتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملك القلوب من الجند، و عاملوه بغاية النّصح، و ربما وهب المال فى مجالس أنسه.

ذكر أنه استدعى يوما ابن الأزرق أحد قوّاده، فشرب معه و مع القرابة، فى مجلس قد كساه بأحمر الوشى و الوطىء و الآنية من الفضة و غيرها، و تمادى فى لهو و شراب عامة اليوم، فلما كمل نهاره معهم، وهبهم الآنية، و كلّ ما كان فى المجلس من الوشى و غير ذلك.

ما نقم عليه و وصم به:

قالوا: كان عظيم الانهماك فى ميدان البطالة، و اتخذ جملة من الجوارى، فصار يراقد منهن جملة تحت لحاف واحد . و انهمك فى حب القيان، و الزّمر و الرقص.

قالوا: و كان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة، وقفا عريض، فإذا شرب، كان يرزّه، و يعطيه بعد ذلك عطاء جزيلا. و فى ذلك يقول كاتبه المعروف بالسّالمى، و كان يحضر شرابه و يخمر: [المنسرح]

أدر كؤوس المدام و الرّزّفقد ظفرنا بدولة العزّ

و نعم الكفّ من قفا حسن‌فإنها فى ليانة الخزّ

و صاحب إن طلبت أخدعه‌فلم يك فى بذله بمعتزّ

انحنى على أخداعى فأطربنى‌و هزّ عطفىّ أيّما هزّ

و أجزل صلة السّالمى حين أنشدها إياه، و اشتهرت هذه الأبيات بالشرق، و استظرفها الناس. فردّ مرسية دار مجونه، و بلغ فى زمانه ألفا و أربعين. و آثر زىّ النصارى من الملابس، و السلاح، و اللّجم، و السروج. و كلف بلسانهم يتكلم مباهتة، و ألجأه الخروج عن الجماعة، و الانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى، و مصانعتهم، و الاستعانة بطواغيتهم، فصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة، و صالح ملك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۲

قشتالة على أخرى؛ فكان يبذل لهم فى السنة خمسين ألف مثقال. و ابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات و حانات للخمور، و أجحف برعيّته لأرزاق من استعان به منهم، فعظمت فى بلاده المغارم و ثقلت، و اتخذ حوانيت بيع الأدم و المرافق، تختنق بجانبه، و جعل على الأغنام و عروض البقر، مؤنا غريبة. و أما رسوم الأعراس و الملاهى، فكانت قبالاتها غريبة. حدّث بعض المؤرخين عن الثقة، قال: كنت بجيّان مع الوزير أبى جعفر الوقّشى، فوصل إليه رجل من أهل مرسية، كان يعرفه، فسأله الوزير عن أحوال ابن مردنيش و عن سيره، فقال الرجل: أخبرك بما رأيته من جور عمّاله و ظلمهم؛ و ذلك أن أحد الرعية بشاطبة و اسمه محمد بن عبد الرحمن، كان له بنظر شاطبة، ضويعة يعيش بها، و كان لازمها أكثر من فائدها، فأعطى لازمها حتى افتقر، و فرّ إلى مرسية. و كان أمر ابن مردنيش، أنه من فرّ من الرعيّة أمام الغزو، أخذ ماله للمخزن. قال الرجل الشّاطبى: فلما وصلت إلى مرسية فارّا عن وطنى، خدمت الناس فى البنيان، فاجتمع لى مثقالان سعديّان، فبينما أنا أمشى فى السوق، و إذا بقوم من أهل بلدى شاطبة، و من قرابتى، فسألتهم عن أولادى و زوجتى، فقالوا: إنهم فى عافية، ففرحت فرحا عظيما، و سألتهم عن الضّويعة، فقالوا: إنها باقية بيد أولادك، فقلت لهم: عسى تبيتوا عندى الليلة، فاشتريت لحما و شرابا، و ضربنا دفّا. فلمّا كان عند الصباح، و إذا بنقر عنيف بالباب. فقلت: من أنت؟ فقال: أنا الطّرقون الذى بيده قبالة اللهو، و هى متّفقة بيدى، و أنتم ضربتم البارحة الدّف فأعطنا حق العرس الذى عملت. فقلت له: و اللّه ما كانت لى عرس، فأخذت و سجنت، حتى افتديت بمثقال واحد من الذى خدمت به، و جئت إلى الدار، فقيل لى إن فلانا وصل من شاطبة السّاعة، فمشيت لأسأله عن أولادى، فقال: تركتهم فى السّجن، و أخذت الضّويعة من أيديهم فى رسم الجبالى، فرجعت إلى الدار، إلى قرابتى، و عرّفتهم بالذى طرأ علىّ، و بكيت طول ليلتى، و بكوا معى، فلمّا كان من الغد، و إذا بناقر بالباب، فخرجت، فقال: أنا رجل صاحب المواريث، أعلمنا أنكم بكيتم البارحة، و أنه قد مات لكم ميت من قرابتكم غنىّ، و أخذتم كلّ ما ترك، فقلت: و اللّه ما بكيت إلّا نفسى، فكذبنى و حملنى إلى السجن، فدفعت المثقال الثانى، و رجعت إلى الدار و قلت:

أخرج إلى الوادى، إلى باب القنطرة، أغسل ثيابى من درن السجن، و أفرّ إلى العدوة، فقلت لامرأة تغسل الثياب: اغسلى مما علىّ، و جرّدتها، و دفعت لى زنارا ألبسه. فبينا أنا كذلك، و إذا بالخصىّ قائد ابن مردنيش، يسوق ستين رجلا من أهل الجبل، لابسى الزنانير، فرآنى على شكلهم، فأمر بحملى إلى السّخرة و الخدمة بحصن مسقوط عشرة أيام، فلبثت أخدم و أحضر مدة عشرة أيام، و أنا أبكى و أشتكى للقائد المذكور، حتى أشفق علىّ و سرّحنى. فرجعت أريد مرسية، فقيل لى عند باب البلد: كيف اسمك؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۳

فقلت: محمد بن عبد الرحمن، فأخذنى الشرطى، و حملت إلى القابض بباب القنطرة، فقالوا: هذا من كتبته من أرباب الحالى بكذا و كذا دينار، فقلت: و اللّه ما أنا إلّا من شاطبة، و إنما اسمى وافق ذلك الاسم، و وصفت له ما جرى علىّ، فأشفق و ضحك منى؛ و أمر بتسريحى، فسرت على وجهى إلى هنا.

بعض الأحداث فى أيامه، و نبذ من أخباره:

استولى على بلاد الشّرق، مرسية و بلنسية و شاطبة و دانية، ثم اتسع نطاق ملكه، فولّى جيّان، و أبدة، و بيّاسة، و بسطة، و وادى آش. و ملك قرمونة، و نازل قرطبة و إشبيلية، و كاد يستولى على جميع بلاد الأندلس، فولّى صهره ابن همشك، و قد مرّ فى باب إبراهيم، مدينة جيّان و أبدة و بيّاسة، و ضيّق منها على قرطبة، و استولى على إستجة، و دخل غرناطة سنة سبع و خمسين و خمسمائة، و ثار عليه يوسف بن هلال من أصهاره بحصن مطرنيش و ما إليه. ثم تفاسد ما بينه و بين صهره الآخر ابن همشك، فكان سبب إدبار أمره، و استولى العدو فى مدة ابن سعد على مدينة طرطوشة عام ثلاثة و أربعين و خمسمائة، و على حصن إقليج، و حصن شرانية.

دخوله غرناطة: و لما دخل ابن همشك مدينة غرناطة، و امتنعت عليه قصبتها، و هزم الجيش المصرخ لمن حصر بها من الموحدين بمرج الرّقاد و ثاب أثناء ذلك أمر الموحدين، فتجهز لنصرهم السيد أبو يعقوب، و أجاز البحر، و اجتمعوا بالسيد أبى سعيد بمالقة، استمدّ ابن همشك صهره الأسعد، أبا عبد اللّه محمد بن سعد، فخرج بنفسه فى العسكر الكبير من أهل الشرق و النصارى، فوصل إلى غرناطة، و اضطربت محلته بالربوة السامية المتصلة بربض البيّازين، و تعرف إلى اليوم بكدية مردنيش، و تلاحق جيش الموحدين بأحواز غرناطة، فأبينوا جيش عدوهم، فكانت عليه الدّبرة، وفر ابن مردنيش، فلحق بجيان، و اتصلت عليه الغلبة من لدن منتصف عام ستين، فلم يكن له بعده ظهور.

وفاته: و ظهر عليه أمر الموحدين، فاستخلصوا معظم ما بيده، و أوقعوا بجنده الوقائع العظيمة، و حصر بمدينة مرسية، و اتصل حصاره، فمات أثناء الحصار فى عاشر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۴

رجب من عام سبعة و ستين و خمسمائة و له ثمانية و أربعون عاما، و وصل أمره أبو القمر هلال ، و ألقى باليدين إلى الموحدين، فنزل على عهد و رسوم حسبما يأتى فى موضعه.

محمد بن يوسف بن هود الجذامى

اشارة

أمير المسلمين بالأندلس، يكنى أبا عبد اللّه، و يلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على اللّه .

أوّليّته: من ولد المستعين بن هود. و أوّليتهم معروفة، و دولتهم مشهورة، و أمراؤهم مذكورون. خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة و عشرين و ستمائة إلى «الصّخور» من جهاتها، فى نفر يسير من الجنود معه، و كان الناس يستشعرون ذلك، و يرتقبون ظهور مسمّى باسمه و اسم أبيه، و ينذّدون بإمرته و سلطانه. و جرى عليه بسبب ذلك امتحان فى زمن الموحّدين مرات، إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الكائنة، و القضايا المستقبلة، يقول لهم: يقوم عليكم قائم من صنف الجند، اسمه محمد بن يوسف، فقتلوا بسبب ذلك شخصا من أهل جيّان. و يقال إن شخصا ممن ينتحل ذلك، لقى ابن هود، فأمعن النظر إليه، ثم قال له: أنت سلطان الأندلس، فانظر لنفسك، و أنا أدلّك على من يقيم ملكك، فاذهب إلى المقدّم الغشتى فهو القائم بأمرك. و كان الغشتى رجلا صعلوكا يقطع الطريق، و تحت يده جماعة من أنجاد الرجال، و سباع الشرّار، قد اشتهر أمرهم، فنهض إلى المقدم، و عرض عليه الأمر، و قال: نستفتح بمغاورة إلى أرض العدو، على اسمك و على سعدك، ففعلوا، فجلبوا كثيرا من الغنائم و الأسرى، و انضاف إلى ابن هود طوائف مثل هؤلاء، و بايعوه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۵

ب «الصّخيرات» كما ذكر، من ظاهر مرسية، و تحرّك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية، فأوقع به و شرّده، ثم ثاب إليه ناسه، و عدل

إلى الـدّعاء للعباسـيين، فتبعه اللّفيف، و وصل تقليـد الخليفـة المستنصـر بالله ببغـداد، فاستنصـر الناس فى دعوته، و شاع ذكره، و ملك القواعد، و جيّش الجيوش، و قهر الأعداء، و وفّى للغشتى بوعده، فولّاه أسـطول إشبيلية، ثم أسـطول سبتة، مضافا إلى أمرها، و ما يرجع إليه، فثار به أهلها بعد و خلعوه، و فرّ أمامهم فى البحر، و خفى أثره إلى أن تحقق استقراره أسيرا فى البحر بغرب الأندلس، و دام زمانا، ثم تخلّص فى سنّ الشيخوخة، و مات برباط آسفى.

حاله: كان شـجاعا، ثبتا، كريما حيّيا، فاضـلا، وفيّا، متوكّلا عليه، سـليم الصدر، قليل المبالاة، فاستعلى لذلك عليه ولاته بالقواعد، كأبى عبد اللّه بن الرّميمى بألمريّة، و أبى عبد اللّه بن زنون بمالقة، و أبى يحيى عتبة بن يحيى الجزولى بغرناطة.

و كـان مجـدودا، لم ينهض له جيش، و لا ـ وفّق لرأى؛ لغلبـة الخفّـة عليه، و اسـتعجاله الحركـات، و نشـاطه إلى اللقـاء، من غير كمـال استعداد.

بعض الأحداث فى أيامه :

جرت عليه هزائم، منها هزيمـة السـلطان الغالب بالله إيّاه مرّتين، إحـداهما بظاهر إشبيليـة، و ركب البحر فنجا بنفسه، ثم هزمه بإلبيرة من أحواز غرناطة، زعموا كل ذلك فى سنة أربع و ثلاثين و ستمائة أو نحوها.

و فى سـنة خمس و ثلاثين، كان اللقاء بينه و بين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية، فهزمه المأمون أقبح هزيمة، و اسـتولى على محلّته، و لاذ منه بمدينة مرسية.

ثم شـغل المـأمون الأـمر، و أهمّته الفتنـة الواقعـة بمرّاكش، فصـرف وجهه إليهـا، و ثاب الأمر للمتوكل، فـدخلت فى طاعته ألمريّـة، ثم غرناطـة، ثم مالقـة. و فى سبع و عشـرين و سـتمائة، تحرّك بفضل شـهامته بجيوش عظيمة، لإصـراخ مدينة ماردة، و قد نازلها العدوّ و حاصر، و لقى الطّاغية بظاهرها، فلم يتأنّ، زعموا، حتى دفع بنفسه العدوّ، و دخل فى مصافّه، ثم لمّا كرّ إلى ساقته، وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمة شنيعة، و استولى العدو على ماردة بعد ذلك.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۶

و فتح عليه فى أمور، منها تملّكه إشبيلية سـنة تسع و عشـرين و ستمائة، و ولّى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالما الملقب بعماد الدولة. و فى سنة إحدى و ثلاثين، رجعت قرطبة إلى طاعته، و استوسق أمره. و تملّك غرناطة و مالقة عام خمسة و عشرين و ستمائة، و دانت له البلاد. و فى العشر الأول من شوال، دخل فى طاعته الريّسان أبو زكريا، و أبو عبد اللّه، ابنا الرئيس أبى سلطان عزيز بن أبى الحجاج بن سعـد، و خرجا عن طاعـة الأمير أبى جميل، و أخـذا البيعـة لابن هود على ما فى أيديهما. و فى سـنة ست و عشـرين و سـتمائة، تملك الجزيرة الخضـراء عنوة، يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام، و فى العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلا بقصد العدوّ وجهة مدينة وادى آش، فأسرى ليله مسرجا بقية يومه، و لحق بالعدو على ثمانين ميلا، فأتى على آخرهم، و لم ينج منه أحد.

إخوته: الرئيس أبو النجاة سالم، و علامته: «وثقت بالله»، و لقبه «عماد الدولة»، و الأمير أبو الحسن عضد الدولة، و أسره العدو فى غارة، و افتكّه بمال كثير، و الأمير أبو إسحاق شرف الدولة. و كلهم يكتب عنه، من الأمير فلان.

ولـده: أبو بكر الملقب بالواثق بالله، أخـذ له البيعة على أهل الأندلس، فى كذا، و ولّى بعده ولىّ عهده، و اسـتقلّ بملك مرسـية، ثم لم ينشب أن هلك.

دخوله غرناطـة: دخل غرناطـة مرّات عديـدة، إحـداها فى سـنة إحدى و ثلاثين و سـتمائة، و قد وردت عليه الرّاية و التقليد من الخليفة العباسـى ببغداد. و بمصلّى غرناطة، قرىء على الناس كتابه، و هو قائم، وزيّه السّواد، و رايته السوداء بين يديه، و كان يوم استسقاء، فلم يستتمّ على الناس قراءة الكتاب يومئذ، إلّا و قد جادت السماء بالمطر، و كان يوما مشهودا، و صنعا غريبا، و أمر بعد انصرافه، أن يكتب عنه بتلك الألقاب التى تضمّنها الكتاب المذكور إلى البلاد.

وفاته: اختلف الناس فى سبب وفاته، فذكر أنه قد عاهد زوجه ألّا يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلمّا تصيّر إليه الأمر، أعجبته روميّة حصلت له بسبب السّبى من أبناء زعمائهم، من أجمل الناس، فسترها عند ابن الرّميمى خليفته، فزعموا أن ابن الرميمى علق بها، و لما ظهر حملها، خاف افتضاح القصة، فدبّر عليه الحيلة، فلمّا حلّ بظاهر ألمريّة، عرض عليه الدخول إليها، فاغتاله ليلا، بأن أقعد له أربعة رجال، قضوا عليه خنقا بالوسائد. و من الغد ادّعى أنه مات فجأة، و وقف عليه العدول، و اللّه أعلم بحقيقة الأمر سبحانه، و كانت وفاته ليلة الرابع و العشرين من جمادى الآخرة عام خمسة و ثلاثين و ستمائة. و فى إرجاف الناس بولاية ابن هود، و الأمر قبل وقوعه،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۷

يقول الشاعر: [الطويل]

همام به زاد الزمان طلاقةو لذّت لنا فيه الأمانى موردا

فقل لبنى العباس ها هى دولةأغار بها الحقّ المبين و أنجدا

فإن الذى قد جاء فى الكتب وصفهبتمهيد هذى الأرض قد جاء فاهتدا

فإن بشّرتنا بابن هود محمدفقد أظهر اللّه ابن هود محمّدا

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن ابن أيوب بن حامد بن زيد بن منخل الغافقى

اشارة

يكنى أبا بكر، من أهل غرناطة. و سكن وادى آش.

أوّليّته: أصل هذا البيت من إشبيلية، و ذكره الرّازى فى الاستيعاب، فقال:

و بإشبيلية بيت زيد الغافقى، و هم هناك جماعة كبيرة، فرسان و لهم شرف قديم، و قد تصرّفوا فى الخدمة. بلديّون ، ثم انتقلوا إلى طليطلة، ثم قرطبة، ثم غرناطة. و ذكر الملّاحى فى كتابه الحسن بن أيوب بن حامد بن أيوب بن زيد، و عدّه من أهل الشّورى، و قضاة الجماعة بغرناطة. و أحمد بن زيد بن الحسن هو المقتول يوم قيام بنى خالد، بدعوة السلطان أبى عبد اللّه الغالب بالله بن نصر ، و كان عامل المتوكل على اللّه بن هود بها، و عمّن جمع له بين الدّين و الفضل و الماليّة.

حاله و نباهته و محنته و وفاته:

كان هذا الرجل عينا من أعيان الأندلس، و صدرا من صدورها، نشأ عفّا متصاونا عزوفا، و طلاوة، نزيها، أبيّا، كريم الخؤولة، طيّب الطّعمة، حرّ الأصالة، نبيه الصّهر. ثم استعمل فى الوزارة ببلده، ثم قدّم على من به من الفرسان، فأوردهم الموارد الصفيّة بإقدامه، و استباح من العدوّ الفرصة، و أكسبهم الذكر و الشهرة، و أنفق فى سبيل اللّه، إلى غضاضة الإيمان، و صحّة العقد، و حسن الشّيمة، و الاسترسال فى ذكر التواريخ، و الأشعار الجاهليّة، و الأمثال، و التمسّك بأسباب الدين، و سحب أذيال الطّهارة، و هجر الخبايث، و إيثار الجدّ، و الانحطاط فى هوى الجماعة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۸

مشيخته: قرأ بغرناطة على شيخ الجماعة أبى عبد اللّه بن الفخّار، و ببلده على الأستاذ أبى عبد اللّه الطرسونى، و به انتفاعه. و كان جهورى الصّوت، متفاضلا، قليل التهيّب فى الحفل. و لما حدث بالسلطان أبى عبد اللّه من كياد دولته، و تلاحق بوادى آش مفلتا، قام بأمره، و ضبط البلد على دعوته، و لمّ المداهنة فى أمره، و جعل حيل عدوه دبر أذنه، إلى أن خرج عنها إلى العدوة، فكان زمان طريقه مفديا له بنفسه، حتى لحق بمأمنه، فتركها مغربة.

خبر فى وفاته و معرجه:

و كانت الحمد للّه على محمده، و استأثر به الدّاخل، فشدّ عليه يد اغتباطه، و أغرى به عقد ضنانته، و خلطه بنفسه، ثم أغرى به لمكانته من الشهامة و الرياسة، فتقبّض عليه، و على ولده، لباب بنى وقته، و غرّة أبناء جنسه، فأودعهما مطبق أرباب الجرائم، و همّ باغتيالهما، ثم نقلهما إلى مدينة المنكّب ليلة المنتصف لمحرم من عام اثنين و ستين و سبعمائة فى جملة من النّبهاء مأخوذين بمثل تلك الجريرة. ثم صرف الجميع فى البحر إلى بجاية، فى العشر الأول لربيع الأول مصفّدين. و لما حلّوا بها، أقاموا تحت برّ و تجلّة. ثم ركبوا البحر إلى تونس، فقطع بهم أسطول العدو بأحواز تكرنت، و وقعت بينه و بين المسلمين حرب، فكرم مقام المترجم يومئذ، و حسن بلاؤه. قال المخبر: عهدى به، و قد سلّ سيفا، و هو يضرب العدو و يقول: اللهمّ اكتبها لى شهادة. و استولى العدو على من كان معه من المسلمين، و منهم ولده، و كتب: افتكّ الجميع ببلد العنّاب، و انصرف ابنه إلى الحج، و آب لهذا العهد بخلال حميدة كريمة، من سكون و فضل و دين و حياء، و تلاوة، إلى ما كان يجده من الرّكض، و يعانيه من فروسية، فمضى على هذا السبيل من الشهادة، نفعه اللّه، فى ليلة الجمعة الثامن لرجب من عام اثنين و ستين و سبعمائة.

شعره: أنشدنى قاضى الجماعة أبو الحسن بن الحسن له: [البسيط]

يا أيها المرتجى للطف خالقهو فضله فى صلاح الحال و المال

لو كنت توقن حقا لطف قدرتهفاشمخ بأنفك عن قيل و عن قال

فإنّ للّه لطفا عزّ خالقناعن أن يقاس بتشبيه و تمثال

و كل أمر و إن أعياك ظاهرهفالصّنع فى ذاك لا يجرى على بال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۷۹

محمد بن أحمد بن محمد الأشعرى

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن المحروق، الوكيل بالدار السلطانية، القهرمان بها، المستوزر آخر عمره، سداد من عون.

حاله و أوليته و ظهوره: كان، رحمه اللّه، من أهل العفاف و التّصاون، جانحا إلى الخير، محبّا فى أهل الإصلاح، مغضوض الطّرف عن الحرم، عفيفا عن الدماء، مستمسكا بالعدالة، من أهل الخصوصيّة، كتب الشروط، و برّز فى عدول الحضرة.

و كان له خط حسن، و مشاركة فى الطلب، و خصوصا فى الفرائض، و حظّه تافه من الأدب. امتدح الأمراء، فترقى إلى الكتابة مرءوسا مع الجملة. و عند الإيقاع بالوزير ابن الحكيم، تعيّن لحصر ما استرفع من منتهب ماله، و تحصّل بالدار السلطانية من أثاثه و خرثيّه ، فحزم و اضطلع بما كان داعية ترقيه إلى الوكالة، فساعده الوقت، و طلع له جاه كبير، و تملّك أموالا عريضة، و أرضا واسعة، فجمع الدنيا بحزمه و مثابرته على تنمية داخله. و ترقى إلى سماء الوزارة فى الدّولة السادسة من الدول النّصرية ، بتدبير شيخ الغزاة، و زعيم الطائفة عثمان بن أبى العلى ، فوصله إلى أدوار دنياه، و اللّه قد خبّأ له المكروه فى المحبوب، و تأذّن اللّه سبحانه بنفاد أجله على يده، فاستولى و حجب السلطان. ثم وقعت بينه و بين مرشّحه الوحشة الشهيرة عام سبعة و عشرين و سبعمائة، مارسا لمكان الفتنة، صلة فارط فى حجب السلطان، و أجلى جمهور ما كان ببابه، و منع من الدخول إليه، فاضطربت حاله، و أعمل التدبير عليه، فهجم عليه بدار الحرّة الكبيرة جدّة السلطان، و كان يعارضها فى الأمور، و يجعلها تكأة لغرضه، فتيان من أحداث المماليك المستبقين مع محجوبه، تناولاه سطّا بالخناجر، و رمى نفسه فى صهريج الدار، و ما زالا يتعاورانه من كل جانب حتى فارق الحياة، رحمه اللّه تعالى.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزّبير، و كانت له فيه فراسة صادقة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۰

محمد بن فتح بن على الأنصارى

يكنى أبا بكر، و يشهر بالأشبرون، قاضى الجماعة.

حاله: كان طرفا فى الـدّهاء و التخلّق و المعرفة بمقاطع الحقوق، و مغامز الرّيب، و علل الشـهادات، فذّا فى الجزالة، و الصّرامة، مقداما، بصيرا بالأمور، حسن السيرة، عذب الفكاهة، ظاهر الحظوة، علىّ الرتبة. خرج من إشبيلية عند تغلّب العدوّ عليها، و ولّى القضاء بمالقة و بسطة. ثم ولّى الحسبة بغرناطة، ثم جمعت له إليها الشّرطة. ثم قدّم قاضيا، و استمرّت ولايته نحوا من ثلاثين سنة.

وفاته: توفى ليلة الحادى عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية و تسعين و ستمائة.

محمد بن أحمد بن على بن حسن بن على ابن الزيات الكلاعى

ولد الشيخ الخطيب أبى جعفر بن الزيات، من أهل بلّش، يكنى أبا بكر.

حـاله: من «عائـد الصـلة» من تأليفنـا: كـان، رحمه اللّه، شبيهـا بـأبيه، فى هـديه، و حسن سـمته و وقاره، إلّا أنه كان حافظا للرتبـة، مقيما للأبّهـة، مسـتدعيا بأبيه و نفسه للتجلّة، بقية من أبناء المشايخ، ظرفا و أدبا و مروءة و حشـمة، إلى خطّ بديع قيد البصـر، و رواية عالية، و مشاركـة فى فنون، و قراءة، وفقه، و عربيـة، و أدب و فريضة، و معرفة بالوثاق و الأحكام. تولّى القضاء ببلده، و خلف أباه على الخطابة و الإمامة، فأقام الرّسم، و استعمل فى السّفارة، فسدّ مسدّ مثله، و أقرأ ببلده، فانتفع به.

مشـيخته: قرأ على الأسـتاذ الخطيب أبى محمد بن أبى السّداد الباهلى، و بغرناطة على شـيخ الجماعة الأستاذ أبى جعفر بن الزبير، و من أعلام مشيخته جـدّه للأمّ، خـال أبيه، الحكمى العـارف أبو جعفر ابن الخطيب أبى الحسن بن الحسن المـذحجى الحمى، و الخطيب الربّانى أبو الحسن فضل بن فضيلة، و الوزير أبو عبد اللّه بن رشيد.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۱

محمد بن على بن عبد اللّه بن محمد بن الحاج

يكنّى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن الحاج.

أوّليّته و حاله: كان أبوه نجّارا من مـدجّنى مدينة إشبيلية، من العارفين بالحيل الهندسـية، بصـيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية، و العمل بها. و انتقل إلى مدينـة فاس على عهـد أبى يوسف المنصور بن عبـد الحق، و اتخـذ له الـدّولاب المنفسـح القطر، البعيـد المدى، مليّن المركز و المحيط، المتعـدّد الأكواب، الخفىّ الحركـة، حسـبما هو اليوم ماثل بالبلـد الجديـد، دار الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التى تحـدو إلى مشاهدتها الرّكاب، و بناء دار الصّنعة بسـلا. و انتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السـلطان ثانى الملوك من بنى نصـر ، و متّ إليه بوسـيلة أدنت محلّه، و أسـنت جراياته، إلى أن تولّى وزارة ولده أمير المسلمين، أبى الجيوش نصر ، و اضطلع بتدبيره، و نقم الناس عليه إيثاره لمقالات الرّوم، و انحطاطه فى مهوى لهم، و التشبّه بهم فى الأكل و الحديث، و كثير من الأحوال و الهيئات و الاسـتحسان، و تطريز المجالس بأمثالهم و حكمهم، سمة و سمت منه عقلا، لنشأته بين ظهرانيهم، و سبقت إلى قوى عقله المكتسب فى بيوتهم، فلم تفارقه بحال، و إن كان آيـة فى الـدهاء، و النظر فى رجل بعيـد الغور، عميق الفكر، قائم على الدّمنـة، منطو على الرّضف، ليّن الجانب، مبذول البشر، وحيد زمانه فى المعرفة بلسان الرّوم و سيرهم، محكم الأوضاع فى أدب الخدمة، ذرب بالتصرف فى أبواب الملوك.

و كان من ثورة العامة بسـلطانه ما تقدم، و جهروا بإسلامه إليهم، و قد ولّوه بسبب الثورة، و طوّقوه كياد الأزمة، فضنّ به السلطان ضنانة أعربت عن وفائه، و صان مهجته، و استمرّ الأمر إلى أن خلع الملك عن الملك. و كان نزول الوزير المذكور تحت خفارة شيخ الغزاة،

و كبير الطائفة، عثمان بن أبى العلى، فانتقل محفوظ

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۲

الجملة، محوط الوفر، و لم ينشب إلى أن لجأ إلى العدوة، و اتصل بالأمير أبى على عمر بن السلطان الكبير أبى سعيد، فحرّكه، زعموا، على محادّة أبيه، و حمله على الانتزاء، فكان ما هو معلوم من دعائه إلى نفسه، و منازعة أبيه، و لقائه إياه بالمقرمدة ، و فلّ جيشه، و فى أثنائه هلك المترجم به.

وفاته: توفى بفاس الجديد فى العشر الأول من شعبان عام أربعة عشر و سبعمائة.

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن أرقم النّميرى

من أهل وادى آش، يكنى أبا يحيى.

حاله: كان صدرا شهيرا، عالما علما، حسيبا، أصيلا، جمّ التحصيل، قوىّ الإدراك، مضطلعا بالعربية و اللغة، إماما فى ذلك، مشاركا فى علوم من حساب و هيئة و هندسة. قال الشيخ: كان فى هذا كله أبرع من لقيته، إلى سراوة و فضل و تواضع و دين، جاريا فى ذلك على سنن سلفه، و علوّ محتده، جالسته، رحمه اللّه، كثيرا عند علية من أدركته بغرناطة؛ لإقامته بها، و تكرر لقائى إياه بها و بغيرها، فرأيت أصيلا جليلا- قد جمع علما و فضلا، و حسن خلق، و كان حسن التقييد، لخطّه رونق يمتاز به، و يبعد عن غيره. ولّى القضاء ببلده، ثم ولّى بعد مدة ببرشانة ، فحمدت سيرته.

مشيخته: أخذ القراءات السبع عن أبى كرم جودى بن عبد الرحمن، و قرأ عليه الغريب و اللغة، و لازمه فى ذلك، و أجاز له إجازة عامة، و أخذ من غيره ببلده، و صحب بغرناطة جملة من العلماء بها، أيام اختلافه إليها، و إقامته بها.

تواليفه: ألّف كتابا سماه «الاحتفال فى استيفاء ما للخيل من الأحوال»، و هو كتاب ضخم وقفت عليه من قبله و أفدته. و اختصر الغريب المصنّف، و له تقاييد منثور و منظوم فى علم النجوم، و رسالة فى الأسطرلاب الخطى و العمل به، و شجرة فى أنساب العرب.

وفاته: وفى ليلة السبت السابع عشر لشهر ربيع الآخر عام سبعة و خمسين و سبعمائة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۳

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ابن محمد بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار ابن أحمد بن حزب اللّه بن عامر بن سعد الخير بن عيّاش

المكنى بأبى عيشون بن حمّود، الداخل إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير، ابن عنبسة بن حارثة بن العباس بن المرداس، يكنّى أبا البركات، بلفيقى الأصل، مروى النشأة و الولادة و السلف، يعرف بابن الحاج، و شهر الآن فى غير بلده بالبلفيقى، و فى بلده بالمعرفة القديمة.

أوّليّته: قد تقدم اتصال نسبه بحارثة بن العباس بن مرداس، صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و أحد خطبائه و شعرائه، رئيس فى الإسلام، و رئيس فى الجاهلية. و كان لسلفه، و خصوصا لإبراهيم، من الشهرة بولاية اللّه، و إيجاب الحقّ من خلقه ما هو مشهور، حسبما تنطق به الفهارس، يعضّد هذا المجد من جهة الأمومة، كأبى بكر بن صهيب، و ابن عمه أبى إسحاق، و غيرهم، الكثير ممن صنّف فى رجال الأندلس، كأبى عبد المجيد المالقى، و ابن الأبار، و ابن طلحة، و ابن فرتون، و ابن صاحب الصلاة، و ابن الزّبير، و ابن عبد الملك، فلينظر هناك.

حاله: نشأ ببلده ألمرية عمود العفة، فضفاض جلباب الصّيانة، غضيض طرف الحياء، نائى جنب السّلام، حليف الانقباض و الازورار، آويا إلى خالص النّشب و بحت الطّعمة، لا يرى إلّا فى منزل من سأله، و فى حلق الأسانيد، أو فى مسجد من المساجد خارج المدينة

المعدّة للتّعبّد، لا يجيء سوقا، و لا مجمعا، و لا وليمة، و لا مجلس حاكم أو وال، و لا يلابس أمرا من الأمور التى جرت عادته أن يلابسها بوجه من الوجوه. ثم ترامى إلى رحلة، فجاس خلال القطر الغربى إلى بجاية، نافضا إياه من العلماء و الصلحاء و الأدباء و الآثار بتقييده، و أخذه قيام ذكر، و إغفال شهرة. ثم صرف عنانه إلى الأندلس، فتصرف فى الإقراء، و القضاء، و الخطابة. و هو الآن نسيج

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۴

وحده فى أصالة عريقة، و سجيّة على السلامة مفطورة، فما شئت من صدر سليم، و عقد وثيق، و غور قريب، و نصح مبذول، و تصنّع مرفوض، و نفس ساذجة، و باطن مساو للظاهر، و دمعة سريعة، و هزل يثمر تجلّة، و انبساط يفيد حسن نيّة، إلى حسن العهد، و فضل المشاركة، و رقّة الحاشية، و صلابة العود، و صدق العزيمة، و قوة الحامية، و بلاغة الموعظة، و جلّة الوقت، و فائدة العصر، تفننا و إمتاعا، فارس المنابر غير الهيّابة، و لا الجزوع، طيّب النّغمة بالقرآن، مجهشا فى مجال الرّقة، كثير الشفقة لصالح العامة، متأسفا لضياع الأوقات، مدمعا على الفيئة، مجمّا، محوّلا فى رئاسة الدين و الدنيا. هذا ما يسامح فيه الإيجاز، و يتجافى عنه الاختصار، و يكفى فيه الإلماع و الإشارة، أبقى اللّه شيخنا أبا البركات.

مشيخته و ولايته: تقدم قاضيا بقنالش ، فى جمادى الثانية عام خمسة عشر و سبع مائة ثم ولّى مربلّة، و إستبونة ثم كانت رحلته إلى بجاية. ثم عاد فقعد بمجلس الإقراء من مالقة للكلام على صحيح مسلم، متّفقا على اضطلاعه بذلك. ثم رحل إلى فاس. ثم آب إلى الأندلس، و استقرّ ببلده ألمرية، فقعد بمسجدها الجامع للإقراء، ثم قدّم قاضيا ببرجة و دلّاية، و البينول و فنيانة ، ثم نقل عنها إلى بيرة، ثم غربى ألمرية. ثم قدّم قاضيا بمالقة، ثم قدّم بغربها مضافا إلى الخطابة، ثم أعيد إلى قضاء ألمرية، بعد وفاة القاضى أبى محمد بن الصائغ. و من كتاب «طرفة العصر» من تأليفنا فى خبر ولايته ما نصه:

فتقلّد الحكم فى الثالث و العشرين لشعبان من عام سبعة و أربعين و سبعمائة، ثالث يوم وصوله مستدعى، و انتابه الطّلبة و وجوه الحضرة و الدولة، مهنئين بمثواه من دار الصيانة، و محل التّجلّة، إحدى دور الملوك بالحمراء، فطفقوا يغشونه بها زرافات و وحدانا، فى إتاحة الخير، و إلهام السّداد، و تسويغ الموهبة. و كان وصوله، و الأفق قد اغبرّ، و الأرض قد اقشعرّت لانصرام حظّ من أيام الشتاء الموافق لشهر ولايته، لم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۵

يسح فيه الغمام بقطرة، و لا لمعت السماء بنزعة، حتى أضرّت الأنفس الشحّ، و حسر العسر عن ساقه، و توقفت البذور، فساعده الجدّ بنزول الرّحمة عند نزوله من مرقاة المنبر، مجابة دعوة استسقائه، ظاهرة بركة خشوعه، و لذلك ما أنشدته فى تلك الحال : [الكامل]

ظمئت إلى السّقيا الأباطح و الرّباحتى دعونا العام عاما مجدبا

و الغيث مسدول الحجاب و إنماعلم الغمام قدومكم فتأدّبا

و تولى النظر فى الأحكام فأجال قداحها، مضطلعا بأصالة النظر، و إرجاء المشبّهات، و سلك فى الخطابة طريقة مثلى، يفرغ فى قوالب البيان أغراضها، و يصرف على الأحكام الكوائن و البساطات أساليبها، من المحاكاة، باختلاف القبض و البسط، و الوعد و الوعيد، حظوظها على مقبض العدل، و سبب الصواب يقوم على كثير مما يصدع به، من ذلك شاهد البديهة، و دليل الاستيعاب. قال شيخنا أبو البركات: ثم صرفت عنها للسبب المتقدم، و بقيت مقيما بها، لما اشتهر من وقوع الوباء بألمريّة، ثم أعدت إلى القضاء و الخطابة بألمرية، و كتب بذلك فى أوايل رجب عام تسعة و أربعين. و بقيت على ذلك إلى أن صرفت بسبب ما ذكر. ثم أعدت إليها فى أواخر رجب سنة ست و خمسين، عسى أن يكون الانقطاع للّه سبحانه. فأنا الآن أتمثل بما قاله أبو مطرّف بن عميرة رحمه اللّه: [الخفيف]

قد نسبنا إلى الكتابة يوماو أتت خطّة القضاء تليها

و بكلّ لم نطق للمجد إلّامنزلا نابيا و عيشا كريها

نسبة بدّلت فلم تتغيّرمثل ما يزعم المهندس فيها

بدّل من لفظ الكتابة إلى الخطابة. و أغرب ما رأيت ما أحكى لك، و أنت أعلم ببعض ذلك، أن أفضل ما صدر عنى فى ذلك، الخطة من العمل الذى أخلصت للّه فيه، و رجوت منه المثوبة عليه، و فيه مع ذلك مفتخر لمن أراد أن يفتخر غير ملتفت للدنيا، فعليه عوّلت سبحانه. انتهى كلامه.

تصانيفه: كتب إلىّ بخطّه ما نصه، و هو فصل من فصول: و أما تواليفى فأكثرها، أو كلها عير متمّمة، فى مبيّضات. منها كتاب قد يكبو الجواد فى أربعين

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۶

غلطة عن أربعين من النّقّاد، و هو نوع من تصحيف الحفّاظ للدّارقطنى، منها «سلوة الخاطر فيما أشكل من نسبة النّسب الرّتب إلى الذّاكر». و منها كتاب «قدر جمّ فى نظم الجمل». و منها كتاب «خطر فبطر، و نظر فحظر، على تنبيهات على وثائق ابن فتّوح». و منها كتاب «الإفصاح فيمن عرف بالأندلس بالصّلاح». و منها «حركة الدّخولية فى المسألة المالقية». و منها «خطرة المجلس فى كلمة وقعت فى شعر استنصر به أهل الأندلس» جزء صغير. و منها «تاريخ ألمريّة» غير تام. و منها ديوان شعره المسمى ب «العذب و الأجاج فى شعر أبى البركات ابن الحاج» . و مختصره سمّاه القاضى الشريف «اللؤلؤ و المرجان، اللذان من العذب و الأجاج يستخرجان» . و منها «عرائس بنات الخواطر المجلوّة على منصّات المنابر» يحتوى على فصول الخطب التى أنشئت بطول بنى و الخطابة. و منها «المؤتمن على أنباء أبناء الزمن». و منها تأليف فى أسماء الكتب، و التّعريف بمؤلفيها، على حروف المعجم.

و منها «ما اتفق لأبى البركات فيما يشبه الكرامات». و منها كتاب «ما رأيت و ما رئى لى من المقامات». و منها كتاب «المرجع بالدّرك على من أنكر وقوع المشترك».

و منها «مشبّهات اصطلاح العلوم». و منها «ما كثر وروده فى مجلس القضاء». و منها «الغلسيّات»، و هو ما صدر عنى من الكلام على صحيح مسلم أيام التكلّم عليه فى التّغليس. و منها «الفصول و الأبواب، فى ذكر من أخذ عنى من الشيوخ و الأتباع و الأصحاب».

ثم قال: و قد ذهب شرخ الشّباب و نشاطه، و تقطّعت أوصاله، و رحل رباطه، و أصبحت النفس تنظر لهذا كله بعين الإمهال و الإغفال، و قلّة المبالاة التى لا يصل أحد بها إلى منال. و هذه الأعمال لا ينشّط إليها إلّا المحرّكات التى هى مفقودة عندى، أحدها طلبة مجتمعون متعطّشون إلى ما عندى، متشوّفون غاية التّشوّف، و أين هذه بألمرية؟ الثانى، طلب رياسة على هذا، و متى يرأس أحد بهذا اليوم، و على تقدير أن يرأس به و هو محال فى عادة هذا الوقت، فالتشوّف لهذه الرياسة مفقود عندى.

الثالث، سلطان يملأ يد من يظهر مثل هذا، على يده غبطة، و ما تم هذا. الرابع، نيّة خالصة لوجه اللّه تعالى فى الإفادة، و هذا أيضا مفقود عندى، و لا بدّ من الإنصاف.

الخامس، قصد بقاء الذّكر، و هذا خيال ضعيف بعيد عنى. السادس، الشفقة على شىء ابتدى، و سعى فى تحصيل مباديه، أن يضيع على قطع ما سوى هذا الإشفاق،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۷

و هذا السادس، هو الذى فى نفسى منه شىء، و به أنا أقيد أسماء من لقيت، و ما أخذت، و يكون إن شاء اللّه إبراز إذا الصّحف نشرت. و أكثر زمانى يذهب فى كيفية الخروج عما أنا فيه، فإذا ينظر إلىّ العاقل فى هذا الوقت بعين البصيرة، لا يسعه إلّا الشّفقة علىّ، و الرّحمة لى، فإنه يرى رجلا مطرقا أكثر نهاره، ينظر إلى مآله، فلا ينشط إلى إصلاحه، و هو سابع و لا يلبس بالعبادة، و هو فى زمانها المقارب للفوت، و لا ينهض إلى إقامة حقّ كما ينبغى لعدم المعين، و لا يجنح إلى شىء من راحات الدنيا، و يشاهد من علوم الباطل الذى لا طاقة له على رفعه ما يضيّق صدر الحرّ يقضى نصف النهار، محتلّا فى مكان غير حسن، تارة يفكر، و تارة يكتب ما هو على يقين منه أنه كذا لا ينتفع به، و نصف النهار يقعد للناس، تارة يرى ما يكره، و تارة يسمع ما يكره، لا صديق يذكّره بأمر الآخرة، و لا

صديق يسليه بأمر الدنيا، يكفينى من هذه الغزارة، اللهمّ إليك المشتكى يا من بيده الخلق، و لا حول و لا قوة إلّا بالله.

شعره: من مطوّلاته فى النزعة الغربية التى انفرد بها، منقولا من ديوانه، قال:

و مما نظمته بسبتة فى ذى الحجة من عام خمسة و عشرين و سبعمائة، فى وصف حالى، و أخذها عنى الأستاذ بسبتة، أبو عبد اللّه بن هانى، و الأديب البارع أبو القاسم الحسينى، و أبو القاسم بن حزب اللّه، و سواهم. و لما انفصلت من سبتة إلى بلاد الريف زدت عليها أبياتا فى أولها، و كثر ذلك بوادى لو من بلاد الريف و هى:

[الطويل]

تأسفت لكن حين عزّ التأسّفو كفكفت دمعا حين لا عين تذرف

و رام سكونا هو فى رجل طائرو نادى بأنس و المنازل تعنف

أراقب قلبى مرّة بعد مرةفألفيه ذيّاك الذى أنا أعرف

سقيم و لكن لا يحسّ بدائهسوى من له فى مأزق الموت موقف

و جاذب قلبا ليس يأوى لمألفو عالج نفسا داؤها يتضاعف

و أعجب ما فيه استواء صفاتهإذ الهمّ يشقيه أو السرّ ينزف

إذا حلّت الضّرّاء لم ينفعل لهاو إن حلّت السّراء لا يتكيّف

مذاهبه لم تبد غاية أمرهفؤاد، لعمرى، لا يرى منه أطرف

فما أنا من قوم قصارى همومهمبنوهم و أهلهم و ثوب و أرغف

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۸ و لا لى بالإسراف فكر محدثسيغدو حبيبى أو سيشعر مطرف

و لا أنا ممّن لهوه جلّ شأنهبروض أنيق أو غزال مهفهف

و لا أنا ممّن أنسه غاية المنىبصوت رخيم أو نديم و قرقف

و لا أنا ممّن تزدهيه مصانعو يسبيه بستان و يلهيه مخرّف

و لا أنا ممن همّه جمعها فإنتراءت يثب بسعى لها و هو مرجف

على أنّ دهرى لم تدع لى صروفهمن المال إلّا مسحة أو مجلف

و لا أنا ممن هذه الدار همّهو قد غرّه منها جمال و زخرف

و لا أنا ممن للسّؤال قد انبرىو لا أنا ممن صان عنه التّعطف

و لا أنا ممن نجّح اللّه سعيهمفهمّتهم فيها مصلّى و مصحف

فلا فى هوى أضحى إلى اللهو قائداو لا فى تقى أمسى إلى اللّه يزلف

أحارب دهرى فى نقيض طباعهو حربك من يقضى عليك تعجرف

و أنظره شزرا بأصلف ناظرفيعرض عنّى و هو أزهى و أصلف

و أضبطه ضبط المحدّث صحفهفيخرج فى التّوقيع أنت المصحف

و يأخذ منى كلّ ما عزّ نيلهو يبدو بجهلى منه فى الأخذ محتف

أدور له فى كل وجه لعلّنىسأثبته و هو الذى ظلّ يحذف

و لما يئسنا منه تهنّا ضرورةفلم تبق لى فيها عليه تشوّف

تكلّفت قطع الأرض أطلب سلوةلنفسى فما أجدى بتلك التكلّف

و خاطرت بالنفس العزيزة مقدماإذا ما تخطّى النّصل قصد مرهف

و صرّفت نفسى فى شؤون كثيرةلحظّى فلم يظفر بذاك التّصرّف

و خضت لأنواع المعارف أبحرافى الحين ما استجرتها و هى تترف

و لم أحل من تلك المعانى بطائلو إن كان أهلوها أطالوا و أسرفوا

و قد مرّ من عمرى الألذّ وها أناعلى ما مضى من عهده أتلهّف

و إنى على ما قد بقى منه إن بقىلحرمة ما قد ضاع لى أتخوّف

أعدّ ليالى العمر و الفرض صومهاو حسبك من فرض المحال تعسّف

على أنها إن سلّمت جدليّةتعارض آمالا عليها يتيّف

تحدّثنى الآمال و هى كدينهاتبدّل فى تحديثها و تحرّف

بأنّى فى الدّنيا سأقضى مآربىو بعد يحقّ الزهد لى و التقشّف

و تلك أمان لا حقيقة عندهاأفى قرنى الضّدّين يبقى التكلّف؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۸۹ و ربّ أخلّاء شكوت إليهمو لكن لفهم الحال إذ ذاك لم يفوا

فبعضهم يزرى علىّ و بعضهميغضّ و بعض يرثى ثم يصدف

و بعضهم يومى إلىّ تعجّباو بعض بما قد رأيته يتوقف

و بعضهم يلقى جوابه علىمقتضى العقل الذى عنه يتوقّف

يسىء استماعا ثم يعدّ إجابةعلى غير ما تحذوه يحذو و يخصف

و لا هو يبدى لى علىّ تعقّلاو لا هو يرثى لى و لا هو يعنف

و ما أمرنا إلّا سواء إنماعرفنا و كلّ منهم ليس يعرف

فلو قد فرغنا من علاج نفوسناو حطّوا الدنيّة من عليل و أنصفوا

أما لهم من علّة أرمت بهمو لم يعرفوا أغوارها و هى تتلف؟

و حضنا لهم فى الكتب عن كنه أمرهمو مثلى عن تلك الحقائق يكشف

و صنّفت فى الآفات كلّ غريبةفجاء كما يهوى الغريب المصنّف

و ليس عجيبا من تركّب جهلهمفإن يحجبوا عن مثل ذاك و صرّفوا

إذا جاءنا بالسّخف من نزو عقلهإذا ما مثلناه أزهى و أسخف

فما جاءنا إلّا بأمر مناسبأ ينهض عن كفّ الجبان المثقّف؟

و لكن عجيب الأمر علمى و غفلتىفديتكم أىّ المحاسن أكشف

إلّا أنها الأقدار يظهر سرّهاإذا ما وفى المقدور فالرأى يخلف

أيا ربّ إن اللّب طاش بما جرىبه قلم الأقدار و القلب يرجف

و إنّا لندعوهم و نخشى و إنماعلى رسمك الشّرعى من لك يعكف

أقول وفى أثناء ما أنا قائلرأيت المنايا و هى لى تتخطّف

و إنى مع السّاعات كيف تقلّبتلأسهمها إن فوّقت متهدّف

و ما جرّ ذا التّسويف إلّا شيبتىتخيّل لى طول المدى فأسوّف

إذا جاء يوم قلت هو الذى يلىو وقتك فى الدنيا جليس مخفّف

أقدّم رجلا عند تأخير أختهاإذا لاح شمس فالنّفس تكسف

كأنّى لدانى المراقد منهمو لم أودعهم و الخضّ ريّان ينسف

وهبنى أعيش هل إذا شاب مفرقىو ولّى شبابى هل يباح التّشوّف؟

و كيف و يستدعى الطريق رياضهٔو تلك على عصر الشّباب توظّف

الإحاطهٔ فى أخبار غرناطهٔ، ج۲، ص: ۹۰ متى يقبل التّقويم غير عطوفهٔو بى بعده حسّان فالنّار تنسف؟

و لو لم يكن إلّا ظهورهٔ سرّهٔإذا ما دنا التّدليس هان التنطّف

أمولى الأسارى أنت أولى بعذرهمو أنت على المملوك أحقّ و أعطف

قذفنا بلجّ البحر و القيد آخذبأرجلنا و الرّيح بالموج تعصف

و فى الكون من سرّ الوجود عجائبأطلّ عليها العارفون و أشرفوا

و كعت عليهم نكثهٔ فتأخّرواوددت بأن القوم بالكل أسعف

فليس لنا إلّا أن نحطّ رقابنابأبواب الاستسلام و اللّه يلطف

فهذا سبيل ليس للعبد غيرهاو إلّا فماذا يستطيع المكلّف

و قال: و ضـمنها محاورهٔ بينه و بين نفسه، و قيّدتها عنه زوال يوم الثلاثاء التاسع و العشـرين لمحرم خمس و خمسـين و سبعمائهٔ، برابطهٔ العقاب ، متعبد الشيخ ولى اللّه أبى إسحاق الإلبيرى، رحمه اللّه، فمنها : [الكامل]

يأبى شجون حديثى الإفصاحإذ لا تقوم بشرحه الألواح

قالت صفيهٔ إذ مررت بهاأفلا تنزّل ساعهٔ ترتاح؟

فأجبتها لو لا الرقيب لكان لى ما تبتغى بعد الغدوّ رواح

قالت: و هل فى الحىّ حىّ غيرنا؟فاسمح فديتك فالسماح رياح

فأجبتها: إنّ الرقيب هو الذى بيديه منّا هذه الأرواح

و هو الشهيد على موارد عبدهسيّان ما الإخفاء و الإفصاح

قالت و أين يكون جود اللّه إذيخشى و منه هذه الأفراح

فافرح بإذن اللّه جلّ جلالهو اشطح فنشوان الهوى شطّاح

الإحاطهٔ فى أخبار غرناطهٔ، ج۲، ص: ۹۱ و انهج على ذمم الرجال و لا تخفالحكم رحب و النّوال مباح

و انزل على حكم السّرور و لا تبلفالوقت صاف ما عليك جناح

و اخلع عذارك فى الخلاعهٔ يا أخىباسم الذى دارت به الأقداح

و انظر إلى هذا النهار فسنّهضحكت و نور جبينه و ضّاح

أنواره ضحكت و أترع كأسهفقد استوى ريحانه و الرّاح

و انظر إلى الدنيا بنظرهٔ رحمهٔفجفاؤها بوفائها ينزاح

فأجبتها لو كنت تعلم ما الذىيبدو لتاركها و ما يلتاح

من كلّ معنى غامض من أجلهقد ساح قوم فى الجبال و ناحوا

حتى لقد سكروا من الأمر الذىهاموا به عند العيان فباحوا

لعذرتنى و علمت أنى طالبما الزهد فى الدنيا له مفتاح

فاترك صفيّك قارعا باب الرضىو اللّه جلّ جلاله الفتّاح

يا حىّ ، حىّ على الفلاح و خلّنىفجماعتى حثّوا المطىّ و راحوا

و قيدت من خطه فى جملة ما كتب إلىّ ما نصه:

و مما نظمته بغرناطة، و بعضه ببرجة، و هو مما يعجبنى، و أظنه كتبه لك، و هو غريب المنزع، و إنه لكما، قال : [الكامل]

خذها على رغم الفقيه سلافةتجلى بها الأقمار فى شمس الضّحى

أبدى أطباء القلوب لأهلهامنها شرابا للنفس مبرّحا

و إذا المرائى قال فى نشوانهاقل أنت بالإخلاص فيمن قد صحا

ياقوتة دارت على أربابهافاهتزّت الأقدام منها و اللّحا

مزجت فغار الشيخ من تركيبهافلذاك جرّدها و صاح و سرّحا

فبدت فغار الشيخ من إظهارهافاشتدّ يبتدر الحجاب ملوّحا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۲ لا تعترض أبدا على مسترفد قد غار من أسرارها أن يفضحا

و كذاك لا تعتب على مستهترلم يدر ما الإيضاح لمّا أوضحا

سكران يعثر فى ذيول لسانه كفرا و يحسب أنه قد سبّحا

كتم الهوى حريّة بعض و بعض ضاق ذرعا بالغرام فبرّحا

لا تخشينّ على العدالة هاتفاثغر ارتياح العاشقين فجرّحا

الحبّ خمر العارفين قد ضفت حتما على من ذاقها أن يشطحا

فاشطح على هذا الوجود و أهلهعجبا فليس براجح من رجّحا

كبّر عليهم إنهم موتى علىغير الشّهادة ما أغرّ و أقبحا

و اهزأ بهم فمتى يقل نصحاؤهم أهج فقل حتى ألاقى مفلحا

و إذا أريبهم استخفّ فقل لهبالله يا يحيى بن يحيى دع جحا

أبنى سليم قد نجا مجنونكممجنون ليلى العارفين به قد محا

هل يستوى من لم يبح بحبيبهمع من بذكر حبيبه قد أفصحا

فافرح و طب و ابهج و قل ما شئته ما أملح الفقراء يا ما أملحا

و من مقطوعاته التى هى آيات العجائب، و طرر حلل البدائع فى شتى الأغراض و المقاصد، قوله يعتذر لبعض الطلبة، و قد استدبره ببعض حلق العلم بسبتة : [السريع]

إن كنت أبصرتك لا أبصرتبصيرتى فى الحقّ برهانها

لا غرو أنى لم أشاهدكمفالعين لا تبصر إنسانها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۳

و منها قوله فى غرض التورية، و هو بديع فى معناه : [الطويل]

يلومونني بعد العذار على الهوىو مثلى فى وجدى له لا يفنّد

يقولون أمسك عنه قد ذهب الصّباو كيف يرى الإمساك و الخيط أسود؟

و منها قوله فى المجنّبات، و هو من الغريب البديع : [الطويل]

و مصفرّة الخدّين مطويّة الحشاعلى الجبن و المصفرّ يؤذن بالخوف

لها هيئة كالشمس عند طلوعهاو لكنها فى الحين تغرب فى الجوف

و منها قوله فى النّصح، و لها حكاية تقتضى ذلك: [الكامل]

لا تبذلنّ نصيحة إلّا لمن تلقى لبذل النّصح منه قبولا

فالنصح إن وجد القبول فضيلةو يكون إن عدم القبول فضولا

و منها فى الحكم : [الخفيف]

ما رأيت الهموم تدخل إلّامن دروب العيون و الآذان

غضّ طرفا و سدّ سمعا و مهما تلق همّا فلا تثق بضمان

و منها قوله، و هو من المعانى المبتكرات : [الكامل]

حزنت عليك العين يا مغنى الهوىفالدمع منها بعد بعدك ما رقا الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۹۳

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۴ و لذاك قد صبغت بلون أزرقأو ما ترى ثوب المآتم أزرقا؟

و منها قوله فى المعانى الغريبة. قال: و مما نظمته فى عام أربعة و أربعين فى التفكر فى المعانى، مغلق العينين: [السريع]

أبحث فيما أنا حصّلتهعند انغماض العين فى جفنها

أحسبنى كالشاة مجترّةتمضغ ما يخرج من بطنها

و قال: و مما نظمته بين أندرش و برجة عام أربعة و أربعين، و أنا راكب مسافر، و هو مما يعجبنى، إذ ليس كل ما يصدر عنى يعجبنى.

قلت و يحقّ أن يعجبه :

[الطويل]

تطالبنى نفسى بما ليس لى بهيدان فأعطيها الأمان فتقبل

عجبت لخصم لجّ فى طلباتهيصالح عنها بالمحال فيفصل

[قال: و مما نظمته فى السنّة المذكورة من ذمّ النساء] : [الخفيف]

ما رأيت النّساء يصلحن إلّاللذى يصلح الكنيف لأجله

فعلى هذه الشريطة صالح هنّ لا تعد بامرئ عن محلّه

قال: و مما نظمته فى السنّة المذكورة : [الخفيف]

قد هجرت النساء دهرا فلم أبلغ أذانى صفاتهنّ الذميمه

ما عسى أن يقال فى هجو من قدخصّه المصطفى بأقبح شيمه

أو يبقى لناقص العقل و الدّين إذا عدّت المثالب قيمه؟

و قال: و ما نظمته فى تاريخ لا أذكره الآن، هذان البيتان، و لم أر معناهما لمن مضى. و لو رحل رجل إلى خراسان، و لم يأت إلّا بهما، كان ممن لم يخفق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۵

مسعاه، و لا أجدب مرعاه، ينفتح بهما للقلب باب من الراحة فسيح، إذا أجهده ما يكابد من المضاضة، و نقض العهود، و اختلاف الوعود. و هذه المحنة من شرّ ما ابتلى به بنو آدم، شنشنة نعرفها من أمرهم. و لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى :

[الطويل]

رعى اللّه إخوان الخيانة إنهم كفونا مؤونات البقاء على العهد

فلو قد وفوا كنّا أسارى حقوقهمنراوح ما بين النّسيئة و النقد

و قال يداعبنى، و على سبيل الكناية يخاطبنى: و لقد لقيت رجلا ببلاد الهند يعرف بأبى البركات ابن الحاج، و كان برد فى بستان كان له، فقلت أهجوه عام أربعة و أربعين و سبعمائة: [الكامل]

قالوا أبو البركات جمّ ماؤهفغدا أبو البركات لا البركات

قلنا لأن يكنى بموجوداتهأولى من أن يكنى بمعدومات

و مما نظمته عام خمسة و أربعين و سبعمائة : [السريع]

قد كنت معذورا بعلمى و مأأبثّ من وعظى بين البشر

من حيث قد أمّلت إصلاحهمبالوعظ و العلم فخان النّظر

فلم أجد أوعظ للناس منأصوات وعّاظ جلود البقر

و مما نظمته بمرسى تلهى، من بلد هنين ، عام ثلاثة و خمسين، و قد أصابنى هوس فى البحر و خاطبت به بعض الأصحاب: [الكامل]

رأسى به هوس جديد لا الذىتدريه من هوس قديم فيه

قد حلّ ما أبديه من هذا كماقد حلّ من ذاك الذى أخفيه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۶

و من الملح قوله: قال: و بتّ بحمام الخندق من داخل ألمرية ليلة الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين و ثلاثين منفردا، فطفىء المصباح، و بقيت مفكرا، فخطر ببالى ما يقول الناس من تخيّل الجنّ فى الأرحاء و الحمامات، و عدم إقدام كافة الناس إلّا ما شذّ عند دخولها منفردين بالليل، لا سيما فى الظلام، و استشعرت قوة فى نفسى عند ذلك، أعراض و أوهام، فقلت مرتجلا، رافعا بذلك صوتى: [الكامل]

زعم الذين عقولهم قدرهاإن عرّضت للبيع غير ثمين

أن الرّحا معمورة بالجن و الحمّام عندهم كذا بيقين

إن كان ما قالوه حقا فاحضروااللحرب هذا اليوم من صفّين

فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقةبأنى مصارع قيس المجنون

قال: و دخلت رياضا يوما، فوجدت كساء منشورا للشمس لم أعرفه من حوائجى، و لا من حوائج حارسة البستان، فسألتها فقالت: هو لجارتى، فقلت:

[الكامل]

من منصفى من جارتى جارت علىمالى كأنى كنت من أعدائها

عمدت إلى الشمس التى انتشرت علىأرضى و أمّت فيه بئس كسائها

لو لا غيوم يوم تيبس الكساسرّت لحجب السّحب جلّ ضيائها

لقضيت منهم الخسار لأننىأصبحت مزورا على بخلائها

قلت: و صرت إلى مغنى بحمّة بجّانة ، و سار معى كلب كان يحرس رياضى اسمه قطمير، و هو، فيما يذكر، كلب أهل الكهف، فى بعض الأقوال، فتبعنى من ألمريّة إلى الحمّة، ثم من الحمّة إلى ألمرية، فقلت: [المتقارب]

رحلت و قطمير كلبى رفيقىيونس قلبى بطول الطريق

فلمّا أنخت أناخ حذائىيلاحظنى لحظ خلّ شفيق

و يرعى أذمّة رفقى كمايتغنّى الصديق الصدوق

على حين قومى بنى آدمبلؤمهم لم يوفوا حقوقى

و لا فرق بين الأباعد منهمو بين أخ مستحب شفيق

أو ابن متى تلقاه تلقههوىّ اشتياق بقلب خفوق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۷ فما منهم من وليّ حميمو لا ذى إخاء صحيح حقيق

و ناهيك ممن يفضّل كلباعليهم فيا ويلهم من رفيق

ألا من يرقّ لشيخ غريبأبى البركات الفتى البلفيق

و قال: و ممّا نظمته بتاريخ لا أذكره هذين البيتين : [الطويل]

و إنّى لخير من زمانى و أهلهعلى أننى للشّرّ أوّل سائق

لحى اللّه دهرا قد تقدّمت أهلهفتلك لعمر اللّه إحدى البوائق

و من النزعات الشاذة الأغراض: [البسيط]

لا بارك اللّه فى الزّهاد إنهملم يتركوا عرض الدنيا لفضلهم

بل أثقلتهم تكاليف الحياة فلميصايروها فملّوا ثقل حملهم

و عظّم الناس منهم تركها فغدوامن غبطة التّرك فى حرص لأجلهم

نعم أسلّم أن القوم إذ زهدوازادا و أعلى الناس طرّا فضل تركهم

من حيث قد أحرزوا التّرجيح دونهملا شىء أبين من ترجيح فضلهم

فالمال و الجود و الراحات غاية مايحكى لنا الزهد فى ذاعن أجلّهم

و الزاهدون براحات القلوب مع الأبدان سرّوا و عزّوا بعد ذلّهم

فكل ما فرّقوا قد حصّلوا غرضامنه و زادوا ثناء الناس كلّهم

قال: و مما نظمته عام أربعين فى ذم الخمر من جهة الدنيا، لا من جهة الدين، إذ ليس بغريب: [الطويل]

لقد ذمّ بعض الخمر قوم لأنهاتكرّ على دين الفتى بفساد

و قد سلّموا قول الذى قال إنهاتحلّ من الدنيا بأعظم ناد

و تذهب بالمال العظيم فلن تريلمدمنها من طارف و تلاد

فيمسى كريما سيّدا ثم يغتدىسفيها حليف الغىّ بعد رشاد

و قالوا: تسلّى و هو عارية لهاو إلّا فلم يأتوا لذاك بشاد

و صلّ و نور و حسناء طفلةو مرأى به للطّريف سير جواد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۸ و هلّا يداوى من مرارتها التىأواخرها مقرونة بمهاد؟

و لو أشرب الإنسان مهلا بهذهلأصبح مسرورا بأطيب زاد

و من حسن حال الشّاربين يقيّؤنها بالرغم من برق وساد

و من حسن ذا المحروم أنّ مدامهإذا غلبت تكسوه ثوب رقاد

فيختلف النّدمان طرّا لروحهو يحدوهم نحو المروءة حادى

و من حسنه بين الورى ضرب ظهرهفيمسى بلا حرب رهين جلاد

مجانين فى الأوهام قد ضلّ سعيهميخففون بيعا بحسن غواد

و من نظمه فى الإنحاء على نفسه، و استبعاد وجوه المطالب فى جنسه، ممّا نظمته يوم عرفة عام خمسين و أنا منزو فى غار ببعض جبال ألمرية :

[الخفيف]

زعموا أنّ فى الجبال رجالا صالحينا قالوا من الأبدال

و ادّعوا أنّ كلّ من ساح فيهافسيلقاهم على كلّ حال

فاخترقنا تلك الجبال مرارابنعال طورا و دون نعال

ما رأينا فيها سوىّ الأفاعىو شبا عقرب كمثل النبال

و سباعا يجرون بالليل عدوالا تسلنى عنهم بتلك الليالى

و لو أنّا لدى العدوة الأخرى رأينا نواجذ الرّئبال

و إذا أظلم الدّجى جاء إبليس إلينا يزور طيف الخيال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۹۹ هو كان الأنيس فيها و لولاه أصيبت عقولنا بالخبال

خلّ عنك المحال يا من تعنّىليس يلقى الرّجال غير الرجال

قال: و من المنازع الغريبة ذمّ الأصحاب و مدح الأعداء، فمن ذلك قولى:

[المتقارب]

جزى اللّه بالخير أعداءنافموردهم أنسى المصدر

هم حملونا على العرف كرهاو هم صرفونا عن المنكر

و هم أقعدونا بمجلس حكمو هم بوّؤونا ذرى المنبر

و هم صيّرونا أئمة علمو دين و حسبك من مفخر

عدوّى بأول فدى مأثمو إن جئت بالإثم لم يعذر

و أنت ترى تمحيص من يعدل بين المسىء و بين البرى

و لا زوّد اللّه أصحابنابزاد تقىّ و لا خيّر

هم جرّؤونا على كل إثمو ما كنت لولاهم بالمخبر

و عدّوا من اكبار آثامنافكانوا أضرّ من الفاتر

أعارنى القوم ثوب التّقىو إنى مما أعارونى برى

إذا خدعونى و لم ينصحواو إنى بالنّصح منهم حرى

فمن كان يكذب حال الرّضىيصدق فى غضب يفترى

بلى سوف تلقى لدى الحالتينيحكم النّفس هوى الفرى

فياربّ أبق علينا عقولنانبيع بها و بها نشترى

قال: و ما رأيت هذا المعنى قط لأحد، ثم رأيت بعد ذلك لبعضهم ما معناه:

[الطويل]

عداتى لهم فضل علىّ و منّةفلا أذهب الرحمن عنّى الأعاديا

هم بحثوا عن زلّتى فاجتنبتهاو هم نافسونى فاكتسبت المعاليا

فوقع حافرى على ساق هذا. قال: و مما نظمته، متخيّلا أنى سابق معناه:

[الوافر]

خلسنا ليلة من كفّ دهرضنين بالليالى الطيّبات

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۰ سلكنا للهوى و العقل فيهامسالك قد جلين على الشّتات

قضينا بعض حقّ النفس فيهاو حقّ اللّه مرعىّ الثّبات

فلم نر قبله فى الدهر وقتابدت حسناته فى السيّئات

ثم رأيت بعد ذلك على هذا: [مخلع البسيط]

لا و ليال على المصلّى تسرق فى نسكها الذنوب

فوقعت ساقى على حافر هذا المحروم، إلا أنى جرّدت ذلك فى المعنى، و أوضحته، و جلوته على كرسى التّقعيد و التّنجيد، فلو لا التاريخ لعاد سارق البرق.

نثره: و أمّا نثره، فنمط مرتفع عن معتاد عصره، استنفارا و بلاغة، و استرسالا و حلاوة، قلّما يعرّج على السّجع، أو يأمر على التّكليف، و هو كثير بحيث لا- يتعيّن عيونه، و لكن نلمع منه نبذة، و نجلب منه يسيرا. كتب إلىّ عند إيابى من الرّسالة إلى ملك المغرب، متمثّلا ببيتين لمن قبله، صدّر بهما : [السريع]

أيتها النفس إليه اذهبىفحبّه المشهور من مذهبى

أيأسنى التّوبة من حبّهطلوعه شمسا من المغرب

بل محلّك أمثل من التمثيل بالشمس، فلو كان طلوعك على هذه الأقطار شمسا، لأصبح جلّها لك عبّاد. و لو كان نزولك مطرا لتكيّفت الصّخور ترابا دمثا.

و لو لا معرفتنا معشر إخوان الصّفا، بإقرار أنفسنا، لحكمنا بأن قلوبنا تمائم لأصدقائنا، و لكن سبقت عيون السعادة بالكلّات، فلو تصادف بالرضى محلّا؛ لأنّ تحصيل الحاصل محال، لا زلت محروسا، بعين الذى لا تأخذه سنة و لا نوم مكنوفة ببركة الذى يرومه رائم، و السلام.

و كتب إلىّ عند ما تقلّدت من رئاسة الإنشاء ما تقلدت: تخصكم يا محلّ الابن الأرضى ولادة، و الأخ الصادق إخلاصا و ودّا، خصّكم اللّه من السعادة بأعلاها مرقى، و أفضلها عقبى، و أحمدها غنى، و أكرمها مسعى، تحيّة اللّهفان إلى أيام لقائك، المسلى عنها بتأميل العود إليها، المزجى أوقاته بترداد الفكر فيها، محمد بن الحاج، أبقاه اللّه، عن شوق، و الذى لا إله إلّا هو، لم أجد قط مثله إلى ولىّ حميم. و اللّه على ما نقول وكيل، معرّفا أننى بعلاقمه، و تصلينى عن كسره مجامعه، لما اعتنى به

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۱

من توقّلكم بالرّتبة التى ما زال أحبّاؤكم بها ممطولى برّه، على أنك لم تزد بذلك رتبة على ما كنت باعتبار الأهليّة، و المكانة العليّة، إلّا عند الأطفال و الأغفال، و المحلّقين من النساء و الرجال، لكن أفزعتنا هذه المخاطبة المحظيّة فى قالب الجمهور، و لم نسر فيها، على الأصح، لكن على الجمهور، و لو كانت مصارف الوجود بيدى، لوافتك من الوجود منازل أسمائه منازل، و أوطأتك أفلاكه مراكب، و أوردتك كوثره مشربا، و أحللتك أرفعه معقلا، و أقبستك بدره مصباحا، و أهدتك أسراره تحفا. و قد تبلغ المقاصد مبالغ لا تنتهى أقاصيها الأعمال، فنحن و ما نضمره لتلك الجملة الجليلة الفاضلة، مما اللّه رقيب عليه، و محيط بدقائقه. و لو كانت لهذا العبد الغافل، المأسور فى قيد نفسه، المحزون على انتهاب الأيام، رأس عمره فى غير شىء، دعوة يساعدها الوجد حتى يغلب على ظنّه أن العليم بذات الصدور، ولّاها من قبوله بارقة لخصّك بها، و اللّه شهيد على ما تكنّه الأفئدة، و هو حسبنا و نعم الوكيل.

و الفضل جمّ، و المحاسن عديدة، فلنقصر اضطرارا، و لنكفّ امتثالا للرسم، و انقيادا، أمتع اللّه به.

محمد بن عبد اللّه بن منظور القيسى

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

أوّليّته: أصله من إشبيلية، من البيت المشهور بالتّعيين و التقدّم، و الأصالة، تشهد بذلك جملة أوضاع، منها «الرّوض المحظور فى أوصاف بنى منظور»، و غيره.

حاله: من كتاب «عائد الصلة». كان جمّ التواضع و التخلّق، كثير البرّ، مفرط الهشّة، مبذول البشر، عظيم المشاركة، سريع اللسان إلى الثّناء، مسترسلا فى باب الإطراء، دربا على الحكم، كثير الحنكة، قديم العالة، بصيرا بالشّروط، ولّى القضاء بجهات كثيرة، و تقدم بمالقة، بلده فشكرت سيرته، و حمدت مدارته. و كان سريع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۲

العبرة، كثير الخشية، حسن الاعتقاد، معروف الإيثار و الصّدقة، شائع الإقراء لمن ألمّ بصقعه، و اجتاز على محلّ ولايته، جاريا على سنن سلفه، ينظم و ينثر، فلا يقصر.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبى محمد بن أبى السّداد الباهلى، و لازمه و انتفع به، و سمع على غيره من الأعلام، كالخطيب الولى أبى عبد اللّه الطّنجالى، و العدل الراوية المسنّ أبى عبد اللّه بن الأديب، و المسن أبى الحكم مالك بن المرحّل، و على الشيخ الصوفى أبى عبد اللّه محمد بن أحمد الأقشرى الفاسى، و لبس عنه خرقة التّصوف، و على الخطيب أبى عبد اللّه بن رشيد، و عن الشيخ القاضى أبى المجد بن الأحوص، و على ابن مجاهد الرّندى، المعروف بالسّمّار، و الخطيب أبى العباس بن خميس بالجزيرة الخضراء، و على الخطيب الزاهد أبى عبد اللّه السلّال. و كتب إليه بالإجازة، أبو عبد اللّه بن الزبير، و الفقيه أبو الحسن بن عقيل الرّندى، و الوزير المعمّر أبو عمر الطّنجى، و أبو الحكم بن منظور، ابن عم أبيه، و الأستاذ أبو عبد اللّه بن الكماد. نقلت ذلك من خطه.

تواليفه: أخبرنى أنه ألّف «نفحات المسوك ، و عيون التّبر المسبوك فى أشعار الخلفاء و الوزراء و الملوك». و كتاب «السّحب الواكفة و الظلال الوارفة، فى الردّ على ما تضمّنه المضنون به على غير أهله من اعتقاد الفلاسفة». و كتاب الصّيّب الهتّان، الواكف بغايات الإحسان، و المشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية و سور القرآن». و كتاب «البرهان و الدليل فى خواص سور التّنزيل، و ما فى قراءتها فى النوم من بديع التأويل ». و كتاب يشتمل على أربعين حديثا فى الرقائق، موصولة الأسانيد. و كتاب «تحفة الأبرار فى مسألة النبوة و الرسالة، و ما اشتملت عليه من الأسرار». و كتاب «الفعل المبرور، و السّعى المشكور، فيما وصل إليه، أو تحصل لديه من نوازل القاضى أبى عمر بن منظور».

شعره: و من شعره قوله : [البسيط]

ما للعطاس و لا للفأل من أثرفثق فديتك بالرحمن و اصطبر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۳ و سلّم الأمر فالأحكام ماضيةتجرى على السّنن المربوط بالقدر

محمد بن على بن الخضر بن هارون الغسانى

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن عسكر .

حاله: من كتاب «الذّيل و التكملة» : كان مقرئا مجوّدا، نحويا ، متوقّد الذهن، متفنّنا فى جملة معارف، ذا حظّ صالح من رواية الحديث، تاريخيا، حافظا، فهيما ؛ مشاورا، دؤوبا فى الفتوى، متينا فى الدّين، تامّ المروءة، ستيّا فاضلا، معظّما عند الخاصة و العامة، حسن الخلق، جميل العشرة، رحيب الصّدر، مسارعا إلى قضاء الحوايج ، شديد الإجمال ، محسنا إلى من أساء إليه، نفّاعا بجاهه، سمحا بذات يده، متقدّما فى عقد الوثائق، بصيرا بمعانيها، سريع البديهة فى النظم و النثر، مع البلاغة و الإحسان فى الفنّين.

ولّى قضاء مالقة نائبا عن القاضى أبى عبد اللّه بن الحسن مدة، ثم ولى مستبدّا بتقديم الأمير أبى عبد اللّه بن نصر ، يوم السبت لليلتين بقيتا من رمضان عام خمسة و ثلاثين . و أشفق من ذلك و امتنع منه و خاطبه مستعفيا، و ذكر أنه لا يصلح للقيام بما قلّده من تلك الخطّة تورّعا منه، فلم يسعفه.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۴

فتقلّدها، و سار فيها أحسن سيرة، و أظهر الحقوق التى كان الباطل قد غمرها، و نفّذ الأحكام.

و كان ماضى العزيمة، مقداما، مهيبا، جزلا فى قضائه، لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، و استمرّ على ذلك بقية عمره.

مشيخته: روى عن أبى إسحاق الزّوالى، و أبى بكر بن عتيق بن منزول ، و أبى جعفر الجيان ، و أبى حسن الشقورى، و أبى الحجاج بن الشيخ، و أبى الخطّاب بن واجب، و أبى زكريا الأصبهانى مقيم غرناطة.

من روى عنه: روى عنه أبو بكر بن خميس ابن أخته، و أبو العون ، و أبو عبد اللّه بن بكر الإلبيرى . و حدّث عنه بالإجازة، أبو عبد اللّه الأبّار ، و أبو القاسم بن عمران، و كتب بالإجازة للعراقيين من أهل بغداد الذين استدعوها من أهل الأندلس، حسبما تقدم فى رسم أبى بكر بن هشام، و ضمنها نظما و نثرا اعترف له بالإجادة فيهما.

تصانيفه: صنّف كتبا كثيرة، أجاد فيها و أفاد، منها «المشرع الرّوى فى الزيادة على المروى ». و منها «أربعون حديثا» التزم فيها موافقة اسم شيخه، اسم الصابى ، و ما أراه سبق إلى ذلك، و هو شاهد بكثرة شيوخه، وسعة روايته. و منها «نزهة الناظر فى مناقب عمّار بن ياسر». و منها «الخبر المختصر، فى السّلوى عن ذهاب البصر»، ألّفه لأبى محمد بن أبى الأحوص الضرير الواعظ. و منها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۵

«رسالة فى ادّخار الصبر، و افتخار القصر و الفقر». و منها «الإكمال و الإتمام فى صلة الإعلام بمجالس الأعلام من أهل مالقة الكرام». و له اسم آخر، و هو «مطلع الأنوار و نزهة الأبصار ، فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء و الأعلام و الأخيار، و تقيّد من المناقب و الآثار». و اخترمته المنيّة عن إتمامه فتولّى إتمامه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور، و قد نقلت منه فى هذا الكتاب.

شعره: و من شعره، و قد نعيت إليه نفسه قبل أن تغرب من سماء معارفه شمسه : [الطويل]

و لما انقضى إحدى و خمسون حجّةكأنّى منها بعد كرب أحلم

ترقّيت أعلاها لأنظر فوقهامدى الحتف منّى علّنى منه أسلم

إذا هو قد أدنت إليه كأنماترقّيت فيه نجوة و هو سلّم

و قال فى أحدب: [السريع]

و أحدب تحسب فى ظهرهجاء به فى نهر عائمة

مثّلث الخلقة لكنّهفى ظهره زاوية قائمة

و من أمثال نظمه قوله، و قد استدعيت منه إجازة : [الطويل]

أجبتك لا أنى لما رمته أهلو لكنّ ما أجبت محتمل سهل

و ما العلم إلّا البحر طاب مذاقهو ما لى علّ فى الورود و لا نهل

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۶ فكيف أرانى أهل ذاك و قد أتىعلىّ المميتان البطالة و الجهل

و أسأل ربى العفو عنى فإنهلما يرتجيه العبد من فضله أهل

مولده: تخمينا فى نحو أربع و ثمانين و خمسمائة.

وفاته: ظهر يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الآخرة، عام ستة و ثلاثين و ستمائة .

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد ابن أبى بكر بن سعد الأشعرى المالقى

اشارة

يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن بكر، من ذرية بلج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد بن أبى بردة. و اسمه عامر بن أبى عامر بن أبى موسى.

و اسمه عبد اللّه بن قيس، صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. ذكره ابن حزم فى جملة من دخل الأندلس من العرب .

حاله: من «عائد الصلة»: كان من صدور العلماء، و أعلام الفضلاء، سذاجة و نزاهة و معرفة و تفننا. فسيح الدرس، أصيل النظر، واضح المذهب، مؤثرا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۷

للإنصاف، عارفا بالأحكام و القراءات ، مبرّزا فى الحديث تاريخا و إسنادا و تعديلا و تجريحا ، حافظا للأنساب و الأسماء و الكنى، قائما على العربية، مشاركا فى الأصول و الفروع، و اللغة و العروض و الفرائض و الحساب، مخفوض الجناح، حسن التخلق ، عطوفا على الطلبة، محبّبا فى العلم و العلماء، مجلّا لأهله ، مطّرح التصنّع، عديم المبالاة بالملبس، بادى الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، صوّالة، معروف بنصرة من أزر إليه. تقدّم للشياخة ببلده مالقة، ناظرا فى أمور العقد و الحل، و مصالح الكافة. ثم ولّى القضاء بها، فأعزّ الخطة، و ترك الهوادة و إنفاد الحق ملازما للقراءة و الإقراء، محافظا للأوقات، حريصا على الإفادة.

ثم ولّى القضاء و الخطابة بغرناطة فى العشر الأول لمحرم سبعة و ثلاثين و سبعمائة، فقام بالوظائف، و صدع بالحق، و جرّح الشهود فزيّف منهم ما ينيف على السبعين عددا، و استهدف بذلك إلى معاداة و مناضلة خاض ثبجها، و صادم تيّارها، غير مبال بالمغبّة، و لا حافل بالتّبعة، فناله لذلك من المشقّة، و الكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان يمشى إلى الصلاة ليلا فى مسلّة، لا يطمئن على حاله.

جرت فى هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أراده اللّه، و عزم عليه الأمير فى بعض من الخطّة، ليردّه إلى العدالة، فلم يجد فى قناته مغمزا، و لا فى عوده معجما، و تصدّر لبثّ العلم بالحضرة، يقرئ فنونا منه جمّة، فنفع و خرّج، و درّس العربية و الفقه و الأصول، و أقرأ القرآن، و علم الفرائض و الحساب، و عقد مجالس الحديث شرحا و سماعا، على سبيل من انشراح الصّدر، و حسن التجمّل، و خفض الجناح .

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۸

و ذكره القاضى المؤرخ أبو الحسن بن الحسن، فقال : و أما شيخنا، و قريبنا مصاهرة، أبو عبد اللّه بن أبى بكر، فصاحب عزم و مضاء، و حكم صادع و قضاء. كان له، رحمه اللّه، مع كل قولة صولة، و على كل رابع لا يعرف ذرّة، فأحرق قلوب الحسدة و الصّب، و أعزّ الخطّة بما أزال عنها من الشّوائب، و ذهّب و فضّض كواكب الحق بمعارفه، و نفذ فى المشكلات، و ثبت فى المذهلات ، و احتج و بكّت، و تفقّه و نكّت.

توقيعه: قال: و حدّثنا صاحبنا أبو جعفر الشّقورى قال : كنت قاعدا فى مجلس حكمه فرفعت إليه امرأة رقعة، مضمونها أنها محبّة فى مطلّقها، و تبتغى من يستشفع لها فى ردّها، فتناول الرّقعة، و وقع فى ظهرها للحين من غير مهلة: الحمد للّه، من وقف على ما بالمقلوب ، فليصغ لسماعه إصاغة مغيث، و ليشفع للمرأة عند زوجها، تأسّيا بشفاعة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لبربرة فى مغيث. و اللّه يسلم لنا العقل و الدين، و يسلك بنا مسالك المهتدين. و السلام يعتمد على من وقف على هذه الأحرف من كاتبها، و رحمة اللّه. قال صاحبنا: فقال لى بعض الأصحاب: هلّا كان هو الشفيع لها؟ فقلت: الصحيح أنّ الحاكم لا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه على النصوص .

شعره: و لم يسمع له شعر إلّا بيتين فى وصف قوس عربى النّسب فى شعر من لا شعر له، و هما: [البسيط]

هام الفؤاد ببنت النّبع و النّشمزوراء تزرى بعطف البان و الصّنم

قوام قامتها تمام معطفهامن يلق مقتلها تصميه أو تصم

مشيخته: قرأ على الأستاذ المتفنّن الخطيب أبى محمد بن أبى السّداد الباهلى القرآن العظيم جمعا و إفرادا، و أخذ عنه العربية و الفقه و الحديث، و لازمه،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۰۹

و تأدب به. و على الشيخ الراوية الصالح أبى عبد اللّه محمد بن عيّاش الخزرجى القرطبى، قرأ عليه كثيرا من كتب الحديث، منها

كتاب صحيح مسلم، و سمع عليه جميعه إلّا دولة واحدة. و من أشياخه القاضى أبو القاسم قاسم بن أحمد بن حسن بن السّكوت، و الفقيه المشاور الصّدر الكبير أبو عبد اللّه بن ربيع، و الخطيب القدوة الولى أبو عبد اللّه بن أحمد الطّنجالى، و الشيخ القاضى أبو الحسن ابن الأستاذ العلّامة أبى الحجاج بن مصامد، و الأستاذ خاتمة المقرئين أبو جعفر بن الزّبير، و الخطيب المحدّث أبو عبد اللّه بن رشيد، و الخطيب الولى الصالح أبو الحسن بن فضيلة، و الأستاذ أبو الحسن بن اللّباد المشرفى، و الشيخ الأستاذ أبو عبد اللّه بن الكماد السّيطى اللّبليسى. و أجازه من أهل سبتة شيخ الشّرفاء أبو على بن أبى التّقى طاهر بن ربيع، و العدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهوارى، و أبو إسحاق التلمسانى، و الحاج العدل الراوية أبو عبد اللّه بن الحصّار، و الأستاذ المقرئ ابن أبى القاسم بن عبد الرحيم القيسى، و الأستاذ أبو بكر بن عبيدة، و الشيخ المعمر أبو عبد اللّه بن أبى القاسم بن عبيد اللّه الأنصارى. و من أهل إفريقية الأديب المعمر أبو عبد اللّه محمد بن هارون، و أبو العباس أحمد بن محمد الأشعرى المالقى نزيل تونس، و محمد بن محمد بن سيّد الناس اليعمرى، و عثمان بن عبد القوى البلوى.

و من أهل مصر النّسابة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدّمياطى، و المحدّث الراوية أبو المعالى أحمد بن إسحاق، و جماعة غيرهم من المصريين و الشاميين و الحجازيين.

مولده: فى أواخر ذى حجة من عام أربعة و سبعين و ستمائة.

وفاته: فقد فى مصاب المسلمين يوم المناجزة بطريف شهيدا محرّضا، زعموا أن بغلة كان عليها كبت به، و أفاق رابط الجأش، مجتمع القوى. و أشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه. و قال: انصرف، هذا يوم الفرج ،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۰

إشارة إلى قوله تعالى فى الشهداء: فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، و ذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد و أربعين و سبعمائة.

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد ابن محمد بن محمد بن على بن موسى بن إبراهيم بن محمد ابن ناصر بن حيّون بن القاسم بن الحسن بن محمد ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه

حسبما نقل من خطه:

أوّليّته: معروفة، كان وليته مثله.

حاله: هذا الفاضل جملة من جمل الكمال، غريب فى الوقار و الحصافة، و بلوغ المدى، و استولى على الأمم حلما و أناة، و بعدا عن الريب، و تمسكا بعرى النزاهة، و استمساكا مع الاسترسال، و انقباضا مع المداخلة، معتدل الطريقة، حسن المداراة، مالكا أزمّة الهوى، شديد الشفقة، كثير المواساة، مغار حبل الصبر، جميل العشرة، كثيف ستر الحيا، قوى النفس، رابط الجأش، رقيق الحاشية، ممتع المجالسة، متوقد الذهن، أصيل الإدراك، بارعا بأعمال المشيخة، إلى جلال المنتمى، و كرم المنصب و نزاهة النفس، و ملاحة الشّيبة، و حمل راية البلاغة، و الإعلام فى ميادين البيان، رحلة الوقت فى التبريز بعلوم اللسان، حائز الخصل و الفضل فى ميدانها، غريبة غزيرة الحفظ، مقنعة الشّاهد ، مستبحرة النظر، أصيلة التوجيه، بريّة عن النّوك و الغفلة، مرهفة باللغة و الغريب و الخبر و التاريخ و البيان، و صناعة البديع، و ميزان العروض، و علم القافية، و تقدّما فى الفقه، و درسا له، و براعة فى الأحكام، و إتقان التّدريس، و الصبر، و الدّؤوب عليه، بارع التصنيف، حاضر الذهن، فصيح اللسان، مفخرة من مفاخر أهل بيته.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۱

ولايته: قدم على الحضرة فى دولة الخامس من ملوك بنى نصر ، كما استجمع شبابه، يفهق علما باللسان، و معرفة بمواقع البيان، و ينطق بالعذب الزّلال من الشعر، فسهّل له كنف البر، و نظم فى قلادة كتاب الإنشاء، و هو إذ ذاك ثمينة الخزرات، محكمة الرّصف،

فشاع فضله، و ذاع رجله. ثم تقدم، فنقل من طور الحكم، إلى أن قلّد الكتابة و القضاء و الخطابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها التى أعقبها ولاية مالقة فى الرابع من شهر ربيع الآخر عام سبعة و ثلاثين و سبعمائة. فاضطلع بالأحكام، و طبّق مفصل الفضل، ماضى الصّريمة، وحىّ الإجهار، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، قليل النّاقد، مطعم التوفيق، يصدع فى مواقف الخطب، بكل بليغ من القول، مما يريق ديباجته، و يشفّ صقاله، و تبرأ من كلال الخطباء جوانبه و أطرافه. و استعمل فى السّفارة للعدوّ ناجح المسعى، ميمون النّقيبة، جزيل الحياء و الكرامة، إلى أن عزل عن القضاء فى شعبان من عام سبعة و أربعين و سبعمائة، من غير زلّة تخفض، و لا هنة تؤثر، فتحيّز إلى التّحليق لتدريس العلم، و تفرّغ لإقراء العربية و الفقه، و لم ينشب أميره المنطوى على الهاجس، المغرى بمثله، أن قدّمه قاضيا بوادى آش، بنت حضرته، معزّزة بسندها الكبير الخطّة، فانتقل إليه بجملته. و كانت بينه و بين شيخنا أبى الحسن بن الجيّاب، صداقة صادقة، و مودة مستحكمة، فجرت بينهما أثناء هذه النّقلة، بدائع، منها قوله، يرقب خطّة القضاء التى اخترعها، و يوليها خطة الملامة :

[السريع]

لا مرحبا بالناشز الفاركإن جهلت رفعة مقدارك

لو أنها قد أوتيت رشدهاما برحت تعشو إلى نارك

أقسمت بالنّور المبين الذىمنه بدت مشكاة أنوارك

و مظهر الحكم الحكيم الذىيتلو عليه طيب أخبارك

ما لقيت مثلك كفؤا لهاو لا أوت أكرم من داركِ الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۲

ثم أعيد إلى القضاء بالحضرة، فوليها، و استمرت حاله و ولايته على متقدّم سمته من الفضل و النّزاهة و المراجعة فيما يأنف فيه من الخروج عن الجادّة، إلى أن هلك السلطان مستقضيه، مأموما به، مقتديا بسجدته، يوم عيد الفطر، خمسة و خمسين و سبعمائة. و ولى الأمر ولده الأسعد، فجدّد ولايته، و أكّد تجلّته، و رفع رتبته، و استدعى مجالسته.

مشيخته: قرأ ببلده سبتة على أبيه الشريف الطاهر، نسيج وحده فى القيام، و على أبى عبد اللّه بن هانى و به جلّ انتفاعه، و عليه جلّ استفادته. و أخذ عن الإمام شيخ المشيخة أبى إسحاق الغافقى. و روى عن الخطيب أبى عبد اللّه الغمارىّ، و الخطيب المحدّث أبى عبد اللّه بن رشيد، و القاضى أبى عبد اللّه القرطبى، و الفقيه الصالح أبى عبد اللّه بن حريث. و أخذ عن الأستاذ النظار أبى القاسم بن الشاط و غيره.

محنته: دارت عليه يوم مهلك السلطان المذكور رحى الوقيعة، فعركته بالثّقال، و تخلّص من شرارها هولا، لتطارح الأمير المتوثّب أمام ألمريّة عليه، خاتما فى السّجدة، و درس الحماة إياه عند الدّجلة، من غير التفات لمحل الوطأة، و لا افتقاد لمحل صلاة تلك الأمّية، فغشيه من الأرجل، رجل الرّبى كثيرة، و التفّ عليه مرسل طيلسانه، سادّا مجرى النّفس إلى قلبه، فعالج الحمام وقتا، إلى أن نفّس اللّه عنه، فاستقلّ من الرّدى، و انتبذ من مطّرح ذلك الوغى، و بودر بالفصاد، و قد أشفى، فكانت عثرة لقيت لما و متاعا، فسمح له المدى آخر من يوثق به، من محل البثّ، و مودعات السّرّ من حظيّات الملك، أن السلطان عرض عليه قبل وفاته فى عالم الحلم، كونه فى محراب مسجده، مع قاضيه المترجم به، و قد أقدم عليه كلب، أصابه بثوبه، و لطّخ ثوبه بدمه، فأهمّته رؤياه، و طرقت به الظنون مطارقها، و همّ بعزل القاضى، انقيادا لبواعث الفكر، و سدّا لأبواب التوقيعات، و قد تأذن اللّه بإرجاء العزم، و تصديق الحلم، و إمضاء الحكم، جلّ وجهه، و عزّت قدرته، فكان من الأمر ما تقرر فى محله.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۳

تصانيفه: و تصانيفه بارعة، منها، «رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة »، شرح فيها مقصورة الأديب أبى الحسن حازم بما تنقطع الأطماع فيه.

و منها «رياضة الأبىّ فى قصيدة الخزرجى»، أبدع فى ذلك بما يدل على الاطلاع و سداد الفهم، و قيّد على «كتاب التّسهيل» لأبى عبد

اللّه بن مالـك تقييـدا جليلا و شـرحا بـديعا، قارب التمام. و شـرع فى تقييـد على الخبر المسـمّى ب «درر السّـمط فى خبر السّـبط». و محاسنه جمّة، و أغراضه بديعة.

شعره: و أمّا الشعر، فله فيه القدح المعلّى، و الحظّ الأوفى، و الدّرجة العليا، طبقة وقته، و درجة عصره، و حجة زمانه، كلامه متكافئ فى اللفـظ و المعنى، صـريح الدّلالـة، كريم الخيم، متحصّـد الحبـل، خالص السّـبك، و أنا أثبت منه جزما خصّـنى به، سـمّاه جهـد المقل، اشتمل من حرّ الكلام، على ما لا كفاء له.

الحمـد للّه تردّده أخرى الليـالى، فهو المسؤول أن يعصـمنا من الزّلـل، زلـل القول، و زلل الأعمال. و الصـلاة على سـيدنا محمـد خاتم الإرسال. هـذه أوراق ضـمنتها جملة من بنات فكرى، و قطعا مما يحيش به فى بعض الأحيان صدرى، و لو حزمت لأضـربت عن كتبها كـل الإضـراب، و لزمت فى دفنهـا و إخفائهـا دين الأعراب، لكنى آثرت على المحو الإثبات، و تمثلت بقولهم إن خير ما أوتيته العرب الأبيـات. و إذا هى عرضت على ذلـك المجـد، و سألهـا كيف نجت من الوأد، فقـد أوتيتهـا من حرمكم إلى ظـلّ ظليل، و أحللتها من بنائكم معرّسا و مقيل، و أهـديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها جـدّ كفيل، فاغتنم قلـة التهدئـة منى، إن جهد المقلّ غير قليل، فحسـبها شـرفا أن تبوّأت فى جنابـك كنفـا، و كفاها مجـدا و فخرا أن عقـدت بينها و بين فكرك عقـدا و جوارا و مما قلت فى حرف الهمزة.

مولده: بسبتة فى السادس لشهر ربيع الأول من عام سبعة و تسعين و ستمائة.

وفاته: توفى قاضيا بغرناطة فى أوائل شعبان من عام ستين و سبعمائة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۴

محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالى

قاضى الجماعة ببيضة الإسلام فاس، يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: هذا الرجل له أبوّة صالحة، و أصالة زاكية، قديم الطلب، ظاهر التخصّص، مفرط فى الوقار، نابه البزّة و الركبة، كثير التهمة، يوهم به الفارّ، و صدر الصّدور فى الوثيقة و الأدب، فاضل النفس، ممحوض النصح، جميل العشرة لإخوانه، مجرى الصّداقة نصحا و مشاركة و تنفيقـا على سـجيّة الأشـراف و سـنن الحسـباء، مديـد البـاع فى فن الأدب، شاعر مجيـد، كاتب بليغ، عارف بالتّحسـين و التّقبيـح، من أدركه، أدرك علما من أعلام المشيخة. قدّمه السـلطان الكبير العالم أبو عنان فارس، قاضيا بحضرته، و اختصّه، و اشتمل عليه، فاتصل بعـده سـعده، و عرف حقّه. و تردّد إلى الأنـدلس فى سبيل الرسالة عنه، فذاع فضـله، و علم قدره. و لما كان الإزعاج من الأندلس نحو النّبوة التى أصابت الدولة، بلوت من فضله و نصحه و تأنيسه، ما أكد الغبطة، و أوجب الثناء، و خاطبته بما نصه: [الكامل]

من ذا يعدّ فضائل الفشتالىو الدهر كاتب آيها و التّالى

علم إذا التمسوا الفنون بعلمهمرعى المشيح و نجعة المكتال

نال الذى لا فوقها من رفعةما أمّلتها حيلة المحتال

و قضى قياس تراثه عن جدّهإن المقدّم فيه عين التالى

قاضى الجماعة، بماذا أثنى على خلالك المرتضاة؟ أ بقديمك الموجب لتقديمك؟ أم بحديثك الداعى لتحمّل حديثك؟ و كلاهما غاية بعد مرماها، و تحامى المتصوّر حماها، و الضالع لا يسام سبقا، و المنبتّ لا أرضا قطع و لا ظهرا أبقى. و ما الظنّ بأصالة تعترف بها الآثار و تشـهد، و أبوّة صالحة كانت فى غير ذات الحق تزهد، و فى نيل الاتصال به تجهد، و معارف تقرر قواعد الحق و تمهّد، و تهزم الشّـبه إذا تشـهّد. و قـد علم اللّه أن جوارك لم يبق للدهر علىّ جوارا ، و لا حتّ من غصـنى ورقا و لا نوّارا. هذا و قد زأر على أسد و حمل ثورا، فقـد أصبحت فى ظل الدولة التى وقف على سيدى اختيارها، و أظهر خلوص إبريزه معيارها، تحت كنف و عزّ مؤتنف، و

جوار أبى دلف، و على ثقة من اللّه بحسن خلف. و ما منع من انتساب ما لديه من

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۵

الفضائل إلّا رحلة لم يبرك بعد حملها، و لا قرّ عملها، و أوحال حال بينى و بين مسوّر البلد القديم مهلها. و لو لا ذلك لا غتبطت الزّائد، و اقتنيت الفوائد، و اللّه يطيل بقاءه، حتى تتأكد القربة، التى تنسى بها الغربة، و تعظم الوسيلة، التى لا تذكر معها الفضيلة.

و أمّا ما أشار به من تقييد القصيدة التى نفق سوقها استحسانه، و أنس باستظرافها إحسانه، فقد أعمل و ما أمهل، و القصور باد إذا تأمّل، و الإغضاء أولى ما أمّل، فإنما هى فكرة قد أخمدت نارها الأيام، و غيّرت آثارها اللّئام. و قد كان الحق إجلال مطالعة سيدى من خللها، و تنزيه رجله عن تقبيل مرتجلها. لكنّ أمره ممتثل، و أتى من المجد أمرا لا مردّ له مثل. و السلام على سيدى من معظم قدره، و ملتزم برّه، ابن الخطيب، و رحمة اللّه.

فكتب إلىّ مراجعا، و هو الملىء بالإحسان: [الكامل]

وافت يجرّ الزّهو فضلة بردهاحسناء قد أضحت نسيجة وحدها

للّه أى قصيدة أهديت لويهتدى المعارض نحو غاية قصدها

لابن الخطيب بها محاسن جمّةقارعت عنه الخطوب ففلّت من حدّها

سرّ البلاغة عنه أودع حافظاقد صانه حتى فشا من عندها

فى غير عقد نفثنه بسحرها فلذا أتى سلسا منظّم عقدها

لم أدر ما فيها و قمت معاونامن طرسها أو معلما من بردها

حتى دفعت بها لأبعد غايةباعا تقصّر فى البلوغ بحدّها

حدّان من نظم و نثر إنّ منيلقاهما منها بذلّة عبدها

أولى يدا بيضاء موليها فمالى مزية من أن أقوم بحمدها

و رفضت تكذيب المنى متشيّعالعلى مرآها يصادق وعدها

فبذلت شعرى رافعا من برّهاو هززت عطفى رافلا من بردها

خذها، أعزّ اللّه جنابك، و أدال للأنس على الوحشة اغترابك، كغبّة الطائر المتجعد، و نهبة الثائر المستوفز، و مقة اللّحظ، قليلة اللّفظ، قد جمعت من سوامها و انقحامها، بين نظم قيد، و صلود زند، و نوّعت، فعلى إقدامها و انحجامها إلى قاصر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۶

و معتد، و ليتنى إذا جادت سحابة ذلك الخاطر الماطر الودق، و انجاب العانى عن مزنة فكرتى، بتقاضى الجواب، انجياب الطّوق، و أيقنت أنى قد سدّ علىّ باب القول و أرتجح، و قلت: هذه السّالفة الكليلة فسدت لها الدّاعة من تكلّم الإمرة و لم أنه إذ أعوزت المرّة بالحلوة، لكنى قلت: وجدّ المكثر كجهد المقلّ، و الواجب قد يقلّ الامتثال فيه بالأقلّ. فبعثت بها على علّاتها، و أبلغتها عذرها، فى أن كتبت عن شوقها بلغاتها، و هى لا تعدم من سيدى فى إغضاء كريم، و إرضاء سليم. و اللّه، عزّ و جلّ، يصل بالتأنيس الحبل، و يجمع الشّمل.

و السلام الكريم يخصّ تلك السيادة، و رحمة اللّه و بركاته. من محمد بن أحمد الفشتالى.

و هو الآن قاض بفاس المذكورة، محمود السيرة، أبقاه، و أمتع به.

محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى ابن عبد الرحمن بن أبى بكر بن على بن داود القرشى المقرى

اشارة

يكنى أبا عبد اللّه، قاضى الجماعة بفاس و تلمسان.

أوّليّته: نقلت من خطّه، قال : و كان الذى اتخذها من سلفنا قرارا بعد أن كانت لمن قبله مرارا ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرى، صاحب أبى مدين ، الذى دعا له و لذرّيته، بما ظهر فيهم من قبول و تبيّن. و هو أبى الخامس؛ فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، و كان هذا الشيخ عروى الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شىء فلم يؤنس منه التفات، و لا استشعر منه شعور، و يقال: إن هذا الحضور، ممّا أدركه من مقامات شيخه أبى مدين. ثم اشتهرت ذريّته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهّدوا طريق الصحراء

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۷

بحفر الآبار، و تأمين التّجار، و اتخذوا طبل الرّحيل ، و راية التّقدم عند المسير.

و كان ولد يحيى، الذى كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال، فعقدوا الشّركة بينهم فيما ملكوه و فيما يملكونه على السواء بينهم و الاعتدال، و كان أبو بكر و محمد، و هما أرومتا نسبى من جميع جهات الأم و الأب بتلمسان، و عبد الرحمن و هو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، و عبد الواحد و على، و هما شقيقاهم الصغيران، بأى والأتن فاتخذوا هذه الأقطار و الحوايط و الدّيار، فتزوجوا النساء، و استولدوا الإماء. و كان التلمسانى يبعث إلى الصّحراوى بما يرسم له من السلع. و يبعث إليه الصحراوى بالجلد و العاج و الجوز و التّبر، و السّجلماسى كلسان الميزان يعرّفهما بقدر الرّجحان و الخسران ، و يكاتبهما بأحوال التّجار، و أخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، و ارتفعت فى الفخامة أحوالهم. و لما افتتح التّكرور كورة أى والأتن و أعمالها، أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرّجال، و نصب دون ماله القتال. ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه، و مكّنه من التجارة بجميع بلاده، و خاطبه بالصديق الأحبّ، و الخلاصة الأقرب. ثم صار يكاتب من بتلمسان، يستقضى منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، و عندى من كتبه و كتب الملوك بالمغرب، ما ينبئ عن ذلك، فلما استوثقوا من الملوك، تذلّلت لهم الأرض للسّلوك، فخرجت أموالهم عن الحدّ، و كادت تفوق الحصر و العدّ؛ لأن بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر، كانت تجلب لها من المغرب ما لا بال له من السّلع، فيعاوض عنه بماله بال من الثمن . ثم قال أبو مدين:

الدنيا ضمّ جنب أبو حمو ، و شمل ثوباه. كان يقول: لو لا الشناعة لم أزل فى بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السّلع، و يأتون بالتّبر الذى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۸

كلّ أمر الدنيا له تبع، و من سواهم يحمل منها الذّهب، و يأتى إليها بما يضمحلّ عن قريب و يذهب، إلى ما يغيّر من العوائد، و يجرّ السفهاء إلى المفاسد.

و لما هلك هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم و لم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، و صادفوا توالى الفتن، و لم يسلموا من جور السلطان ، فلم تزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمان ، فها أنا ذا لم أدرك فى ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشا، و أصوله حرمة. و من جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، و أسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرّغت بحول اللّه، عزّ و جلّ، للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، و أخذت عن بعضهم عرضا و إلقاء، سواء المقيم القاطن، و الوارد و الظاعن.

حاله: هذا الرجل مشار إليه بالعدوة المغربية اجتهادا، و دؤوبا، و حفظا و عناية، و اطلاعا، و نقلا و نزاهة، سليم الصدر، قريب الغور، صادق القول، مسلوب التّصنّع، كثير الهشّة، مفرط الخفّة، ظاهر السذاجة، ذاهب أقصى مذاهب التخلّق، محافظ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضايق فى العقد و التوجّه، يكابد من تحصيل التيّة بالوجه و اليدين مشقّة، ثم يغافض الوقت فيها، و يوقعها دفعة متبعا إياها زعقة التكبير، برجفة ينبو عنها سمع من لم يكن تأنّس بها عادة، بما هو دليل على حسن المعاملة، و إرسال السّجية، قديم النّعمة، متصل الخيريّة، مكبّ على النظر و الدرس و القراءة، معلوم الصّيانة و العدالة، منصف فى المذاكرة، حاسر الذراع

عند المباحثة، راحب عن الصّدر فى وطيس المناقشة، غير مختار للقرن، و لا ضانّ بالفائدة، كثير الالتفاف، متقلّب الحدقة، جهير بالحجّة، بعيد عن المراء و المباهتة، قائل بفضل أولى الفضل من الطّلبة، يقوم أتمّ القيام على العربيّة و الفقه و التفسير، و يحفظ الحديث، و يتهجّر بحفظ الأخبار و التاريخ و الآداب، و يشارك مشاركة فاضلة فى الأصلين و الجدل و المنطق، و يكتب و يشعر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۱۹

مصيبا فى ذلك غرض الإجادة، و يتكلم فى طريقة الصّوفية كلام أرباب المقال، و يعتنى بالتّدوين فيها. شرّق و حجّ، و لقى جلّة، و اضطبن رحلة مفيدة، ثم آب إلى بلده، فأقرأ به، و انقطع إلى خدمة العلم. فلما ولى ملك المغرب السلطان، محالف الصّنع و نشيدة الملك، و أثير اللّه من بين القرابة و الإخوة أمير المسلمين أبو عنان فارس ، اجتذبه و خلطه بنفسه، و اشتمل عليه، و ولّاه قضاء الجماعة بمدينة فاس، فاستقلّ بذلك أعظم الاستقلال، و أنفذ الحكم ، و ألان الكلمة، و آثر التّسديد، و حمل الكلّ ، و خفض الجناح، فحسنت عنه القالة ، و أحبّته الخاصّة و العامة.

حضرت بعض مجالسه للحكم، فرأيت من صبره على اللّدد ، و تأتّيه للحجج و رفقه بالخصوم، ما قضيت منه العجب.

دخوله غرناطة: ثم لمّا أخّر عن القضاء، استعمل بعد لأى فى الرّسالة، فوصل الأندلس، أوائل جمادى الثانية من عام ستة و خمسين و سبعمائة. فلما قضى غرض الرسالة ، و أبرم عقد وجهته، و احتلّ مالقة فى منصرفه، بدا له فى نبذ الكلفة، و اطّراح وظيفة الخدمة، و حلّ التّقيّد، إلى ملازمة الإمرة، فتقاعد، و شهر غرضه، و بتّ فى الانتقال، طمع من كان صحبته، و أقبل على شأنه، فخلّى بينه و بين همّه. و ترك و ما انتحله من الانقطاع إلى ربّه. و طار الخبر إلى مرسله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة، و العدول عنها، بقصد التّخلّى و العبادة، و أنكر ما نحله غاية الإنكار، من إبطال عمل الرسالة، و الانقباض قبل الخروج عن العهدة، فوغر صدره على صاحب الأمر، و لم يبعد حمله على الظّنّة و المواطأة على النّفرة، و تجهّزت جملة من الخدّام المجلّين فى مآزق الشّبهة، المضطلعين بإقامة الحجة، مولين خطّة الملام، مخيّرين بين سحائب عاد من الإسلام، مظنّة إغلاق النعمة ،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۰

و إيقاع المثلة ، و الإساءة بسبب القطيعة و المنابذة. و قد كان المترجم به لحق بغرناطة فتذمّم بمسجدها، و جأر بالانقطاع إلى اللّه، و توعّد من يجيره بنكير من يجير و لا يجار عليه سبحانه، فأهمّ أمره، و شغلت القلوب آبدته، و أمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعة اقتضت له رفع التّبعة، و تركه إلى تلك الوجهة.

و لمّا تحصّل ما تيسّر من ذلك، انصرف محفوفا بعالمى القطر، قاضى الجماعة أبى القاسم الحسنى المترجم به قبله، و الشيخ الخطيب أبى البركات بن الحاج، مستهلين لوروده، مشافهين للشفاعة فى غرضه، فأقشعت الغمّة، و تنفّست الكربة. و جرى أثناء هذا من المراسلة و المراجعة، ما تضمّنه الكتاب المسمّى ب «كناسة الدّكان بعد انتقال السّكان» المجموع بسلا ما صورته:

«المقام الذى يحبّ الشّفاعة، و يرعى الوسيلة، و ينجز العدّة، و يتمّم الفضيلة، و يضفى مجده المنن الجزيلة، و يعيى حمده الممادح العريضة الطويلة، مقام محلّ و الدنا الذى كرم مجده، و وضح سعده، و صحّ فى اللّه تعالى عقده، و خلص فى الأعمال الصالحة قصده، و أعجز الألسنة حمده، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللّه سبحانه لوسيلة يرعاها، و شفاعة يكرم مسعاها، و أخلاق جميلة تجيب دعوة الطّبع الكريم إذا دعاها، معظّم سلطانه الكبير، و ممجّد مقامه الشهير، المتشيّع لأبوّته الرفيعة قولا باللّسان و اعتقادا بالضمير، المعتمد منه بعد اللّه على الملجإ الأحمى و الوليّ النّصير. فلان . سلام كريم، طيب برّ عميم، يخص مقامكم الأعلى، و أبوّتكم الفضلى، و رحمة اللّه و بركاته.

أما بعد حمد اللّه، الذى جعل الخلق الحميدة دليلا على عنايته بمن حلّاه حلاها، و ميّز بها النفوس النفيسة، التى اختصّها بكرامته و تولّاها، حمدا يكون كفوا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۱

للنعم التى أولاها، و أعادها و والاها، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد عبده و رسوله، المترقّى من درجات الاختصاص أرفعها و أعلاها، الممتاز من أنوار الهداية بأوضحها و أجلاها، مطلع آيات السعادة يروق مجتلاها، و الرضا عن آله و صحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لمّا ابتلاها، و عسل ذكرهم فى الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن و أحلاها، و الدعاء لمقام أبوّتكم حرس اللّه تعالى علاها، بالسعادة التى يقول الفتح: أنا طلّاع الثّنايا و ابن جلاها ، و الصّنائع التى تخترق المفاوز بركائبها المبشّرات فتفلى فلاها. فإنّا كتبنا إليكم، كتب اللّه تعالى لكم عزّة مشيّدة البناء، و حشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوش الثناء، و قلّدكم قلائد مكارم الأخلاق، ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء. من حمراء غرناطة حرسها اللّه، و الودّ باهر السّناء ، مجدّ على الأناء، و التشيّع رحب الدّسيعة و الفناء.

و إلى هذا، وصل اللّه تعالى سعدكم، و حرس مجدكم! فإننا خاطبنا مقامكم الكريم، فى شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبى عبد اللّه المقرى، خار اللّه تعالى لنا و له، و بلّغ الجميع من فضله العميم أمله، جوابا عمّا صدر من مثابتكم فيه من الإشارة المتمثّلة ، و المآرب المعملة، و القضايا غير المهملة، نصادركم بالشفاعة التى مثلها بأبوابكم لا يردّ، و ظمآها عن منهل قبولكم لا تجلى و لا تصدّ، حسبما سنّه الأب الكريم و الجدّ، و القبيل الذى وضح منه فى المكارم الرسم و الحدّ. و لم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيّلة، و تبلّج صبح الزّهادة و الفضيلة، وجود النفس الشّحيحة بالعرض الأدنى البخيلة، و ظهر تخلّيه عن هذه الدار، و اختلاطه باللفيف و الغمار، و إقباله على ما يعنى مثله من صلة الأوراد، و مداومة الاستغفار.

و كنّا لما تعرّفنا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذى شهره، و الفضل الذى أبرزه للعيان الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۱۲۱

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۲

و أظهره، أمرنا أن يعتنى بأحواله، و يعان على فراغ باله، و يجرى عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية و صريح ماله، و قلنا: أما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله، ففرّ من مالقة على ما تعرّفنا لهذا السبب، و قعد بحضرتنا مستور المنتمى و المنتسب، و سكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدّة لسكنى المتّسمين بالخير، و المحترفين ببضاعة الطّلب، بحيث لم يتعرّف وروده و وصوله إلّا ممّن لا يؤبه بتعريفه، و لم تتحقق زوائده و أصوله لقلّة تصريفه. ثم تلاحق إرسالكم الجلّة. فوجبت حينئذ الشفاعة، و عرضت على سوق الحلم و الفضل من الاستلطاف و الاستعطاف البضاعة، و قررنا ما تحققناه من أمره، و انقباضه عن زيد الخلق و عمره، و استقباله الوجهة التى من ولّى وجهه شطرها فقد آثر أثيرا، و من ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلا كبيرا و خيرا كثيرا، و سألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذى رماه بعزمه، و قصر عليه أقصى همّه. فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدّنيا بسهمه، و يحصل منه طالب الآخرة على حظّه الباقى و قسمه، و يتوسّل الزاهد بزهده و العالم بعلمه، و يعوّل البرىء على فضله، و يثق المذنب بحلمه. فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان، و هو أرب من آراب ، و فائدة من جراب، و وجه من وجوه إعراب، فرأينا أن المطل بعد جفاء، و الإعادة ليس يثقلها خفاء، و لمجدكم بما ضمّنا عنه وفاء، و بادرنا الآن إلى العزم عليه فى ارتحاله، و أن يكون الانتقال عن رضا منه من صفة حاله، و أن يقتضى له ثمرة المقصد، و يبلغ طيّة الإسعاف فى الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلّق بجناب اللّه من مثلكم حاصلا، و الدّين المتين بين نفسه و بين المخافة فاصلا، و طالب كيمياء السّعادة بإعانتكم واصلا. و لما مدّت اليد فى تسويغ حالة هديكم عليها أبدا يحرّض، و علمكم يصرّح بمزيتها و لا يعرّض، فكمّلوا أبقاكم اللّه ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب، و ألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصحّ حديث فى الباب، و وفّوا غرضنا من مجدكم، و خلّوا بينه و بين مراده من ترك الأسباب، و قصد غافر الذنب و قابل التّوب بإخلاص المتاب، و التّشمير ليوم العرض و موقف الحساب، و أظهروا عليه عناية الجناب، الذى تعلّق به، أعلق اللّه به يدكم من جناب، و معاذ اللّه أن تعود شفاعتنا من لدنكم عير مكملة الآراب. و قد بعثنا من ينوب عنا فى مشافهتكم بها أحمد المناب، و يقتضى خلاصها بالرّغبة لا بالغلاب، و هما فلان و فلان. و لو لا الأعذار لكان فى هذا الغرض إعمال الرّكاب، بسبق أعلام الكتاب، و أنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفّر الثناء الجميل، و يربى على التّأميل، و يكتب على الودّ الصريح العقد وثيقة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۳

التّسجيل. و هو سبحانه يبقيكم لتأييد المجد الأثيل، و إنالة الرّفد الجزيل. و السلام الكريم يخصّ مقامكم الأعلى، و مثابتكم الفضلى، و رحمة اللّه تعالى و بركاته. فى الحادى و العشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة و خمسين و سبعمائة، و اللّه ينفع بقصده، و ييسر علينا الرجعة إلى وجهه و فضله .

مشيخته: قال : فممّن أخذت عنه، و استفدت منه علماها، يعنى تلمسان، الشامخان، و عالماها الراسخان: أبو زيد عبد الرحمن، و أبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد اللّه بن الإمام ، و حافظها و مدرّسها و مفتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشذالى ، صهر شيخ المتأخرين أبى على ناصر الدين على ابنته، و مشكاة الأنوار التى يكاد زيتها يضىء و لو لم تمسسه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكيم الكنانى السّلوى، رحمه اللّه. و منهم القاضى أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد النور ، و الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن الحسن البرّونى، و أبو عمران موسى بومن المصمودى الشهير بالبخارى. قال: سمعت البرّونى يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرّس البخارى ، و رفيق له يدرّس صحيح مسلم، و كانا يعرفان بالبخارى و مسلم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهود عليه بالإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكّنه من الإعذار فى الصّحيحين البخارى و مسلم؟ فضحك القاضى، و أصلح بين الخصمين. ثم قال: و من شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط، أدرك أبا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۴

إسحاق الطيّار. و منهم أبو عبد اللّه بن محمد الكرمونى، و كان بصيرا بتفسير الرّؤيا، فمن عجائب شأنه، أنه كان فى سجن أبى يعقوب يوسف بن عبد الحق مع من كان فيه، من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبا جمعة على التّلالسى الجرايحى منهم، كأنه قائم على ساقية دائرة، و جميع أقداحها و أقواسها تصب فى نقير فى وسطها، فجاء ليشرب، فاغترف الماء، فإذا فيه فرث و دم، فأرسله، و اغترف فإذا هو كذلك، ثلاثا أو أكثر، ثم عدل إلى خاصّة ماء، فجاءها و شرب منها. ثم استيقظ، و هو النهار، فأخبره، فقال: إن صدقت الرؤيا، فنحن عن قليل خارجون من هذا السجن. قال: كيف؟ قال: الساقية الزمان، و النّقير السلطان، و أنت جرايحى، تدخل يدك فى جوفه فينالها الفرث و الدّم، و هذا ما لا يحتاج معه إلى دليل، فأخرج، فوجد السلطان مطعونا بخنجر، فأدخل يده فى جوفه، فناله الفرث و الدّم، فخاط جراحته و خرج، فرأى خاصّة ماء، فغسل يده و شرب. و لم يلبث السلطان أن توفى، و سرّحوا من كان فى سجنه. و من أشياخه الإمام نسيج وحده، أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن أحمد الآبلى التلمسانى، و هو رحلة الوقت فى القيام على الفنون العقلية، و إدراكه و صحّة نظره.

حدّث قال: قدم على مدينة فاس، شيخنا أبو عبد اللّه محمد بن يحيى الباهلى، عرف بابن المسفّر، رسولا من صاحب بجاية. و زاره الطلبة، فكان مما حدّثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين، يستشكلون كلاما وقع فى تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين، و استشكله الشيخ معهم. و هذا نصه: ثبت فى بعض العلوم العقلية، أن المركّب مثل البسيط فى الجنس، و البسيط مثل المركّب فى الفصل، و أن الجنس أقوى من الفصل، فأخبروا بذلك الشيخ الآبلى لما رجعوا إليه، فتأمله ثم قال: هذا كلام مصحّف، و أصله أن المركّب قبل البسيط فى الحسّ، و البسيط قبل المركّب فى العقل، و أن الحسّ أقوى من العقل، فأخبروا ابن المسفّر، فلجّ، فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوا فى لفظ بعضها كما قال الشيخ.

رحلته: رحل إلى بجاية مشرّقا، فلقى بها جلّة، منهم الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن يحيى الباهلى، ابن المسفّر . و منهم قاضيها أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۵

أبى يوسف يعقوب الزّواوى، فقيه ابن فقيه. و منهم أبو على حسن بن حسن إمام المعقولات بعد ناصر الدين. و بتونس قاضى الجماعة و فقيهها أبو عبد اللّه بن عبد السلام ، و حضر دروسه، و قاضى المناكح أبو محمد اللخمى ، و هو حافظ فقهائها فى وقته، و الفقيه أبو

عبد اللّه بن هارون شارح ابن الحاجب فى الفقه و الأصول. ثم حجّ فلقى بمكة إمام الوقت أبا عبد اللّه محمد بن محمد بن عبد الرحمن التّوزرى، المعروف بخليل، و إمام المقام أبا العباس رضىّ الدين الشافعى، و غير واحد من الزّائرين و المجاورين و أهل البلد. ثم دخل الشام، فلقى بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية، صاحب ابن تيميّة، و صدر الدين الغمارى المالكى، و أبا القاسم بن محمد اليمانى الشافعى و غيرهم. و ببيت القدس أبا عبد اللّه بن مثبت، و القاضى شمس الدين بن سالم، و الفقيه أبا عبد اللّه بن عثمان، و غيرهم.

تصانيفه: ألّف كتابا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمّنها كل أصيل من الرأى و المباحثة. و دوّن فى التّصوّف إقامة المريد، و رحلة المتبتّل، و كتاب الحقائق و الرّقائق، و غير ذلك.

شعره: نقلت من ذلك قوله: هذه لمحة العارض لتكملة ألفيّة ابن الفارض، سلب الدهر من فرائدها مائة و سبعة و سبعين، فاستعنت على ردّها بحول اللّه المعين.

من فصل الإقبال : [الطويل]

رفضت السّوى و هو الطّهارة عندماتلفّعت فى مرط الهوى و هو زينتى

و جئت الحمى و هو المصلّى ميمّمابوجهة قلبى وجهها و هو قبلتى

و قمت و ما استفتحت إلّا بذكرهاو أحرمت إحراما لغير تجلّة

فدينى إن لاحت ركوع و إن دنتسجود و إن لاهت قيام بحسرة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۶ على أننا فى القرب و البعد واحدتؤلّفنا بالوصل عين التّشتّت

و كم من هجير خضت ظمآن طاوياإليها و ديجور طويت برحلة

و فيها لقيت الموت أحمر و العدابزرقة أسنان الرّماح و حدّة

و بينى و بين العذل فيها منازلتنسّيك أيام الفجار و مؤتة

و لمّا اقتسمنا خطّتينا فحاملفجار بلا أجر و حامل برّة

خلا مسمعى من ذكرها فاستعدتهفعاد ختام الأمر أصل القضيّة

و كم لى على حكم الهوى من تجلّددليل على أنّ الهوى من سجيّتى

يقول سميرى و الأسا سالم الأسىو لا توضع الأوزار إلّا لمحنة

لو أنّ مجوسا بتّ موقد نارهالما ظلّ إلّا منهلا ذا شريعة

و لو كنت بحرا لم يكن فيه نضحةلعين إذا نار الغرام استحرّت

فلا ردم من نقب المعاول آمنو لا هدم إلّا منك شيد بقوّة

فمّم تقول الأسطقسّات منك أوعلام مزاج ركّبت أو طبيعة

فإن قام لم يثبت له منك قاعدو إلّا فأنت الدّهر صاحب قعدة

فما أنت يا هذا الهوى؟ ماء أو هواأم النار أم دسّاس عرق الأمومة؟

و إنى على صبرى كما أنت واصفو حالى أقوى القائمين بحجّة

أقلّ الضّنى أن عجّ من جسمى الضّنىو ما شاكه معشار بعض شكيّتى

و أيسر شوقى أننى ما ذكرتهاو لم أنسها إلّا احترقت بلوعة

و أخفى الجوى قرع الصواعق منك فىجواى و أخفى الوجد صبر المودّة

و أسهل ما ألقى من العذل أننىأحبّ أقلّى ذكرها و فضيحتى

و أوج حظوظى اليوم منها حضيضهابالأمس و سل حرّ الجفون الغزيرة

و أوجز أمرى أنّ دهرى كلّه‌كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۷ أروح و ما يلقى التأسّف راحتىو أغدو ما يعدو التفجّع خطّتى

و كالبيض بيض الدهر و السّمر سوده‌مساءتها فى طىّ طيب المسرّة

و شأن الهوى ما قد عرفت و لا تسلو حسبك أن لم يخبر الحبّ رؤيتى

سقام بلا برء، ضلال بلا هدىأوام بلا ريّ، دم لا بقيمة

و لا عتب فالأيام ليس لها رضاو إن ترض منها الصّبر فهو تعنّتى

ألا أيها اللّوّام عنى قوّضواركاب ملامى فهو أول محنتى

و لا تعذلونى فى البكاء و لا البكىو خلّوا سبيلى ما استطعتم و لوعتى

فما سلسلت بالدمع عينى إن جنتو لكن رأت ذاك الجمال فجنّت

تجلّى و أرجاء الرّجاء حوالكو رشدى غاو و العمايات عمّت

فلم يستبن حتى كأنى كاسفو راجعت إبصارى له و بصيرتى

و من فصل الاتصال : [الطويل]

و كم موقف لى فى الهوى خضت دونه‌عباب الرّدى بين الظّبا و الأسنّة

فجاوزت فى حدّى مجاهدتى له‌مشاهدتى لمّا سمت بى همّتى

و حلّ جمالى فى الجلال فلا أرىسوى صورة التّنزيه فى كلّ صورة

وغبت عن الأغيار فى تيه حالتىفلم أنتبه حتى امتحى اسمى و كنيتى

و كاتبت ناسوتى بأمّارة الهوىوعدت إلى اللاهوت بالمطمئنّة

و علم يقينى صار عينا حقيقةو لم يبق دونى حاجب غير هيبتى

و بدّلت بالتّلوين تمكين عزّةو من كلّ أحوالى مقامات رفعة

و قد غبت بعد الفرق و الجمع موقفىمع المحو و الإثبات عند تثبّتى

و كم جلت فى سمّ الخياط و ضاق بىلبسطى و قبضى بسط وجه البسيطة

و ما اخترت إلّا دنّ بقراط زاهداو فى ملكوت النفس أكبر عبرة

و فقرى مع الصّبر اصطفيت على الغنىمع الشكر إذ لم يحظ فيه مثوبتى

و أكتم حبّى ما كنى عنه أهلهو أكنى إذا هم صرّحوا بالخبيّة

و إنّى فى جنسى و منه لواحدكنوع، ففصل النوع علّة حصّتى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۸ تسبّبت فى دعوى التوكّل ذاهباإلى أنّ أجدى حيلتى ترك حيلتى

و آخر حرف صار منى أولامريدا و حرف فى مقام العبودة

تعرّفت يوم الوقف منزل قومهافبتّ بجمع سدّ خرق التّشتّت

فأصبحت أقضى النفس منها منى الهوىو أقضى على قلبى برعى الرعيّة

فبايعتها بالنفس دارا سكنتهاو بالقلب منه منزلا فيه حلّت

فخلّص الاستحقاق نفسى من الهوىو أوجب الاسترقاق تسليم شفعة

فيا نفس لا ترجع تقطّع بيننا و يا قلب لا تجزع ظفرت بوحدة

و من فصل الإدلال : [الطويل]

تبدّت لعينى من جمالك لمحةأبادت فؤداى من سناها بلفحة

و مرّت بسمعى من حديثك ملحةتبدّت لها فيك القران و قرّت

ملامى أبن، عذرى استبن، وجدى استعن‌سماعى أعن، حالى أبن، قائلى اصمت

فمن شاهدى سخط و من قاتلى رضاو تلوين أحوالى و تمكين رتبتى

مرامى إشارات، مراعى تفكّر مراقى نهايات، مراسى تثبّت

و فى موقفى و الدّار أقوت رسومهاتقرّب أشواقى تبعّد حسرتى

معانى أمارات، مغانى تذكّرمبانى بدايات، مثانى تلفّت

و بثّ غرام، و الحبيب بحضرةو ردّ سلام و الرقيب بغفلة

و مطلع بدر فى قضيب على نقافويق محلّ عاطل دون دجية

و مكمن سحر بابلىّ له بماحوت أضلعى فعل القنا السّمهريّة

و منبت مسك من شقيق ابن منذرعلى سوسن غضّ بجنّة و جنّة

و رصف اللآلى فى اليواقيت كلّماتعلّ بصرف الرّاح فى كل سحرة

سل السلسبيل العذب عن طعم ريقهو نكهته يخبرك عن علم خبرة

و رمّان كافور عليه طوابع‌من الندّ لم تحمل به بنت مزنة

و لطف هواء بين خفق و بانةو رقّة ماء فى قوارير فضّة

لقد عزّ الصّبر حتى كأنّه‌سراقة لحظ منك للمتلفّت

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۲۹ و أنت و إن لم تبق منى صبابة‌منى النفس لم تقصد سواك بوجهة

و كلّ فصيح منك يسرى لمسمعىو كلّ مليح منك يبدو لمقلتى

تهون علىّ النّفس فيك و إنهالتكرم أن تغشى سواك بنظرة

فإن تنظرينى بالرّضا تشف علّتىو إن تظفرينى باللقا تطف غلّتى

و إن تذكرينى و الحياة بقيدهاعدلت لأمتى منيتى بمنيّتى

و إن تذكرينى بعدما أسكن الثرى‌تجلّت دجاه عند ذاك و ولّت

صلينى و إلّا جدّدى الوعد تدركى‌صبابة نفس أيقنت بتفلّت

فما أمّ بوّ هالك بتنوفة أقيم لها خلف الحلاب فدرّت

فلمّا رأته لا ينازع خلفهاإذا هى لم ترسل عليه و ضنّت

بكت كلّما راحت عليه و إنهاإذا ذكرته آخر الليل حنّت

بأكثر منّى لوعة غير أننى‌رأيت وقار الصّبر أحسن حلية

فرحت كما أغدو إذا ما ذكرتهاأطامن أحشائى على ما أجنّت

أهوّن ما ألقاه إلّا من القلى‌هوى و نوى نيل الرّضا منك بغيتى

أخوض الصّلى أطفى العلا و العلوّ لاأصلّ السّلا أرعى الخلى بين عبرتى

ألا قاتل اللّه الحمامة غدوةلقد أصلت الأحشاء نيران لوعة

و قاتل مغناها و موقف شجوهاعلى الغصن ما ذا هيّجت حين غنّت

فغنّت غناء أعجميّا فهيّجتغرامى من ذكرى عهود تولّت

فأرسلت الأجفان سحبا و أوقدتجواى الذى كانت ضلوعى أكنّت

نظرت بصحراء البريقين نظرةوصلت بها قلبى فصلّى و صلّت

فيا لهما قلبا شجيّا و نظرةحجازيّة لو جنّ طرف لجنّت

و وا عجبا للقلب كيف اعترافهو كيف بدت أسراره خلف سترة

و للعين لمّا سوئلت كيف أخبرتو للنفس لما وطّنت كيف دلّت

و كنّا سلكنا فى صعود من الهوىيسامى بأعلام العلا كلّ رتبة

إلى مستوى ما فوقه فيه مستوىفلمّا توافينا ثبتّ و زلّت

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳۰ و كنّا عقدنا عقدة الوصل بيننا على نحر قربان لدى قبر شيبة

مؤكدة بالنّذر أيام عهدهفلمّا تواثقنا اشتددت و حلّت

و من فصل الاحتفال : [الطويل]

أزور اعتمارا أرضها بتنسّكو أقصد حجّا بيتها بتحلّة

و فى نشأتى الأخرى ظهرت بما علتله نشأتى الأولى على كلّ فطرة

و لولا خفاء الرّمز لا و لن و لم‌تجدها لشملى مسلكا بتشتّت

و لو لم يجدّد عهدنا عقد خلّةقضيت و لم يقض المنى صدق توبة

بعثت إلى قلبى بشيرا بما رأتعلى قدم عيناى منه فكفّت

فلم يعد أن شام البشارة شام ماجفا الشّام من نور الصفات الكريمة

فيالك من نور لو أنّ التفاتةتعارض منه بالنفوس النّفيسة

تحدّث أنفاس الصّبا أن طيبهابما حملته من حراقة حرقة

و تنبىء آصال الربيع عن الرّباو أشجاره إن قد تجلّت فجلّت

و تخبر أصوات البلابل أنهاتغنّت بترجيعى على كلّ أيكة

فهذا جمالى منك فى بعد حسرتىفكيف به إن قرّبتنى بخلّة

تبدّى و ما زال الحجاب و لا دناو غاب و لم يفقده شاهد حضرتى

له كلّ غير فى تجلّيه مظهرو لا غير إلّا ما محت كفّ غيرة

تجلّى دليل و احتجاب تنزهو إثبات عرفان و محو تثبّت

فما شئت من شىء و آليت أنههو الشىء لم تحمد فجار ألْيتى

و فى كل خلق منه كلّ عجيبةو فى كلّ خلق منه كل لطيفة

و فى كل خاف منه مكمن حكمةو فى كل باد منه مظهر جلوة

أراه بقلب القلب و اللّغز كامناو فى الزّجر و الفال الصحيح الأدلة

و فى طىّ أوفاق الحساب و سرّ مايتمّ من الأعداد فابدأ بستّة

و فى نفثات السّحر فى العقد التى‌تطوع لها كلّ الطّباع الأبيّة

يصوّر شكلا مثل شكل و يعتلى‌عليه بأوهام النفوس الخبيثة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳۱ و فى كلّ تصحيف و عضو بذاته‌اختلاج و فى التّقويم مجلى لرؤية

و فى خضرة الكمّون تزجى شرابه‌مواعيد عرقوب على إثر صفرة

و فى شجر قد خوّفت قطع أصلهافبان بها حمل لأقرب مدّة

و فى النّخل فى تلقيحه و اعتبر بماأتى فيه عن غير البريّة و اسكت

و فى الطابع السّبتى فى الأحرف التى‌يبيّن منها النّظم كلّ خفية

و فى صنعة الطّلسم و الكيمياء و الكنوز و تغوير المياه المعينة

و فى حرز أقسام المؤدّب محرزو حزب أصيل الشّاذلىّ و بكرة

و فى سيمياء الحاتمىّ و مذهب ابن سبعين إذ يعزى إلى شرّ بدعة

و فى المثل الأولى و فى النّحل الألى‌بها أوهموا لمّا تساموا بسنّة

و فى كل ما فى الكون من عجب و ماحوى الكون إلّا ناطقا بعجيبة

فلا سرّ إلّا و هو فيه سريرةو لا جهر إلّا و هو فيه كحلية

سل الذّكر عن أنصاف أصناف ما ابتنى‌عليه الكلام من حروف سليمة

و عن وضعها فى بعضها و بلوغ ماأتت فيه أمضى عدّها و تثبّت

فلا بدّ من رمز الكنوز لذى الحجاو لا ظلم إلّا ظلم صاحب حكمة

و لو لا سلام ساق للأمن خيفتى‌لعاجل مسّ البرد خوفى لميتتى

و لو لم تداركنى و لكن بعطفهادرجت رجائى أن نعتنى خيبتى

و لو لم تؤانسنى عنّا قبل لم و لم‌قضى العتب منّى بغية بعد وحشتى

و نعم أقامت أمر ملكى بشكرهاكما هوّنت بالصبر كلّ بليّة

و من فصل الاعتقال : [الطويل]

سرت بفؤادى إذ سرت فيه نظرتى‌و سارت و لم تثن العنان بعطفة

و ذلك لما أطلع الشمس فى الدّجى‌محيّا ابنة الحيّين فى خير ليلة

يمانيّة لو أنجدت حين أنجدت لما أبصرت عيناك حيّا كميّت

لأصحمة فى نصحها قدم بنى‌لكلّ نجاشىّ بها حصن ذمّة

ألمّت فحطّت رحلها ثم لم يكن‌سوى وقفة التّوديع حتى استقلّت

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳۲ فلو سمحت لى بالتفات و حلّ من‌مهاوى الهوى و الهون جدّ تفلّتى

و لكنها همّت بنا فتذكّرت‌قضاء قضاة الحسن قدما فصدّت

أجلت خيالا إننى لا أجلّه‌و لم أنتسب منه لغير تعلّة

على أننى كلّى و بعضى حقيقةو باطل أوصافى و حقّ حقيقتى

و جنسى و فصلى و العوارض كلّهاو نوعى و شخصى و الهواء و صورتى

و جسمى و نفسى و الحشا و غرامه‌و عقلى و روحانيّتى القدسيّة

و فی کلّ لفظ عنه میل لمسمعیو فی کل معنی منه معنی للوعتی

و دهری به عید لیوم عروبهٔو أمری أمری و الوری تحت قبضتی

و وقتی شهود فی فناء شهدتهو لا وقت لی إلّا مشاهد غیبهٔ

أراه معی حسّا و وهما و إنهمناط الثّریّا من مدارک رؤیتی

و أسمعه من غیر نطق کأنهیلقّن سمعی ما توسوس مهجتی

ملأت بأنوار المحبّهٔ باطنی کأنّک نور فی سرار سریرتی

و جلّیت بالإجلال أرجاء ظاهری کأنّک فی أفقی کواکب زینهٔ

فأنت الذی أخفیه عند تستّریو أنت الذی أبدیه فی حین شهرتی

فته أحتمل، و اقطع أصل و اعل استفلو مر أمتثل و املل أمل، و ارم أثبت

فقلبی إن عاتبته فیک لم أجدلعتبی فیه الدهر موقع نکنهٔ

و نفسی تنبو عن سواک نفاسهٔفلا تنتمی إلّا إلیک بمنّهٔ

تعلّقت الآمال منک بفوق ماأری دونه ما لا ینال بحیلهٔ

و حامت حوالیها و ما وافقت حمیسحائب یأس أمطرت ماء عبرتی

فلو فاتنی منک الرّضی و لحقتنیبعفو بکیت الدهر فوت فضیلهٔ

و لو کنت فی أهل الیمین منعّمابکیت علی ما کان من سبقیّهٔ

و کم من مقام قمت عنک مسائلاأری کلّ حیّ کلّ حیّ و میّت

أتیت بفاراب أبا نصرها فلمأجد عنده علما یبرّد غلّتی

و لم یدر قولی ابن سیناء سائلافقل کیف أرجو عنده برء علّتی

فهل فی ابن رشد بعد هذین مرتجیو فی ابن طفیل لاحتثاث مطیّتی؟

لقد ضاع لو لا أن تدارکنی حمیمن اللّه سعی بینهم طول مدّتی

فقیّض لی نهجا إلی الحقّ سالکاو أیقظنی من نوم جهلی و غفلتی

الإحاطهٔ فی أخبار غرناطهٔ، ج۲، ص: ۱۳۳ فحصّنت أنظار الجنید جنیدهابترک فلی من رغبهٔ ریح رهبهٔ

و کسّرت عن رجل ابن أدهم أدهماو أنقذته من أسر حبّ الأسرهٔ

وعدت علی حلّاج شکری بصلبهو ألقیت بلعام التّفاتی بهوّهٔ

فقولی مشکور و رأیی ناجحو فعلی محمود بکلّ محلّهٔ

رضیت بعرفانی فأعلیت للعلاو أجلسنی بعد الرّضا فیه جلّتی

فعشت و لا ضیرا أخاف و لا قلیو صرت حبیبا فی دیار أحبّتی

فها أنا ذا أمسی و أصبح بینهممبلّغ نفسی منهم ما تمنّت

و أنشدنی قوله فی حال قبض و قیّدتها عنه : [الطویل]

إلیک بسطت الکفّ أستنزل الفضلاو منک قبضت الطّرف أستشعر الذّلّا

و ها أنا ذا قد قمت یقدمنی الرّجاو یحجمنی الخوف الذی خامر العقلا

أقدّم رجلا إن یضیء برق مطمعو تظلم أرجائی فلا أنقل الرّجلا

ولی عثرات لست آمل أن هوتبنفسی ألّا أستقل و أن أصلی

فإن تدرّكنى رحمة أنتعش بهاو إن تكن الأخرى فأولى بى الأولى

قال، و مما نظمته من الشعر : [مجزوء الكامل]

وجد تسعّره الضلوع و ما تبرّده المدامع

همّ تحرّكه الصّبابة و المهابة لا تطاوع

أملى إذا وصل الرّجاأسبابه فالموت قاطع

بالله يا هذا الهوىما أنت بالعشّاق صانع؟

قال: و مما كتبت به لمن بلغنى عنه بعض الشىء : [الرمل]

نحن، إن تسأل بناس، معشرأهل ماء فجّرته الهمم

عرب من بيضهم أرزاقهمو من السّمر الطوال الخيم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳۴ عرّضت أحسابهم أرواحهمدون نيل العرض و هى الكرم

أورثونا المجد حتى إننانرتضى الموت و لا نزدحم

ما لنا فى الناس من ذنب سوىأننا نلوى إذا ما اقتحموا

قال: و مما قلته مذيّلا به قول القاضى أبى بكر بن العربى : [مجزوء الوافر]

أما و المسجد الأقصىو ما يتلى به نصّا

لقد رقصت بنات الشوق بين جوانحى رقصا

قولى: [مجزوء الوافر]

فأقلع بى إليه هوىجناحا عزمه قصّا

أقلّ القلب و استعدىعلى الجثمان فاستعصى

فقمت أجول بينهمافلا أدنى و لا أقصى

قال: و مما قلته فى التورية بشأن راوى المدوّنة : [البسيط]

لا تعجبنّ لظبى قد دها أسدافقد دها أسدا من قبل سحنون

قال: و مما قلته من الشعر : [البسيط]

أنبتّ عودا بنعماء بدأت بهافضلا و ألبستها بعد اللّحى الورقا

فظلّ مستشعرا مستدثرا أرجا ريّان ذا بهجة يستوقف الحدقا

فلا تشنه بمكروه الجنى فلكمعوّدته من جميل من لدن خلقا

و انف القذى عنه و اثر الدهر منبتهو غذّه برجاء و اسقه غدقا

و احفظه من حادثات الدهر أجمعهاما جاء منها على ضوء و ما طرقا

و مما قيّدت عنه أيام مجالسته و مقامه بغرناطة، و قد أجرى ذكر أبى زيد ابن الإمام، أنه شهد مجلسا بين يدى السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن بن أبى حمّو،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳۵

ذكر فيه أبو زيد المذكور، أن ابن القاسم مقيد بالنظر بأصول مالك، و نازعه أبو موسى عمران بن موسى المشذالى ، و ادّعى أنه مطلق الاجتهاد، و احتج له بمخالفته لبعض ما يرويه أو يبلغه عنه لما ليس من قوله، و أتى من ذلك بنظائر كثيرة. قال: فلو تقيّد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنصّ لشرف الدين بن التلمسانى، و مثّل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب

مالك، و المزنى إلى الشافعى. فقال أبو موسى عمران : هذا مثال، و المثال لا يلزم صحّته، فصاح به أبو زيد ابن الإمام و قال لأبى عبد اللّه بن أبى عمر : تكلّم، فقال: لا أعرف ما قال هذا الفقيه، و الذى أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثّل به، فقال أبو موسى للسلطان: هذا كلام أصولى محقق، فقلت لهما يومئذ، و أنا حديث السن: ما أنصفهما الرّجل، فإن المثل كما يؤخذ على جهة التحقيق، كذلك يؤخذ على جهة التقريب، و من ثمّ جاء ما قال هذا الشيخ، أعنى ابن أبى عمران ، و كيف لا و هذا سيبويه يقول: و هذا مثال و لا يتكلّم به، فإذا صحّ أن المثال قد يكون تقريبا، فلا يلزم صحة المثال، و لا فساد الممثّل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد.

و قال: شهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان، قرىء فيه على أبى زيد ابن الإمام حديث: «لقّنوا موتاكم لا إله إلا اللّه»، من صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحاق بن حكم السّلوى: هذا الملقّن محتضر حقيقة، ميّت مجازا، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم، و الأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه. و كنت قد قرأت على الأستاذ بعض «التنقيح»، فقلت: زعم القرافى أن المشتقّ إنما يكون حقيقة فى الحال، مجازا فى الاستقبال، مختلفا فيه فى الماضى، إذا كان محكوما به.

و أمّا إذا كان متعلّق الحكم كما هنا، فهو حقيقة مطلقا إجماعا، و على هذا التقرير لا مجاز و لا سؤال. و لا يقال: إنه احتجّ على ذلك بما فيه نظر؛ لأنّا نقول: إنه نقل الإجماع، و هو أحد الأربعة التى لا يطالب عنها بالدليل، كما ذكر أيضا. بل

نقول: إنه أساء حيث احتجّ فى موضع الوفاق، كما أساء اللخمى و غيره فى الاحتجاج على وجوب الطّهارة و نحوها. بل هذا أشنع، لكونه مما علم كونه من الدّين ضرورة . ثم إنّا لو سلّمنا نفى الإجماع، فلنا أن نقول: إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التى يعقبها الموت عادة؛ لأنّ تلقينه قبل ذلك، إن لم يدهش، فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين: أى لقّنوا من تحكمون بأنه ميت. أو يقال : إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه: هل هو أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلّاس؟ و لا شك أن هذه حالة خفيّة يحتاج فى نصها إلى دليل الحكمة أو إلى وصف ظاهر يضبطها، و هو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، و هو أيضا ممّا لا يعرّف بنفسه، بل بالعلامات. فلمّا وجب اعتبارها، وجب كون تلك التسمية إشارة إليها، و اللّه أعلم.

و قال: و كان أبو زيد يقول، فيما جاء من الأحاديث: ما معنى قول ابن أبى زيد: «و إذا سلّم الإمام، فلا يلبث بعد سلامه و لينصرف»، و ذلك بعد أن ينتظر من يسلّم من خلفه لئلّا يمر بين يدى أحد، و قد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعا بين الأدلة.

و قلت : و هذا من ملح الفقيه. و قال: كان أبو زيد يعنى الإمام، يصحّف قول الخونجى فى الجمل و المقارنات التى يمكن اجتماعه معها، فيقول: و «المفارقات»، و لعلّه فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لمّا قرأ عليه: [مجزوء الكامل]

و غررتنى و زعمت أنكلابن فى الصّيف تامر

فقال: [مجزوء الكامل]

و غررتنى و زعمت أنكلا تنى بالضّيف تامر

فقال: أنت فى تصحيفك أشهر من الحطيئة، أو كما يحكى عن الشافعى أنه لما صلّى فى رمضان بالخليفة، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن، فكان ينظر فى

المصحف، و قرأ الآية «صنعة اللّه أصيب بها من أساء. إنما المشركون نحس. وعدها إياه ، تقية لكم خير لكم. هذا أن دعوا للرحمن ولدا، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» .

و قال : و ذكر أبو زيد ابن الإمام فى مجلسه يوما أنه سئل بالمشرق عن هاتين الشريطتين : وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) ، فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج «و لو علم اللّه فيهم خيرا لتولّوا و هم معرضون» و هو محال. ثم

أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم: قال الخونجى: و الإهمال بإطلاق لفظه، لو و أن فى المتّصلة، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان، و المهملة فى قوة الجزئية، و لا قياس على جزئيتين. فلما اجتمعت ببجاية بأبى على حسين بن حسين، أخبرته بهذا، و بما أجاب به الزّمخشرى و غيره، ممّا يرجع إلى انتفاء أمر تكرار الوسط. فقال لى: الجوابان فى المعنى سواء؛ لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرار الوسط. و أخبرت بذلك شيخنا أبا عبد اللّه الآبلى، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين و لا سالبتين، إلى سائر ما يشترط، فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما ينبنى عليه الوسط و غيره، و إلا فلا مانع لما قاله ابن حسين. قال الآبلى: و أجبت بجواب السّلوى، ثم رجعت إلى ما قاله الناس، لوجوب كون مهملات القرآن كلّية؛ لأن الشّرطية لا تنتج جزئيّة. فقلت: هذا فيما يساق منها للحجة مثل لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا . أما فى مثل هذا فلا قلت . و كان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولى سبب تأخر، حسبما تبين فى مسألة، لو لم يطع اللّه، فلينظر ذلك فى اسم شيخنا أبى بكر يحيى بن هذيل رحمه اللّه.

و قال : لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون، نزيل طيبة، على تربتها السلام، سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين: [الوافر]

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳۸ رأت قمر السماء فأذكرتنىليالى وصلنا بالرّقمتين

كلانا ناظر قمرا و لكنرأيت بعينها و رأت بعينى

ففكّر ثم قال: لعل هذا الرجل كان ينظر إليها، و هى تنظر إلى قمر السماء، فهى تنظر إلى القمر حقيقة، و هو لفرط الاستحسان يرى أنها الحقيقة. فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة. و أيضا و هو ينظر إلى قمر مجازا، و هو لإفراطه استحسانها يرى أنّ قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه؛ لأنها ناظرة المجاز.

قلت: و من هذا يعلم وجه الفاء فى قوله تعالى: فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ و الفاء فأذكرتنى بمثابة قولك أذكرتنى، فتأمّله، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ كل الفهم، ينشده: «و أذكرتنى». فالفاء فى البيت الأول، منبّهة على الثانى، و هذا النحو يسمى «الإيذان فى علم البيان».

و قال: سألنى ابن حكم عن نسب هذا المجيب فى هذا البيت: [الكامل]

و مهفهف الأعطاف قلت له انتسبفأجاب ما قتل المحبّ حرام

ففكرت ثم قلت له : أراه تميميا؛ لإلغائه «ما» النافية. فاستحسنه منى لصغر سنى يومئذ. و سأل ابن فرحون ابن حكم يوما : هل تجد فى التّنزيل ستّ فاءات مرتبة ترتيبها فى هذا البيت: [البسيط]

رأى فحبّ فرام الوصل فامتنعتفسام صبرا فأعيا نيله فقضى

ففكر ابن حكم، ثم قال: نعم قوله عزّ و جلّ: فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (۲۰) فَتَنادَوْا إلى آخرها، فمنعت له البناء فى فَتَنادَوْا.

فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم، قوله عزّ و جلّ: فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (۱۳) إلى آخرها، فمنع لهم بناء الآخرة لقراءة الواو. فقلت له: امنع و لا تسند، فيقال : إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف، و إن كان السّند لا يسمع الكلام عليه. و أكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد، سواء بهذا الشرط و بدونه، كقول نوح عليه السلام: فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۳۹

وَ شُرَكاءَكُمْ . و كقول امرئ القيس: «غشيت ديار الحىّ بالبكرات، البيتين ». لا يقال قوله: فالحبّ سابع؛ لأنا نقول إنه عطف على «عاقل» المجرّد منها، و لعلّ حكمة السّتة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل فى حكمة خلق السماوات و الأرض فيها، و شأن اللسان

عجيب.

و قال : سمعت ابن حكم يقول: كتب بعض أدباء فاس إلى صاحب له:

[المجتث]

ابعث إلىّ بشىءمدار فاس عليه

و ليس عندك شىءممّا أشير إليه

فبعث إليه ببطّة من مرّى شرب، يشير بذلك إلى الرّياء.

و حدّثت أن قاضيها أبا محمد عبد اللّه بن أحمد بن الملجوم دعى إلى وليمة، و كان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارا من اللّوز المطبوخ بالمرّى، لمناسبة لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرّض له بالرياء. و كان ابن الأشقر يذكر بالوقوع فى الناس، فقدّم له القاضى غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطنته.

و قال عند ذكر شيخه أبى محمد عبد اللّه بن عبد الواحد المجاصى: دخلت عليه بالفقيه أبى عبد اللّه السّطى فى أيام عيد، فقدّم لنا طعاما، فقلت: لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما يرفع من حديث «من أكل مع مغفور له، غفر له» فتبسّم، و قال لى: دخلت على سيدى أبى عبد اللّه الفاسى بالإسكندرية، فقدّم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۰

لنا طعاما، فسألته عن هذا الحديث فقال: وقع فى نفسى شىء، فرأيت النبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى المنام، فسألته عنه، فقال : لم أقله، و أرجو أن يكون كذلك. و صافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد اللّه زيان، بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدى، بمصافحته أبا العباس أحمد الملثّم، بمصافحته المعمّر، بمصافحته رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

و حدّث عن شيخه أبى محمد الدّلاصى، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخصّه لدينه و عقله، بالنداء باسمه، و إنما كان ينعق بمماليكه: يا ساقى، يا طبّاخ، يا مزين. فناداه ذات يوم: يا فرّاش، فظنّ أن ذلك لموجدة عليه. فلم ير أثر ذلك، و تصوّرت له به خلوة، فسأله عن مخالفته لعادته ، فقال له: لا عليك، كنت يومئذ جنبا، فكرهت أن أذكر اسم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، على تلك الحالة. و قال: أنشدنى المجاصى، قال: أنشدنى الإمام نجم الدين الواسطى، قال: أنشدنى شرف الدين الدمياطى، قال: أنشدنى تاج الدين الآمدى ، مؤلف «الحاصل»، قال: أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه:

[الطويل]

نهاية إقدام العقول عقالو أكثر سعى العالمين ضلال

و أرواحنا فى وحشة من جسوموناو حاصل دنيانا أذى و وبال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۱ و لم نستفد من بحثنا طول عمرناسوى أن جمعنا فيه قيل و قال

و كم من رجال قد رأينا و دولة فبادوا جميعا مسرعين و زالوا

و كم من جبال قد علت شرفاتهارجال فماتوا و الجبال جبال

و قال : و قد مرّ من ذكر الشريف القاضى أبى على حسين بن يوسف بن يحيى الحسنى فى عداد شيوخه و قال: حدّثنى أبو العباس الرّندى عن القاضى أبى العباس بن الغمّاز ، قال: لمّا قدم القاضى أبو العباس بن الغماز من بلنسية، نزل بجاية؛ فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع ، فجاء عبد الحق يوما، و عليه برنس أبيض، و قد حسنت شارته، و كملت هيئته، فلمّا نظر إليه ابن الغماز أنشده:

[الخفيف]

لبس البرنس الفقيه فباهىو رأى أنه المليح فتاها

لو زليخا رأته حين تبدّىلتمنّته أن يكون فتاها

و قال أيضا: إن ابن الغمّاز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزّيتونة، فنزل الشهود من المئذنة و أخبروا أنهم لم يهلّوه . و جاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهلّه، فردّهم معه، فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة. و قد وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم ، فأنشدنا فيه: [الطويل]

توارى هلال الأفق عن أعين الورىو أرخى حجاب الغيم دون محيّاه

فلمّا تصدّى لارتقاب شقيقهتبدّى له دون الأنام فحيّاه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۲

و جرى فى ذكر أبى عبد اللّه بن النجار ، الشيخ التعالمى من أهل تلمسان، فقال : ذكرت يوما قول ابن الحاجب فيما يحرّم من النساء بالقرابة، و هى «أصول و فصول، أول أصوله، و أول فصل من كل أصل و إن علا»، فقال: إن تركّب لفظ التّسمية العرفية من الطّرفين حلّت، و إلّا حرمت، فتأمّلته، فوجدته كما قال: لأن أقسام هذا الضابط أربعة: التّركيب من الطرفين، كابن العم و ابنة العم مقابله كالأب و البنت، و التركيب من قبل الرجل كابنة الأخ و العمّ مقابله كابن الأخت و الخالة.

و ذكر الشيخ الرئيس أبا محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى. و قال :

كان ينكر إضافة الحول إلى اللّه عزّ و جلّ، فلا يجيز أن يقال: «بحول اللّه و قوّته»، قال: لأنه لم يرد إطلاقه ، و المعنى يقتضى امتناعه؛ لأنّ الحول كالحيلة، أو قريب منها.

و حكى عن شيخه أبى زيد عبد الرحمن الصّنهاجى ، عن القاضى أبى زيد عبد الرحمن بن على الدّكالى، أنه اختصم عنده رجلان فى شاة، ادّعى أحدهما أنه أودعها الآخر، و ادّعى الآخر أنها ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع أنها ضاعت من غير تضييع، فقال: كيف أضيّع، و قد شغلتنى حراستها عن الصلاة، حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم، فقيل له فى ذلك، فقال: تأوّلت قول عمر: و «من ضيّعها فهو لما سواها أضيع».

و حكى عن الشيخ الفقيه رحلة الوقت أبى عبد اللّه الآبلى، حكاية فى باب الضّرب، و قوة الإدراك، قال : كنت يوما مع القاسم بن محمد الصّنهاجى، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها: [السريع]

خيرات ما تحويه مبذولةو مطلبى تصحيف مقلوبها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۳

فقال لى: ما مطلبه؟ فقلت: «نارنج». و دخل عليه و أنا عنده بتلمسان الشيخ الطبيب أبو عبد اللّه الدبّاغ المالقى ، فأخبرنا أن أديبا استجدى وزيرا بهذا الشّطر:

«ثمّ حبيب قلّما ينصف» فأخذته و كتبته، ثم قلبته و صحّفته، فإذا به : قصبتا ملفّ شحمى.

و قال: قال شيخنا الآبلى: لما نزلت تازة مع أبى الحسن بن برّى، و أبى عبد اللّه التّرجالى، فاحتجت إلى النوم، و كرهت قطعهما إلى الكلام، فاستكشفت منهما عن معنى هذا البيت للمعرى: [الطويل]

أقول لعبد اللّه لمّا سقاؤناو نحن بوادى عبد شمس و هاشم

فجعلا يفكّران فيه، فنمت حتى أصبحا، و لم يجداه، و سألونى عنه، فقلت:

معناه «أقول لعبد اللّه لمّا و هى سقاؤنا، و نحن بوادى عبد شمس: شم لنا برقا».

قلت: و فيه نظر . و إن استقصينا مثل هذا، خرجنا عن الغرض.

مولده: نقلت من خطه: كان مولدى بتلمسان أيام أبى حمّو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيّان. و قد وقفت على تاريخ ذلك، و رأيت الصّفح عنه؛ لأن أبا الحسن بن موسى سأل أبا الطاهر السّلفى عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا الفتح بن زيّان بن مسعدة عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت محمد بن على بن محمد اللبّان عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت

حمزة بن يوسف السّهمى عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا بكر محمد بن على النفزى عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا إسماعيل التّرمذى عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت الشافعى عن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۴

سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت مالك بن أنس عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنّه .

وفاته: توفى بمدينة فاس فى أخريات محرم من عام تسعة و خمسين و سبعمائة، و أراه توفى فى ذى حجة من العام قبله. و نقل إلى تربة سلفه بمدينة تلمسان حرسها اللّه.

محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبى

من أهل سبتة، حفيد القاضى الإمام أبى الفضل عياض، يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان من عدول القضاة، و جلّة سراتهم، و أهل النزاهة فيهم، شديد التحرى فى الأحكام و الاحتياط، صابرا على الضعيف فيهم و الملهوف، شديد الوطأة على أهل الجاه و ذوى السّطوة، فاضلا، و قورا، حسن السّمت، يعرّفه كلامه أبدا، و يزينه ذلك لكثرة وقاره، محبّا فى العلم و أهله، مقرّبا لأصاغر الطلبة، و مكرّما لهم، و معتنيا بهم، معملا جهده فى الدّفع عنهم، لما عسى أن يسوءهم؛ ليحبّب إليهم العلم و أهله، ما رأينا بعده فى هذا مثله. سكن مالقة مع أبيه عند انتقال أبيه إليها، إلى أن مات أبوه سنة خمس و خمسين و ستمائة.

حدّثنى شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب، و جرى ذكر إعرابه لفظ من حديثه عن شيوخه، قال: دخلت على القاضى المذكور، فسأل أحدنا عن أبيه، فقال: ابن فلان.

و ذكر معرفة مشتركة بين تجّار فاس، فقال: أيهما الذى ينحت فى الخشب، و الذى يعمل فى السلاح؟ فما فطن لقصده لسذاجته. و حدّثنى عن ذكر جزالته أنها كانت تقع له مع السلطان مستقضيه، مع كونه مرهوبا، شديد السّطوة، و قائع تنبىء عن تصميمه، و بعده عن الهوادة؛ منها أن السلطان أمر بإطلاق محبوس كان قد سجنه، فأنفذ بين يدى السلطان الأمر للسّجّان بحبسه، و توعّده إن أطلقه. و منها إذاعة ثبوت العيد فى أخريات يوم كان قد أمل السلطان البروز إلى العيد فى صباحه، فنزل عن القلعة ينادى: عبد اللّه، يا ميمون، أخبر الناس عن عيدهم اليوم، و أمثال ذلك.

مشيخته: قرأ بسبتة، و أسند بها، فأخذ عن أبى الصبر أيوب بن عبد اللّه الفهرى و غيره، و رحل إلى الجزيرة الخضراء، فأخذ بها كتاب سيبويه و غيره تفقيها على النحوىّ الجليل أبى القاسم عبد الرحمن بن القاسم القاضى المتفنن. و أخذ بها أيضا كتاب «إيضاح الفارسى» عن الأستاذ أبى الحجاج بن مغرور، و أخذ بإشبيلية و غيرها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۵

عن آخرين. و قرأ على القاضى أبى القاسم بن بقىّ بن نافحة، و أجاز له. و كتب له من أهل المشرق جماعة كثيرة، منهم أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر بن أبى الفتح الصّيدلانى، و أجاز له بأصبهان، و هو سبط حسن بن منده، أجاز له فى شوال سنة ثمان و تسعين و خمسمائة. و تحمل عن أبى على الحداد، شيخ السّلفى الحافظ عن محمود الصيرفى و نظائرهما، و جماعة من إصبهان كثيرة كتبوا له بالإجازة. و كتب له من غيرها من البلاد نيّف و ثمانون رجلا، منهم أحد و ستون رجلا كتبوا له مع الشيخ المحدث أبى العباس المغربى، و القاضى أبى عبد اللّه الأزدى، و قد نصح على جميعهم فى برنامجيهما، و استوفى أبو العباس الغربى نصوص الإسترعات، و فيها اسم القاضى أبو عبد اللّه بن عياض.

من روى عنه: قال الأستاذ أبو جعفر، رحمه اللّه: أجاز لى مرتين اثنتين .

و قال: حدّثنى أبو عبد اللّه مشافهة بالإذن، أنبأنا أبو الطاهر بركات بن إبراهيم الخشوعى كتابة من دمشق، أنبأنا أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الرّازى، المعروف بابن الحطّاب، بالحاء المهملة، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الوهاب البغدادى بالفسطاط، أخبرنا موسى بن محمد بن عرفة السمسار ببغداد، قال أبو عمرو بن أحمد بن الفضل النّفزى: أخبرنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا عمر بن شاكر عن أنس بن مالك، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «يأتى على الناس زمان، الصّابر منهم على دينه، كالقابض على الجمر».

هذا الإسناد قريب يعزّ مثله فى القرب لأمثالنا، ممن مولده بعد الستمائة، و إسماعيل بن موسى من شيوخ التّرمذى، قد خرّج عنه الحديث المذكور، لم يقع له فى مصنّفه ثلاثى غيره.

مولده: بسبتة سنة أربع و ثمانين و خمسمائة.

وفاته: توفى بغرناطة يوم الخميس الثامن و العشرين لجمادى الآخرة سنة أربع و خمسين و ستمائة.

محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى ابن عياض اليحصبى

من أهل سبتة، ولد الإمام أبى الفضل، يكنى أبا عبد اللّه.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۶

حاله: كان فقيها جليلا، أديبا، كاملا. دخل الأندلس، و قرأ على ابن بشكوال كتاب الصّلة، و ولى قضاء غرناطة. قال ابن الزّبير: وقفت على جزء ألّفه فى شىء من أخبار أبيه، و حاله فى أخذه و علمه، و ما يرجع إلى هذا، أوقفنى عليه حفدته بمالقة.

وفاته: توفى سنة خمس و سبعين و خمسمائة.

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد ابن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان ابن عبد السلام بن جبير الكنانى

الواصل إلى الأندلس.

أوّليّته: دخل جدّه عبد السلام بن جبير فى طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى فى محرم ثلاث و عشرين و مائة. و كان نزوله بكورة شدونة. و هو من ولد ضمرة بن كنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. بلنسى الأصل، ثم غرناطى الاستيطان. شرّق، و غرّب، و عاد إلى غرناطة.

حاله: كان أديبا بارعا، شاعرا مجيدا، سنيّا فاضلا، نزيه المهمة، سرىّ النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة فى الخط. كتب بسبتة عن أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن، و بغرناطة عن غيره من ذوى قرابته، و له فيهم أمداح كثيرة.

ثم نزع عن ذلك، و توجّه إلى المشرق. و جرت بينه و بين طائفة من أدباء عصره، مخاطبات ظهرت فيها براعته و إجادته. و نظمه فائق، و نثره بديع. و كلامه المرسل، سهل حسن، و أغراضه جليلة، و محاسنه ضخمة، و ذكره شهير، و رحلته نسيجة وحدها، طارت كل مطار، رحمه اللّه.

رحلته: قال من عنى بخبره : رحل ثلاثا من الأندلس إلى المشرق، و حجّ فى كل واحدة منها. فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال، ثمان و سبعين و خمسمائة، صحبة أبى جعفر بن حسان، ثم عاد إلى وطنه الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۱۴۶

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۴۷

غرناطة لثمان بقين من محرم واحد و ثمانين، و لقى بها أعلاما يأتى التعريف بهم فى مشيخته، و صنّف الرحلة المشهورة، و ذكر مناقله فيها و ما شاهده من عجايب البلدان، و غرايب المشاهد، و بدايع الصّنايع، و هو كتاب مؤنس ممتع، مثير سواكن النفوس إلى الرّفادة

على تلك المعالم المكرمة و المشاهد العظيمة.

و لما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى ، قوى عزمه على عمل الرحلة الثانية، فتحرك إليها من غرناطة، يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس و ثمانين و خمسمائة، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سبع و ثمانين. و سكن غرناطة، ثم مالقة، ثم سبتة، ثم فاس ، منقطعا إلى إسماع الحديث و التصوّف، و تروية ما عنده. و فضله بديع، و ورعه يتحقق، و أعماله الصالحة تزكو. ثم رحل الثالثة من سبتة، بعد موت زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوقّشى ، و كان كلفا بها، فعظم وجده عليها. فوصل مكة، و جاور بها طويلا، ثم بيت المقدس، ثم تجوّل بمصر و الإسكندرية، فأقام يحدّث، و يؤخذ عنه إلى أن لحق بربه.

مشيخته: روى بالأندلس عن أبيه، و أبى الحسن بن محمد بن أبى العيش، و أبى عبد اللّه بن أحمد بن عروس، و ابن الأصيلى. و أخذ العربية عن أبى الحجاج بن يسعون. و بسبتة عن أبى عبد اللّه بن عيسى التميمى السّبتى. و أجاز له أبو الوليد بن سبكة، و إبراهيم بن إسحاق بن عبد اللّه الغسّانى التونسى، و أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشى الميّانجى، نزيلا مكة، و أبو جعفر أحمد بن على القرطبى الفنكى، و أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد البغدادى، و صدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الحجرى رئيس الشّافعية بأصبهان.

و ببغداد العالم الحافظ المتبحر نادرة الفلك أبو الفرج، و كناه أبو الفضل ابن الجوزى.

و حضر بعض مجالسه الوعظية و قال فيه: «فشاهدنا رجلا ليس بعمرو و لا زيد، و فى جوف الفرا كلّ الصّيد»، و بدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن على بن عبد اللّه بن عباس السّلمى الجوارى، و أبو سعيد عبد اللّه بن محمد بن أبى عصرون، و أبو الطاهر

بركات الخشوعى، و سمع عليه، و عماد الدين أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن حامد الأصبهانى من أئمة الكتاب، و أخذ عنه بعض كلامه، و غيره، و أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن على بن عساكر، و سمع عليه، و أبو الوليد إسماعيل بن على بن إبراهيم و الحسين بن هبة اللّه بن محفوظ بن نصر الرّبعى، و عبد الرحمن بن إسماعيل بن أبى سعيد الصّوفى، و أجازوا له، و بحرّان الصّوفى العارف أبو البركات حيّان بن عبد العزيز، و ابنه الحاذى حذوه.

من أخذ عنه: قال ابن عبد الملك : أخذ عنه أبو إسحاق بن مهيب، و ابن الواعظ، و أبو تمام بن إسماعيل، و أبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد اللّه البجّائى، و أبو الحسن بن على الشّادى ، و أبو سليمان بن حوط اللّه، و أبو زكريا، و أبو بكر يحيى بن محمد بن أبى الغصن ، و أبو عبد اللّه بن حسن بن مجبر ، و أبو العباس بن عبد المؤمن البنّانى ، و أبو محمد بن حسن اللّواتى، و ابن تامتيت، و ابن محمد المورورى، و أبو عمر بن سالم، و عثمان بن سفيان بن أشقر التّميمى التونسى.

و ممّن أخذ عنه بالإسكندرية، رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء اللّه، و بمصر رشيد الدين بن العطّار، و فخر القضاة ابن الجيّاب، و ابنه جمال القضاة.

تصانيفه: منها نظمه. قال ابن عبد الملك : «وقفت منه على مجلد متوسط يكون على قدر ديوان أبى تمام حبيب بن أوس. و منه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح» فى مراثى زوجه أم المجد. و منه جزء سماه «نظم الجمان فى التشكى من إخوان الزمان». «و له ترسيل بديع، و حكم مستجادة»، و كتاب رحلته. «و كان أبو الحسن الشّادى يقول: إنها ليست من تصانيفه، و إنما قيّد معانى ما

تضمنته، فتولى ترتيبها، و تنضيد معانيها بعض الآخذين عنه، على ما تلقاه منه». و اللّه أعلم.

شعره: من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها، و قد شارف المدينة المكرّمة طيبة، على ساكنها من اللّه أفضل الصلوات، و أزكى

التسليم : [المتقارب]

أقول و آنست بالليل نارالعلّ سراج الهدى قد أنارا

و إلّا فما بال أفق الدّجى كأنّ سنا البرق فيه استطارا

و نحن من الليل فى حندس‌فما باله قد تجلّى نهارا؟

و هذا النّسيم شذا المسك قدأعير أم المسك منه استعارا؟

و كانت رواحلنا تشتكى‌وجاها فقد سابقتنا ابتدارا

و كنّا شكونا عناء السّرى‌فعدنا نبارى سراع المهارى

أظنّ النفوس قد استشعرت‌بلوغ هوى تخذته شعارا

بشائر صبح السّرى آذنت‌بأنّ الحبيب تدانى مزارا

جرى ذكر طيبة ما بيننافلا قلب فى الركب إلّا و طارا

حنينا إلى أحمد المصطفى‌و شوقا يهيج الضلوع استعارا

و لاح لنا أحد مشرقابنور من الشّهداء استنارا

فمن أجل ذلك ظلّ الدّجى‌يحلّ عقود النجوم انتثارا

و من طرب الرّكب حثّ الخطاإليها و نادى البدار البدارا

و لمّا حللنا فناء الرسول‌نزلنا بأكرم مجد جوارا

و حين دنونا لفرض السلام‌قصرنا الخطا و لزمنا الوقارا

فما نرسل اللّحظ إلّا اختلاساو لا نرجع الطّرف إلّا انكسارا

و لا نظهر الوجد إلّا اكتتاماو لا نلفظ القول إلّا سرارا

سوى أننا لم نطق أعينابأدمعها غلبتنا انفجارا

وقفنا بروضة دار السلام نعيد السلام عليها مرارا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۰ و لو لا مهابته فى النفوس‌لثمنا الثّرى و التزمنا الجدارا

قضينا بزورته حجّناو بالعمرتين ختمنا اعتمارا

إليك إليك نبىّ الهدى‌ركبت البحار و جبت القفارا

و فارقت أهلى و لا منّهو ربّ كلام يجرّ اعتذارا

و كيف نمنّ على من به‌نؤمّل للسيّئات اغتفارا

دعانى إليك هوى كامن‌أثار من الشوق ما قد أثارا

فناديت لبّيك داعى الهوى‌و ما كنت عنك أطيق اصطبارا

و وطّنت نفسى بحكم الهوى‌علىّ و قلت رضيت اختيارا

أخوض الدّجى و أروض السّرى‌و لا أطعم النوم إلّا غرارا

و لو كنت لا أستطيع السبيل‌لطرت و لو لم أصادف مطارا

و أجدر من نال منك الرضى‌محبّ ثراك على البعد زارا

عسى لحظة منك لى فى غدتمهّد لى فى الجنان القرارا

فما ضلّ من بمسراك اهتدى‌و لا ذلّ من بذراك استجارا

و فى غبطة من منّ اللّه عليه لحجّ بيته، و زيارة قبره صلى اللّه عليه و سلم يقول : [المتقارب]

هنيئا لمن حجّ بيت الهدىو حطّ عن النّفس أوزارها

و إنّ السعادة مضمونةلمن حجّ طيبة أوزارها

و فى مثل ذلك يقول : [المتقارب]

إذا بلغ المرء أرض الحجازفقد نال أفضل ما أمّ له

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۱ و إن زار قبر نبيّ الهدىفقد أكمل اللّه ما أمّله

و فى تفضيل المشرق : [الكامل]

لا يستوى شرق البلاد و غربهاالشرق حاز الفضل باستحقاق

انظر جمال الشمس عند طلوعهازهراء تعجب بهجة الإشراق

و انظر إليها عند الغروب كئيبةصفراء تعقب ظلمة الآفاق

و كفى بيوم طلوعها من غربهاأن تؤذن الدنيا بعزم فراق

و قال فى الوصايا : [الطويل]

عليك بكتمان المصائب و اصطبرعليها فما أبقى الزمان شفيقا

كفاك من الشكوى إلى الناس أنها تسرّ عدوّا أو تسىء صديقا

و قال :

لصانع المعروف فلتة عاقلإن لم تضعها فى محلّ عاقل

كالنفس فى شهواتها إن لم تكنوقفا لها عادت بضرّ عاجل

نثره: من حكمه قوله : إن شرف الإنسان فشرف و إحسان، و إن فاق فتفضّل و إرفاق ، ينبغى أن يحفظ الإنسان لسانه، كما يحفظ الجفن إنسانه. فربّ كلمة تقال، تحدث عثرة لا تقال. كم كست فلتات الألسنة الحداد، من ورائها ملابس

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۲

حداد . نحن فى زمن لا يحظى فيه بنفاق، إلّا من عامل بنفاق. شغل الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض، فلجّوا فى الصّدود عنها و الإعراض، آثروا دنيا هى أضغاث أحلام، و كم هفت فى حبها من أحلام، أطالوا فيها آمالهم، و قصروا أعمالهم، ما بالهم، لم يتفرغ لغيرها بالهم، ما لهم فى غير ميدانها استباق ، و لا بسوى هواها اشتياق . تاللّه لو كشفت الأسرار، لما كان هذا الإصرار، و لسهرت العيون، و تفجّرت من شؤونها الجفون . فلو أن عين البصيرة من سنتها هابّة، لرأت جميع ما فى الدنيا ريحا هابّة، و لكن استولى العمى على البصائر، و لا يعلم الإنسان ما إليه صائر. أسأل اللّه هداية سبيله، و رحمة تورد نسيم الفردوس و سلسبيله، إنه الحنّان المنّان لا ربّ سواه.

و منها : فلتات الهبات، أشبه شىء بفلتات الشّهوات. منها نافع لا يعقب ندما، و منها ضارّ يبقى فى النفس ألما. فضرر الهبة وقوعها عند من لا يعتقد لحقّها أداء، و ربما أثمرت عنده اعتداء. و ضرر الشهوة أن لا توافق ابتداء، فتصير لمتبعها داء، مثلها كمثل السّكر يلتذّ صاحبه بحلاوة جناه، فإذا صحا يعرف قدر ما جناه. عكس هذه القضية هى الحالة المرضية.

مولده: ببلنسية سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة، و قيل: بشاطبة سنة أربعين و خمسمائة.

وفاته: توفى بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع و العشرين لشعبان أربع عشرة و ستمائة.

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن شبرين

يكنى أبا بكر، شيخنا الفقيه القاضى المؤرخ الكاتب البارع، رحمة اللّه عليه.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۳

أوّليّته: أصله من إشبيلية، من حصن شلب من كورة باجة، من غربىّ صقعها، يعرفون فيها ببنى شبرين معرفة قديمة. ولّى جدّه القضاء بإشبيلية، و كان من كبار أهل العلم، تشهد بذلك الصلاة. و انتقل أبوه منها عند تغلّب العدو عليها عام ستة و أربعين و ستمائة، فاحتل رندة ثم غرناطة، ثم انتقل إلى سكنى سبتة، و بها ولد شيخنا أبو بكر، و انتقل عند الحادثة إلى غرناطة ، فارتسم بالكتابة السلطانية، و ولّى القضاء بعدة جهات، و تأثّل مالا و شهرة، حتى جرى مجرى الأعيان من أهلها.

حاله: كان فريد دهره، و نسيج وحده فى حسن السّمت و الرّواء ، و كمال الظّرف و جمال الشّارة، و براعة الخطّ، و طيب المجالسة، خاصّيا، و قورا، تام الخلق، عظيم الأبّهة، عذب التّلاوة لكتاب اللّه، من أهل الدين و الفضل و العدالة، تاريخيّا، مقيّدا، طلعة اختيار أصحابه، محققا لما ينقله، فكها مع وقاره، غزلا، لوذعيّا، علىّ شأن الكتابة، جميل العشرة، أشدّ الناس على الشّعر، ثم على المحافظة، ما يحفظه من الأبيات من غير اعتيام و لا تنقيح، يناغى الملكين فى إثباتها، مقرّرة التواريخ، حتى عظم حجم ديوانه، تفرّدت أشعاره بما أبرّ على المكثرين، مليح الكتابة، سهلها، صانعا، سابقا فى ميدانها، راجحا كفّة المنثور. و كانت له رحلة إلى تونس، اتّسع بها نطاق روايته. و تقلّب بين الكتابة و القضاء، منحوس الحظ فى الاستعمال، مضيّقا فيه، و إن كان وافر الجدّ، موسّعا عليه.

و جرى ذكره فى كتاب «التاج المحلّى» بما نصّه:

خاتمة المحسنين، و بقية الفصحاء اللّسنين، ملأ العيون هديا و سمتا، و سلك من الوقار طريقة لا ترى فيها عوجا و لا أمتا، ما شئت من فضل ذات، و براعة أدوات. إن خطّ، نزل ابن مقلة عن درجته و إن خطّ. و إن نظم أو نثر، تبعت البلغاء ذلك الأثر.

و إن تكلّم أنصت الحفل لاستماعه، و شرع لدرره النّفيسة صدق أسماعه. وفد على الأندلس عند كائنة سبتة، و قد طرحت النّوى برحاله، و ظعن عن ربعه بتوالى إمحاله، و مصرّف بلاده، و المستولى على طارفها و تالدها، أبو عبد اللّه بن الحكيم، قدّس اللّه صداه، و سقى منتداه، فاهتزّ لقدومه اهتزاز الصّارم، و تلقاه تلقى الأكارم، و أنهض إلى لقائه آماله، و ألقى له قبل الوسادة ماله، و نظمه فى سمط الكتّاب، و أسلاه عن أعمال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۴

الأقتاد، و نزل ذمامه تأكّدا فى هذه الدول، و قوفى له الآتية منها على الأول، فتصرّف فى القضاء بجهاتها، و نادته السيادة هاك و هاتها، فجدّد عهد حكّامه العدول من سلفه و قضاتها. و له الأدب الذى تحلّت بقلائده اللّبات و النّحور، و قصرت عن جواهره البحور. و سيمرّ من ذلك فى تضاعيف هذا المجموع ما يشهد بسعة ذرعه، و يخبر بكرم عنصره، و طيّب نبعه.

مشيخته: قرأ على جدّه لأمّه الأستاذ الإمام أبى بكر بن عبيدة الإشبيلى، و سمع على الرئيس أبى حاتم، و على أخيه أبى عبد اللّه الحسين، و على الأستاذ أبى إسحاق الغافقى، و على الشريف أبى على بن أبى الشرف، و على الإمام أبى عبد اللّه بن حريث. و سمع على العدل أبى فارس عبد العزيز الجزيرى. و سمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير، و على العدل أبى الحسن بن مستقور، و على الوزير أبى محمد بن المؤذن، و على الخطيب أبى عبد اللّه بن رشيد.

و بمالقة على الخطيب ولى اللّه تعالى، أبى عبد اللّه الطّنجالى، و على الوزير الصّدر أبى عبد اللّه بن ربيع، و على القاضى العدل أبى عبد اللّه بن برطال. و ببجاية على الإمام أبى على ناصر الدين المشذالى، و على أبى العباس الغبرينى. و بتونس على أبى على بن علوان، و على قاضى الجماعة أبى إسحاق بن عبد الرّفيع، و سمع على الخطيب الصّوفى ولىّ اللّه تعالى، أبى جعفر الزيات، و الصوفى أبى عبد اللّه بن برطال، و على الصدر أبى القاسم محمد بن قائد الكلاعى. و أجازه عالم كثير من أهل المشرق و المغرب.

شعره: و شعره متعدّد الأسفار، كثير الأغراض. و فى الإكثار مجلّل الاختيار، فمنه قوله : [الطويل]

أخذت بكظم الرّوح يا ساعة النوىو أضرمت فى طىّ الحشا لاعج الجوى

فمن مخبرى يا ليت شعرى متى اللّقاو هل تحسن الدنيا و هل يرجع الهوى؟

سلا كلّ مشتاق و أكثر وجدهو عند النّوى وجدى و فى ساكن الهوى

ولى نيّة ما عشت فى حفظ عهدهمإلى يوم ألقاهم و للمرء ما نوى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۵

و قال: [المنسرح]

باتوا فمن كان باكيا يبكهذى ركاب الشرى بلا شكّ

فمن ظهور الرّكاب معملةإلى بطون الرّبى إلى الفلك

تصدّع الشّمل مثلما انحدرتإلى صبوب جواهر السّلك

كن بالذى حدّثوا على ثقةما فى حديث الفراق من إفك

من النّوى قبل لم أزل حذراهذا النّوى جلّ مالك الملك

و قال: [السريع]

يا أيها المعرّض اللّاهييسوؤنى هجرك و اللّه

يا ليت شعرى كم أرى فيكلا أقفك عن ويّه و عزاه

و يحى مغيرى إلى باخل واهمن ذا الذى رآه

من يرد اللّه فيه فتنةيشغله فى الدنيا بتيّاه

يا غصن البان ألا عطفةعلى معنّى جسمه واه؟

أوسعنى بعدك ذلّا و قدرا يثنيا عندك ذا جاه

ذكرك لا ينفكّ عن خاطرىو أنت عنى غافل ساه

يكفيك يا عثمان من جفونىلو كان ذنبى ذنب جهجاه

هيهات لا معترض لى علىحكمك أنت الآمر النّاهى

قلت: جهجاه المشار إليه رجل من غفّار، قيل: إنه تناول عصا الخطبة من يد عثمان، رضى اللّه عنه، فكسرها على ركبته، فوقعت فيها الأكلة فهلك.

و قال: [البسيط]

يا من أعاد صباحى فقده حلكاقتلت عبدك لكن لم تخف دركا

مصيبتى ليست كالمصائب لاو لا بكائى عليها مثل كلّ بكا

فمن أطالب فى شرع الهوى بدمىلحظى و لحظك فى قتلى قد اشتركا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۶

و قال، و قد سبقه إليه الرّصافى؛ و هو ظريف: [المنسرح]

أشكو إلى اللّه فرط بلبالى و لوعة لا تزال تذكى لى

بمهجتى حائك شغلت بهحلو المعانى طرازه عالى

سألته لثم خاله فأبىو منّ ذا نخوة و إذلال

و قال حالى يصون خالىيدنى فويحى بالحال و الخال

يقرّبنى الآل من مواعدهو أتّقى منه سطوة الآل

لكن على ظلمه و قسوتهفلست عنه الزّمان بالسالى

و قال أيضا مضمنا : [البسيط]

لى همّة كلّما حاولت أمسكهاعلى المذلّة فى أرجاء أرضيها

قالت: أ لم تك أرض اللّه واسعةحتى يهاجر عبد مؤمن فيها

و قال مسترجعا من ذنبه، و مستوحشا من شيبه: [السريع]

قد كان عيبى قبل فى غيبفمذ بدا شيبى بدا عيبى

لا عذر اليوم و لا حجّةفضحتنى و اللّه يا شيبى

و قال : [الخفيف]

أثقلتنى الذنوب ويحى و ويسىليتنى كنت زاهدا كأويس

و جرت بينه و بين السلطان ثالث الأمراء من بنى نصر ، بعد خلعه من ملكه، و انتثار سلكه، و استقراره بقصبة المنكّب، غريبا من قومه، معوّضا بالسهاد من نومه،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۷

قد فلّ الدهر سباته، و تركه يندب ما فاته، و القاضى المترجم به يومئذ مدبّر أحكامها، و علم أعلامها، و متولّى نقضها و إبرامها، فارتاح يوما إلى إيناسه، و اجتلاب أدبه و التماسه، و طلب منه أن يعبّر عن حاله ببيانه، و ينوب فى بثّه عن لسانه، فكتب إليه: [الطويل]

قفا نفسا فالخطب فيها يهونو لا تعجلا إنّ الحديث شجون

علمنا الذى قد كان من صرف دهرناو لسنا على علم بما سيكون

ذكرنا نعيما قد تقضّى نعيمهفأقلقنا شوق له و حنين

و بالأمس كنّا كيف شئنا و للدّناحراك على أحكامنا و سكون

و إذا بابنا مثوى الفؤاد و نحوناتمدّ رقاب أو تشير عيون

فنغص من ذاك السرور مهنأو كدر من ذاك النّعيم معين

و نبا عن الأوطان بين ضرورةو قد يقرب الإنسان ثم يبين

أيا معهد الإسعاد حيّيت معهداو جادك من سكب الغمام هتون

تريد الليالى أن تهين مكاننارويدك إنّ الخير ليس يهون

فإن تكن الأيام قد لعبت بناو دارت علينا للخطوب فنون

فمن عادة الأيّام ذلّ كرامهاو لكنّ سبيل الصابرين مبين

لئن خاننا الدهر الذى كان عبدنافلا عجب إنّ العبيد تخون

و ما غضّ منّا مخبرى غير أنهتضاعف إيمان و زاد يقين

و كتب إلى الحكم بن مسعود، و هو شاهد المواريث بهذه الدّعابة التى تستخفّ الوقور، و تلج السّمع الموقور:

أطال اللّه بقاء أخى و سيدى، لأهل الفرائض يحسن الاحتيال فى مداراتهم، و للمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم، و دامت أقلامه مشرعة لصرم الأجل المنسّأ، معدّة لتحليل هذا الصّنف المنشّأ من الصّلصال و الحمأ. فمن ميّت يغسل و آخر يقبر، و من أجل يطوى و كفن ينشر، و من رمس يفتح و باب يغلق، و من عاصب يحبس و نعش يطلق، فكلما خربت ساحة، نشأت فى الحانوت راحة، و كلما قامت فى شعب مناحة، اتّسعت للرزق مساحة، فيباكر سيدى الحانوت و قد احتسى مرقته، و سهّل عنقفته، فيرى الصّعبة

بالمناصب شطرا، فيلحظ هذا برفق و ينظر إلى هذا شزرا، و يأمر بشقّ الجيوب تارة و البحث عن الأوساط أخرى. ثم يأخذ القلم أخذا رفيقا، و يقول و قد خامره السرور: رحم اللّه فلانا لقد كان لنا صديقا، و ربما أدبره بالانزعاج الحثيث، و قال مستريح منه كما جاء فى الحديث. و تختلف عند ذلك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۸

المراتب، و تتبين الأصدقاء و الأجانب، فينصرف هذا، و حظّه التهريب، و النظر الحديد، و ينفصل هذا و بين يديه المنذر الصّيت و النعش الجديد. ثم يغشى دار الميت و يسأل عن الكيت و الكيت، و يقول: علىّ بما فى البيت. أين دعاء الثّاغية و الرّاغية؟

أين عقود الأملاد بالبادية؟ و قد كانت لهذا الرجل حالا فى حال. و قد ذكر فى الأسماء الخمسة فقيل: ذو مال. و عيون الأعوام ترنو من عل، و أعناقهم تشرئبّ إلى خلف الكلل، و أرجلهم تدبّ إلى الأسفاط دبيب الصّقور إلى الحجل. و الموتى قد وجبت منهم الجنوب، و حضر الموروث و المكسوب، و قيّد المطعوم و المشروب. و عدّت الصحاح، و وزنت الأرطال و كيلت الأقداح. و الشّهود يغلظون على الورثة فى الأليّة، و يصونهم بالبتات فى النشأة الأوّلية. و الروائح حين تفعم الأرض طيبا، و تهدى الأرواح شذا يفعل فى إزعاجها على الأبدان فعلا عجيبا. و الدلّال يقول: هذا مفتاح الباب، و السّمسار يصيح: قام النّدا فما تنتظرون بالثبات؟ و الشّاهد يصيح فتعلو صيحته، و المشرف يشرب فتسقط سبحته. و المحتضر يهسّ ألا حىّ فلا تسمعون، و يباهى لون العباء عليه الجواب رب أرجعون. ما هذا النّشيج و الضّجيج؟ متّ كلا لم أمت. و من حجّ له الحجيج، فترتفع له الأصوات، كى لا يفسح فيه الممات. و يبقر بطنه برغمه، و يحفر له بجانب أبيه و بحذا أمّه. ثم يشرع فى نفسه الفرض، و لو أكفئت السماوات على الأرض. و يقال لأهل السّهام: أحسنوا، فالإحسان ثالث مراتب الإسلام، و قد نصّ ابن القاسم على أجرة القسّام. و سوّغه أصبغ و سحنون، و لم يختلف فيه مطّرف و ابن الماجشون. إن قيل إيصال الحقائق إلى أرجائها، حسن فجزاء الإحسان إحسان، و قيل إخراج النّسب و الكسور كفايه، فللكاهنين حلوان. اللهمّ غفرا، و نستقيل اللّه من انبساط يجرّ غدرا، و نسأل اللّه حمدا يوجب المزيد من نعمائه و شكرا. و لو لا أن أغفل عن الخصم، و أثقل رحل الفقيه أبى النجم، لأستغلّن المجلس شرحا، و لكان لنا فى بحر المباسطة سبح، و لأفضنا فى ذكر الوارث و الورّاث، و بيّنا العلّة فى أقسام الشهود مع المشتغل بنسبة الذكور مع الإناث. و اللّه يصل عزّ أخى و مجده، و يهب له قوة تخصّه بالفائدة و جدّه، و يزيده بصيرة يتّبع بها الحقوق إلى أقصاها، و بصرا لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها، و دام يحصى الخراريب و الفلوس و الأطمار، و يملأ الطّوامر بأقلامه البديعة الصّنعة، و يصل الطّومار بالطّومار و السلام.

و الشىء بالشىء يذكر، قلت: و من أظرف ما وقعت عليه فى هذا المعنى، قال بعض كتاب الدولة الحكمية بمنورقة، و قد ولّاه خطّة المواريث، و كتب إليه راغبا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۵۹

فى الإعفاء: [الطويل]

و ما نلت من شغل المواريث رقعةسوى شرح نعش كلّما مات ميّت

و أكتب للأموات صكّا كأنهميخاف عليهم فى الجباب التّفلّت

كأنى لعزرائيل صرت مناقضابما هو يمحو كلّ يوم و أثبت

و قال: فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكم و أعفاه.

مولده: فى أواخر أربعة و سبعين و ستمائة.

وفاته: قال فى العائد: و مضى لسبيله، شهابا من شهب هذا الأفق، و بقيّة من بقايا حلبة السّبق، رحمه اللّه، فى ليلة السبت الثانى من شهر شعبان المكرم عام سبعة و أربعين و سبعمائة، و تخلّف و قرا لم يشتمل على شىء من الكتب، لإيثاره اقتناء النّقدين، و عيّن جراية لمن يتلو كتاب اللّه على قبره على حدّ من التّعزرة و المحافظة على الإتقان. و دفن بباب إلبيرة فى دار اتخذها لذلك.

محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسى

من أهل غرناطة، يكنى أبا القاسم.

حاله: مجموع خلال بارعة، و أوصاف كاملة، حسن الخطّ، ذاكر للتاريخ و الأخبار، مستول على خصال حميدة من حسن رواء و سلامة صدر، إلى نزاهة الهمّة، و إرسال السّجية، و البعد عن المصانعة، و التحلّى بالوقار و الحشمة، شاعر، كاتب.

و مناقبه يقصر عنها الكثير من أبناء جنسه، كالفروسيّة، و التجنّد، و البسالة، و الرّماية، و السّباحة، و الشطرنج، متحمّد بحمل القنا، مع البراعة، مديم على المروءة، مواس للمحاويج من معارفه. ارتسم فى الديوان فظهر غناؤه، و انتقل إلى الكتابة، معزّزة بالخطط النّبيهة العلمية، و حاله الموصوفة متّصلة إلى هذا العهد، و هو معدود من حسنات قطره.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۰

و ثبت فى «التاج المحلى» بما نصّه: «سابق ركض المحلّى، أتى من أدواته بالعجائب، و أصبح صدرا فى الكتّاب و شهما فى الكتائب. و كان أبوه، رحمه اللّه، بهذه البلدة، قطب أفلاكها، و واسطة أسلاكها، و مؤتمن رؤسائها و أملاكها، و صدر رجالها، و ولىّ أرباب مجالها، فقد نثل ابنه سهامها، فخبر عدالة و براعة و فهما، و ألقاه بينهم قاضيا شهما، فظهر منه نجيبا، و دعاه إلى الجهاد سميعا مجيبا، فصحب السّرايا الغريبة المغيرة، و حضر على هذا العهد من الوقائع الصغيرة و الكبيرة، و على مصاحبة البعوث، وجوب السّهول و الوعوث، فما رفض اليراعة للباتر ، و لا ترك الدّفاتر للزمان الفاتر.

شعره: و له أدب بارع المقاصد، قاعد للإجادة بالمراصد. و قال من الرّوضيات و ما فى معناها: [الطويل]

دعينى و مطلول الرّياض فإننىأنادم فى بطحائها الآس و الوردا

أعلّل هذا بخضرة شاربو أحكى بهذا فى تورّده الخدّا

و أزهر غضّ البان رائد نسمةذكرت به لين المعاطف و القدّا

و قال: [الطويل]

و ليل أدرناها سلافا كأنهاعلى كفّ ساقيها تضرّم نار

غنينا عن المصباح فى جنح ليلهابخدّ مدير لا بكأس عقار

و قال: [الرمل]

يومنا يوم سرور فلتقمتصدع الهمّ بكاسات المدام

إنما الدّنيا منام فلتكنمغرما فيها بأحلى المنام

و قال: [الطويل]

و بى منك ما لو كان للشرب ما صحاو بالهيم ما روّت صداها المناهل

أحبّك ما هبّت من الروض نسمةو ما اهتزّ غصن فى الحديقة مائل

فإن شئت أن تهجر و إن شئت فلتقبلفإنّى لما حمّلتنى اليوم حامل

و قال: [الكامل]

كم قلت للبدر المنير إذا بداهيهات وجه فلانة تحكى لنا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۱ فأجابنى بلسان حال و اعتنىلا الشمس تحكيها فأحكيها أنا

و صرفت وجهى نحو غصن أملدقد رام يشبه قدّها لمّا انثنى

فضحكت هزءا عند هزّ قوامهاإذا رام أن يحكى قواما كالقنا

و كتبت إليه فى غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

جوانحنا نحو اللقاء جوانحو مقدار ما بين الدّيار قريب

و تمضى الليالى و التزاور معوزعلى الرغم منّا إنّ ذا لغريب

فديتك عجّلها لعينى زيارةو لو مثل ما ردّ اللّحاظ مريب

و إنّ لقائى جلّ عن ضرب موعدلأكرم ما يهدى الأريب أريب

فراجعنى بقوله، و التجنّى شيمة: [الطويل]

لعمرك ما يومى إذا كنت حاضراسوى يوم صبّ من عداه يغيب

أزور فلا ألفى لديك بشاشةفيبعد منّى الخطو و هو قريب

فلا ذنب للأيام فى البعد بينافإنى لداعى القرب منك مجيب

و إنّ لقاء جاء من غير موعدليحسن لكن مرّة و يطيب

و إحسانه كثير، و فيما ثبت كفاية لئلّا نخرج عن غرض الاختصار.

محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسى

يكنى محمد أبا بكر، أخو الذى قبله.

حاله: تلوه فى الفضل و السّراوة، و حسن الصورة، و نصاعة الطّرف، مرب عليه بمزيد من البشاشة و التنزّل، و بذل التودّد، و التبريز فى ميدان الانقطاع، متأخر عنه فى بعض خلال غير هذا. ذكىّ الذهن، مليح الكتابة، سهلها، جيّد العبارة، متأتّى اليراع، مطلق اليد، حسن الخطّ، سريع بديهة المنثور، معمّ، مخول فى التخصّص و العدالة.

كتب الشّروط بين يدى أبيه، و نسخ كثيرا من أمّهات الفقه، و استظهر كتبا، من ذلك «المقامات الحريرية». و كتب بالدار السلطانية، و اختصّ بالمراجعة عمّن بها، و المفاتحة أيام حركات السلطان عنها إلى غيرها. حميد السيرة، حسن الوساطة، نجدىّ الجاه،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۲

مشكور التصرّف، خفيف الوطأة. و ولّى الخطابة العليّة، مع الاستمساك بالكتابة. و لم يؤثر عنه الشعر ، و لا عوّل عليه.

محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدّوسى

يكنى أبا بكر، و قد ذكرنا أباه و عمّه، و يأتى ذكر جدّه.

حاله: نبيل المقاصد فى الفن الأدبى، مشغول به، مفتوح من اللّه عليه فيه، شاعر مطبوع، مكثر، انقاد له مركب النظم، فى سنّ المراهقة، و اشتهر بالإجادة، و أنشد السلطان، و أخذ الصّلة، و ارتسم لهذا العهد فى الكتابة. و شرع فى تأليف يشتمل على أدباء عصره.

شعره: و مما خاطب به أحد أصحابه: [الطويل]

إذا شمت من نحو الحمى فى الدّجا برقاأبى الدّمع إلّا أن يسيل و لا يرقى

و مهما تذكّرت الزمان الذى مضىتقطّعت الأحشاء من حرّ ما ألقى

خليلىّ، لا تجزع لمحل فأدمعىتبادر سقيا فى الهوى لمن استسقى

و ما ضرّ من أصبحت ملك يمينهإذا رقّ لى يوما و قد حازنى رقّا

فنيت به عشقا و إن قال حاسدأضلّ الورى من مات فى هاجر شقّا

تلهّب قلبى من تلهّب خدّهفيا نعم ذاك الخدّ فاض بأن أشقى

و منها:

و كم من صديق كنت أحسب أنهإذا كذبت أوهامنا رفع الصّدقا

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسى

ابن عمّ المذكورين قبله، يكنى أبا القاسم.

حاله: حسن الصورة، لازم القراءة على شيوخ بلده، و نظم الشعر على الحداثة، و ترشح للكتب بالدار السلطانية مع الجماعة، ممن هو فى نظمه.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۳

و من شعره، كتب إلىّ بما نصّه: [الكامل]

احسب و حدّه يوم رأسك ربماتعطى السّلامة فى الصراع سلّما

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسى

أخو الفقيه أبى بكر بن القاسم بن محمد المذكور.

حاله: شاب حسن فاضل، دمث، متخلّق، جميل الصورة، حسن الشكل، أحمر الوجنتين. حفظ كتبا من المبادىء النحوية، و كتب خطّا حسنا، و ارتسم فى ديوان الجند مثل والده، و هو الآن بحاله الموصوفة.

شعره: قيّد أخوه لى من الشعر الذى زعم أنه من نظمه، قوله: [المتقارب]

حلفت بمن ذاد عنّى الكرىو أسهر جفنى ليلا طويلا

و ألبس جسمى ثياب النّحولو عذّب بالهجر قلبى العليلا

ما حلت عن ودّه ساعةو لا اعتضت منه سواه بديلا

محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن يحيى ابن عبد الرحمن بن يوسف بن جزىّ الكلبى

من أهل غرناطة و أعيانها، يكنى أبا عبد اللّه.

أوّليّته: تنظر فى اسم أبيه فى ترجمة المقرئين و العلماء.

حاله: من أعلام الشّهرة على الفتاوة، و انتشار الذكر على الحداثة، تبريزا فى الأدب، و اضطلاعا بمعاناة الشعر، و إتقان الخطّ، و إيضاحا للأحاجى و الملغزات. نشأ بغرناطة فى كنف والده، رحمه اللّه، مقصور التّدريب عليه، مشارا إليه فى ثقوب الذهن، وسعة الحفظ، ينطوى على نبل لاـ يظهر أثره على التفاتة، و إدراك، تغطّى شعلته مخيّلة غير صادقة، من تغافله. ثم جاش طبعه، و فهق حوضه، و تفجّرت ينابيعه، و توقّد إحسانه.

و لمّا فقد والده، رحمه اللّه، ارتسم فى الكتابة، فبذّ جلّة الشعراء، إكثارا و اقتدارا، و وفور مادة، مجيدا فى الأمداح، عجيبا فى الأوضاع، صدّيقا فى النّسيب، مطبوعا فى المقطوعات، معتدلا فى الكتابة، نشيط البنان، جلدا على العمل، سيّال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۴

المجاز، جموح عنان الدّعابة، غزلا، مؤثرا للفكاهة. انتقل إلى المغرب لشفوف خصله، على ما قد قسّم الحظوظ. سبحانه من رزقه بهذه البلاد، فاستقرّ بباب ملكه، مرعىّ الجناح، أثير الرتبة، مطلق الجراية، مقرّر السّهام، معتبا وطنه، راضيا عن جيرته، ديدن من يستند إلى قديم، و يتحيّز إلى أصالة.

تواليفه: أخبرنى عنـد لقائه إياى بمدينـة فاس فى غرض الرسالـة؛ عام خمسة و خمسـين و سـبعمائة، أنه شـرع فى تأليف تاريخ غرناطة، ذاهبا هذا المذهب الذى انتدبت إليه، و وقفت على أجزاء منه تشـهد باضطلاعه، و قيّد بخطّه من الأجزاء الحديثة و الفوائد و الأشعار ما يفوت الوصف، و يفوق الحدّ. و جرى ذكره فى «التاج» بما نصه :

«شـمس فى سـماء البلاغـة بازغة، و حجّة على بقاء الفطرة الغريزية فى هذه البلاد المغربية بالغة، و فريدة وقت أصاب من فيها نادرة أو نابغـة، من جذع بن على القادح، و جرى من المعرفة كل بارح، لو تعلّقت الغوامض بالثريّا لنالها، و قال أنا لها. و ربما غلبت الغفلة على ظاهره، و تنطبق أكمامها على أزاهره، حتى إذا قـدح فى الأدب زنـده، تقـدّم المواكب بنده، إلى خطّ بارع، يعنو طوال الطويل منه إلى سرّ و براعة، كما ترضى المسك و الكافور عن طرس و حبر.

شعره: فمن غرامياته و ما فى معناها قوله : [الطويل]

متى يتلاقى شائق و مشوقو يصبح عانى الحبّ و هو طليق

أما أنها أمنيّة عزّ نيلهاو مرمى لعمرى فى الرّجاء سحيق

و لكننى خدعت قلبى تعلّةأخاف انصداع القلب فهو رقيق

و قد يرزق الإنسان من بعد يأسهو روض الرّبى بعد الذبول يروق

تباعدت لما زادنى القرب لوعةلعلّ فؤادى من جواه يفيق

و رمت شفاء الداء بالداء مثلهو إنى بألّا أشتفى لحقيق

و تاللّه ما للصّبّ فى الحبّ راحةعلى كلّ حال إنه لمشوق

و يا ربّ قد ضاقت علىّ مسالكى فها أنا فى بحر الغرام غريق

و لا سلوة ترجى و لا صبر ممكنو ليس إلى وصل الحبيب طريق

و لا الحبّ عن تعذيب قلبى ينثنىو لا القلب للتّعذيب منه يطيق

شجون يضيق الصّدر عن زفراتهاو شوق نطاق الصبر عنه يضيق

نثرت عقود الدّمع ثم نظمتهاقريضا فذا درّ و ذاك عقيق

بكيت أسى حتى بكى حاسدى معىكأنّ عذولى عاد و هو صديق

و لو أنّ عند الناس بعض محبّتىلما كان يلفى فى الأنام مفيق

أيا عين كفّى الدمع ما بقى الكرىإذا منعوك النّوم سوف تذوق

و يا نائما عن ناظرىّ أما ترى لشمسك من بعد الغروب شروق؟

رويدك رفقا بالفؤاد فإنهعليك و إن عاديته لشفيق

نقضت عهودى ظالما بعد عقدهاألا إنّ عهدى كيف كنت وثيق

كتمتك حبّى يعلم اللّه مدّةو بين ضلوعى من هواك حريق

فما زلت بى حتى فضحت فإن أكنصبرت فبعد اليوم لست أطيق

و قال : [الكامل]

و مورّد الوجنات معسول اللّمىفتّاك لحظ العين فى عشّاقه

الخمر بين لثاته و الزّهر فىو جناته و السّحر فى أحداقه

ميّاد غصن البان فى أثوابهو يلوح بدر التّمّ فى أطواقه

من للهلال بثغره أو خدّه هب أنه يحكيه فى إشراقه

و لقد تشبّهت الظّباء بشبهةمن خلقه و عجزن عن أخلاقه

نادمته و سنا محيّا الشمس قدألقى على الآفاق فضل رواقه

فى روضة ضحكت ثغور أقاحهاو أسال فيها المزن من آماقه

أسقيه كأس سلافة كالمسك فىنفحاته و الشهد عند مذاقه

صفراء لم يدر الفتى أكواسهاإلّا تداعى همّه لفراقه

و لقد تلين الصّخر من سطواتهفيعود للمعهود من إشفاقه

و أظلّ أرشف من سلافة ثغرهخمرا تداوى القلب من إحراقه

و لربما عطفته عندى نشوةتشفى الخبال بضمّه و عناقه

أرجو نداه إذا تبسّم ضاحكاو أخاف منه العتب فى إطراقه

أشكو القساوة من هواى و قلبهو الضّعف من جلدى و من ميثاقه

يا هل لعهد قد مضى من عودةأم لا سبيل بحالة للحاقه

يا ليت لو كانت لذلك حيلةأو كان يعطى المرء باستحقاقه

فلقد يروق الغصن بعد ذبولهو يتمّ بدر التّمّ بعد محاقه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۷

و مما اشتهر عنه فى هذا الغرض : [الكامل]

ذهبت حشاشة قلبى المصدوع بين السّلام و وقفة التوديع

ما أنصف الأحباب يوم وداعهمصبّا يحدّث نفسه برجوع

أنجد بغيثك يا غمام فإننىلم أرض يوم البين فعل دموع

من كان يبكى الظاغنين بأدمعفأنا الذى أبكيهم بنجيع

إيه و بين الصّدر منى و الحشاشجن طويت على شجاه ضلوعى

هات الحديث عن الذين تحمّلواو اقدح بزند الذّكر نار ولوعى

عندى شجون فى التى جنت النّوى أشكو الغداة و هنّ فى توديع

من وصلى الموقوف أو من سهدى الموصول أو من نومى المقطوع

ليت الذى بينى و بين صبابتىبعد الذى بينى و بين هجوعى

يا قلب لا تجزع لما فعل النّوى فالحرّ ليس لحادث بجزوع

أفبعد ما غودرت فى أشراكهتبغى النّزوع؟ و لات حين نزوع

و مهفهف مهما هبت ريح الصّبأبدت له عطفاه عطف مطيع

جمع المحاسن و هو منفرد بهافاعجب لحسن مفرد مجموع

و الشمس لو لا إذنه ما آذنتخجلا و إجلالا له بطلوع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۸ ما زلت أسقى خدّه من أدمعىحتى تفتّح عن رياض ربيع

إن كان يرنو عن نواظر شادنفلربّ ضرغام بهنّ صريع

عجبا لذاك الشعر زاد بفرقهحسنا كحسن الشّعر بالتّصريع

منع الكرى ظلما و قد منع الضّنافشقيت بالممنوح و الممنوع

جرّدت ثوب العزّ عنى طائعاأ تراه يعطفه علىّ خضوعى؟

لم أنتفع لبسا من الملبوس فىحبّى و لا بعذارى المخلوع

بجماله استشفعت فى إجمالهليحوز أجر منعّم و شفيع

يا خادعى عن سلوتى و تصبّرى لو لا الهوى ما كنت بالمخدوع

أوسعتنى بعد الوصال تفرّقاو أثبتنى سوءا لحسن صنيعى

أسرعت فيما ترتضى فجزيتنى بطويل هجران إلىّ سريع

أشرعت رمحا من قوامك ذابلا فمنعت من ماء الرّضاب شروعى

خذ من حديث تولّعى و تولّهىخبرا صحيحا ليس بالمصنوع

يرويه خدّى مسندا عن أدمعىعن مقلتى عن قلبى المصدوع

كم من ليال فى هواك قطعتهاو أنا لذكراهنّ فى تقطيع

لا و الذى طبع الكرام على الهوىو يعزّ سلوان الهوى المطبوع

ما غيّرتنى الحادثات و لم أكنبمذيع سرّ للعهود مضيع

لا خير فى الدنيا و ساكنها معاإن كان قلبى منك غير جميع

و قال فى غير ذلك فى غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

و قالوا عداك البخت و الحزم عندماغدوت غريب الدّار منزلك الفنت

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۶۹ أ لم يعلموا أنّ اغترابى حرامةو أن ارتحالى عن دارهم هو البخت؟

نعم لست أرضى عن زمانى أو أرىتهادى السفن المواخر و البخت

لقد سئمت نفسى المقام ببلدةبها العيشة النّكراء و المكسب السّحت

يذلّ بها الحرّ الشريف لعبدهو يجفوه بين السّمت من سنة ستّ

إذا اصطافها المرء اشتكى من سمومهاأذى و يرى فيه أدّا يبتّ

و لست كقوم فى تعصبّهم عتوايقولون بغداد لغرناطة أخت

رغبت بنفسى أن أساكن معشرامقالهم زور و ودّهم مقت

يدسّون فى لين الكلام دواهياهى السّمّ بالآل المشود لها لتّ

فلا درّ درّ القوم إلّا عصيبةإلىّ بإخلاص المودّة قد متّوا

و آثرت أقواما حمدت جوارهممقالهم صدق و ودّهم بحت

لهم عن عيان الفاحشات إذا بدتتعام و عن ما ليس يعينهم صمت

فما ألفوا لهوا و لا عرفوا خنىو لا علموا أنّ الكروم لها بنت

به كل مرتاح إلى الضّيف و الوغىإذا ما أتاه منهما النبأ البغت

و أشعث ذى طمرين أغناه زهدهفلم يتشوّف للذى ضمّه التّخت

صبور على الإيذاء بغيض على العدامعين على ما يتّقى جأشه الشّتّ

ولى صاحب مثلى يمان جعلتهجليسى نهارا أو ضجيعى إذا بتّ

و أجرد جرّار الأعنّة فارح كميت و خير الخيل قدّاحها الكمت

تسامت به الأعراق فى آل أعوجو لا عوج فى الخلق منه و لا أمت

و حسبى لعضّات النوائب منجداعليها الكميت الهند و الصّارم الصّلت

قطعت زمانى خبرة و بلوتهفبالغدر و التّخفيف عندى له نعت

و مارست أبناء الزمان مباحثافأصبح حبلى منهم و هو منبتّ

و ذى صلف يمشى الهوينا ترفّقاعلى نفسه كيلا يزايلها السّمت

إذا غبت فهو المروة القوم عندهمله الصّدر من ناديهم و له الدّست

و إن ضمّنى يوما و إياه مشهدهو المعجم السّكيت و العمّة الشّخت

فحسبى عداتى أن طويت مآربىعلى عزمهم حتى صفا لهم الوقت

و قلت لدنياهم إذا شئت فاغربىو كنت متى أعزم فقلبى هو البتّ

و أغضيت عن زلّاتهم غير عاجزفماذا الذى يبغونه لهم الكبت؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۰

و قال : [الكامل] الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص ۱۷۰

لا تعد ضيفك إن ذهبت لصاحب‌تعتدّه لكن تخيّر و انتق

أو ما ترى الأشجار مهما ركّبت‌إن خولفت أصنافها لم تغلق

و منه فى المقطوعات: [السريع]

و شادن تيّمنى حبّه‌حظّى منه الدّهر هجرانه

مورّد الخدين حلو اللّمى‌أحمر مضنى الطّرف و سنانه

لم تنطو الأغصان فى الروض بل‌ضلّت له تسجد أغصانه

يا أيها الظّبى الذى قلبه‌تضرّم فى القلب نيرانه

هل عطفة ترجى لصبّ شبح‌ليس يرجى عنك سلوانه؟

يودّ أن لو زرته فى الكرى‌لو متّعت بالنوم أجفانه

قد رام أن يكتب ما نابه‌و الحبّ لا يمكن كتمانه

فأفضيت أسراره و استوى‌إسراره الآن و إعلانه

و قال : [مخلع البسيط]

نهار وجه و ليل شعربينهما الشّوق يستثار

قد طلبا بالهوى فؤادى‌فأين لى عنهما الفرار؟

و كيف يبغى النجاة شىء‌يطلبه الليل و النهار؟

و قال فى الدّوبيت:

زارت ليلا و أطلعت فجرهاصبحا فجمعت بين صبح و ظلام

لما بصرت بالشمس قالت يا فتى‌جمع الإنسان بين الأختين حرام

و قال فى غرض التّورية : [الطويل]

أبح لى يا روض المحاسن نظرةإلى ورد ذاك الخدّ أروى به الصّدى

و بالله لا تبخل علىّ بعطفة فإنى رأيت الرّوض يوصف بالنّدى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۱

و قال : [السريع]

و عاشق صلّى و محرابهوجه غزال ظلّ يهواه

قالوا تعبّدت ؟ فقلت نعمتعبّدا يفهم معناه

و قال و هو مليح جدّا : [الخفيف]

و صديق شكا بما حمّلوهمن قضاء يقضى بطول العناء

قلت فاردد ما حمّلوك عليهمقال من يستطيع ردّ القضاء؟

و قال : [المتقارب]

لسانان هاجا من خاصماهلسان الفتى و لسان القضا

إذا لم تحز واحدا منهمافلست أرى لك أن تنطقا

و قال : [الكامل]

تلك الذّؤابة ذبت من شوقى لهاو اللّحظ يحميها بأىّ سلاح

يا قلب فانجح لا إخالك ناجيامن فتنة الجعدىّ و السفّاح

و إحسانه كثير. و يدل بعض الشيء على كلّه، و يحجر طلّ الغيث على وبله.

وفاته: اتصل بنا خبر وفاته بفاس مبطونا فى أوائل ثمانية و خمسين و سبعمائة.

ثم تحقّقت أن ذلك فى آخر شوال من العام قبله .

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۲

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ابن يحيى بن محمد بن الحكيم اللخمى

يكنى أبا القاسم.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: فرع دوحة الأصالة و الخصوصيّة، و العلم و الدين، و المكانة و الجلالة، مجلى بيته، و مجدّد مآثره برّا، و مجاملة، و خيريّة. نشأ بأطراف جملته من الفنون؛ من حساب و فريضة و أدب و قراءة و وثيقة، إلى خطّ حسن، و أدب تكفّله، حتى انقاد له أو كاد. أعبط فى وقيعة الطاعون قاضيا ببعض الجهات، و كاتبا للدار السلطانية، فكانت فيه الفجيعة عظيمة.

و جرى ذكره فى «التاج المحلّى» بما نصّه : «من فروع مجد و جلالة، ورث الفضل لا عن كلالة. أشرف، مجيد، معظّم، مخوّل فى العشيرة، وصل لباب المجد بفرائد الخلال الأثيرة، و أصبح طرفا فى الخير و العفاف، و اتّصف من العدالة بأحسن اتّصاف، و سلك من سنن سلفه، أثر هاد لا يزال يرشده و يدلّه، و يسدّده فيما يعقده أو يحلّه، و اتّسم بميسم الحياء، و الحياء خير كله، إلى نزاهة لا ترضى بالدّون، و نجابة تتهالك فى صون الفنون، و طمح فى هذا العهد إلى نمط فى البلاغة رفيع، و جنح إلى مساجلة ما يستحسنه من مخترع و بديع، و صدرت منه طرف تستملح، و تستحلى إذا استحلى. و نحن نورد ما أمكن من آياته، و نجلى بعض غرره و شيّاته.

شعره: و من مقطوعات آياته: [الطويل]

وهبّت فهزّت عندما أن رأت بهالطّلا مثل الطفل يرضع فى المهد

و روض حباه المزن خلعة برقهو باتت رباه من حباه على وعد

يحدّثنا عن كرمها ماء مزنهافتبدى ابتسام الزّهر فى لثمة الخدّ

عجبنا لما رأينا من برّها بدور حباب الكأس تلعب بالنّرد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۳

و قال: [الطويل]

شربنا و زنجيّ الدّياجى موقدمصابيح من زهر النجوم الطّوالع

عقارا رأته حين أقبل حالكافجاءت بمصفرّ من اللون فاقع

عجبت لها ترتاع منه و إنهالفى الفرقد قرّت لدم المدامع

و قال: [الخفيف]

لاح فى الدّرّ و العقيق فحيّاأم مزاج أدّاه صرف المحيّا؟

من بنات الكروم و الرّوم بكراأقبلت ترتدى حياء يهيّا

خلتها و الحباب يطفو عليهاشفقا فوقه نجوم الثّريّا

قهوة كالعروس فى الكأس تجلىصاغ من لؤلئتها المزج حليا

و قال: [البسيط]

و يوم أنس صقيل الجوّ ذى نظركأنه من و ميض البرق قد خلقا

ما زلت فيه لشمس الطّست مصطحباو بالنجوم و بالأكواس مغتبقا

صفراء كالعسجد المسبوك إن شربتتبدى احمرارا على الخدّين مؤتلقا

كذلك الشمس فى أخرى عشيّتهاإذا توارت أثارت بعدها شفقا

و قال : [الطويل]

بنفسى حبيب صال عامل قدّهعليّ و لمّا ينعطف و هو كالغصن

و يا عجبا منه متى صار ذابلاو نضرته لم تنأ عن خوطه اللّدن

و أعجب من ذا أن سيف لحاظهيمزّق أفلاذ الحشا و هو فى الجفن

و قال : [الكامل]

بأبى و غير أبى غزال نافربين الجوانح يغتدى و يروح

قمر تلألأ و استنار جبينه غارت به بين الكواكب يوح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۴ لم يرض غير القلب منزلة فهليا ليت شعرى بالذّراع يلوح

و مما نسب لنفسه و أنشدنيه: [الكامل]

ليل الشّباب انجاب أول وهلةعن صبح شيب لست عنه براض

إن سرّنى يوما سواد خضابهفنصوله عن ساقى ببياض

هلّا اختفى فهو الذى سرق الصّباو القطع فى السّرقات أمر ماض

فعليه ما اسطاع الظهور بلمّتىو علىّ أن ألقاه بالمقراض

وفاته: توفى، رحمه اللّه، بغرناطة فى السابع عشر شهر ربيع الآخر عام خمسين و سبعمائة، فى وقيعة الطاعون، و دفن بباب إلبيرة رحمة اللّه عليه.

محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن على ابن محمد اللّوشى اليحصبى

يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف باللوشى.

أوّليّته: من لوشة، و قرأ العلم بها، و تعرّف بالسلطان الغالب بالله محمد قبل تصيّر الملك له، و تقدم عنده. تضمّن ذكره الكتاب

المسمّى ب «طرفة العصر فى أخبار بنى نصر»، و تقرر ذلك فى حرف الحاء فى اسم أبى عمر اللوشى، كاتب الدولة النّصرية، رحمه اللّه.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: كان، رحمه اللّه، من أهل الحسب و الأصالة، شاعرا، مدّاحا. نشأ مدلّلا فى حجور الدولة النصرية، خفيفا على أبوابها، مفضّلا على مدّاحها. ثم تجنّى بآخرة، و لزم طورا من الخمول فى غير تشكّ، أعرض به عن أرباب الدّنيا، و أعرض عنه، و اقتصر على تبلّغ من علالة مؤمّل كان له خارج غرناطة، غير مساد من ثلمه، و لا مصلح فى خلله، أخذ نفسه بالتّقشّف، و سوء المسكن، و التهاون بالملبس، حملا عليها فى غير أبواب الرياضة، مجانبا أرباب الخطط، وفيّا لمن لحقته من السلطان موجدة، تختلف معاملته لمن يعرفه فى اليوم مرّات، من إعراض عنه، و قبول عليه، و لصوق به، كل ذلك عن سلامة، و تهيّب نفس. مليح الدّعابة، ذاكرا لفنون من الأناشيد، حسن الجدّ، متجافيا عن الأعراض.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۵

و جرى ذكره فى «التاج» بما نصّه : شاعر مفلق، و شهاب فى أفق البلاغة متألّق، طبّق مفاصل الكلام بحسام لسانه، و قلّد نحور الكلام ما يزرى بجواهر الملوك من إحسانه. و نشأ فى حجور الدولة النصرية مدللا بمتاته، متقلبا فى العزّ فى أفانينه و أشتاته، إذ لسلفه الذّمام الذى صفت منه الحياض و الحمام، و الوداد الذى قصرت عنه الأنداد، و السابقة التى أزرى بخبرها العيان، و شهدت بها أرجونة و جيّان، محيّز ثمرة الطيب. و له همّة عالية، بعيدة المرمى، كريمة المنتمى، حملته بآخرة على الانقباض و الازدراء و الزهد فى الازدياد و الاستكثار، و الاقتصاد و الاقتصار، فعطف على انتجاع غلّته، و التزام محلّته، و مباشرة فلاحة صان بها وجهه؛ و وفّاه الدهر حقّه و نجمه، و احتجبت عقائل بيانه لهذا العهد و تقنّعت، و راودتها النّفس فتمنّعت، و له فكاهة و أنس الزمان مناجاة القينات، عند البيات، و أعذب من معاطاة الرّاح فى الأقداح».

شعره: قال: و له أدب بلغ فى الإجادة الغاية، و رفع للجبين من السّنن الرّاية. و من مقطوعاته يودع شيخنا الفقيه القاضى أبا البركات بن الحجاج:

[الطويل]

رأونى و قد أغرقت فى عبراتىو أحرقت فى نارى لدى زفراتى

فقالوا سلوه تعلموا كنه حالهفقلت سلوا عنى أبا البركات

فمن قال إنى بالرّحيل محدّثروت عنه أجفانى غريب ثبات

و نادى فؤادى ركبه فأجابهترحّل و كن فى القوم بعض عدات

و من مقطوعاته البديعة من قصيدة مجازيّة: [الطويل]

سيخطب قسّ العزم فى منبر السّرىو هل فى الدّنا يوم المسير أطيق؟

و أقطع زند الهجر و القطع حقّهفما زال طيب العمر عنّى يريق

مولده: فى حدود ثمانية و سبعين و ستمائة.

وفاته: فى الموفّى عشرين من شهر ربيع الثانى من عام اثنين و خمسين و سبعمائة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۶

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى ابن الحكيم اللخمى

يكنى أبا بكر.

أوّليّته: مرّت فى اسم ذى الوزارتين.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: «كان صدر أبناء أصحاب النّعم، و بقيّة أعلام البيوت، ترف نشأة، و عزّ تربية، و كرم نفس، و طيب مجالسة، و إمتاع محاضرة، و صحة وفاء، و شياع مشاركة فى جملة فاضلة، محدّثا تاريخيا، كاتبا بليغا، حسن الخطّ، مليح الدّعابة، ظريف التوقيع، متقدم الحيلة فى باب التحسين و التنقيح، يقرض الشعر، و يفكّ المعمّى، و يقوم على جمل الكتاب العزيز، حفظا و تجويدا، و إتقانا، و يسرد نتف التاريخ، و عيون الأخبار، إلى حسن الخلق، و كمال الأبّهة، و حلاوة البساطة، و احتمال المنابشة، و المثابرة على حفظ المودة، و الاستقالة من الهفوة، و التمسّك بالاستعتاب و المعذرة. كتب بالدار السلطانية أكثر عمره، و تصدّر بعد فى قيادة المواضع النّبيهة، محاربا ذا قدرة فى ذلك، و مع ذلك فشائع المعروف، ذائع المشاركة. قيّد الكثير، و دوّن و صنّف، و حمل عن الجلّة ممن يشقّ إحصاؤهم، و كان غرّة من غرر هذا القطر، و موكبا من مواكب هذا الأفق، لم يتخلف بعده مثله.

و جرى ذكره فى «التاج المحلّى» بما نصّه : «ماجد أقام رسم المجد بعد عفائه، فوفّى الفضل حقّ وفائه. بيته فى رندة أشهر فى الأصالة من بيت امرئ القيس، و أرسى فى بحبوحة الفخر من قواعد الرّضوى و أبى قيس. استولى على الجود البديع البعيد المدى، و حجّت إليه من كل فج طلّاب النّدى، و عشت إلى ضوء ناره فوجدت على النار التّقى و الهدى. ولّى الوزارة النّصرية التى اعتصر منها طريفا بتالد، فأحيت مآثرها الخالدة مآثر يحيى بن خالد . و لمّا أدار عليها الدهر كأس النّوائب، و خلص إليها سهمه الصّائب، بين صحائف الكتب و صفائح الكتائب، تطلّعت من خلالها الرائقة لباب الوجود، و بكتها بسيل أجفانها عين الباس و الجود، و طلع على

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۷

أعقاب هذه الفضائل محلّى من صفحاتها، و أعاد لو ساعده الدهر من لمحاتها، و ارتقى من الكتابة إلى المحلّ النّبيه، و استحقّها من بعض ميراث أبيه، و بنى و شيّد، و دوّن فيها و قيّد، و شهر فى كتب الحديث و روايته، و جنى ثمرة رحلة أبيه، و هو فى حجر ذؤابته ، و أنشأ الفهارس، و أحيا الأثر الدّارس، و ألّف كتابه المسمى ب «الموارد المستعذبة و المقاصد المنتخبة» فسرح الطّرف، و روضه طيّب الجنى و العرف. و له شعر أنيق الحلية، حاز فى نمط العلية. و بينى و بين هذا الفاضل وداد صافى الحياض، و فكاهة كقطع الرّياض، و دعابة سحبت الدّالة أذيالها، و أدارت الثّقة و المقة جريالها.

و سيمرّ فى هذا الديوان كل رائق المحيّا، عاطر الريّا.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبى جعفر الحريرى، و الأستاذ أبى الحسن القيجاطى، و الأستاذ إسحاق بن أبى العاصى. و أخذ عن الطّم و الرّمّ، من مشايخ المشرق و المغرب، فمنهم الولى الصالح فضل بن فضيلة المعافرى، إلى العدد الكثير من أهل الأندلس، كالخطباء الصلحاء أبى عبد اللّه الطّنجالى، و أبى جعفر الزيّات، و أبى عبد اللّه بن الكمّاد، و غيرهم من الزّنديين و المالقيين و الغرناطيين، حسبما تضمنه برنامجه.

تواليفه: ألّف الكتاب المسمى، «الفوائد المنتخبة و الموارد المستعذبة». و كمّل التاريخ المسمى ب «بميزان العمل» لابن رشيق. و دوّن كتابا فى عبارة الرؤيا سمّاه «بشارة القلوب بما تخبره الرؤيا من الغيوب» و «الأخبار المذهّبة» و «الإشارة الصّوفية، و النّكت الأدبية». و الهودج فى الكتب. و الإشارة فى ألف إنشاده.

شعره و كتابته: قال فى التاريخ ما نصّه: «و تهادته إلى هذا العهد رتب السّيادة، و استعمل فى نبيهات القيادة؛ فوجّه إلى معقل قرطمة من كورة ريّه و هو واليه، و بطاحه فى مجرى جياده و صحر عواليه. و قد حللت مالقة صحبة الرّكب السلطانى فى بعض التّوجّهات، إلى تلك الجهات، فى بعض ما أتحف من مقعده، المتصل المستمر، بهديّة مشتملة على ضروب من البرّ فخاطبته مقيما لسوق الانبساط، و غير حائد على الوداد و الاغتباط، على ما عوّل عليه من حمل الإفراط، و الانتظام فى هذا المعنى و الانخراط: [الطويل]

ألام على أخذ القليل و إنماأعامل أقواما أقلّ من الذّرّ

فإن أنا لم آخذه منهم فقدتهو لا بدّ من شىء يعين على الدّهر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۸

سيدى، أطلق اللّه يدك بما تملك، و فتر عن منحك البخل لئلّا تهلك. كنت قد هوّمت، و حذّرنى القلق فتلوّمت. و لومى كما علمت سيء الخصال، عزيز الوصال. يمطل دينى، و يعاف طيره ورد عينى. فإذا الباب يدقّ بحجر، فأنبأنى عن ضجر، و جار الجنب يؤخذ بالذّنب، فقمت مبادرا و جزعت، و إن كان الجزع منى نادرا. و استفهمت من وراء الغلق، عن سبب هذا القلق. فقالت امرأة من سكان البوادى: رابطة الفؤاد يا قوم، رسول خير، و ناعق طير، و قرع إذلال، لا- فرع إدلال. حطّوا شعار الحرب و الحرب، فقد ظفرتم ببلوغ الأرب، فتأخرت عن الإقدام، و أنهدت إليه، فحنّ عمر بن أبى ربيعة عمن كان بالدّار من الخدّام، فأسفرت الوقيعة عن سلام و سلم، و لم يزن أحد منا بكلم. و نظرت إلى رجل قرطبى الطّلعة و الأخلاق، خاو على الإطلاق، تنهّد قبل أن يسلّم، و ارتمض لما ذهب من الشّبيهة و تألّم. شنشنة معروفة، و عين تلك الجهات معاذ اللّه مصروفة.

و قد حمّلته سيادتكم من المبرّة ضروبا شتّى، و تجاوزت فى المسرّات غاية حتى.

و لم تضع عضوا من جسده، فضلا عن منكبه ويده، إلّا علّقته و عاء ثقيلا، و ناطت به زنبيلا. و استلقى كالمنىّ إذا ترك المعترك، و علت حوله تلك الأثقال، و تعاورها الانتقال، و كثر بالزّقاق القيل و القال. فلمّا تخلّصت إلى الدار، و سترت معرفتها بالجدار، و تناولها الاختبار الفاضح، و بان قصورها الواضح، فتلاشت، بعد ما جاشت، و نظرت إلى قعب من اللّبن الممزوق، الذى لا يستعمل فى البيوت و لا يباع فى السّوق، فأذكرتنى قول الشاعر: [البسيط]

تلك المكارم لا قعبان من لبن‌شيبت بماء فعادت بعد أبوالا

أما زبده فرفع، و أما جبنه فاقتيت به و انتفع، و أما من بعثه من فضلاء الخدّام فدفع، و كأنى به قد ألحّ و صفع، و التفت إلى قفّة قد خيطت، و بعنق ذاك البائس قد نيطت، رمس فيها أفراخ الحمائم، و قلّدت بجيده كما يتقلد بالتمائم، و شدّ حبلها بمخنقه، و ألزم منها فى العاجل طائره فى عنقه، هذا بعد ما ذبحت، و أما حشوها فربحت. و لو سلكتم الطريقة المثلى، لحفظتم جثّتها من العفن كما تحفظ جثة القتلى، و أظنكم لم تغفلوا هذا الغرض الأدنى، و لا أهملتم هذه الهمم التى غريزة فى المبنى. فإنى رميت منها اللّهو رمى المختبر، فكلح من مرارة الصبر، و لما أخرجتها من كفن القفّة، و استدعيت لمواراتها أهل الصّفة، تمثّلت تمثّل اللبيب،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۷۹

بقول أبى تمام حبيب : [الكامل]

هنّ الحمام فإن كسرت عيافة من حائهنّ فإنهنّ حمام

و لو أن إحدى الدّجاجتين لاحت عليها مخيّلة سرّ، لكانت من بقايا مواطنى ديوك بنى مرّ، و بعث بها حلالك حلاله، و أهدى منها اجتهاد من أحسن. و لم يكن بالهديّة ما يذكر، و لا- كانت مما ينكر، أستغفر اللّه، فلو لم تكن التّحفة، إلّا تلك الفكاهة العاطرة و الغمامة الماطرة، التى أحسبها الأمل الأقصى، و تجاوزت إلّا من التى لا تعدّ و لا تحصى، للزم الشكر و وجب، و برز من حرّ المدح ما تيسّر و احتجب.

فالمكارم و إن تغيّرت أنسابها، و جهل انتسابها، و ادّعى إرثها و اكتسابها، إليكم تنشر يدها، و تسعى لأقدامها، و لبيتكم تميل بهواديها، و بساحتكم يسيل واديها، و على أرضكم تسحّ غواديها. و مثلى أعزكم اللّه، لا يغضى من قدر تحفكم الحافلة، و لا يقدر من شكرها على فريضة و لا نافلة، و لكنها دعابة معتادة، و فكاهة أصدرتها ودادة. و لا شكّ أنكم بما جبلتم عليه قديما و حديثا، تغتفرون جفائى، الذى سيّرتموه سمرا و حديثا فى جنب وفائى، و تغضون و تتحملون، و بقول الشاعر تتمثّلون، و أسمع من الألفاظ اللغوية التى يسرّ بها سمعى، و إن ضمنت شتمى و وصفى: [الطويل]

بعثت بشيء كالجفاء و إنمابعثت بعذرى كالمدلّ إلى غدر

و قلت لنفسى لا تردعى فإنه‌كما قيل شيء قد يعين على الدهر

و ما كان قدر الودّ و المجد مثلهفخذه على قدر الحوادث أو قدرى

و إن كنت لم أحسن صنيعى فإنّنى‌سأحسن فى حسن القبول له شكرى

و قدرك قدر النيل عندى و إننى‌لدى قدرك العالى أدقّ من الذّرّ

قنعت و حظّى من زمانى و ودّكم‌هباء و مثلى ليس يقنع بالنّزر

أتانى كتاب منك باه مباركلقيت به الآمال باهتة الثّغر

جلا من بنات الفكر بكرا و زفّهاإلى ناظرى تختال فى حبر الحبر

فألفاظها كالزّهر و الزهر يانعو قدر المعانى فى الأصالة كالزهر

نجوم معان فى سماء صحيفةو لكنها تسرى النجوم و لا تسرى

تضمّن من نوع الدعابة ما به‌رجوت الذى قد قيل فى نشوة الخمر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۰ رعى اللّه مسراها الكريم فجلّ ماجلته من البشرى و أبدت من البشر

لعمرى لقد أذكرتنى دولة الصّباو أهديت لى نوع الجلال من السّحر

و لما أتت تلك الفكاهة غدوةوجدت نشاطا سائر اليوم فى بشرى

و لا سيما إن كان ملحم بردهاعميد أولى الألباب نادرة العصر

نشرت بها ما قد طويت بساطه‌زمانا وبى طىّ الأمور مع النشر

و نعم خليل الخير أنت محافظاعلى سنن الإخلاص فى السّرّ و الجهر

و دونكها تلهو بها و تديرهاسحيريّة الأنفاس طيّبة النّشر

فراجعنى بقوله:

و قد منّ سيدى الجواب، محتويا على العجب العجاب، فيالك من فكاهة كوثرية المناهل، عنبرية المسائل، و لو لم يكن إلّا وصف القرطبى المستوى الطّلعة، الشّرطى الصّنعة. و أما وصف اللبن و فراخ الحمام، فقد بسطتم فى المزاح القول. و امتنعتم فى الكلام الفصل. و ذلك شىء يعجز عن مساجلتكم فيه أرباب البلاغة و البيان، فكيف بمثلى ممن له القول المهلهل النّسيج الواهى البيان. و لا بدّ من عرض ذلك على سيدى القطب الكبير الإمام، و أستاذنا علم الأعلام، و كبير أئمة الإسلام، فيحكم بيننا بحكم الفصل، و ينصف بما لديه من الحق و العدل. و قد كنت أحيد عن مراجعتكم حيدة الجبان، و أميل عن ذلك ميلة الكودن عن مجاراة السّمر الهجان، و أعدل عن مساجلة أدبكم الهتّان، عدول الأعزل عن مبارزة جيّد السّنان. إلى أن وثقت بالصفح، و عوّلت على ما لديكم من الإغضاء و السّمح، و وجّهت حاملة السرّ و الظروف، كى تتصل الهدايا و لا ينقطع المعروف. و أستقيل من انبساط يجرّ عذرا، و أسأله سبحانه و تعالى حمدا يوجب المزيد من إنعامه و شكرا. دام سيدى و آماله مساعدة، و الكلمة على فضله واحد.

و من شعره فى النّسك و اللّجإ إلى اللّه تعالى :

أيا من له الحكم فى خلقهو يا من بكربى له أشتكى

تولّ أمورى و لا تسلمنىو إن أنت أسلمتنى أهلك

تعاليت من مفضل منعمو نزّهت من طالب مدرك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۱

و من ذلك و نقلته من خطّه : [الطويل]

تصبّر إذا ما أدركتك ملمّةفصنع إله العالمين عجيب

و ما يدرك الإنسان عار بنكبةينكّب فيها صاحب و حبيب

ففى من مضى للمرء ذى العقل أسوة و عيش كرام الناس ليس يطيب

و يوشك أن تهمى سحائب نعمةفيخصب ربع للسّرور جديب

إلهك يا هذا مجيب لمن دعاو كلّ الذى عند القريب قريب

مولده: عام خمسة و ستين و ستمائة.

وفاته: من «عائد الصلة»، قال: و ختم اللّه عمره بخير العمل من الإنابة و التهدّج، و التزام الورد، و إن كان مستصحب الخيرية. و حلّ ببلد ولايتهم رندة، فكانت بها تربته فى الثالث و العشرين لربيع الآخر عام خمسين و سبعمائة.

محمد بن محمد بن على بن العابد الأنصارى

ولد المذكور بعد، الكاتب بالدار السلطانية.

حاله: من كتاب طرفة العصر و غيره، قال: كان كاتبا مشهورا، بليغا، ذا معرفة، بارع الخطّ، أوحد زمانه فى ذلك، و قورا، معذب اللفظ، منحطا فى هوى نفسه، محارفا بحرفة الأدب على جلالة قدره. و كتابته نقيّة، جانحة إلى الاختصار.

شعره: وثيق، تقلّ فيه أرواح المعانى كشعر أبيه، و توشيحه فائق. تولّى كتابة الإنشاء لثانى الملوك النصريين ، و استمرّ قيامه بها على حجر شديد من السلطان و محمل؛ لملازمته المعاقرة و انهماكه فى البطالة، و استعمال الخمر، حتى زعموا أنه قاء يوما بين يديه، فأخّره عنها، و قدّم الوزير أبا عبد اللّه بن الحكيم. و فى ذلك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۲

يقول: [الطويل]

أمن عادة الإنصاف و العدل أن أجفالأن زعموا أنى تحسّيتها صرفا؟

و أقام بقيّة عمره تحت رفد و برّ.

وفاته: توفى فى حدود التسعين و ستمائة. و كان شيخنا ابن الجيّاب قد آثره بكتبه، و كانت نفيسة أعلاها بخط أبيه، رحمه اللّه.

محمد بن مالك المرّى الطّغنرى

من أهل غرناطة، من ذوى البيتية و الحسب فيها. ذكره الأستاذ فى الكتاب المسمّى بالصلة، و الغافقى ، و غيرهما.

حاله: أديب نبيل، شاعر؛ على عهد الأمير عبد اللّه بن بلقّين بن باديس، صاحب غرناطة. قال: و كان أولا يميل إلى البطالة و الراحة. ثم إنه استيقظ من غفلته، و أقلع عن راحته، و أجبّ فى توبته. و كان من أهل الفضل و الخير و العلم.

من تواليفه: كتابه الشهير فى الفلاحة، و هو بديع، سمّاه «زهرة البستان، و نزهة الأذهان»، عبرة فى الظّرف. قال: و جرى له مع سماجة خليفة عبد اللّه بن بلقّين قصة. إذ فاجأه سماجة مع إخوان له، و لم يشعروا به، فأنشده ابن مالك ارتجالا و قد أخذ بلجام دابته: [الخفيف]

بينما نحن فى المصلّى نساقو جناح العشىّ فيه جنوح

إذ أتانا سماجة يتلألأفردى الشمس من تجلّيه يوح

فطفقنا يقول بعض لبعضأغبوق شرابنا أم صبوح؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۳

قال: فتكلّم الوزير سماجة باللسان البربرى مع عبيده، فرجعوا مسرعين، و وقف سماجة مع الوزير ابن مالك، إلى أن أتاه عبيده، بوعاء فيه جملة كبيرة من الدراهم، تنيف على الثلاثمائة دينار. فقال: ادفعوها إليه، و انصرف. و أتاهم العبيد مع الدراهم، بطعام و شراب. قال ابن مالك: و ذلك أوّل مال تأثّلته.

شعره: و منه [السريع]

صبّ على قلبى هوى لاعجو دبّ فى جسمى ضنى دارج

فى شادن أحمر مستأنسلسان تذكارى به لاهج

ما قدر نعمان إذا ما مشىو ما عسى يفعله عالج؟

فقدّه من رقّة مائسو ردفه من ثقله مائج

عنوان ما فى ثوبه وجههتشابه الداخل و الخارج

فلا تقيسوه ببدر الدّجىذا معلم الوجه و ذا ساذج

و قد نسبها بعض الناس لغيره.

وفاته: قال الأستاذ: كان حيّا سنة ثمانين و أربعمائة. و أمر أن يكتب على قبره:

[الخفيف]

يا خليلى، عرّج على قبرى تجدأكلة التّرب بين جنبى ضريح

خافت الصوت إن نطقت و لكنأىّ نطق إن اعتبرت فصيح؟

أبصرت عينىّ العجائب لكنفرّق الموت بين جسمى و روحى

محمد بن على بن محمد بن عبد اللّه بن عبد الملك الأوسى

المدعو بالعقرب، من إقليم الآش .

حاله: كان حسن النظم و النثر، ذكيّا من أهل المعرفة بالعربية و الأدب، موصوفا بجودة القريحة، و النبل و الفطنة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۴

أدبه و شعره: ذكره الملّاحى و قال: حدّثنى قاضى الأحكام بغرناطة، أبو القاسم الحسن بن قاسم، الهلالى صاحبنا، قال: كان الأستاذ أبو عبد اللّه العقرب جارنا، قد وقع بينه و بين زوجه زهرة بنت صاحب الأحكام، أبى الحسن على بن محمد تنازع، فرفعته إلى القاضى بغرناطة، أبى عبد اللّه بن السّماك العاملى، و كنت يومئذ كاتبا له، فرأى القاضى قوّته و قدرته على الكلام و ضعفها، و إخفاق نظمها، و شفق لحالها. و كان يرى أن النساء ضعاف، و أن الأغلب من الرجال يكون ظالمهن. و كان كثيرا ما يقول فى مجلسه: رويدك، رفقا بالقوارير، و حين رأى ما صدر عن القاضى من الجمل، فقلت له: و أين حلاوة شعرك و القاضى أديب يهتز إليه و يرتاح؟ فطلب منى قرطاسا، و جلس غير بعيد، ثم كتب على البديهة بما نصّه:

[الكامل]

للّه حىّ، يا أميم، حواكو حمائم فوق الغصون حواك

غنّين حتى خلتهنّ عنيننىبغنائهنّ فنحت فى مغناك

ذكّرننى ما كنت قد أنسيتهبخطوب هذا الدهر من ذكراك

أشكو الزّمان إلى الزّمان و من شكىصرف الزمان إلى الزمان فشاكى

يا ابن السّماك المستظلّ برمحهو العزل ترهب ذا السلاح الشاكى

راع الجوار فبيننا فى جوّناحقّ السّرى و السير فى الأفلاك

و ابسط إلى الخلق المؤوب ببسطةظرف الكرام بعفّة النّساك

و أنا ذاكر إن لم يفت من لم يمتفداركَ ثم داركَ ثم ذاكَ

ثم دفعها إلى القاضى، فكتب القاضى بخطه فى ظهر الرقعة: لبّيك، لبّيك. ثم أرسلنى أصلح بين العقرب و زوجه، فإن وصل صلحهما إلى خمسين دينارا، فأنا أؤدّيها عنه من مالى، فجمعت بينهما، و أصلحت بينهما عن تراض منهما، رحمهما اللّه تعالى.

محمد بن على بن عبد اللّه بن على القيسى العرادى

من أهل غرناطة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۵

حاله: كان فتى حسن السّمت، ظاهر السكون، بادى التّصوّن و العفّة، دمث الأخلاق، قليل الكلام، كثير الحياء، مليح الخط، ظريفه، بادى النّجابة. أبوه و جدّه من تجار سوق العطر، نبهاء السوق. نظم الشعر، فجاء منه بعجب، استرسالا و سهولة، و اقتدارا، و نفوذا فى المطوّلات، فأنفت له من الإغفال، و جذبته إلى الدار السلطانية، و اشتدّت براعته، فكاد يستولى على الأمر لو لا أن المنية اخترمته شابا، فثكل منه الشعر، قريع إجادة، و بارع ثنيّة شهرة، لو انفسح له الأمد.

مولده: فى ذى الحجة عام أحد و ثلاثين و سبعمائة.

وفاته: توفى مبطونا على أيام قريبة من إسراعه بغرناطة، عن سنّ قريبة من العشرين، فى عام خمسة و خمسين و سبعمائة. و أبوه أمين العطارين.

محمد بن على بن العابد الأنصارى

يكنى أبا عبد اللّه، أصله من مدينة فاس.

حاله: من خطّ القاضى أبى جعفر بن مسعدة، علم كتّاب دار الإمارة النّصرية الغالبيّة، الذى بنوره يستصبحون، و سراجهم الذى بإشراقه و بهجته و نهج محدته يهتدون. رفع لواء الحمد، و ارتدى بالفهم و العلم و الحلم. كان، رحمه اللّه، إماما فى الكتابة، و الأدب، و اللغة، و الإعراب، و التاريخ و الفرائض و الحساب، و البرهان عليه، عارفا بالسّجلات و التّوثيق، أربى على الموثّقين من الفحول المبرّزين فى حفظ الشعر و نظمه، و نسبته إلى قائله حافظا مبرّزا. درس الحديث، و حفظ الأحكام لعبد الحق الإشبيلى، و نسخ الدواوين الكبار، و ضبط كتب اللغة، و قيّد على كتب الحديث، و اختصر التّفسير للزمخشرى، و أزال عنه الاعتزال، لم يفتر قطّ من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة، ليله و نهاره. لم يكن فى وقته مثله.

مشيخته: أخذ بفاس عن أبى العباس أحمد بن قاسم بن البقّال الأصولى، و أبى عبد اللّه بن البيوت المقرّى، و عن الزاهد أبى الحسن بن أبى الموالى، و غيرهم.

شعره: و منه قوله: [الكامل]

طرقت تتيه على الصّباح الأبلج حسناء تختال اختيال تبرّج

فى ليلة قد ألبست بظلامها فضفاض برد بالنجوم مدبّج

و شعره مدوّن كثير.

وفاته: توفى بحضرة غرناطة عام اثنين و ستين و سبعمائة فى ذى القعدة منه.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۶

محمد بن هانى بن محمد بن سعدون الأزدى الإلبيرى الغرناطى

من أهل قرية سكون، يكنى أبا القاسم، و يعرف بالأندلسى، و كأنها تفرقة بينه و بين الحكمى أبى نواس.

أوّليّته: قال غير واحد من المؤرخين : هو من ذريـة يزيـد بن حاتم بن قبيصـة بن المهلّب بن أبى صـفرة، و قيل: من ولـد أخيه روح بن حاتم.

حاله: كان من فحول الشـعراء، و أمثال النظم، و برهان البلاغـة، لا يـدرك شأوه، و لا يشقّ غباره، مع المشاركة فى العلوم، و النفوذ فى فكّ المعمّى. خرج من الأنـدلس ابن سبع و عشـرين سـنة، فلقى جوهرا المعروف بالكاتب مولى المعزّ بن المنصور العبيـدى، صاحب المغرب، و امتـدحه، و كان لئيما، فأعطاه مائتى درهم، فوجد لذلك، و قال: أههنا كريم يقصد؟ فقيل: بلى، جعفر بن يحيى بن على بن فلاـح بن أبى مروان، و أبو على بن حمـدون، فامتـدحهما، ثم اختصّ بجعفر بن يحيى و أبى على، فبالغـا فى إكرامه، و أفاضـا عليه من النعم و الإحسـان مـا لم يمرّ ببـاله، و سارت أشـعاره فيهما، حتى أنشـدت للمعزّ العبيـدى، فوجهه جعفر بن على إليه فى جملـة طرف و تحف بعث بها إليه، كان أبو القاسم أفضـلها عنده، فامتدح المعز لدين اللّه، و بلغ المعزّ من إكرامه الغاية. ثم عاد إلى إفريقية، ثم توجه إلى مصر، فتوفى ببرقة.

و جرى ذكره فى «تخليص الـذهب» من تأليفنـا بمـا نصّه: «العقـاب الكاسـرة، و الصّمصامة البـاترة، و الشّـوارد الـتى تهادتهـا الآفـاق، و الغايات التى أعجز عنها السّباق».

وصـمته: و ذكره ابن شـرف فى مقامـاته، قـال: و أما ابن هانى محمـد، فهو نجـدى الكلام، سـردى النظام، إلّا أنه إذا ظهرت معانيه، فى جزالة مبانيه، رمى عن منجنيق،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۷

لاـ يؤثر فى النّفيق. و له غزل معرّى، لاـ عـذرى، لاـ يقنع بـالطّيف، و لا يصـفع بغير السـيف، و قـد قـدّه به الـذات، و عظم شأنه فاحتمل الثواب، و كان يقف دولته فى أعلى منزلته، ناهيك من رجل يسـتعين على صلاح دنياه، بفساد أخراه، لرداءة دينه، و ضعف يقينه. و لو عقل ما ضاقت عليه معانى الشّعر، حتى يستعين عليه بالكفر.

شعره: كان أول ما مدح به جعفر بن على قوله : [الكامل]

أحبب بتيّاك القباب قبابالا بالحداة و لا الرّكاب ركابا

فيها قلوب العاشقين تخالهاعنما بأيدى البيض و العنّابا

و قال يمدح جعفر بن على من القصيدة الشهيرة : [الطويل]

أليلتنا إذا أرسلت واردا و حفا و بانت لنا الجوزاء فى أذنها شنفا

و بات لنا ساق يقوم على الدّجىبشمعة صبح لا تقطّ و لا تطفا

أغنّ غضيض خفّف اللّين قدّهو أثقلت الصّهباء أجفانه الوطفا

و لم يبق إرعاش المدام له يداو لم يبق إعنات التّثنّى له عطفا

نزيف قضاه السّكر إلّا ارتجاجةإذا كلّ عنها الخصر حمّلها الرّدفا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۸ يقولون حقف فوقه خيزرانةأما يعرفون الخيزرانة و الحقفا؟

جعلنا حشايانا ثياب مدامناو قدّت لنا الظّلماء من جلدها لحفا

فمن كبد تدنى إلى كبد هوىو من شفة توحى إلى شفة رشفا

بعيشك نبّه كأسه و جفونهفقد نبّه الإبريق من بعد ما أغفا

و قد فكّت الظلماء بعض قيودناو قد قام جيش الليل للصبح فاصطفّا

و ولّت نجوم للثّريّا كأنهاخواتيم تبدو فى بنان يد تخفى

و مرّ على آثارها دبرانهاكصاحب ردء كمّنت خيله خلفا

و أقبلت الشّعرى العبور ملمّة بمرزمها اليعبوب تجنبه طرفا

و قد قبّلتها أختها من ورائهالتخرق من ثنيى مجرّتها سجفا

تخاف زئير الليث قدّم نثرةو بربر فى الظّلماء ينسفها نسفا

كأنّ معلّى قطبها فارس لهلواءان مركوزان قد كره الزّحفا

كأن السّماكين اللذين تظاهراعلى لبّتيه ضامنان له الحتفا

فذا رامح يهوى إليه سنانهو ذا أعزل قد عضّ أنمله لهفا

كأنّ قدامى النّسر و النّسر واقعقصصن فلم تسم الخوافى له ضعفا

كأن أخاه حين دوّم طائراًتى دون نصف البدر فاختطف النّصفا

كأن رقيب الليل أجدل مرقبيقلّب تحت الليل فى ريشه طرفا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۸۹ كأنّ بنى نعش و نعش مطافلبوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا

كأنّ سهاها عاشق بين عوّدفآونة يبدو و آونة يخفى

كأنّ سهيلا فى مطالع أفقهمفارق إلف لم يجد بعده إلفا

كأنّ الهزيع الآبنوسىّ موهنا سرى بالنسيج الخسروانىّ ملتفّا

كأن ظلام الليل إذ مال ميلهصريع مدام بات يشربها صرفا

كأن نجوم الصّبح خاقان معشر من التّرك نادى بالنّجاشىّ فاستخفى

كأن لواء الشمس غرّة جعفررأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

و قد جاشت الظلماء بيضا صوارماو مركوزة سمرا و فضفاضة زعفا

و جاءت عتاق الخيل تردى كأنهاتخطّ لنا أقلام آذانها صحفا

هنالك تلقى جعفرا خير جعفرو قد بدّلت يمناه من لينها عنفا

و كائن تراه فى الكريهة جاعلا عزيمته برقا و صولته خطفا

و شعره كثير مدوّن، و مقامه شهير. و فيما أوردناه كفاية. و هو من إلبيرة الأصيلة.

وفاته: قالوا: لمّا توجّه إلى مصر، شرب ببرقة و سكر و نام عريانا، و كان البرد شديدا فأفلج، و توفى فى سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة ، و هو ابن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۰

اثنتين و أربعين سنة. و لما بلغت المعزّ وفاته، تأسّف عليه و قال: هذا رجل كنا نطمع أن نفاخر به أهل المشرق.

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن على بن إبراهيم ابن على الغسّانى البرجى الغرناطى

يكنى أبا القاسم، من أهل غرناطة.

حاله: فاضل مجمع على فضله، صالح الأبوّة، طاهر النشأة، بادى الصّيانة و العفّة، طرف فى الخير و الحشمة، صدر فى الأدب، جمّ المشاركة، ثاقب الذهن ، جميل العشرة، ممتع المجالسة، حسن الخطّ و الشعر و الكتابة، فذّ فى الانطباع، صنيع اليدين، يحكم على الكثير من الآلات العلمية، و يجيد تفسير الكتاب .

رحل إلى العدوة ، و توسّل إلى ملكها، مجدّد الرسم، و مقام الجلّة، و علم دست الشعر و الكتابة، أمير المسلمين أبى عنان فارس ، فاشتمل عليه، و نوّه به، و ملأ بالخير يده، فاقتنى جدة و حظوة و شهرة و ذكرا ، و انقبض مع استرسال الملك ، و آثر الراحة، و جهد

فى التماس الرّحلة الحجازية، و نبذ الكلّ، و سلا الخطّة، فأسعفه سلطانه بغرضه، و جعل حبله على غاربه، و أصحبه رسالة إلى النبىّ الكريم من إنشائه، متصلة بقصيدة من نظمه، و كلاهما تعلن فى الخلفاء بعد شأوه، و رسوخ قدم علمه، و عراقة البلاغة، فى نسب خصله، حسبما تضمّنه الكتاب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۱

المسمى ب «مساجلة البيان». و لما هلك و ولّى ابنه، قدّمه قاضيا بمدينة ملكه، و ضاعف التّنويه به، فأجرى الخطّة، على سبيل من السّداد و النزاهة. ثم لمّا ولّى السلطان أبو سالم عمّه، أجراه على الرسم المذكور، و هو الآن بحاله الموصوفة، مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطانى على تعدّد مفاخره، يحظى بكل اعتبار.

شعره: ثبتّ فى كتاب «نفاضة الجراب» من تأليفنا، عند ذكر المدعى الكبير بباب ملك المغرب، ليلة ميلاد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و ذكر من أنشد ليلتئذ من الشّعراء ما نصّه:

و تلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضى، جملة السّذاجة، و كرم الخلق، و طيب النفس، و خدن العافية، و ابن الصّلاح و العبادة، و نشأة القرآن، المتحيّز إلى حزب السلامة، المنقبض عن الغمار، العزوف عن فضول القول و العمل، جامع المحاسن، من عقل رصين، و طلب ممتع، و أدب نقّادة ، و يد صناع، أبو القاسم بن أبى زكريا البرجى، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة : [البسيط]

أصغى إلى الوجد لمّا جدّ عاتبهصبّ له شغل عمّن يعاتبه

لم يعط للصبر من بعد الفراق يدافضلّ من ظلّ إرشادا يخاطبه

لو لا النّوى لم يبت حرّان مكتئبايغالب الوجد كتما و هو غالبه

يستودع الليل أسرار الغرام و ماتمليه أشجانه فالدّمع كاتبه

للّه عصر بشرقىّ الحمى سمحتبالوصل أوقاته لو عاد ذاهبه

يا جيرة أودعوا إذ ودّعوا حرقايصلى بها من صميم القلب ذائبه

يا هل ترى تجمع الأيّام فرقتناكعهدنا أو يردّ القلب ساكبه؟

و يا أهيل ودادى، و النّوى قذفو القرب قد أبهمت دونى مذاهبه

هل ناقض العهد بعد البعد حافظهو صادع الشّمل يوم الشّعب شاعبه؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۲ و يا ربوع الحمى لا زلت ناعمةيبكى عهودك مضنى الجسم شاحبه

يا من لقلب مع الأهواء منعطففى كل أوب له شوق يجاذبه

يسمو إلى طلب الباقى بهمّتهو النفس بالميل للفانى تطالبه

و فتنة المرء بالمألوف معضلةو الأنس بالإلف نحو الإلف جاذبه

أبكى لعهد الصّبا و الشّيب يضحك بى يا للرّجال سبت جدّى ملاعبه

و لن ترى كالهوى أشجاه سالفهو لا كوعد المنى أحلاه كاذبه

و همّة المرء تغليه و ترخصهمن عزّ نفسا لقد عزّت مطالبه

ما هان كسب المعالى أو تناولهابل هان فى ذاك ما يلقاه طالبه

لو لا سرى الفلك السّامى لما ظهرتآثاره و لما لاحت كواكبه

فى ذمّة اللّه ركب للعلا ركبواظهر السّرى فأجابتهم نجائبه

يرمون عرض الفلا بالسّير عن عرض طىّ السّجلّ إذا ما جدّ كاتبه

كأنهم فى فؤاد الليل سرّ هوىلو لا الضّرام لما خفّت جوانبه

شدّوا على لهب الرّمضاء وطأتهمفغاص فى لجّة الظّلماء راسبه

و كلّفوا الليل من طول السّرى شططافخلّفوه و قد شابت ذوائبه

حتى إذا أبصروا الأعلام ماثلة بجانب الحرم المحميّ جانبه

بحيث يأمن من مولاه خائفهمن ذنبه و ينال القصد راغبه

فيها و فى طيبة الغرّاء لى أملىصاحب القلب منه ما يصاحبه

لم أنس لا أنس أياما بظلّهماسقى ثراه عميم الغيث ساكبه

شوقى إليها و إن شطّ المزار بهاشوق المقيم و قد سارت حبائبه

إن ردّها الدهر يوما بعد ما عبثتفى الشّمل منّا يداه لا نعاتبه

معاهد شرفت بالمصطفى فلهامن فضله شرف تعلو مراتبه

محمد المجتبى الهادى الشّفيع إلىربّ العباد أمين الوحى عاقبه

أوفى الورى ذمما، أسماهم هممماأعلاهم كرما، جلّت مناقبه

هو المكمّل فى خلق و فى خلقزكت حلاه كما طابت مناسبه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۳ عناية قبل بدء الخلق سابقةمن أجلها كان آتيه و ذاهبه

جاءت تبشّرنا الرّسل الكرام بهكالصّبح تبدو تباشيرا كواكبه

أخباره سرّ علم الأوّلين و سلبدير تيماء ما أبداه راهبه

تطابق الكون فى البشرى بمولدهو طبّق الأرض أعلاما تجاوبه

فالجنّ تهتف إعلانا هواتفهو الجنّ تقذف إحراقا ثواقبه

و لم تزل عصمة التأييد تكنفهحتى انجلى الحقّ و انزاحت شوائبه

سرى و جنح ظلام الليل منسدلو النّجم لا يهتدى فى الأفق ساربه

يسمو لكلّ سماء منه منفردعن الأنام و جبرائيل صاحبه

لمنتهى وقف الرّوح الأمين بهو امتاز قربا فلا خلق يقاربه

لقاب قوسين أو أدنى فما علمتنفس بمقدار ما أولاه واهبه

أراه أسرار ما قد كان أودعهفى الخلق و الأمر باديه و غائبه

و آب و البدر فى بحر الدّجى غرقو الصّبح لمّا يؤب للشرق آيبه

فأشرقت بسناه الأرض و اتّبعتسبل النجاة بما أبدت مذاهبه

و أقبل الرّشد و التاحت زواهرهو أدبر الغىّ فانجابت غياهبه

و جاء بالذكر آيات مفصّلةيهدى بها من صراط اللّه لا حبه

نور من الحكم لا تخبو سواطعهبحر من العلم لا تفنى عجائبه

له مقام الرّضا المحمود شاهدهفى موقف الحشر إذ نابت نوائبه

و الرّسل تحت لواء الحمد يقدمهامحمد أحمد السامى مراتبه

له الشّفاعات مقبولا و سائلهاإذا دهى الأمر و اشتدّت مصاعبه

و الحوض يروى الصّدى من عذب موردهلا يشتكى غلّة الظمآن شاربه

محامد المصطفى لا ينتهى أبداتعدادها، هل يعدّ القطر حاسبه؟

فضل تكفّل بالدّارين يوسعهانعمى و رحمى فلا فضل يناسبه

حسبى التوسّل منها بالذى سمحتبه القوافى و جلّتها غرائبه

حيّاه من صلوات اللّه صوب حياتحدى إلى قبره الزّاكى نجائبه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۴ و خلّد اللّه ملك المستعين بهمؤيّد الأمر منصورا كتائبه

إمام عدل بتقوى اللّه مشتملفى الأمر و النهى يرضيه يراقبه

مسدّد الحكم ميمون نقيبتهمظفّر العزم صدق الرأى صائبه

مشمّر للتّقى أذيال مجتهدجرّار أذيال سحب الجود ساحبه

قد أوسعت أمل الرّاجى مكارمهو أحسبت رغبة العافى رغائبه

و فاز بالأمن محبورا مسالمه و باء بالخزى مقهورا محاربه

كم وافد آمل معهود نائلهأثنى و أثنت بما أولى حقائبه

و مستجير بعزّ من مثابتهعزّت مراميه و انقادت مآربه

و جاءه الدهر يسترضيه معتذرامستغفرا من وقوع الذنب تائبه

لو لا الخليفة إبراهيم لانبهمتطرق المعالى و نال الملك غاصبه

سمت لنيل تراث المجد همّتهو الملك ميراث مجد و هو عاصبه

ينميه للعزّ و العليا أبو حسنسمح الخلائق محمود ضرائبه الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۱۹۴

من آل يعقوب حسب الملك مفتخرابباب عزّهم السامى تعاقبه

أطواد حلم رسا بالأرض محتدهو زاحمت منكب الجوزا مناكبه

تحفّها من مرين أبحر زخرتأمواجها و غمام ثار صائبه

بكلّ نجم لدى الهيجاء ملتهبينقضّ وسط سماء النّقع ثاقبه

أكفّهم فى دياجيها مطالعهو فى نحور أعاديهم مغاربه

يا خير من خلصت للّه نيّتهفى الملك أو خطب العلياء خاطبه

جرّدت و الفتنة الشّعواء ملبسةسيفا من العزم لا تنبو مضاربه

و خضتها غير هيّاب و لا وكلو قلّما أدرك المطلوب هائبه

صبرت نفسا لعقبى الصبر حامدةو الصبر مذ كان محمود عواقبه

فليهن دين الهدى إذ كنت ناصرهأمن يواليه أو خوف يجانبه

لا زال ملككك و التأييد يخدمهتقضى بخفض مناويه قواضبه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۵ و دمت فى نعم تضفو ملابسهافى ظلّ عزّ علا تصفو مشاربه

ثم الصلاة على خير البريّة ماسارت إليه بمشتاق ركائبه

و من شعره ما قيّده لى بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المرينية، الفقيه الرئيس الصدر المتفنن أبو زيد بن خلدون : [الطويل]

صحا القلب عمّا تعلمين فأقلعاو عطّل من تلك المعاهد أربعا

و أصبح لا يلوى على حدّ منزلو لا يتبع الطّرف الخلىّ المودّعا

و أضحى من السّلوان فى حرز معقلبعيد على الأيام أن يتضعضعا

يرد الجفان النّجل عن شرفاتهو إن لحظت عن كل أجيد أتلعا

عزيز على داعى الغرام انقيادهو كان إذا ناداه للوجد أهطعا
أهاب به للشّيب أنصح واعظأصاخ له قلبا منيبا و مسمعا
و سافر فى أفق التفكّر و الحجازواهره لا تبرح الدّهر طلّعا
لعمرى لقد أنضيت عزمى تطلّباو قضّيت عمرى رقيةً و تطلّعا
و خضت عباب البحر أخضر مزبداو دست أديم الأرض أغبر أسفعا
و من شعره حسبما قيّده المذكور : [المتقارب]
نهاه النّهى بعد طول التجاربو لاح له منهج الرّشد لاحب
و خاطبه دهره ناصحابألسنة الوعظ من كلّ جانب
فأضحى إلى نصحه واعياو ألغى حديث الأمانى الكواذب
و أصبح لا تستبيه الغوانىو لا تزدريه حظوظ المناصب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۶

و إحسانه كثير فى النظم و النثر، و القصار و المطولات. و استعمل فى السّفارة إلى ملك مصر و ملك قشتالة، و هو الآن قاضى مدينة فاس، نسيج وحده فى السلامة و التّخصيص ، و اجتناب فضول القول و العمل، كان اللّه له.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف ابن محمد الصّريحى

يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن زمرك. أصله من شرق الأندلس، و سكن سلفه ربض البيّازين من غرناطة، و به ولد و نشأ، و هو من مفاخره.

حاله: هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس و أفراد نجبائها، مختص ، مقبول، هشّ، خلوب، عذب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شره المذاكرة، فطن بالمعاريض ، حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء، تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة، فكه، غزل مع حياء و حشمة، جواد بما فى يده، مشارك لإخوانه. نشأ عفّا، طاهرا، كلفا بالقراءة، عظيم الدّؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النّبل، بعيد مدى الإدراك، جيّد الفهم، فاشتهر فضله، و ذاع أرجه، و فشا خبره، و اضطلع بكثير من الأغراض، و شارك فى جملة من الفنون، و أصبح متلقّف كرة البحث، و صارخ الحلقة، و سابق الحلبة، و مظنّة الكمال. ثم ترقّى فى درج المعرفة و الاضطلاع، و خاض لجّة الحفظ، و ركض قلم التّقييد و التّسويد و التعليق، و نصب نفسه للناس، متكلّما فوق الكرسى المنصوب، و بين الحفل المجموع، مستظهرا بالفنون التى بعد فيها شأوه، من العربية و البيان و اللغة، و ما يقذف به فى لج النقل، من الأخبار و التفسير. متشوّفا مع ذلك إلى السّلوك، مصاحبا للصّوفية، آخذا نفسه بارتياض و مجاهدة، ثم عانى الأدب، فكان

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۷

أملك به، و أعمل الرّحلة فى طلب العلم و الازدياد، و ترقّى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبى سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب، ثم عن السلطان، و عرف فى باب الإجادة. و لمّا جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس، و استقرّ بالمغرب، أنس به، و انقطع إليه، و كرّ صحبة ركابه إلى استرجاع حقّه، فلطف منه محلّه، و خصّه بكتابة سرّه.

و ثابت الحال، و دالت الدولة، و كانت له الطائلة، فأقرّه على رسمه معروف الانقطاع و الصّاغية، كثير الدالّة، مضطلعا بالخطّة خطّا و إنشاء و لسنا و نقدا، فحسن منابه، و اشتهر فضله، و ظهرت مشاركته، و حسنت وساطته، و وسع الناس تخلّقه، و أرضى للسلطان حمله، و امتدّ فى ميدان النثر و النظم باعه، فصدر عنه من المنظوم فى أمداحه قصائد بعيدة الشّأو فى مدى الإجادة، [حسبما يشهد بذلك، ما

تضـمّنه اسـم السـلطان، أيّـده اللّـه، فى أول حرف الميـم، فى الأـغراض المتعـددة من القصائـد و الميلاديّات، و غيرهـا]. و هـو بحـاله الموصوفة إلى الآن ، أعانه اللّه تعالى و سدّده.

شيوخه: قرأ العربية على الأستاذ رحلة الوقت فى فنّها أبى عبد اللّه بن الفخّار ثم على إمامها القاضى الشريف، إمام الفنون اللّسانية، أبى القاسم محمـد بن أحمد الحسـنى، و الفقه و العربية على الأسـتاذ المفتى أبى سـعيد بن لب، و اختصّ بالفقيه الخطيب الصّدر المحدّث أبى عبـد اللّه بن مرزوق فأخـذ عنه كثيرا من الرّوايـة، و لقى القاضـى الحافظ أبا عبـد اللّه المقرى عنـدما قـدم رسولا إلى الأنـدلس، و ذاكره، و قرأ الأصول الفقهيـة على أبى على منصور الزّواوى، و روى عن جملـة، منهم القاضـى أبو البركات ابن الحاج، و المحدّث أبو الحسن ابن التلمسانى، و الخطيب أبو عبد اللّه ابن اللوشى، و المقرئ أبو عبد اللّه ابن بيبش. و قرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشّريف الرحلة الشهير أبى عبد اللّه العلوى التّلمسانى، و اختصّ به اختصاصا لم يخل فيه من إفادة مران و حنكة فى الصّناعة .

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۸

شعره: و شـعره مترام إلى نمط الإجادة، خفاجىّ النّزعة، كلف بالمعانى البديعة، و الألفاظ الصّقيلة، غزير المادة. فمنه فى غرض النّسيب :

رضيت بما تقضى علىّ و تحكمأهان فأقصى أم أصافى فأكرم

إذا كان قلبى فى يديك قيادهفمالى عليك فى الهوى أتحكّم

على أن روحى فى يديك بقاؤهبوصلك يحيى أو بهجرك يعدم

و أنت إلى المشتاق نار و جنّةببعدك يشقى أو بقربك ينعم

ولى كبد تندى إذا ما ذكرتمو قلب بنيران الشوق يتضرّم

و لو كان ما بى منك بالبرق ما سرىو لا استصحب الأنواء تبكى و تبسم

أراعى نجوم الأفق فى اللّيل ما دجىو أقرب من عينىّ للنوم أنجم

و ما زلت أخفى الحبّ عن كل عادلو تشفى دموع الصّب ما هو يكتم

كسانى الهوى ثوب السّقام و إنهمتى صحّ حبّ المرء لا شىء يسقم

فيا من له العقل الجميل سجيّةو من جود يمناه الحيا يتعلّم

و عنه يروّى الناس كلّ غريبةتخطّ على صفح الزمان و ترسم

إذا أنت لم ترحم خضوعى فى الهوىفمن ذا الذى يحنى علىّ و يرحم

و حلمك حلم لا يليق بمذنبفما بال ذنبى عند حلمك يعظم؟

و و اللّه ما فى الحىّ حىّ و لم ينلرضاك و عمّته أياد و أنعم

و من قبل ما طوّقتنى كل نعمةكأنّى و إياها سوار و معصم

و فتّحت لى باب القبول مع الرضىيغضّ الحىّ طرفى كأنى مجرم

و لو كان لى نفس تخونك فى الهوىلفارقتها طوعا و ما كنت أندم

و أترك أهلى فى رضاك إلى الأسىو أسلم نفسى فى يديك و أسلم

أما و الذى أشقى فؤادى فى الهوىو إن كان فى تلك الشّقاوة ينعم

لأنت من قلبى و نزهة خاطرىو مورد آمالى و إن كنت أحرم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۱۹۹

و من ذلك ما خاطبنى به، و هى من أول نظمه، قصيدة مطلعها: [الطويل]

«أما و انصداع النّور فى مطلع الفجر»

و هى طويلة . و من بدائعه التى عقم عن مثلها قياس قيس، و اشتهرت بالإحسان اشتهار الزّهد بأويس ، و لم يحل مجاريه و مباريه إلّا بويح و ويس، قوله فى إعذار الأمير ولد سلطانه، المنوّه بمكانه، و هى من الكلام الذى عنيت الإجادة بتذهيبه و تهذيبه، و ناسب الحسن بين مديحه و نسيبه : [الطويل]

معاذ الهوى أن أصحب القلب سالياو أن يشغل اللوّام بالعذل باليا

دعانى أعط الحبّ فضل مقادتىو يقضى علىّ الوجد ما كان قاضيا

و دون الذى رام العواذل صبوةرمت بى فى شعب الغرام المراميا

و قلب إذا ما البرق أومض موهنا قدحت به زندا من الشوق واريا

خليلىّ إنى يوم طارقة النّوىشقيت بمن لو شاء أنعم باليا

و بالخيف يوم النّفر يا أمّ مالكتخلّفت قلبى فى حبالك عانيا

و ذى أشر عذب الثّنايا مخضّريسقّى به ماء النعيم الأقاحيا

أحوم عليه ما دجا الليل ساهراو أصبح دون الورد ظمآن صاديا

يضىء ظلام الليل ما بين أضلعىإذا البارق النّجدىّ وهنا بدا ليا

أجيرتنا بالرّمل و الرّمل منزلمضى العيش فيه بالشّبيبة حاليا

و لم أر ربعا منه أقضى لبانةو أشجى حمامات و أحلى مجانيا

سقت طلّه الغرّ الغوادى و نظّمتمن القطر فى جيد الغصون لآليا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۰ أبثّكم أنى على النّأى حافظذمام الهوى لو تحفظون ذماميا

أناشدكم و الحرّ أوفى بعهدهو لن يعدم الأحسان و الخير جازيا

و ورد على السلطان أبى سالم ملك المغرب، رحمة اللّه تعالى عليه، وفد الأحابيش بهديّة من ملك السودان، و من جملتها الحيوان الغريب المسمّى بالزّرافة ، فأمر من يعانى الشعر من الكتّاب بالنظم فى ذلك الغرض، فقال و هى من بدائعه:

[الكامل]

لو لا تألّق بارق التّذكارما صاب واكف دمعى المدرار

لكنه مهما تعرّض خافقاقدحت يد الأشواق زند أوارى

و على المشوق إذا تذكّر معهداأن يغرى الأجفان باستعبار

أ مذكّرى غرناطة حلّت بهاأيدى السّحاب أزرّة النّوّار؟

كيف التخلّص للحديث و بيننا عرض الفلاة و طافح زخّار ؟

و غريبة قطعت إليك على الونىبيدا تبيد بها هموم السّارى

تنسيه طيّته التى قد أمّهاو الرّكب فيها ميّت الأخبار

يقتادها من كلّ مشتمل الدّجىو كأنما عيناه جذوة نار

خاضوا بها لجج الفلا فتخلّصتمنها خلوص البدر بعد سرار

سلمت بسعدك من غوائل مثلهاو كفى بسعدك حاميا لذمار

و أتتك يا ملك الزمان غريبةقيد النّواظر نزهة الأبصار

موشيّة الأعطاف رائقة الحلىرقمت بدائعها يد الأقدار

راق العیون أدیمها فکأنهروض تفتّح عن شقیق بهار

ما بین مبیضّ و أصفر فاقع‌سال اللّجین به خلال نضار

یحکی حدائق نرجس فی شاهق‌تنساب فیه أراقم الأنهار

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۱

و أنشد السلطان فی لیلة میلاد رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، عقب ما فرغ من البنیة الشهیرة ببابه، رحمه اللّه تعالی: [الطویل]

تأمّل أطلال الهوی فتألّماو سیما الجوی و السّقم منها تعلّما

أخو زفرة هاجت له منه ذکرةفأنجد فی شعب الغرام و أتهما

و أنشد السلطان فی وجهة للصّید أعملها، و أطلق أعنّة الجیاد فی میادین ذلک الطّراد و أرسلها قوله: [الکامل]

حیّاک یا دار الهوی من دارنوء السّماک بدیمة مدرار

و أعاد وجه رباک طلقا مشرقامتضاحکا بمباسم النّوّار

أ مذکّری دار الصّبابة و الهوی‌حیث الشّباب یرفّ غصن نضار

عاطیتنی عنها الحدیث کأنماعاطیتنی عنها کؤوس عقار

إیه و إن أذکیت نار صبابتی‌و قدحت زند الشّوق بالتّذکار

یا زاجر الأظعان و هی مشوقةأشبهتها فی زفرة و أوار

حنّت إلی نجد و لیست دارهاوصبت إلی هندیّة و القار

شاقت به برق الحمی و اعتادهاطیف الکری بمزارها المزوار

و من شعره فی غیر المطولات : [الطویل]

لقد زادنی وجدا و أغری بی الجوی‌ذبال بأذیال الظّلام قد التفّا

تشیر وراء اللیل منه بنانةمخضّبة و اللیل قد حجب الکفّا

تلوح سنانا حین لا تنفح الصّباو تبدو سوارا حین تثنی له العطفا

قطعت به لیلا یطارحنی الجوی‌فآونة یبدو و آونة یخفی

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۲ إذا قلت لا یبدو أشال لسانهو إن قلت لا یخبو الصّبابة إذ لفّا

إلی أن أفاق الصّبح من غمرة الدّجی‌و أهدی نسیم الروض من طیبه عرفا

لک اللّه یا مصباح أشبهت مهجتی‌و قد شفّها من لوعة الحبّ ما شفّا

و ممّا ثبت له فی صدر رسالة : [الطویل]

أزور بقلبی معهد الأنس و الهوی‌و أنهب من أیدی النسیم رسائلا

و مهما سألت البرق یهفو من الحمی‌یبادره دمعی مجیبا و سائلا

فیالیت شعری و الأمانی تعلّلأ یرعی لی الحیّ الکرام الوسائلا؟

و هل جیرتی الأولی کما قد عهدتهم‌یوالون بالإحسان من جاء سائلا؟

و من أبیاته الغرامیات : [الوافر]

قیادی قد تملّکه الغرامو وجدی لا یطاق و لا یرام

و دمعی دونه صوب الغوادی‌و شجوی فوق ما یشدو الحمام

إذا ما الوجد لم یبرح فؤادی‌علی الدّنیا و ساکنها السّلام

و فى غرض يظهر من الأبيات : [الطويل]

و مشتمل بالحسن أحوى مهفهفقضى رجع طرفى من محاسنه الوطر

فأبصرت أشباه الرياض محاسناو فى خدّه جرح بدا منه لى أثر

فقلت لجلّاسى خذوا الحذر إنمابه وصب من أسهم الغنج و الحور

و يا وجنة قد جاورت سيف لحظهو من شأنها تدمى من اللّمح بالبصر

تخبّل للعينين جرحا و إنمابدا كلف منه على صفحة القمر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۳

و ممّا يرجع إلى باب الفخر، و لعمرى لقد صدق فى ذلك : [الطويل]

أ لائمة فى الجود و الجود شيمتى جبلت على آثارها يوم مولدى

ذرينى فلو أنّى أخلّد بالغنىلكنت ضنينا بالذى ملكت يدى

و من مقطوعاته : [المتقارب]

لقد علم اللّه أنّى امرؤأجرّر ثوب العفاف القشيب

فكم غمّض الدهر أجفانهو فازت قداحى بوصل الحبيب

و قيل رقيبك فى غفلةفقلت أخاف الإله الرّقيب

و فى مدح كتاب «الشّفا» طلبه الفقيه أبو عبد اللّه بن مرزوق عندما شرع فى شرحه : [الطويل]

و مسرى ركاب للصّبا قد ونت بهنجائب سحب للتراب نزوعها

تسلّ سيوف البرق أيدى حداتهافتنهلّ خوفا من سطاها دموعها

و منها:

و لا مثل تعريف الشّفاء حقوقهفقد بان فيه للعقول جميعها

بمرآة حسن قد جلتها يد النّهىفأوصافه يلتاح فيه بديعها

نجوم اهتداء، و المداد يجنّهاو أسرار غيب و اليراع تذيعها

لقد حزت فضلا يا أبا الفضل شاملافيجزيك عن نصح البرايا شفيعها

و للّه ممّن قد تصدّى لشرحهفلبّاه من غرّ المعانى مطيعها

فكم مجمل فصّلت منه و حكمةإذا كتم الإدماج منه تشيعها

محاسن و الإحسان يبدو خلالهاكما افترّ عن زهر البطاح ربيعها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۴ إذا ما أصول المرء طابت أرومة فلا عجب أن أشبهتها فروعها

بقيت لأعلام الزمان تنيلهاهدى و لأحداث الخطوب تروعها

و مما امتزج فيه نثره و نظمه، و ظهر فيه أدبه و علمه، قوله يخاطبنى جوابا عن رسالة خاطبت بها الأولاد، و هم مع مولانا أيّده اللّه بالمنكّب : [مخلع البسيط]

ما لى بحمل الهوى يدانمن بعد ما أعوز التّدانى

أصبحت أشكو إلى زمانما بتّ منه على أمان

ما بال عينيك تسجمانو الدّمع يرفضّ كالجمان؟

ناداك و الإلف عنك وانو البعد من بعده كوانى؟

يا شقّة النفس، من هوانلجج فى أبحر الهوان

لم يثننى عن هواك ثانيا بغية القلب قد كفانى

يا جانحة الأصيل، أين يذهب قرصك المذهّب، و قد ضاق بالشوق المذهب.

أمست شموس الأنس محجوبة عن عينى، و قد ضرب البعد الحجاب بينها و بينى.

و على كل حال، من إقامة و ارتحال. فما محلك من قلبى محلا بينها. و ما كنت لأقنع من وجهك تخيّلا و شبيها. و من أين انتظمت لك عقول التّشبيه و اتّسقت، و من بعض المواقع و الشمس لو قطعت. صادك منذور، و أنت تتجمل بثوبى زور، و جيب الظلام على ديناركك حتى الصباح مزرور، و وراءك من الغروب غريم لا يرحم، و مطالب تتقلّب منه فى كفّه المطالب. و يا برق الغمام من أى حجاب تبتسم، و بأى صبح ترتسم، و أى غفل من السحاب تسم. أليست مباسم الثغور، لا تنجد بأفقى و لا تغور؟

هذا و إن كانت مباسمك مساعدة، و الجوّ ملبس لها من الوجوم شعارا، فلطالما ضحكت فأبكت الغوادى، وعقت الرائح و الغادى. أعوذ بواشم البروق، بنواسم الطّفل و الشروق، ذوات الزائرات المتعددة الطّروق، فهى التى قطعت و هادا و نجادا، و اهتدت بسيف الصباح من السحاب قرابا و من البروق نجادا، و اهتدت خبر الذين أحبّهم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۵

مستظرفا مستجادا، فعالها و لعلها، و اللّه يصل فى أرض الوجود نهلها و علّها، و أن يبل ظعين الشوق بنسيمها البليل، و أن نعوضه من نار الغليل، بنار الخليل، و خير طبيب يداوى الناس و هو عليل. فشكواى إلى اللّه لا أشكو إلى أحد. هل هو إلّا فرد تسطو رياح الأشواق على ذبالته، و عمر الشوق قد شبّ على الطّوق، و وهب الجمع للفرق و لم يقنع بالمشاهدة بالوصف دون الذّوق. و قلب تقسم أحشاؤه الوجد، و قسم باله الغور و النّجد. و هموم متى وردت قليب القلب، لم تبرح و لم تعد، فللّه الأمر من قبل و من بعد.

أستغفر اللّه يا سيدى الذى يوقد أفكارى حلو لقائه، و أتنسّم أرواح القبول من تلقائه، و أسأل اللّه أن يديم لى آمالى بدوام بقائه. إن بعد مداه، قربت منّا يداه، و إن أخطأنا رفده أصبنا نداه. فثمرات آدابه الزّهر تجىء إلينا، و سحائب بنانه الغرّ تصوّب دوالينا أو علينا، على شحط هواه، و بعد منتواه. و لا كرسالة سيدى الذى عمّت فضائله و خصّت، و تلت على أولياء نعمته أنباء الكمال و قصّت، و آى قضى كل منها عجبا، و نال من التماح غرّتها و اجتلاء صفحتها أربا. فلقد كرمت عنه بالاشتراك فى بنوّته الكريمة نسبا، و وصلت لى بالعناية منه سببا. تولّى سيدى خيرك من يتولّى خير المحسنين، و يجزل شكر المنعمين. أما ما تحدّث به من الأغراض البعيدة العذيبة، و أخبر عنه من المعانى الفريدة العجيبة، و الأساليب المطيلة، فيعجز عن وصفه، و إحكام رصفه، القلم و اللسان، و يعترف لها بالإبداع المستولى على أمد الإحسان البديع و حسّان. و لقد أجهدت جياد الارتجال، فى مجال الاستعجال، فما سمحت القريحة إلّا بتوقّع الآجال، و عادت من الإقدام إلى الكلال. فعلمت أن تلك الرسالة الكريمة، من الحق الواجب على من قرأها و تأمّلها، أن لا يجرى فى لجّة من ميادينها، و يديم يراع سيدى الإحسان كرينها، لكن على أن يفسح الرياض للقصى مدى، و يقتدى بأخلاق سيدى التى هى نور و هدى، فإنه و اللّه يبقيه، و يقيه ممّا يتّقيه، بعد ما أعاد فى شكوى البين و أبدى، و تظلّم من البعد و استعدى، و رفع حكم العتاب عن ذرات النّسيم و الاقتعاب، و رعى وسيلة ذكرها فى محكم الكتاب. و ولّى فضله ما تولّى، و صرف هواه إلى هوى المولى أن صور السعادة على رأيه، أيّده اللّه تجلّى، و ثمرة فكره المقدس، أيّده اللّه تتحلّى. شكر اللّه له عن جميع نعمه التى أولى، و حفظ عليه مراتب الكمال التى هو الأحقّ بها و الأولى. و قد طال الكلام، و جمحت الأقلاح. و لسيدى و بركتى الفضل، أبقى اللّه بركته، و أعلى فى الدارين درجته، و السلام الكريم يخصّكم، من مملوككم ابن زمرك، و رحمة اللّه و بركاته، فى الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة و ستين.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۶

و خاطبنى كذلك، و هو من الكلام المرسل: أبو معارفى، و ولىّ نعمتى، و معيد جاهى، و مقوّم كمالى، و مورد آمالى، ممن توالى

نعمه علىّ، و يتوفّر قسمه لدى؛ و أبوء له بالعجز، عن شكر أياديه التى أحيت الأمل، و ملأت أكفّ الرغبة، و أنطقت الحدائق، فضلا عن اللسان، و أياديه البيض و إن تعددت، و مننه العميمة و إن تجدّدت، تقصر عن إقطاع أسمى شرف المجلس فى الروض الممطور بيانه. فماذا أقول، فيمن صار مؤثرا إلىّ بالتقديم، جاليا صورة تشريفى، بالانتساب إليه فى أحسن التقويم ... و إنى ثالث اثنين أتشرف بخدمتها، و أسحب فى أذيال نعمتها:

[الطويل]

خليلىّ، هل أبصرتما أو سمعتماأكرم من تمشى إليه عبيد؟

اللهمّ، أوزعنى شكر هذا المنعم، الذى أثقلت نعمه ظهر الشكر، و أنهضت كمال الحمد، اللهمّ أدم بجميع حياته، و أمتع بدوام بقائه الإسلام و العباد، و أمسك بيمن آرائه رمق ثغر الجهاد. يا أكرم مسئول، و أعزّ ناصر. تفضّل سيدى، و الفضل عادته، بالتعريف بما يقرّ عين التطلّع و يقنع غلّة التشوّف. و لقد كان المماليك لما مثلنا بين يدى مولانا، أيّده اللّه، لم يقدم عملا عن السؤال و لا عن الحال، إقامة لرسم الزيارة، و عملا بالواجب، فإننى أرى الديار بطرفى، فعلى أن أرى الديار بعينى، و على ذلك يكون العمل إن شاء اللّه. و إن سأل سيدى شكر اللّه احتفاءه، و أبقى اهتمامه، عن حال المماليك، من تعب السفر، و كدّ الطريق، فهى بحمد اللّه دون ما يظنّ. فقد وصلنا المنكّب تحت الحفظ و الكلاءة، محرزين شرف المساوقة، لمواكب المولى، يمن اللّه وجهته، و كتب عصمته، و استقرّ جميعنا بمحلّ القصبة، و تاج أهبتها، و مهبّ رياح أجرائها، تحت النعم الثرّة، و الأنس الكامل الشامل. قرّب اللّه أمد لقائكم، و طلع على ما يسرّ من تلقائكم. و لما بلغنا هذه الطّيّة، و أنخنا المطيّة، قمنا بواجب تعريفكم على الفور بالأدوار، و رفعنا مخاطبة المالك على الابتدا. و السلام.

مولده: فى الرابع عشر من شوال ثلاثة و ثلاثين و سبعمائة.

انتهى السفر السادس هنا، و الحمد للّه ربّ العالمين

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۷

و من السفر السابع المفتتح بقوله و من الطّارئين منهم فى هذا الباب

محمد بن أحمد بن محمد بن أبى خيثمة الجبّائى

سكن غرناطة، يكنى أبا الحسن.

حاله: كان مبرّزا فى علوم اللسان نحوا و لغة و أدبا، متقدما فى الكتابة و الفصاحة، جامعا فنون الفضائل، على غفلة كانت فيه.

مشيخته: روى عن أبى الحسن بن سهل، و أبى بكر بن سابق، و أبى الحسن بن الباذش، و أبى على الغسانى و غيرهم. و صحب أبا الحسن بن سراج صحبة مواخاة.

تواليفه: صنّف فى شرح غريب البخارى مصنّفا مفيدا.

وفاته: توفى ليلة الثامن و العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين و خمسمائة.

محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن أحمد الإستجّى الحميرى

من أهل مالقة، و أصله من إستجّة، انتقل سلفه إلى مالقة، يكنّى أبا عبد اللّه.

حاله: كان من جملة حملة العلم، و الغالب عليه الأدب، و كان من أهل الجلالة، و من بيت علم و دين. أقرأ ببلده، و قعد بالجامع الكبير منه، يتكلّم على صحيح البخارى، و انتقل فى آخر عمره إلى غرناطة.

و قال الأستاذ : كان من أبرع أهل زمانه فى الأدب نظما و نثرا.

شعره: منقولا من خط الوزير الرّاوية أبى محمد عبد المنعم بن سماك، و قد ذكر أشياخه فقال: الشيخ المتفنن الأديب، البارع، الشاعر المفلق، قرأ على أشياخها، و أقرأ و هو دون العشرين سنة. و كانت بينه و بين الأستاذ المقرئ الشهير أبى العباس، الملقب بالوزعى، قرابة، و له قصيدة أولها: [الكامل]

ما للنسيم لدى الأصيل عليلا و منها:

حتى النسيم إذا ألّم بأرضهمخلعوا عليه رقّة و نحولا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۸

و كان يقول: كان الأستاذ أبو العباس يستعيدنى هذا البيت و يقول: نعم أنت قريبى. و قدم على غرناطة، أظنّ سنة تسع و ثلاثين و ستمائة.

محنته: قال الأستاذ: جرى له قصة، نقل بعض كلامه فيها، على بعض أحاديث الكتّاب من جهة استشهاد أدبى عليه فيها، غالب أدبه، فأطلق عنان الكلام، و ما أكثر مما يطاق فيما يأنفه إدراكات تلك الأفهام، و لكل مقام مقال، و من الذى يسلم من قيل و قال. و كان ذلك سبب الانقطاع، و لم يؤت من قصر باع، و انتقل إلى غرناطة، فتوفى فى أثر انقطاعه و انتقاله.

شعره: من ذلك قوله فى غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

قضوا فى ربى نجد ففى القلب مرساهو غنّوا إن أبصرتم ثمّ مغناه

أما هذه نجد أما ذلك الحمى؟فهل عميت عيناه أم صمّ أذناه؟

دعوه يوفّى ذكره باتّشامهديون هواه قبل أن يتوفّاه

و لا تسألوه سلوة فمن العنارياضة من قد شاب فى الحب فوداه

أ يحسب من أصلى فؤادى بحبّهبأنى سأسلو عنه، حاشاه حاشاه؟

متى غدر الصّبّ الكريم وفى لهو إن أتلف القلب الحزين تلافاه

و إن حجروا معناه و صرّحوا بهفإن معناه أحقّ بمعناه

و يا سابقا عيس الغرام سيوفهو كلّ إذا يخشاه فى الحبّ يخشاه

أرحها فقد ذابت من الوجد و السّرىو لم يبق إلّا عظمها أو بقاياه

و يا صاحبى عج بى على الخيف من منىو ما للتعنّى لى بأنّى ألقاه

و عرّج على وادى العقيق لعلّنىأسائل عمّن كان بالأمس مأواه

و قل للّيالى قد سلفن بعيشهو عمر على رغم العذول قطعناه

هل العود أرجوه أم العمر ينقضىفأقضى و لا يقضى الذى أتمنّاه؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۰۹

و من شعره أيضا، قوله، رحمه اللّه: [الطويل]

سرت من ربى نجد معطّرة الرّيّايموت لها قلبى و آونة يحيا

تمسّح أعطاف الأراك بليلةو تنثر كافورا على التربة اللّميا

و ترتدّ فى حجر الرياض مريضةفتحيى بطيب العرف من لم يكن يحيا

و بشرى بأنفاس الأحبّة سحرةفيسرع دمع العين فى إثرها جريا

سقى اللّه دهرا ذكره بنعيمهفكم لجفونى عند ذكراه من سقيا

نآنى محيّاه الأنيق و حسنهو من خلقى قد كنت لا أحمل النأيا

و بى رشأ من أهل غرناطة غدايجود بتعذيبى و يبخل باللّقيا

رمانى فصابنى بأول نظرةفيا عجبا من علّم الرّشأ الرّميا

و بدّد جسمى نوره و كأنهأشعّة شمس قابلت جسدى مليا

تصوّر لى من عالم الحسن خالصافمن عجب أن كان من عالم الدنيا

و همّ بأن يرقى إلى الحور جسمهفثقّلته كتبا و حمّلته حليا

إذا ما انثنى أو لاح أو جاح أو رناسبا القصب و الأقمار و المسك و الضيا

رعى اللّه دهرا كان ينشر وصلهبرود طواها البين فى صدره طيّا

مشيخته: و مما يشتمل على أسماء شيوخه، و يدلّ على تبحّره فى الأدب و رسوخه، إجازته أبا الوليد إسماعيل بن تبر الأيادى، و عندها يقال: أتى الوادى:

[الخفيف]

إنّ لى عند كلّ نفحة بستان من الورد أو من الياسمينا

نظرة و التفاتة أتمنّىأن تكونى حللت فيما تلينا

ما هذه الأنوار اللائحة، و النّوار الفائحة، إنى لأجد ريح الحكمة، و لا مفنّد، و أرد مورد النعمة، و لا منكد، أمسك دارين ينهب، أم المندل الرطب فى الغرام الملهب، أم نفحت أبواب الجنّة ففاح نسيمها، و توضحت أسباب المنّة فلاح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۰

و سيمها: [الطويل]

محيّاك أم نور الصباح تبسّماو ريّاك أم نور الأقاحى تنسّما

فمن شمّ من ذا نفحة رقّ شيمةو من شام من ذا لمحة راق مبسما؟

أجل خلق الإنسان من عجل. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: لتفهموا أسرار الحكم و تعوا، و إذا رأيتم رياض الجنّة فارتعوا، يعنى مجالس الذّكر، و مأنس النظر و الفكر، و مطالع المناظرة، و مواضع المحاضرة، فهذه بتلك، و قد انتظمت الجواهر النبوية فى سلك، و لهان حمى للعطارة و طيس، بين مسك المداد و كافور القراطيس. فيا أيها المعلم الأوحد، و العالم الذى لا تنكر أمامته و لا تجحد، حوّمت على علم الملوك، و لزمت بحلم طريق الحكم المسلوك، فلم تعد أمل الحكماء، و لم تعد إلّا بعمل العلماء، و قد قال حكيمهم الفاضل، و عظيمهم الذى لا- مناظر له و لا- مفاضل: إذا خدمت الأمراء فكن بين استلطاف و استعطاف، تجن المعارف و العوارف دانية القطاف، فتعلّمهم و كأنك تتعلّم منهم، و ترويهم و كأنك تروى عنهم، فأجريت الباب، و امتريت من العلم اللّباب، ثم لم تبعد، فقد فعل النحويون ذلك فى يكرم، و يعد، و يعزّ، و لا غرو أن تقرأ على من هو دونك، و تستجيز الإجازة عن القوم العظام يقصدونك. فهذا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، قد أمره اللّه بأن يقرأ على أبىّ بن كعب، فهل فى حىّ الخواطر الذكية من حىّ؟ فقال له، رضى اللّه عنه: اللّه أمرك أن تقرأ علىّ، و العناية الرّبانية تنادى إلىّ إلىّ، و إذا قال لى: من أحبّ مولاى، و استعار لزينته حلاى:

فما على الحبيب من اعتراضو للطّبيب تصرّف فى المراض

قد يرحل المرء لمطلوبهو السبب المطلوب فى الرّاحل

عجت متواضعا، فما أبرمت فى معاجك، و لا- ظلمت فى السؤال نعجته إلى نعاجك، فإنه سرّ اللّه، لا يحلّ فيه الإفشاء، و حكمة اللّه البالغة، و اللّه يؤتى الحكمة من يشاء، و إن لبست من التواضع شعارا، و لبست عن الترفع تنبيها على السّر المكتوم و إشعارا، فهذه الثريّا من العجائب إذا ارتفعت فى أعلى صعودها، و أسمى راياتها الخافقة و بنودها، نهاية وجودها الحسّى عدم، و غاية وصفها الشّبهى أن

تشبّه بقدم، فإذا همّت بالركوع، و شمّت فى المغرب ريح الوقوع، كان لها من السّمو القدح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۱

المعلّى، و عادت قرطا تتزيّن به الآذان و تتحلّى:

و فى الشرق كأس و فى مغاربهاقرط و فى وسط السماء قدم

هذه آثار التواضع متلوّة السّور، مجلوّة الصّور، و كان بعضهم إذا أعطى الصّدقة، يعطيها و يده تحت يد السّائل، و هكذا تفهم المسائل. فإنه لما سمع النبوة تقول: اليد العليا خير من اليد السّفلى، أراد أن يؤثر المقام الأعلى. و لما أعطى أبو بكر، رضى اللّه عنه، ماله كله، أعطى عمر، رضى اللّه عنه، النصف من المال، لاحتياطا على ماله، و لكن ليقف لأبى بكر فى مقام القصور عن كماله، تفويضا و تسليما، و تنبيها لمن كان له قلب و تعليما. و رؤى الدّارقطنى، رحمه اللّه عليه، يحبس أباه بركابه، فلا ينكر عليه، فقيل له فى ذلك، فقال: رأيته يبادر إلى فضيلة، فكرهت مخالفته: [البسيط]

فوق السماء و فوق الزّهر ما طلبواو هم إذا ما أرادوا غاية نزلوا

و إلى هذا وصل اللّه حفظك، و أجزك من الخيرات حظّك، فإنه وصلتنى الكرّاسة المباركة، الدّالّة على التفنن فى العلوم و المشاركة، فبينما أنا أتلو الإجازة، و أريق صدور البيان و إعجازه، ألقى إلىّ كتاب كريم، إنه من أبى الوليد، و إنه بسم اللّه الرحمن الرحيم، فحرت، و وقفت كأننى سحرت، و قلت: ساحران تظاهرا معا، و أحدهما قاتلى، فكيف إذا اجتمعا: [الطويل]

فلو كان رمحا واحدا لاتّقيتهو لكنه رمح و ثان و ثالث

و من لعبت بشيمته المثانىفأحرى أن تطير به المثالث

و طار بى الشوق كلّ مطار، و قرأت سماء فكرتى سورة الانفطار، و كدت أصعد إلى السماء توقّدا، و اختلط بالهواء تودّدا: [الكامل]

كانت جواهرنا أوائل قبل ذانفالآن صارت بالتحول ثوان

وجدت وراء الحسن و هى كثيفةفوجودهن الآن فى الأذهان

و لم يكف أن بهرت بالحسن الخلوب، حتى أمرت أن أنظم على ذاك الأسلوب، و بالحرىّ لذلك النثر البديع، الحريرىّ أو البديع، و لذلك النّظم العجيب، المتنبى أو حبيب، و لذلك التصوف الرقيق، الحارث بن أسد ذى التحقيق. و أما الحديث، فما لك تقطع تلك المسالك، إلّا أن العربية ليس لأحد معه فيها دليل،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۲

أستغفر اللّه إلّا للخليل، لكن أصول الدين مجريّة، تركت تلك الميادين. هنّاك اللّه جمع كل منقبة جليلة، فترى الفضيلة لا تردّ فضيلة، فمر الرديف و قد ركب غضنفرا، أو المدّعى صفة فضل، و كلّ الصّيد فى جوف الفرا . من يزحم البحر يغرق، و من يطعم الشجر يشرق. و هل يبارى التوحيد بعمل، أو يجارى البراق بجمل؟ ذلك انتهى إلى سدرة المنتهى، و هل انبرى ليلطم خدّه فى الثرى؟ لا تقاس الملائكة بالحدّادين، و لا حكماء يونان بالفدادين. أفى طريق الكواكب يسلك، و على الفلك الأثير يستملك؟ أين الغد من الأمس، و ظلمة الغسق من وضح الشمس؟ و لو لا ثقتى بغمام فضلك الصّيّب، لتمثلت لنفسى بقول أبى الطيب : [الطويل]

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمقأراه غبارى ثم قال له ألحق

فإن رضيت أيها العلم، فما لجرح إذا أرضاكم. أ لم تر كيف أجارى أعوج بمغرب أهوج و أجارى ذا العقال بجحش فى عقال؟ ظهر بهذه الظّلمة، ذلك الضياء، و بضدّها تتبين الأشياء. و ما يزكو بياض العاج حتى يضاف إلى سواد الأبنوس. ألفاظ تذوب رقّة، و أغراض تملك حبّ الكريم و رقّة الزّهر، و الزّهر بين بنان و بيان، و الدرّ طوع لسان و إحسان: [الوافر]

و قالوا ذاك سحر باهليّ فقلت و فى مكان الهاء باء

و أما محاسن أبى الوليد، فيقصر عنها أبو تمام و ابن الوليد: [المتقارب]

معان لبسن ثياب الجمالو هزّت لها الغانيات القدودا

كسون عبيدا ثياب عبيدو أضحى لبيد لديها بليدا

و كيف أعجب من إجرائك لهذه الجياد، و أياديك من إياد؟ أورثت هذه البراعة المساعدة، عن قسّ بن ساعدة؟ أجدّك أنت الذى وصف رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فقال: كأنى أنظر إليه فى سوق عكاظ على جمل أورق، و هو يقول أيها الناس: مطر و نبات، و آباء و أمهات، إلى قوله: [مجزوء الكامل]

فى الذاهبين الأوّلين من القرون لنا بصائر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۳ لمّا رأيت مواردللموت ليس لها مصادر

أيقنت أنّى لا محالة حيث صار القوم صائر

إيه بغير تمويه. رجع الحديث الأول إلى ما عليه المعوّل. سألتنى، أيها السيد الذى يجب إسعافه، أن أرغم أنف القلم حتى يجرى رعافه، و أن أكحّل جفون الأوراق بمداد الأقلام، و أن أجمع الطّروس و الأمدّة ، بين إصباح و إظلام، و أطرّز بياض السّوسن بخضرة الآس، و أبرز العلم الأبيض تحت راية بنى العباس، فقلت مبادرا ممتثلا، و جلت فى ميدان الموافقة متمثّلا: [البسيط]

لبّيك لبّيك أضعافا مضاعفةإنّى أجبت و لكن داعى الكرم

أتى من المجد أمر لا مردّ لهأمشى على الرأس فيه لا على القدم

دعاء و اللّه مجاب؛ و نداء ليس دونه حجاب: [المتقارب]

كتبت و لو أنى أستطيعلإجلال قدرك بين البشر

قددت البراعة من أنملى كأنّ المداد سواد البصر

نعم أجزت، سيدى الفقيه الأجل، الخطيب الأكرم، العالم العلم، الأوحد الأكمل، الحسيب الأحفل الأطول، أبا الوليد بن الفقيه الأجل، المعظم الموقر، المكرم المبارك الأظهر، المرحوم أبى زكريا يحيى بن سعيد بن قترى الأيادى القرمونى، و نبيه السّادات النجباء المباركين، أبا القاسم أحمد، و أبا إسحاق إبراهيم، و أبا الحسين بتزيا. و نعمت الأغصان و الشجرة، و الأقنان و الثمرة، أقرّ اللّه بهم أعين المجد، و لا زالوا بدورا فى مطالع السّعد، و لا برحوا فى مكارم يجنون نوّارها، و يجتلون أنوارها، و تفيض عليهم يد العناية الإلهية، نهرها الكوثرى و نهارها، جميع ما رويته قراءة و سماعا، و إجازة و مناولة، من العلوم على اختلافها، و تباين أصنافها، بأى وجه رويته، و على أى وصف تقلّدته و دريته، و كذلك أجزتهم جميع ما قلته و أقوله، من مسطور و مرسوم، و منثور و منظوم، و تصرّفت فيه من منقول و مفهوم، و قصائدى المسماة بالرّوحانيات، و معشّراتى الحبيبات، و ما نظمته من الوتريات، و شرحى لشعر أبى الطيب المسمى ب «ظهور الإعجاز بين الصدور و الأعجاز»، و كتابى المسمى «شمس البيان فى لمس البنان»، و الزهرة الفائحة فى الزّهرة اللائحة، و نفح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۴

الكمامات فى شرح المقامات، و اقتراح المتعلمين فى اصطلاح المتكلمين، و كتاب التّصوّر و التصديق، فى التوطية لعلم التحقيق، و رقم الحلل، فى نظم الجمل، و مفتاح الإحسان، فى إصلاح اللسان. و ما أنشأته من السلطانيات نظما و نثرا، و خطابة و شعرا.

و اللّه تعالى يجعل أعمالنا خالصة لوجهه بمنّه و كرمه، فليقل الفقيه الأجل، و بنوه الأكرمون، رضى اللّه عنهم، أنبأنا و أخبرنا و حدّثنا، أو ما شاءوا من ألفاظ الرواية، بعد تحرى الشروط المرعيّة، فى الإجازات الشرعية، و إن ذهبوا حفظ اللّه كمالهم، و أراهم فى الدارين آمالهم، إلى تسمية من لى من المشايخ، قدّس اللّه أرواحهم، و زحزح عن النار أشباحهم:

فمنهم الأستاذ الخطيب الكبير، العالم الفاضل الجليل، البقيّة الصالحة، آخر الأدباء، و خاتمة الفضلاء، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن إبراهيم الحميرى القرطبى الدّار، رضى اللّه عنه. قرأت عليه بقرطبة شعر أبى الطيب قراءة فهم لمعانيه، و إعراب لألفاظه؛ و تحقيق للغته،

و تنقير عن بديعه. و كذلك قرأت عليه أكثر شعر أبى تمام.

و سمعت عليه كتاب الكامل لأبى العباس المبرّد، و مقامات التميمى، كان يرويها عن منشئها، و كانت عنده بخط أبى الطاهر. و تفقهت عليه «تبصرة الضمرى». و كان على شياخته، رحمه اللّه، ثابت الذهن، مقبل الخاطر، حافظ المعيّا: [الوافر]

يروع ركانة و يذوب ظرفافما تدرى أ شيخ أم غلام

نأتيه بمقاطيع الشعر فيصلحها لنا. و يقف على ما نستحسنه منها، فنجده أثبت منّا، و لقد أنشدته يوما، فى فتى مفقود العين اليسرى: [الكامل]

لم تزو إحدى زهرتيه و لا انثنتعن نورها و بديع ما تحويه

لكنه قد رام يغلق جفنهليصيب بالسّهم الذى يرميه

فاستفادهما و حفظهما، و لم يزل، رحمه اللّه، يعيدهما مستحسنا لهما، متى وقع ذكرى. و كان يروى عن الإمام المازرى بالإجازة، و عن القاضى أبى مروان بن مسرّة، و عن الأستاذ عباس، و عن أبى عبد اللّه بن أبى الخصال.

و منهم الفقيه الأجل العالم العدل، المحدّث الأكمل، المتفنن، الخطيب، القاضى أبو محمد بن حوط اللّه. سمعت عليه كتبا كثيرة بمالقة، بقراءة الفقيه الأستاذ أبى العباس بن غالب، و لقيته بقرطبة أيضا، و هو قاضيها. و حدّثنى عن جدّى، و عن جملة شيوخ، و له برنامج كبير، و أخوه القاضى الفاضل أبو سليمان أيضا منهم.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۵

و منهم الفقيه الأجلّ، العالم العلم، الأوحد، النحوى، الأديب المتفنن، أبو على عمر بن عبد المجيد الأزدى، قرأت عليه القرآن العزيز مفردات، و كتاب الجمل، و الإيضاح، و سيبويه تفقها، و كذلك الأشعار السّتة تفقها، و ما زلت مواظبا له إلى أن توفى رحمه اللّه. و كان فريد عصره فى الذكاء و الزكا. و لم يكن فى حلبة الأستاذ أبى زيد السّهيلى أنجب منه على كثرتهم. و قد قال الأستاذ أبو القاسم السهيلى للإمام المنصور، رضى اللّه: هو أقعد لكتاب سيبويه منّا. و قال لى يوما، و قد نظر إلى طالب يصغى بكليته إلى ثان، فقلت: ما ذا؟ فقال: إنّ حبّ الشىء يعمى و يصمّ، فقلت له:

و يعيد الصّبح ليلا مدلهمّ، فاستحسنه.

و منهم الفقيه الأجلّ، الأديب الأريب الكامل، اللغوى الشهير، أبو على ابن كسرى الموري، قريبى و معلّمى. و كان من طلبة أبى القاسم السّهيلى، و ممن نبغ صغيرا. و هو الذى أنشد فى طفولته السيد أبا إسحاق الكبير بإشبيلية: [الكامل]

قسما بحمص و إنه لعظيمفهى المقام و أنت إبراهيم

و كان بالحضرة الأستاذ أبو القاسم السهيلى، فقام عند إتمامه القصيدة، فقال: لمثل هذا كنت أحسيك الحسا، و لمثل هذا كنت أواصل فى تعليمك الإصباح و الإمساء. و قد أنشد هذا لأمير المؤمنين أبى يعقوب ، رضى اللّه عنه:

[الطويل]

أ معشر أهل الأرض بالطّول و العرضبهذا أنادى فى القيامة و العرض

فقد قال اللّه فيك ما أنت أهلهفيقضى بحكم اللّه فيك بلا نقض

فإياك يعنى ذو الجلال بقولهكذلك مكّنّا ليوسف فى الأرض

و منهم الفقيه الأجل، العالم المحدّث، الحافظ الفاضل المؤثر، السيد أبو محمد القرطبى، قرأت عليه القرآن بالروايات مفردات، و تفقهت فى الجمل و الأشعار، و أجازنى جميع ما رواه. و كذلك فعل كل واحد ممن تقدّم ذكره. و كان، رحمه اللّه، آخر الناس علما و نزاهة و حسن خلق، و جمال سمت و أبهة و وقار، و إتقان و ضبط، و جودة و حفظ.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۶

و منهم الفقيه الأجل، الحاج الفاضل، الشّهيد فى كائنة العقاب ، المحدّث الورع، الزاهد الطاهر، أبو عبد اللّه بن حسين بن صاحب الصلاة الأنصارى، و عليه كان ابتدائى للقراءة، و كان مبارك التعليم، حسن التفهيم، شديد التواضع.

و منهم الفقيه الأجل الفاضل الورع، المحدث، الحاج الملهم، المجاب الدعوة، الميمون النّقيبة، الأوّاب، أبو الحجاج بن الشيخ، رضى اللّه عنه. و هذا الكتاب على الإطالة منى، و لكن القرطاس فنّى، و السلام الأتمّ عليكم، و رحمة اللّه و بركاته. قال ذلك، و كتبه العبد المعترف بذنبه، الراجى رحمة ربّه، محمد بن عبد اللّه الحميرى ثم الإستجى، فى أواسط شعبان المكرم من عام أحد و أربعين و ستمائة.

وفاته: من خطّ الوزير أبى محمد عبد المنعم بن سماك، قال: قدم غرناطة، أظنّ سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، و شكى علّة البطن مدة ثمانية أشهر بدار أبى، رحمه اللّه، مرّضناه الثلاثة الأخوة، إلى أن توفى، رحمه اللّه، و دفن بمدفنه، مغنى الأدب، بروضة الفقيه أبى الحسن سهل بن مالك.

محمد بن أحمد بن على الهوّارى

يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن جابر، من أهل ألمريّة.

حاله: رجل كفيف البصر، مدلّ على الشعر، عظيم الكفاية و المنّة على زمانته . رحل إلى المشرق، و تظافر برجل من أصحابنا يعرف بأبى جعفر الإلبيرى، صارا روحين فى جسد، و وقع الشّعر منهما بين لحيى أسد، و شمّرا للكدية، فكان وظيف الكفيف النّظم، و وظيف البصير الكتب، و انقطع الآن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۷

خبرهما. و جرى ذكره فى الإكليل بما نصّه : محسوب من طلبتها الجلّة، و معدود فيمن طلع بأفقها من الأهلّة، رحل إلى المشرق، و قد أصيب ببصره، و استهان فى جنب الاستفادة بمشقّة سفره، على بيان عذره، و وضوح ضرّه.

شعره: و شعره كثير، فمنه قوله : [الطويل]

سلو مسرّ ذاك الخال فى صفحة الخدّمتى رقموا بالمسك فى ناعم الورد

و من هزّ غصن القدّ منها لفتنتىو أودعه رمّانتى ذلك النّهد

و من متّع القضب اللّدان بوصلها إلى أن أعرن الحسن من ذلك القدّ

فتاة تفتّ القلب منى بمقلةله رقّة الغزلان فى سطوة الأسد

تمنّيت أن تهدى إلىّ نهودهافقالت رأيت البدر يهداه أو يهدى

فقلت و للرّمان بدّ من الجنىفتاهت و قالت باللّواحظ لا الأيدى

فقلت أليس القلب عندك حاصلا ؟فقالت قلوب الناس كلّهم عندى

و قلت اجعلينى من عبيدك فى الهوىفقالت كفانى كم لحسنى من عبد

إذا شئت أن أرضاك عبدا فمت جوى و لا تشتكى و اصبر على ألم الصّدّ

أ لم تر النّحل يحمل ضرّهالأجل الذى تجنيه من خالص الشهد؟

كذلك بذل النّفيس سهل لذى النّهىلما يكسب الإنسان من شرف الحمد

أ لست ترى كفّ ابن جانة طالما أضاع كريم المال فى طلب المجد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۸

و من شعره أيضا قوله : [الكامل]

عرّج على بان العذيب و نادو أنشد فديتك أين حلّ فؤادى

و إذا مررت على المنازل بالحمىفاشرح هنالك لوعتى و سهادى

إيه فديتك يا نسيمة خبّرىأرب الأحبّة و الحمى و الوادى

يا سعد، قد بان العذيب و بانهفانزل فديتك قد بدا إسعادى

خذ فى البشارة مهجتى يوما إذابان العذيب و نور حسن سعاد

قد صحّ عيدى يوم أبصر حسنهاو كذا الهلال علامة الأعياد

و ممّا نقلناه من خبر قيّده لصاحبنا الفقيه الأستاذ أبى على منصور الزواوى، و ممّا ادعاه لنفسه : [الوافر]

علىّ لكلّ ذى كرم ذمامولى بمدارك المجد اهتمام

و أحسن ما لدىّ لقاء حرّو صحبة معشر بالمجد هاموا

و إنى حين أنسب من أناسعلى قمم النجوم لها مقام

يميل بهم إلى المجد ارتياح كما مالت بشاربها المدام

هم لبسوا أديم الليل برداليسفر من مرادهم الظلام

هم جعلوا متون العيس أرضافمذ عزموا الرّحيل فقد أقاموا

فمن كلّ البلاد لنا ارتحالو فى كلّ البلاد لنا مقام

و حول موارد العلياء منها لنا مع كلّ ذى شرف زحام

تصيب سهامنا غرض المعالىإذا ضلّت عن الغوص السّهام

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۱۹ و ليس لنا من المجد اقتناعو لو أنّ النجوم لنا خيام

ننزّه عرضنا عن كل لومفليس يشين سؤددنا ملام

و نبذل لا نقول العام ما ذاسواء كان خصب أو حطام

إذا ما المحل عمّ بلاد قومأثبناها فجاد بنا الغمام

و إن حضر الكرام ففى يديناملاك أمورهم و لنا الكلام

و فينا المستشار بكل علمو منّا اللّيث و البطل الهمام

فميدان الكلام لنا مداهو ميدان الحروب بنا يقام

كلا الأمرين ليس له بقومسوانا يوم نازلة تمام

يريق دم المداد بكل طرسو ليس سوى اليراع لنا سهام

و كتب بالمثقّفة العوالىبحيث الطّرس لبّات و هام

إذا عبست وجوه الدهر منّاإليها فانثنت و لها انتقام

لقد علمت قلوب الرّوم أنّاأناس ليس يعوزنا مرام

و ليس يضيرنا أنا قليللعمر أبيك ما كثر الكرام

إذا ما الرّاية الحمراء هزّتنعم فهناك للحرب ازدحام

و ما أحمرّت سدى بل من دماءليس على جوانبها انسجام

تظلّل من بنى نصر ملوكاحلال النّوم عندهم حرام

فكم قطعوا الدّجى فى وصل مجدو كم سهروا إذا ما الناس ناموا

أبا الحجاج لم تأت الليالىبأكرم منك إن عدّ الكرام

و لا حملت ظهور الخيل أمضىو أشجع منه إن هزّ الحسام

و أنّى جئت من شرق لغربو رمت بى الزمان كما ترام

و جرّبت الملوك و كل شخص‌تحدّث عن مكارمه الأنام

فلم أر مثلكم يا آل نصرجمال الخلق و الخلق العظام

و منها:

لأندلس بكم شرف و ذكرتودّ بلوغ أدناه الشّآم

سعى صوب الغمام بلاد قومهم فى كل مجدبة غمام

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۰ إليك بها مهذّبة المعانى‌يرينها ابتسام و انتظام

لها لجناب مجدكم انتظام‌طواف و فى أركان إسلام الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص ۲۲۰

زت و ما كادت، و قد وطى الإيطاء صروحكم، و أعيا الإكثار حارثها و سروجها، و اللّه ولىّ التّجاوز بفضله.

محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادى آشى

يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: شاعر مفلق، و أديب شهير، مشار إليه فى التعاليم، منقطع القرين منها فى الموسيقى، مضطلع بفكّ المعمّى. سكن ألمريّة، و اشتهر بمدح رؤسائها من بنى صمادح. و قال ابن بسّام: كان أبو عبد اللّه هذا شمس ظهيرة، و بحر خبر و سيرة، و ديوان تعاليم مشهورة، وضح فى طريق المعارف وضوح الصّبح المتهلّل، و ضرب فيها بقدح ابن مقبل ، إلى جلالة مقطع، و أصالة منزع، ترى العلم ينمّ على أشعاره، و يتبيّن فى منازعه و آثاره.

تواليفه: ديوان شعر كبير معروف. و له فى العروض تصنيف ، مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية، و الآراء الجليلة.

بعض أخباره: حدّث بعض المؤرخين ممّا يدلّ على ظرفه أنه فقد سكنا عزيزا عليه، و أحوجت الحال إلى تكلّف سلوة، فلمّا حضر الندماء، و كان قد رصد الخسوف بالقمر ، فلمّا حقّق أنه قد ابتدأ، أخذ العود

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۱

و غنّى : [المتقارب]

شقيقك غيّب فى لحدهو تشرق يا بدر من بعده

فهلّا خسفت و كان الخسوف حدادا لبست على فقده؟

و جعل يردّدها، و يخاطب البدر، فلم يتمّ ذلك إلّا و اعترضه الخسوف، و عظم من الحاضرين التعجّب. قال : و كان منى فى صباه بصبية من الرّوم، نصرانية، ذهبت بلبّه و هواه، تسمّى نويرة، افتضح بها، و كثر نسيبه.

شعره: قال فى الغرض المذكور : [الطويل]

حديثك ما أحلى! فزيدى و حدّثىعن الرّشإ الفرد الجمال المثلّث

و لا تسأمى ذكراه فالذّكر مؤنسىو إن بعث الأشواق من كلّ مبعث

و باللّه فارقى خبل نفسى بقولهو فى عقد وجدى بالإعادة فانفثى

أ حقّا و قد صرّحت ما بى أنه‌تبسّم كاللاهى، بنا، المتعبّث

و أقسم بالإنجيل إنّى شابق و ناهيك دمعى من محقّ محنّث

و لا بدّ من قصّی علی القسّ قصّتی‌عساه مغیث المذنف المتغوّث

و لم یأتهم عیسی بدین قساوةفیقسو علی بثّی و یلهو بمکرث

و قلبی من حلی التجلّد عاطل‌هوی فی غزال الوادیین المرعّث

سیصبح سرّی کالصباح مشهّراو یمسی حدیثی عرضة المتحدّث

و یغری بذکری بین کأس و روضةو یشدو بشعری فوق مثنی و مثلث

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۲

و من شعره فی الأمداح الصّمادحیة : [الطویل]

لعلّک بالوادی المقدّس شاطیءو کالعنبر الهندیّ ما أنت واطئ

و إنّی فی ریّاک واجد ریحهم فروح الجوی بین الجوانح ناشئ

ولی فی السّری من نارهم و منارهم‌هداة حداة و النجوم طوافیء

لذلک ما حنّت رکابی و حمحمت‌عرابی و أوحی سیرها المتباطیء

فهل هاجها ما هاجنی؟ أو لعلّهاإلی الوخد من نیران وجدی لواجیء

رویدا فذا وادی لبینی و إنه‌لورد لباناتی و إنی لظامیء

میادین تهیامی و مسرح ناظری‌فللشّوق غایات لها و مبادئ

و لا تحسبوا غیدا حمتها مقاصرفتلک قلوب ضمّنتها جآجیء

و منها:

محا ملّة السّلوان مبعث حسنه‌فکلّ إلی دین الصّبابة صابیء

فکیف أرقّی کلم طرفک فی الحشاو لیس لتمزیق المهنّد رافیء؟

و ما لی لا أسمو مرادا و همّةو قد کرمت نفس و طابت ضآضیء؟

و ما أخّرتنی عن تناه مبادئو لا قصّرت بی عن تباه مناشئ

و لکنّه الدّهر المناقض فعله‌فذو الفضل منحطّ و ذو النقص نامئ

کأنّ زمانی إذ رآنی جذیله‌یلابسنی منه عدوّ ممالئ

فداریت إعتابا و دارأت عاتباو لم یغننی أنی مدار مداریء

فألقیت أعباء الزمان و أهله‌فما أنا إلّا بالحقائق عابیء

و لازمت سمت الصّمت لاعن فدامة فلی منطق للسّمع و القلب صابیء

و لو لا علا الملک ابن معن محمدلما برحت أصدافهنّ اللآلئ

لآلیء إلا أنّ فکری غائص‌و علمی ذو ماء و نطقی شاطیء

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۳ تجاوز حدّ الوهم و اللّحظ و المنی‌و أعشی الحجا لألاؤه المتلالیء

فتنعکس الأبصار و هی حواسرو تنقلب الأفکار و هی خواسیء

و قال من أخری : [الکامل]

أقبلن فی الحبرات یقصرن الخطاو یرین فی حلل الوراشین القطا

سرب الجوی لا الجوّ عوّد حسنه‌أن یرتعی حبّ القلوب و یلقطا

مالت معاطفهنّ من سکر الصّبامیلا یخیف قدودها أن تسقطا

و بمسقط العلمين أوضح معلملمهفهف سكن الحشا و المسقطا

ما أخجل البدر المنير إذا مشىيختال و الخوط النضير إذا خطا

و منها فى المدح:

يا وافدى شرق البلاد و غربهاأكرمتما خيل الوفادة فاربطا

و رأيتما ملك البريّة فاهنآو وردتما أرض المريّة فاحططا

يدمى نحور الدّارعين إذا ارتأىو يذلّ عزّ العالمين إذا سطا

و إحسانه كثير. دخل غرناطة، و من بنات عملها وطنه، رحمه اللّه.

محمد بن إبراهيم بن خيرة

يكنى أبا القاسم. و يعرف بابن المواعينى ، حرفة أبيه، من أهل قرطبة.

و استدعاه السيد أبو سعيد الوالى بغرناطة إليه، فأقام عنده مدة من عامين فى جملة من الفضلاء مثله.

حاله: قال ابن عبد الملك : كان كاتبا بليغا، شاعرا مجيدا، استكتبه أبو حفص بن عبد المؤمن، و حظى عنده حظوة عظيمة، لصهر كان بينهما بوجه ما،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۴

و نال فيه جاها عظيما، و ثروة واسعة. و كان حسن الخطّ رائقه، سلك فيه فى ابتدائه مسلك المتقن أبى بكر بن خيرة .

مشيخته: روى عن أبى بكر بن عبد العزيز، و ابن العربى، و أبى الحسن شريح، و يونس بن مغيث، و أبى عبد اللّه حفيد مكّى، و ابن أبى الخصال، و ابن بقىّ .

تواليفه: له تصانيف تاريخية و أدبية منها «ريحان الآداب ، و ريعان الشباب» لا نظير له. و «الوشاح المفضّل» . و كتاب فى الأمثال السائرة. و كتاب فى الأدب نحا فيه منحى أبى عمر بن عبد البرّ فى «بهجة المجالس».

وفاته: توفى بمرّاكش سنة أربع و ستين و خمسمائة .

محمد بن إبراهيم بن على بن باق الأموى

مرسى الأصل، غرناطى النشأة، مالقى الإسكان، يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: من عائد الصلة : كان، رحمه اللّه تعالى ، كاتبا أديبا ذكيّا، لوذعيّا، يجيد الخطّ، و يرسل النادرة، و يقوم على العمل، و يشارك فى الفريضة.

و بذّ السّبّاق فى الأدب الهزلى المستعمل بالأندلس. عمر زمانا من عمره، محارفا للفاقة، يعالج بالأدب الكدية، ثم استقام له الميسم، و أمكنه البخت من امتطاء غاربه، فأنشبت الحظوة فيه أناملها بين كاتب و شاهد و محاسب و مدير تجر، فأثرى و نما ماله، و عظمت حاله، و عهد عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين، لتصرف فى وجوه من البرّ، فتوهّم أنها كانت زكاة امتسك بها.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۵

و جرى ذكره فى التاج بما نصّه : مدير أكواس البيان المعتّق، و لعوب بأطراف الكلام المشقّق، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه، فأبرز درّ معانيه من أصدافه، و جنى ثمرة الإبداع لحين قطافه. ثم تجاوزه إلى المعرّب و تخطّاه، فأدار كأسه المترع و عاطاه، فأصبح لفنّيه جامعا، و فى فلكيه شهابا لامعا، و له ذكاء يطير شرره، و إدراك تتبلّج غرره، و ذهن يكشف الغوامض، و يسبق البارق الوامض ، و على ذلاقة لسانه، و انفساح أمد إحسانه، فشديد الصّبابة بشعره ، مغل لسعره.

شعره: أخبرنى الكاتب أبو عبد اللّه بن سلمة، أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله، فى رويّه : [الخفيف]

أحرز الخصل من بنى سلمه كاتب تخدم الظّبا قلمه

يحمل الطّرس عن أناملهأثر الطّرس كلّما رقمه

و تمدّ البيان فكرته مرسلا حيث يمّمت ديمه

خصّنى متحفا بخمس إذابسم الرّوض فقن مبتسمه

قلت أهدى زهر الرّبا خضلافإذا كلّ زهرة كلمه

أقسم الحسن لا يفارقهافأبرّ انتقاؤها قسمه

خطّ أسطارها و نمّقهافأتت كالقعود منتظمه

كاسيا من حلاه لى حللارسمها من بديع ما رسمه

طالبا عند عاطش نهلاولديه الغيوث منسجمه

يبتغى الشّعر من أخى بلهأخرس العىّ و القصور فمه

أيها الفاضل الذى حمدت ألسن المدح و الثّنا شيمه

لا تكلّف أخاك مقترحانشر عار لديه قد كتمه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۶ وابق فى عزّة و فى دعةصافى العيش واردا شبمه

ما ثنى الغصن عطفه طرباوشدا الطير فوقه نغمه

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزّبير، و الخطيب أبى عثمان بن عيسى.

وفاته: توفى بمالقة فى اليوم الثامن و العشرين لمحرم عام اثنين و خمسين و ستمائة ، و أوصى بعد أن حفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبى عبد اللّه الطّنجالى و أبى عثمان بن عيسى، أن يدفن به ، و أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

[الطويل]

ترحّم على قبر ابن باق وحيّهفمن حقّ ميت الحىّ تسليم حيّه

و قل آمن الرحمن روعة خائفلتفريطه فى الواجبات وغيّه

قد اختار هذا القبر فى الأرض راجيامن اللّه تخفيفا بقرب وليّه

فقد يشفع الجار الكريم لجارهو يشمل بالمعروف أهل نديّه

و إنى بفضل اللّه أوثق واثقو حسبى و إن أذنبت حبّ نبيّه

محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافرى

من أهل ألمرية، يدعى بالبيّو ، و يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: من الإكليل الزاهر: شيخ أخلاقه ليّنة، و نفسه كما قيل هيّنة، ينظم الشعر سهلا مساقه، محكما اتّساقه، على فاقة ما لها من إفاقة.

أنشد السلطان

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۷

بظاهر بلده قوله: [الطويل]

سرت ريح نجد من ربى أرض بابلفهاجت إلى مسرى سراها بلابلى

و ذكّرنى عرف النّسيم الذى سرىمعاهد أحباب سراة أفاضل

فأصبحت مشغوفا بذكرى منازلألفت، فوا شوقى لتلك المنازل

فيا ريح هبّى بالبطاح و بالرّباو مرّى على أغصان زهر الخمائل

و سيرى بجسمى للتى الروح عندهافروحى لديها من أجلّ الوسائل

و قولى لها عنى معنّاك بالهوى له شوق معمود و عبرة ثاكل

فيا بأبى هيفاء كالغصن تنثنى بقدّ يقدّ كاد ينقدّ مائل

فتاة براها اللّه من فتنة فمنرآها و لم يفتن فليس بعاقل

لها منظر كالشمس فى رونق الضّحاو لحظ كحيل ساحر الطّرف بابلى

بطيب شذاها عطّرت كلّ عاطركما بحلاها زيّنت كلّ عاطل

رمتنى بسهم من سهام جفونهافصادف ذاك السّهم منى مقاتلى

فظلت غريقا فى بحار من الهوىو ما الحبّ إلّا لجّة دون ساحل

فيا من سبت عقلى و أفنت تجلّدىصلينى فإنّ البعد لا شكّ قاتلى

فلى كبد شوقى إليك تفطّرتو قلب بنيران الجوى فى مشاعلى

ولى أدمع تحكى ندا كف يوسفأمير العلى الأرضى الجميل الفضائل

إذا مدّ بالجود الأنامل لم تزلبحور النّدى تهمى بتلك الأنامل

و من شعره قوله من قصيدة : [الكامل]

بهرت كشمس فى غلالة عسجدو كبدر تمّ فى قضيب زبرجد

ثم انثنت كالغصن هزّته الصّباطربا فتزرى بالغصون الميّد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۸ حوراء بارعة الجمال غريرة تزهى فتزرى بالقضيب الأملد

إن أدبرت لم تبق عقل مدبّرأو أقبلت قتلت و لكن لا تدى

تواليفه: قال شيخنا أبو البركات: و ابتلى باختصار كتب الناس، فمن ذلك مختصره المسمّى ب «الدّرر المنظومة الموسومة، فى اشتقاق حروف الهجا المرسومة» ، و كتاب فى حكايات تسمى «روضة الجنان» ، و غير ذلك.

وفاته: توفى فى أواخر رمضان من عام تسعة و أربعين و سبعمائة، و دخل غرناطة غير مرة.

محمد بن إدريس بن على بن إبراهيم بن القاسم

اشارة

من أهل جزيرة شقر ، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن مرج الكحل .

حاله: كان شاعرا مفلقا غزلا بارع التّوليد، رقيق الغزل. و قال الأستاذ أبو جعفر: كان شاعرا مطبوعا، حسن الكفاية، ذاكرا للأدب، متصرّفا فيه. قال ابن عبد الملك: و كانت بينه و بين طائفة من أدباء عصره مخاطبات، ظهرت فيها إجادته.

و كان مبتذل اللباس، على هيئة أهل البادية، و يقال إنه كان أمّيّا.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۲۹

من أخذ عنه: روى عنه أبو جعفر بن عثمان الورّاد، و أبو الربيع بن سالم، و أبو عبد اللّه بن الأبّار، و ابن عسكر، و ابن أبى البقاء، و أبو محمد بن عبد الرحمن بن برطلة، و أبو الحسن الرعينى.

شعره و دخوله غرناطة

قال فى عشيّة بنهر الغنداق، خارج بلدنا لوشة بنت الحضرة، و المحسوب من دخلها فقد دخل إلبيرة، و قد قيل: إن هذا النهر من أحواز برجة، و هذا الخلاف داع إلى ذكره : [الكامل]

عرّج بمنعرج الكثيب الأعفربين الفرات و بين شطّ الكوثر

و لنغتبقها قهوة ذهبيّةمن راحتى أحوى المراشف أحور

و عشيّة قد كنت أرقب وقتهاسمحت بها الأيام بعد تعذّر

نلنا بها آمالنا فى روضةتهدى لناشقها شميم العنبر

و الدّهر من ندم يسفّه رأيهفيما مضى منه بغير تكدّر

و الورق تشدو و الأراكة تنثنىو الشمس ترفل فى قميص أصفر

و الرّوض بين مفضّض و مذهّب و الزّهر بين مدرهم و مدنّر

و النهر مرقوم الأباطح و الرّبى بمصندل من زهره و معصفر

و كأنّه و كأنّ خضرة شطّهسيف يسلّ على بساط أخضر

و كأنما ذاك الحباب فرندهمهما طفا فى صفحة كالجوهر

و كأنّه، وجهاته محفوفةبالآس و النّعمان، خدّ معذّر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۰ نهر يهيم بحسنه من لم يهمو يجيد فيه الشّعر من لم يشعر

ما اصفرّ وجه الشمس عند غروبهاإلّا لفرقة حسن ذاك المنظر

و لا خفاء ببراعة هذا النظم . و قال منها :

أرأت جفونك مثله من منظرظلّ و شمس مثل خدّ معذّر

و هذا تتميم عجيب لم يسبق إليه. ثم قال منها:

و قرارة كالعشر بين خميلةسالت مذانبها بها كالأسطر

فكأنّها مشكولة بمصندلمن يانع الأزهار أو بمعصفر

أمل بلغناه بهضب حديقةقد طرّزته يد الغمام الممطر

فكأنه و الزّهر تاج فوقهملك تجلّى فى بساط أخضر

راق النّواظر منه رائق منظريصف النّضارة عن جنان الكوثر

كم قاد خاطر خاطر مستوفزو كم استفزّ جماله من مبصر

لو لاح لى فيما تقدّم لم أقل(عرّج بمنعرج الكثيب الأعفر)

قال أبو الحسن الرّعينى، و أنشدنى لنفسه : [الكامل]

و عشيّة كانت قنيصة فتيةألفوا من الأدب الصّريح شيوخا

فكأنما العنقاء قد نصبوا لهامن الانحناء إلى الوقوع فخوخا

شملتهم آدابهم فتجاذبواسرّ السّرور محدّثا و مصيخا

و الورق تقرأ سيرة الطرب التىينسيك منها ناسخا منسوخا

و النهر قد صفحت به نارنجةفتيمّمت من كان فيه منيخا

فتخالهم حلل السّماء كواكباقد قارنت بسعودها المرّيخا

خرق العوائد فى السّرور نهارهمفجعلت أبياتى لهم تاريخا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۱

و من أبياته فى البديهة : [الوافر]

و عندى من مراشفها حديثيخبّر أنّ ريقتها مدام

و فى أجفانها السّكرى دليلو ما ذقنا و لا زعم الهمام

تعالى اللّه ما أجرى دموعىإذا عنّت لمقلتى الخيام

و أشجانى إذا لاحت بروقو أطربنى إذا غنّت حمام

و من قصيدة : [الطويل]

عذيرى من الآمال خابت قصودهاو نالت جزيل الحظّ منها الأخابث

و قالوا: ذكرنا بالغنى، فأجبتهمخمولا و ما ذكر مع البخل ماكث

يهون علينا أن يبيد أثاثناو تبقى علينا المكرمات الأثائث

و ما ضرّ أصلا طيّبا عدم الغنىإذا لم يغيّره من الدهر حادث

و له يتشوق إلى أبى عمرو بن أبى غياث: [الوافر]

أبا عمرو متى تقضى الليالىبلقياكم و هنّ قصصن ريشى

أبت نفسى هوى إلّا شريشاو ما بعد الجزيرة من شريش

و له من قصيدة : [الكامل]

طفل المساء و للنسيم تضوّعو الأنس ينظم شملنا و يجمّع

و الزّهر يضحك من بكاء غمامةريعت لشيم سيوف برق تلمع

و النّهر من طرب يصفّق موجهو الغصن يرقص و الحمامة تسجع

فانعم أبا عمران واله بروضةحسن المصيف بها و طاب المربع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۲ يا شادن البان الذى دون النقاحيث التقى وادى الحمى و الأجرع

الشمس يغرب نورها و لربماكسفت و نورك كلّ حين يسطع

إن غاب نور الشمس بتنا نتقىبسناك ليل تفرّق يتطلّع

أفلت فناب سناك عن إشراقهاوجلا من الظلماء ما يتوقّع

فأمنت يا موسى الغروب و لم أقل«فوددت يا موسى لو أنّك يوشع»

و قال : [الطويل]

ألا بشّروا بالصبح من كان باكياأضرّ به الليل الطويل مع البكا

ففى الصبح للصّبّ المتيّم راحةإذا الليل أجرى دمعه و إذا شكا

و لا عجب أن يمسك الصبح عبرتىفلم يزل الكافور للدّم ممسكا

و من بديع مقطوعاته قوله : [الرمل]

مثل الرّزق الذى تطلبهمثل الظّلّ الذى يمشى معك

أنت لا تدركه متّبعافإذا ولّيت عنه أتبعك

و قال : [الطويل]

دخلتم فأفسدتم قلوبا بملككم فأنتم على ما جاء فى سورة النّمل

و بالعدل و الإحسان لم تتخلّقوافأنتم على ما جاء فى سورة النحل

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۳

و قال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور: رأيت لابن مرج الكحل مرجا أحمر قد أجهد نفسه فى خدمته فلم ينجب، فقلت : [البسيط]

يا مرج كحل و من هذى المروج لهما كان أحوج هذا المرج للكحل

يا حمرة الأرض من طيب و من كرمفلا تكن طمعا فى رزقها العجل

فإنّ من شأنها إخلاف آملهافما تفارقها كيفيّة الخجل

فقال مجيبا بما نصّه : [البسيط]

يا قائلا إذ رأى مرجى و حمرتهما كان أحوج هذا المرج للكحل

هو احمرار دماء الرّوم سيّلهابالبيض من مرّ من آبائى الأول

أحببته أن حكى من فتنت بهفى حمرة الخدّ أو إخلافه أملى

وفاته: توفى ببلده يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة أربع و ثلاثين و ستمائة، و دفن فى اليوم بعده.

حمد بن محمد بن أحمد الأنصارى

من أهل مرسية، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن الجنّان .

حاله: كان محدّثا راوية، ضابطا، كاتبا بليغا، شاعرا بارعا، رائق الخطّ، ديّنا فاضلا، خيّرا، زكيا . استكتبه بعض أمراء الأندلس، فكان يتبرّم من ذلك، و يقلق منه. ثم خلّصه اللّه تعالى منه. و كان من أعاجيب الزمان فى إفراط القماءة ، حتى يظنّ رائيه إذا استدبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها، متناسب الخلقة، لطيف الشمائل، و قورا. خرج من بلده حين تمكّن العدو من بيضته عام أربعين.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۴

و ستمائة، فاستقرّ بأوريولة ، إلى أن استدعاه إلى سبتة الرئيس بها ، أبو على بن خلاص ، فوفد عليه، فأجلّ وفادته، و أجزل إفادته، و حظى عنده حظوة تامة. ثم توجّه إلى إفريقية، فاستقرّ ببجاية. و كانت بينه و بين كتّاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته.

مشيخته: روى ببلده و غيرها عن أبى بكر عزيز بن خطّاب، و أبى الحسن سهل بن مالك، و ابن قطرال، و أبى الرّبيع بن سالم، و أبى عيسى بن أبى السّداد، و أبى على الشّلوبين، و غيرهم.

من روى عنه: روى عنه صهره أبو القاسم بن نبيل، و أبو الحسن محمد بن رزيق.

شعره: قال القاضى أبو عبد اللّه بن عبد الملك: و كان له فى الزّهد، و مدح النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، بدائع، و نظم فى المواعظ للمذكّرين كثيرا. فمن ذلك قوله فى توديع رمضان و ليلة القدر: [الطويل]

مضى رمضان كأن بك قد مضىو غاب سناه بعد ما كان أومضا

فيا عهده ما كان أكرم معهداو يا عصره أعزر علىّ أن انقضا

ألمّ بنا كالطيف فى الصيف زائرافخيّم فينا ساعة ثم قوّضا

فياليت شعرى إذ نوى غربة النّوىأ بالسّخط عنّا قد تولّى أم الرّضا؟

قضى الحقّ فينا بالفضيلة جاهدافأى فتى فينا له الحق قد قضا؟

و كم من يد بيضاء أسدى لذى تقىبتوبته فيه الصحائف بيّضا

و كم حسن قد زاده حسنا و سنامحاه و بالإحسان و الحسن عوّضا

فللّه من شهر كريم تعرّضت‌مكارمه إلّا لمن كان أعرضا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۵ نفى بينه و بين شجوك معلماو فى إثره أرسل جفونك فيضا

وقف بثنيّات الوداع فإنهاتمحّص مشتاقا إليها و تمحضا

و إن قضيت قبل التفرّق وقفةفمقضيها من ليلة القدر ما قضى

فيا حسنها من ليلة جلّ قدرهاو حضّ عليها الهاشميّ و حرّضا

لعلّ بقايا الشهر و هى كريمةتبيّن سرّا للأواخر أغمضا

و قد كان أضفى ورده كى يفيضهو لكن تلاحى من تلاحى فقيّضا

و قال اطلبوها تسعدوا بطلابهافحرّك أرباب القلوب و أنهضا

جزى اللّه عنّا أحمدا للجزاء على كرم أضفاه بردا و فضفضا

و صلّى عليه من نبيّ مباركرؤوف رحيم للرسالة مرتضى

له عزّة أعلى من الشمس منزلاو عزمته أمضى من السّيف منتضى

له الذّكر يهمى فضّ مسك ختامه‌تأرّج من ريّا فضائله الفضا

عليه سلام اللّه ما انهلّ ساكبو ذهّب موشيّ الرياض و فضّضا

و من ذلك قصيدة فى الحج: [الطويل]

مذاكرة الذّكرى تهيج اللّواعجا فعالجن أشجانا يكاثرن عالجا

ركابا سرت بين العذيب و بارقنوافيج فى تلك الشّعاب نواعجا

تيمّمن من وادى الأراك منازلايطرّينها فى الأراك سجاسجا

لهنّ من الأشواق حاد فإن ونت‌حداه يرجّعن الحنين أهازجا

ألا بأبى تلك الركاب إذا سرت‌هوادى يملأن الفلاة هوادجا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۶ براهم سوامح أو سراهم فأصبحوارسوما على تلك الرسوم عوالجا

لهم فى منّى أسنى المنا ولدى الصّفايرجّون من أهل الصّفاء المناهجا

سما بهم طوف ببيت طامح‌أراهم قبابا للعلى و معارجا

فأبدوا من اللّوعات ما كان كامناو أذروا دموعا بل قلوبا مناضجا

و لمّا دنوا نودوا هنيّا و أقبلواإلى الرّكن من كل الفجاج أدراجا

و قضّوا بتقبيل الجدار و لثمه‌حقوقا تقضّى للنفوس حوائجا

إذا اعتنقوا تلك المعالم خلتهم‌أساور فى إيمانها و جهالجا

فللّه ركب يمّموا نحو مكةلقد كرموا قصدا و حلّوا مناسجا

أناخوا بأرجاء الرّجاء و عرّسوافأصبح كلّ مايز القدح فالجا

فبشرى لهم كم خوّلوا من كرامةفكانت لما قدّموه نتائجا

بفتحهم باب القبول و للرّضا و وفدهم أضحى على الباب و الجا

تميّز أهل السّبق لكنّ غيرهم‌غدا همجا بين الخليقة هامجا

أ يلحق جلس للبيوت مداهمو لم يله فى تلك المدارج دارجا؟

ألا ليت شعرى للضرورة هل أرىإلى اللّه و البيت المحجّب خارجا؟

له اللّه من ذى كربة ليس يرتجى‌لمرتجّها يوما سوى اللّه فارجا

قد أسهمت شتّى المسالك دونه‌فلا نهج يلقى فيه للّه ناهجا

يخوض بحار الذّنب ليس يهابهاو يصعق ذعرا إن يرى البحر هائجا

جبان إذا عنّ الهدى و إذا الهوى‌يعنّ له كان الجرىء المهارجا

يتيه ضلالا فى غيابة همّه‌فلا حجر تهديه لرشد و لا حجا

فواحربا لاح الصباح لمبصرو قلبى لم يبصر سوى الليل إذ سجا

لعلّ شفيعى أن يكون معاجلالداء ذنوب بالشّفاء معالجا

فينشقنى بيت الإله نوافحاو يعبق لى قبر النّبىّ نوافجا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۷ فما لى لإمالتى سوى حبّ أحمدوصلت له من قرب قلبى و شائجا

عليه سلام اللّه من ذى صبابةحليف شجا يكنّى من البعد ناشجا

و لو أنصفت أجفانه حقّ وجده‌سفكت دما للدموع موازجا

كتابته: و كتابته شهيرة، تضرب بذكره فيها الأمثال، و تطوى عليه الخناصر.

قالوا: لما عقد أمير المسلمين أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن هود البيعة لابنه الواثق بالإمارة من بعده، تولّى إنشاءها، و جعل الحاء المهملة سجعها مردفا إياها بالألف، نحو «صباحا» و «صلاحا»، و ما أشبه ذلك، طال مجموعها فناهزت الأربعين، و طاب مسمعها، فأحرزت بغية المستمعين، فكتب إليه أبو المطرّف ابن عميرة، رسالته الشهيرة، يداعبه فى ذلك، و هى التى أولها:

«تحييك الأقلام تحيّة كسرى، و تقف دون مداك حسرى». و منها فى الغرض:

«و ما لك أمنت تغيّر الحالات، فشننت غارتك على الحاءات، و نفضت عنها المهارق، و بعثت فى طلبها السّوابق، و لفظتها من الأفواه، و طلبتها بين الشّفاه، حتى شهد أهل اللسان بتزحزحها عن ذلك المكان، و توارت بالحلوق، و لو تغلغلت إلى العروق، لآثرتها جيادك، و اقتنصها قلمك و مدادك». و هى طويلة.

فراجعه بقوله: «ما هذه التحية الكسرويّة؟ و ما هذا الرأى و ما هذه الرويّة؟

أ تنكيت من الأقلام؟ أم تبكيت من الأعلام؟ أم كلا الأمرين توجّه القصد إليه، و هو الحق مصدّقا لما بين يديه؟ و إلّا فعهدى بالقلم يتسامى عن عكسه ، و يترامى إلى الغاية البعيدة بنفسه، فمتى لانت أنابيبه للعاجم، و دانت أعاربه بدين الأعاجم؟

وا عجبا لقد استنوق الجمل ، و اختلف القول و العمل، لأمر ما جدع أنفه قصير ، و ارتدّ على عقبه الأعمى أبو بصير. أمس أستسقى من سحابه فلا يسقينى، و أستشفى بأسمائه فلا يشفينى. و اليوم يحلّنى محلّ أنو شروان، و يشكو منى شكوى اليزيديّة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۸

من بنى مروان، و يزعم أنى أبطلت سحره كما أبطل سحر بردوران، و يخفى فى نفسه ما اللّه مبديه ، و يستجدى بالأثر ما عند مستجديه. فمن أين جاءت هذه الطريقة المتّبعة، و الطّريفة المبتدعة، أ يظنّ أنّ معمّاه لا يفكّ ، و أنه لا يتجلّى هذا الشّك؟ هل هذا منه إلّا إمحاض التّيه، و إحماض تفتّيه، و نشوة من خمرة الهزل، و نخوة من ذى ولاية آمن العزل؟ تاللّه لو لا محلّه من القسم، و فضله فى تعليم النّسم، لأسمعته ما ينقطع به صلفه، و أودعته ما ينصدع به صدفه، و أشدت بشرف المشرقى و مجده ، و أشرت إلى تعاليه عن اللّعب بجدّه. و لكن هو القلم الأول، فقوله على أحسن الوجوه يتأوّل، و معدود فى تهذيبه، كلّ ما لسانه يهذى به. و ما أنسانيه ، إلّا الشيطان أياديه، أن أذكرها ، و أنما أقول: [البسيط]

ليت التحيّة كانت لى فأشكرها و لا عتب إلّا على الحاء ، المبرّحة بالبرحاء، فهى التى قيّمت قيامتى فى الأندية، و قامت علىّ قيام المعتدية ، يتظلّم و هو عين الظالم، و يلين القول و تحته سمّ الأراقم ، و لعمر البراعة و ما نصعت ، و اليراعة و ما صنعت، ما خامرنى

هواها ، و لا- كلفت بها دون سواها. و لقد عرضت نفسها علىّ مرارا، فأعرضت عنها ازورارا، و دفعتها عنى بكل وجه، تارة بلطف و أخرى بنجه ،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۳۹

و خفت منها السآمة، و قلت انكحى أسامة. فرضيت منها بأبى جهم و سوء سلكته ، و ابن أبى سفيان و صعلكته، و كانت أسرع من أمّ خارجة للخطبة، و أسمج من سجاح فى استنجاح تلك الخطبة. و لقد كنت أخاف من انتقال الطباع فى عترتها ، و استثقال الاجتماع من عشرتها ، و أرى من الغبن و السّفاه، أخذها و ترك بنات الأفواه و الشّفاه ، إذ هى أيسر مؤونة، و أكثر معونة، فغلطى فيها أن كانت بمنزل تتوارى صونا عن الشمس، و من نسوة خفرات لا- ينطقن إلّا بالهمس، و وجدتها أطوع من البنان للكفّ، و العنان للوكف ، و المعنى للاسم، و المغنى للرّسم، و الظّلّ للشخص، و المستبدل للنصّ. فما عرفت منها إلّا خبرا أرضاه، حتى حسبتها من الحافظات للغيب بما حفظ اللّه، فعجبت لها الآن كيف زلّت نعلها، و نشزت فنشرت ما استكتمها بعلها، و اضطربت فى رأيها اضطراب المختار بن أبى عبيد، و ضربت فى الأرض تسعى علىّ بكلّ مكر و كيد، و زعمت أنّ حرف الجيم خدعها، و ألان أخدعها، و أخبرها أن سيبلّغ بخبرها الخابور ، و أحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدى قيصر سابور ، فقد جاءت إفكا وزورا، و كثرت من أمرها شزورا ، و كانت كالقوس أرنّت و قد أصمت القنيص، و المراودة قالت ما جَزاءُ و هى التى قدّت الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۲۳۹

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۰

القميص ، و ربما يظنّ بها الصدق، و ظنّ الغيب ترجيم، و يقال: لقد خفضت الحاء بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم ، و تنتصر لها أختها التى خيّمت بين النرجسة و الرّيحانة، و ختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم نبىّ على اللّه سبحانه، فإن امتعضت لهذه المتظلّمة ، تلك التى سبقت بكلمتها بشارة المتكلّمة ، فأنا ألوذ بعدلها، و أعوذ بفضلها، و أسألها أن تقضى قضاء مثلها، و تعمل بمقتضى:

فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها على أنّ هذه التى قد أبدت مينها ، و نسيت الفضل بينى و بينها، أن قال الحكمان: منها كان النشوز، عادت حروريّة العجوز، و قالت: التّحكّم فى دين اللّه لا- يجوز، فعند ذلك يحصحص الحقّ، و يعلم من الأولى بالحكم و الأحقّ، و يصيبها ما أصاب أروى، من دعوة سعيدة حين الدّعوى، و يا ويحها أن أرادت أن تجنى علىّ فجنت لى، و أناخت لى مركب السعادة و ما ابتغت إلّا ختلى، فأتى شرّها بالخير، و جاء النّفع من طريق ذلك الضّير. أ تراها علمت بما يثيره اعوجاجها، و ينجلى عنه عجاجها؟ فقد أفادت عظيم الفوائد، و نظيم الفرائد، و نفس الفخر، و نفيس الذّخر ، و هى لا تنكر أن كانت من الأسباب، و لا تذكر إلّا يوم الملاحاة و السّباب. و إنما يستوجب الشكر جسيما، و الثناء الذى يتضوّع نسيما، الذى شرّف إذ أهدى أشرف السّحاءات، و عرّف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة فى الحاءات، فإنه و إن ألمّ بالفكاهة، فما أملى من البداهة، و سمّى باسم السابق السّكيت، و كان من أمر مداعبته كيت و كيت، و تلاعب بالصّفات ، تلاعب السّيل بالصفاة، و الصّبا بالبانة، و الصّبا بالعاشق ذى اللّبانة، فقد أغرب بفنونه، و أغرى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۱

القلوب بفتونه، و نفث بجفنه الأطراف، و عبث من الكلام المشقّق الأطراف ، و علم كيف يلخّص البيان، و يخلّص العقيان. فمن الحقّ أن أشكره على أياديه البيض، و أن آخذ لفظه من معناه فى طرف النقيض. تاللّه أيها الإمام الأكبر، و الغمام المستمطر، و الخبر الذى يشفى سائله، و البحر الذى لا- يرى ساحله، ما أنا المراد بهذا المسلك، و من أين حصل النور لهذا الحلك؟ و صحّ أن يقاس بين الحدّاد و الملك؟ إنه لتواضع الأعزّة، و ما يكون للأكارم عند المكارم من العزّة، و تحريض الشيخ للتلميذ، فى إجازة الوضوء بالنّبيذ. و لو حضر الذى قضى له بجانب الغربىّ أمر البلاغة، و ارتضى ما له فى هذه الصناعة، من حسن السّبك لحليتها و الصّياغة، و أطاعته فيما أطلعته طاعة القوافى الحسان، و أتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان، لأذعن كما أذعنت، و ظعن عن محلّ دعوى الإجادة كما ظعنت، و أنّى يضاهى الفرات المعين بالنّغبة ، و يباهى بالفلوس من أوتى من الكنوز ما أنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة، و أى حظّ للكلالة فى النّشب

، و قد اتصل للورثة عمود النّسب. هيهات و اللّه بعد المطلب، و شتّان الدّرّ و الخشلب ، و قد سيم الغلب، و رجع إلى قيادة السّلب، و إن كنّا ممّن تقدّم لشدّة الظمإ إلى المنهل، و كمن أقدم إلى عين تبوك بعد النّهى للعل و النّهل. فقد ظهرت بذلك المعجزة عيانا، و ملئ ما هناك جنانا، و ما تعرّضنا بإساءة الأدب و اللّوم، و لكن علمنا أن آخر الشّرب ساقى القوم، و إن أسهبنا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز، و إن أعرقنا فهوانا فى الحجاز، فلكم قصيرات الحجال، و لنا قصيرات الخطا فى هذا المجال، و إكثارنا فى قلّة، و جارنا من الفقر فى فقر و ذلّة. و من لنا بواحدة يشرق ضياؤها، و يخفى النجوم خجلها منها و حياؤها؟ إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل، و فى المجموع كليلة الوصل. فلو سطع نورها الزاهر، و نورها الذى تطيب منه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۲

الأنوار الأزاهر، لسجدت النّيران ليوسف ذلك الجمال، و وجدت نفحات ريّاها فى أعطاف الجنوب و الشمال، و أسرعت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم النّفر، و سار خبرها و سرى فصار حديث المقيمين و السّفر. و ما أظن تلك السّاخرة فى تدلّيها ، إلّا السّاحرة بتجنّيها، إذ كانت ربيبتها، بل ربيئتها، هذه التى سبقتنى لمّا سقتنى بسينها ، و وجدت ريحها، لما فصلت من مصرها غيرها و حين وصلت لم يدلنى على سابقها إلّا عبيرها، و كم رامت أن تستتر عنى بليل حبرها فى هذه المغانى، فأغرانى بهاؤها و كل مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ و المعانى. و هل كان ينفعها تلفّحها بمرطها و تلفّعها؟ إذ نادتها المودّة، فقد عرفناك يا سودة. فأقبلت على شمّ نشرها و عرفها، و لثم سطرها و حرفها، و قريتها الثناء الحافل، و قرأتها فزيّنت بها المحاضر و المحافل . و رمت أمر الجواب، فغرّتنى فى الخطاب، لكن رسمت هذه الرّقعة التى هى لديكم بعجزى واشية، و إليكم منىّ على استحياء ماشية، و إن رقّ وجهها فما رقّت لها حاشية، فمنوا بقبولها على علّاتها ، و انقعوا بماء سماحتكم حرّ غللها، فإنها وافدة من استقرّ قلبه عندكم و ثوى، و أقرّ بأنه يلقط فى هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النّوى. بقيتم، سيدى الأعلى للفضل و الإغضاء، و دمتم غرّة فى جبين السّمحة البيضاء، و اقتضيتم السعادة المتّصلة مدّة الاقتضاء، بيمن اللّه سبحانه. انتهى.

و محاسنه عديدة، و آماده بعيدة.

دخوله غرناطة: دخلها مع المتوكل مخدومه، أو وجده بها.

من روى عنه: روى عن أبى الحسن سهل بن مالك.

وفاته: قال الأستاذ فى الصلة : انتقل إلى بجاية فتوفى بها فى عشر الخمسين و ستمائة .

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۳

محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمى

من أهل ألمريّة، يكنى أبا عبد اللّه، من وجوه بلده و أعيانه، نشأ نبيه البيت، ساحبا بنفسه و بماله ذيل الحظوة، متحلّيا بخصل من خطّ و أدب، وزيرا، متجنّدا، ظريفا، دربا على ركوب البحر و قيادة الأساطيل. ثم انحطّ فى هواه انحطاطا أضاع مروءته، و استهلك عقاره، و هدّ بيته، و ألجأه أخيرا إلى اللّحاق بالعدوة فهلك بها.

و جرى ذكره فى الإكليل بما نصّه : مجموع شعر و خطّ، و ذكاء عن درجة الظّرفاء غير منحطّ، إلى مجادة أثيلة البيت، شهيرة الحىّ و الميت. نشأ فى حجر التّرف و النعمة، محفوفا بالماليّة الجمّة، فلما غفل عن ذاته، و ترعرع بين لداته، أجرى خيول لذّاته، فلم يدع منها ربعا إلّا أقفره، و لا عقارا إلّا عقره، حتى حطّ بساحلها، و استولى بسعر الإنفاق على جميع مراحلها، إلّا أنه خلص بنفس طيّبة، و سراوة سماؤها صيّبة، و تمتّع ما شاء من زير و بمّ ، و تأنّس لا يعطى القياد لهمّ.

و فى عفو اللّه سعة، و ليس مع التوكل على اللّه ضعة.

شعره: من شعره قوله يمدح السلطان، و أنشدها إياه بالمضارب من وادى الغيران عند قدومه من ألمرية : [الطويل]

أ ثغرك أم سمط من الدّرّ ينظم؟و ريقك أم مسك به الرّاح تختم؟

و وجهك أم باد من الصّبح نيّر؟و فرعك أم داج من الليل مظلم؟

أعلّل منك النفس و الوجد متلفىو هل ينفع التّعليل و الخطب أعظم ؟

و أقنع من طيف الخيال يزورنى لو أنّ جفونى بالمنام تنعم

حملت الهوى حينا فلمّا علمتهسلوت لأنى بالمكارم مغرم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۴ ولى فى أمير المسلمين محبّةفؤادى مشغوف بها و متيّم

بلغت المنى لما لثمت يمينهفها أنذا فى جنّة الخلد أنعم

يصوغ قومى الشّعر فى طيب ذكرهو يحسن فيه النّظم من ليس ينظم

فاستمسك الدّين الحنيف زمانهو قام منار الحقّ و الشّرك مغرم

له نظر فى المشكلات مؤيّدو اللّه مهد إلى الرشد ملهم

و يستغرق طارحا فيه وابل جودهفمن فعله فى جوده يتعلم

فلو أن أملاك البسيطة أنصفوالألقوا إليه الأمر طوعا و سلّموا

و فى الدّين و الدنيا و فى البأس و النّدىلكم يا بنى نصر مقام معظّم

و منها:

إليك أمير المسلمين اقتضيتهاحمائل شكر طيرها مترنّم

تنمّ بعرف المسك أنفاسهاإذا يفوه لراو فى الندى بها فم

فباسمك سيّرت فى المسامع ذكرهاو يغزى فى أقصى البلاد و يشمم

و لو أننى فى المدح سحبان وائلو أنجدنى فيه حبيب و مسلم

لما كنت إلّا عن علاك مقصّرو من بعض ما نشدت و تولى و تنعم

بقيت ملاذا للأنام و رحمةو ساعدك الإسعاد حيث يتمّم

و من شعره مذيّلا على البيت الأخير حسبما نسب إليه : [البسيط]

نامت جفونك يا سؤلى و لم أنمما ذاك إلّا لفرط الوجد و الألم

أشكو إلى اللّه ما بى من محبّتكمفهو العليم بما نلقى من السّقم

«إن كان سفك دمى أقصى مرادكمفما غلت نظرة منكم بسفك دمى»

و ممّا نسب إليه كذلك : [السريع]

قف بى و ناد بين تلك الطّلولأين الألى كانوا عليها نزول

أين ليالينا بهم و المنىنجنيه غضّا بالرضا و القبول

لا حمّلوا بعض الذى حمّلوايوم تولّت بالقباب الحمول

إن غبتم يا أهل نجد ففىقلبى أنتم و ضلوعى حلول

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۵

و ممّا خاطبنى به: [الرجز]

تاللّه ما أورى زناد القلقسوى ريح لاح لى بالأبرق

أيقنت بالحين فلو لا نفحةنجديّة منكم تلافت رمقى

لكنت أقضى بتلظّى زفرةو حسرة بين الدموع تلتقى

فآه من هول النّوى و ما جنىعلى القلوب موقف التّفرّق

يا حاكى الغصن انثنى متوّجابالبدر تحت لمّة من غسق

اللّه فى نفس معنّى أقصدتمن لاعج الشّوق بما لم تطق

أتى على أكثرها برح الأسىدع ما مضى منها و أدرك ما بقى

و لو بإلمام خيال فى الكرىإن ساعد الجفن رقيب الأرق

فربّ زور من خيال زائرأقرّ عينىّ و إن لم يصدق

شفيت من برح الأسى لو أنّ منأصبح رقّى فى يديه معتقى

ففى معاناة الليالى عائقعن التّصابى و فنون القلق

و فى ضمان ما يعانى المرء منّوائب الدهر مشيب المفرق

هذا لعمرى مع أنى لم أبتمنها بشكوى روعة أو فرق

فقد أخذت من خطوب غدرهابابن الخطيب الأمن ممّا أتّقى

فخر الوزارة الذى ما مثلهبدر علا فى مغرب أو مشرق

و مذ أرانيه زمانى لم أبل من صرفه من مرعد أو مبرق

لا سيما منذ حططت فى حمىجواره الأمنع رحل أينقى

أيقنت أنى فى رجائى لم أخبو أنّ مسعى بغيتى لم يخفق

ندب له فى كلّ حسن آيةتناسبت فى الخلق أو فى الخلق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۶ فى وجهه مسحة بشر إن بدتتبهرجت أنوار شمس الأفق

تعتبر الأبصار فى لألئها عليه من نور السّماح المشرق

كالدهر فى استينائه و بطشه كالسيف فى حدّ الظّبا و الرونق

إن بخل الغيث استهلّت يده بوابل من غيث جود غدق

و إن وشت صفحة طرس انجلىليل دجاها عن سنى مؤتلق

بمثلها من حبرات أخجلتحواشى الرّوض خدود المهرق

ما راق فى الآذان أشناف سوىملتقطات لفظه المفترق

تودّ أجياد الغوانى أن يرىحليّها من درّ ذاك المنطق

فسل به هل آده الأمر الذىحمّل فى شرخ الشباب المونق؟

إذا رأى الرّأى فلا يخطئهيمن اختيار للطريق الأوفق

إيه أبا عبد الإله هاكهاعذراء تحثو فى وجوه السّبق

خذها إليك بكر فكر يزدرىلديك بالأعشى لدى المحلّق

لا زلت مرهوب الجناب مرتجىموصول عزّ فى سعود ترتقى

مبلّغ الآمال فيما تبتغىمؤمّن الأغراض فيما تتّقى

ناب فى القيادة البحريـة عن خاله القائـد أبى على الرّنداحى، و ولّى أسـطول المنكّب برهة. توفى بمراكش فى عام خمسة و خمسـين و سبعمائة رحمه اللّه.

محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمی

من أهل ألمریة، یکنی أبا عبد اللّه، و یعرف بالبلیانی.

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۷

حاله: قال شیخنا أبو البرکات: ناب عنی فی بعض الأعمال بألمریّة، و خطب بنحانس من غربیها، ثم خطب بحمة مرشانة، و هو الآن بها، و عقد الشروط قبل بألمریّة. عفیف طاهر الذّیل، نبیل الأغراض، مهذّب الأخلاق، قیّم علی القراءات و النحو و الأدب، جیّد الشعر و الکتابة ..... من الضبط، و إجادة العبارة عن المعنی المراد.

توالیفه: قال: له رجز فی علم الکلام جید، و رجز آخر فی ألفاظ فصیح ثعلب، عریّ عن الحشو، علی تقعیر فیه یغتفر لما جمع من اقتصاره، و له تألیف فی الوباء سماه بإصلاح النّیّة فی المسألة الطاعونیة.

مشیخته: قال: أخذ عنّی و عن أبیه جملة من الدواوین، و عن غیری من أهل بلده.

شعره: قال: و مما أنشدنی من شعره قوله: [الطویل]

هفا بی من بین المغانی عقیقهاو من بینه انفضّت لعینی عقیقها

و مالت من البیداء عنها قبابه و أشرقنی بالدمع منها شروقها

یهیّج أنفاسی غراما نسیمهاو تقدح نار الشوق عندی بروقها

و من دون ودیها ظباء خوادل حکی لحظها ماضی الشّفار رقیقها

فلو برزت للشمس منهنّ فی الضحیمخدّرة أضحت کمالا تفوقها

نسیم الصّبا، إن سیّرت نحو الحمیتحیّی الدّیار النّازحات تشوقها

غریب کئیب مستهام متیّمجریح الجفون السّاهرات عریقها

فهل عطفة ترجی و هل أمل یریبعودة أیام تقضّی أنیقها؟

سقتنا و من أدمع الصّبّ جودها و من دیم الغیث الملثّات ریقها

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۸

قال: و أنشدنی أیضا، و قال: کلفت إجازة هذا البیت الأول من هذه القصیدة، إذ لیس لی: [الکامل]

من عادلی؟ من ناصری أو منصفی ؟هذا دمی سفکته بنت المنصف

أو من یخلّصنی و قد أوهی صحیح الجسم منّی لحظ طرف مدنف

جفن تحیّر و الهوی یهدیهلفؤاد کلّ من الهوی لم یألف

متناعس یهدی السّهاد و یصرع البطل الکمیّ بلحظه المتضعّف

تبدو و تشدو للعیون و للمسامع فهی بین مکحّل و مشنّف

ملکت بصنعتها عنان عنانهاوعدت علیها کأنّها لم تعرف

تغنی إذا غنّت بطیب صوتهاعن أن یزوّد لحنها بالمعزف

أمّا تغنّت أو تثنّت تهتفقمریّ نغمتها و غضّ المعطف

یأتی علی تکرار ما غنّت بهصدقا بکلّ غریب مستطرف

تهدی النفوس علی اختلاف طباعهامن نبلها ما تشتهی بتلطّف

کنّا و جفن الدهر عنّا ناعسمن خلف ستر للأمان مسجّف

حتى وشى بالسّر دهر حاسدكلف بتنغيص الكريم الأشرف

و اخجلتا إن لم أمت يوم النّوىلهفا و ما إن كنت بعد بمنصف

لكننى مما نحلت و ذبت لم‌يرنى الحمام فكنت عنه أختفى

كم ذا أبيت و ليس لى من مسعدفى حالتى غير الدموع الذّرف

يا هل ترى هذا الزمان و صرفههل يسمحان بعودة و تألّف؟

صبرا أبا يعقوبهم فهى النّوىلو لا همت شوقا للقيا يوسف

قال: و أنشدنى أيضا لنفسه، و البيت الأخير لغيره: [البسيط]

ما للأحبّة فى أحكامهم جاروا؟نأوا جميعا فلا خلّ و لا جار

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۴۹ كيف البقاء و قد بانت قبابهمو قد خلت منهم وا أسفى الدّار؟

حداة تمسهم بالقلب قد رحلوايا ليتهم حملوا الجثمان إذ ساروا

جار الزمان علينا فى فراقهممن قبل أن تنقضى للصّبّ أوطار

ساروا فخيّمت الأشواق بعدهمما لى عليها سوى الآماق أنصار

تراك يا ربعهم ترجو رجوعهم؟يا ليت لو ساعدت فى ذاك أقدار

ودّعت منهم شموسا ما مطالعهاإلّا من الوشى أطواق و أزرار

أستودع اللّه من فاز الفراق بهمو خلّفونا و دمع العين مدرار

قلت: و لا خفاء بتخلّف هذا النمط عن الإجادة، و اللّه يقبض و يبسط، و شافعنا عرض الإكثار.

وفاته: توفى فى آخر أربعة و ستين و سبعمائة.

محمد بن محمد بن حزب اللّه

من أهل وادى آش، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف باسم جدّه.

حاله: دمث، متخلق، سهل الجانب، كثير الدّعابة، خفيف الروح، له خطّ حسن، و وراقة بديعة، و إحكام لبعض العملية، و اقتدار على النظم. اتصل بباب السلطان ملك المغرب، و ارتسم كاتبا مع الجملة، فارتاش، و حسنت حاله.

و جرى ذكره فى الإكليل الزاهر بما نصّه: راقم واشى، رقيق الجوانب و الحواشى، تزهى بخطّه المهارق و الطروس، و تتجلّى فى حلل بدائعه كما تتجلّى العروس، إلى خلق كثير التجمل، و نفس عظيمة التحمّل. و دود سهل الجانب، عذب المذانب. لمّا قضيت الوقيعة بطريف ، أقال اللّه عثارها، و عجّل ثارها، قذف به موج ذلك البحر، و تفلّت إفلات الهدى المقرب إلى النحر، و رمى به إلى رندة القرار، و قد عرى من أثوابه كما عرى الغرار، فتعرّف للحين بأديبها المفلق، و بارقها المتألق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۰

أبى الحجاج المنتشافرى، فراقه ببشر لقائه، و نهل على الظمأ فى سقائه، و كانت بينهما مخاطبات، أنشدنيها بعد إيابه، و أخبرنى بما كان من ذهاب زاده و سلب ثيابه.

و خاطبنى من شرح حاله فى ارتحاله بما نصّه: و لما دخلت رندة الأنيقة البطاح، المحتوية على الأدب و السّماح، و العلم و الصلاح، أبرز القدر أن لقيت بها شيخنا المعمّر رئيس الأدباء، و قدوة الفقهاء، أبا الحجاج المنتشافرى، و كنت لم أشاهده قبل هذا العيان، و لا سمح لى بلقائه صرف الزمان، و لم أزل أكلف بمقطوعاته العجيبة، و أولع بضرائبه الغريبة، و تأتى منه مخاطبات تزرى بالعقود بهجة، و تطير لها العقود لهجة. نظم كما تنفّس الصبح عن تسيمه، و نثر كما تأسس الدّر بتنظيمه، فأحلّنى منه محلّ الروح من الجسد، و شهد

لى أنى أعزّ من عليه ورد، و رآنى قد ظهرت على مضاضة الاكتئاب، لكونى قريب عهد بالإياب، مهزوما انهزام الأحزاب، خالى الوطاب ، نزر الثياب، فقال: فيم الجزع، ذهب بحول اللّه الخوف و أمن الفزع، فأجبته عجلا، و قلت أخاطبه مرتجلا: [الكامل]

لا تجزعى، نفسى، لفقد معاشرىو ذهاب مالى فى سبيل القادر

يا رندة ، ها أنت خير بلادهو بها أبو حجاج المنتشافرى

سيريك حسن فرائد من نظمهفتزيل كل كآبة فى الخاطر

فأجابنى مرتجلا: [الكامل]

سرّاى، يا قلبى المشوق، و ناظرى،بمزار ذى الشّرف السّنىّ الطاهر

روض المعارف زهرها الزّاهىأوصافه أعيت ثناء الشاكر

و لواد آش من فخار لم يزلمن كابن حزب اللّه نور النّاظر

وافى يشرّف رندة بقدومهفغدت به أفقا لبدر زاهر

من روضة الأدباء أبدى زهرةقد أينعت عن فكر حبر ماهر

جمع المآثر بالسّناء و بالسّناأعظم به من صانع لمآثر

ما زلت أسمع من ثناه مآثراكانت لسامعها معا و الذّاكر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۱ حتى رأى بصرى حقائق وصفهفتنعّمت كالأقمار نواظرى

لا زال محبوّا بكل مسرّةتجرى له بالحظّ حكم مغادر

ثم خاطبه القاضى المنتشاقرى بعد انصرافه إلى وطنه بقوله: [المتقارب]

أبى الدّمع بعدك إلّا انفجارالدهر ببعدك فى الحكم جارا

أذاق اللقاء الحلو لو لم يصل به للنّوى جرعات مرارا

رعى اللّه لمح ذاك اللقاءو إن يك أشواقنا قد أثارا

قصارای شكوای طول النوىو فقدى أناة وصل قصارا

سقتنى القداح و من بعدهفؤادى القريح قد اذكت أوارا

ألا يا صبا، هبّ من أربعىإلى وادى آشى تحى الدّيارا

ألا خصّ من ربعها منزلابأربابه الأكرمين استنارا

و هم إلى حزب الإله الأللى تساموا فخارا و طابوا نجارا

فأجابه بأبيات منها :

تألّق برق العلا و استنارافأجّج إذ لاح فى القلب نارا

و ذكّرنى وقت أنس مضىبرندة حيث الجلال استشارا

و كانت لنفسى سنا فى حماهاطوالا فأصبحت لديها قصارا

فأجريت دمع العيون اشتياقاففاضت لأجل فراقى بحارا

و قالت لى النّفس من لم يجدنصيرا سوى الدّمع قلّ انتصارا

قطعت المنى عندها لمحةو ودّعتها و امتطيت القفارا

و ضيّعت تلك المنى غفلةو وافيت أبغى المنى ديارا

و منها:

أرقت لذاك السّنا ليلةو ما نومها ذقت إلّا غرارا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۲ و جسمى أجلّ الجسوم التهاباو قلبى أشدّ القلوب انكسارا

إلى أن تجرّعت كأس النّوىو قلت زمانى على الشّمل جارا

و صبّرت نفسى لفقدانهاهنالك بالرّغم ليس اختيارا

و قال من قصيدة : [الطويل]

حننت لبرق لاح من سرحتى نجدحنين تهامىّ يحنّ إلى نجد

و قلت لعلّ القلب تبرا كلومهو من ذا يصدّ النار عن شيمة الوقد؟

لكن شاركتنى فى المحبّة فرقةفها أنا فى وجدى و فى كلفى وحدى

و هو إلى هذا العهد بالحال الموصوفة.

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميرى

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن عيسى.

حاله: كان أديبا، حسن الخطّ، جيّد النظم، متظرّفا، لوذعيّا، مطبوعا، منحطّا فى هواه، جامحا فى ميدان بطالته، معاقرا للنّبيذ، على حفظ للرسم، و اضطلاع بالخدمة، و إيثار للمروءة، و معرفة بمقادير الأمور، و تشبّث بأذيال الحظوة. كتب للرئاسة السّعيدية بمالقة، و نظر على ألقاب جبايتها، و انتفع الناس بجاهه و ماله، و وقع الثناء على حسن وساطته. ثم سافر عنها، و قد سمت مجادة السلطان فى غرض انتقالها إلى العدوة، معوّضة بمدينة سلا من مالقة. و كان ما كان من معاجلة الأمر، و القبض على الريّس، و قيام ولده بالأمر، فانبتّ المذكور بالعدوة، و كانت بها وفاته.

و جرى ذكره فى الإكليل الزاهر بما نصه : علم من أعلام هذا الفن،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۳

و مشعشعى راح هذا الدّن، بمجموع أدوات، و فارس يراعة و دواة ، ظريف المنزع، أنيق المرأى و المسمع، اختصّ بالرئاسة و أدار فلك إمارتها، و اتّسم باسم كتابتها و وزارتها، ناهضا بالأعباء، راقيا فى درج التقريب و الاجتباء، مصانعا دهره فى راح و راحة، آويا إلى فضل و سماحة، و خصب ساحة، كلما فرغ من شأن خدمته، و انصرف عن ربّ نعمته، عقد شربا، و أطفأ من الاهتمام بغير الأيام حربا، و عكف على صوت يستعيده، و ظرف يبديه و يعيده. فلما تقلّبت بالرئاسة الحال، و قوّضت منها الرحال، استقرّ بالمغرب غريبا، يقلّب طرفا مستريبا، و يلحظ الدنيا تبعة عليه و تثريبا ، و إن كان لم يعدم من أمرائها حظوة و تقريبا، و ما برح يبوح بشجنه، و يرتاح إلى عهود وطنه.

شعره و كتابته: ممّا كتبه، و بيّن فيه أدبه قوله : [الكامل]

يا نازحين و لم أفارق منهمشوقا تأجّج فى الضّلوع ضرامه

غيّبتم عن ناظرى و شخصكمحيث استقرّ من الضلوع مقامه

رمت النّوى شملى فشتّت نظمهو البين رام لا تطيش سهامه

و قد اعتدى فينا وجدّ مبالغاو جرت بمحكم جوره أحكامه

أ ترى الزمان مؤخّرا فى مدّتىحتى أراه قد انقضت أيّامه

تحملها يا نسيم نجديّة النّفحات، وجديّة اللّفحات، يؤدى عنى نغمها إلى الأحبّة سلاما، و يورد عليهم لفحها بردا و سلاما، و لا تقل كيف تحمّلنى نارا، و ترسل على الأحبّة منى إعصارا، كلّا إذا أهديتهم تحية إيناسى، و آنسوا من جانب هبوبك نار ضرام أنفاسى، و

ارتاحوا إلى هبوبك، و اهتزّوا فى كفّ مسرى جنوبك،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۴

و تعلّلوا بها تعليلا و أوسعوا آثار مهبّك تقبيلا، أرسلها عليهم بليلا، و خاطبهم بلطافة تلطفّك تعليلا. أ لم ترونى كيف جئتكم بما حملنى عليلا : [الوافر]

كذاك تركته ملقى بأرضله فيها التعلّل بالرّياح

إذا هبّت إليه صبا إليهاو إن جاءته من كلّ النواحى

تساعده الحمائم حين يبكىفما ينفكّ موصول النّياح

يخاطبهنّ مهما طرن شوقاأما فيكنّ واهبة الجناح؟

و لو لا تعلّله بالأمانى، و تحدّث نفسه بزمان التّيدانى، لكان قد قضى نحبه، و لم أبلّغكم إلّا نعيه أو ندبه، لكنه يتعلّل من الآمال بالوعد الممطول، و يتطارح باقتراحاته على الزمن المجهول، و يحدّث نفسه و قد قنعت من بروق الآمال بالخلّب ، و وثقت بمواعيد الدهر القلّب ، فيناجيها بوحى ضميره، و إيماء تصويره: كيف أجدك يوم الالتقاء بالأحباب، و التخلّص من ربقة الاغتراب؟ أ بائنة الحضور أم بادية الاضطراب؟ كأنّى بك و قد استفزّك و له السرور، فصرفك عن مشاهدة الحضور، و عاقتك غشاوة الاستعبار للاستبشار، عن اجتلاء محيّا ذلك النهار : [البسيط]

يوم يداوى زماناتى من ازمانىأزال تنغيص أحيانى فأحيانى

جعلت للّه نذرا صومه أبداأفى به و أوفّى شرط إيمانى

إذا ارتفعنا و زال البعد و انقطعتأشطان دهر قد التفّت بأشطانى

أعدّه خير أعياد الزمان إذاأوطانى السّعد فيه ترب أوطانى

أ رأيت كيف ارتياحى إلى التّذكار، و انقيادى إلى معلّلات توهّمات الأفكار؟

كأنّ البعد باستغراقها قد طويت شقّته، و ذهبت عنى مشقّته، و كأنّى بالتّخيّل بين تلك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۵

الخمائل أتنسّم صباها، و أتسنّم رباها ، و أجتنى أزهارها، و أجتلى أنوارها، و أجول فى خمائلها، و أتنعّم ببكرها و أصائلها، و أطوف بمعالمها، و أتنشّق أزهار كمائمها، و أصيخ بأذن الشّوق إلى سجع حمائمها، و قد داخلتنى الأفراح، و نالت منّى نشوة الارتياح، و دنا السّرور لتوسّم ذهاب الأتراح. فلمّا أفقت من غمرات سكرى، و وثبت من هفوات فكرى، وجدت مرارة ما شابه لبّى فى استغراق دهرى، و كأنّى من حينئذ عالجت وقفة الفراق، و ابتدأت منازعة الأشواق، و كأنما أغمضتنى للنّوم، و سمح لى بتلك الفكرة الحلم : [الكامل]

ذكر الدّيار فهاجه تذكارهو سرت به من حينه أفكاره

فاحتلّ منها حيث كان حلولهبالوهم فيها و استقرّ قراره

ما أقرب الآمال من غفواتهلو أنها قضيت بها أوطاره

فإذا جئتها أيها القادم، و الأصيل قد خلع عليها بردا مورّسا، و الربيع قد مدّ على القيعان منها سندسا، اتّخذها فديتك معرّسا ، و اجرر ذيولك فيها متبخترا ، و بثّ فيها من طيب نفحاتك عنبرا، و افتق عليها من نوافج أنفاسك مسكا أذفرا، و اعطف معاطف بانها، و أرقص قضب ريحانها، و صافح صفحات نهرها، و نافح نفحات زهرها. هذه كلّها أمارات، و عن أسرار مقاصدى عبارات، هنالك تنتعش بها صبابات، تعالج صبابات، تتعلّل بإقبالك، و تعكف على لثم أذيالك، و تبدو لك فى صفة الفانى المتهالك، لاطفها بلطافة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۶

اعتلالك، و ترفّق بها ترفّق أمثالك، فإذا مالت بهم إلى هواك الأشواق، و لووا إليك الأرؤس و الأعناق، و سألوك عن اضطرابى فى الآفاق، و تقلّبى بين الإشآم و الإعراق، فقل لهم: عرض له فى أسفاره، ما يعرض للبدر فى سراره، من سرّ السّرار، و طاق المحاق، و قد تركته و هو يسامر الفرقدين، و يساير النّيّرين، و ينشد إذا راعه البين : [البسيط]

و قد نكون و ما يخشى تفرّقناو اليوم نحن و ما يرجى تلاقينا

لم يفارق و عثاء الأسفار، و لا ألقى من يده عصا التّسيار، يتهاداه الغور و النّجد، و يتداوله الإرقال و الوخد، و قد لفحته الرّمضاء، و سئمه الإنضاء.

فالجهات تلفظه، و الآكام تبهظه، تحمل همومه الرّواسم، و تحفى به النّواسم:

[البسيط]

لا يستقرّ بأرض حين يبلغهاو لا له غير حدو العيس إيناس

ثم إذا استوفوا سؤالك عن حالى، و تقلّبى بين حلّى و ترحالى، و بلغت القلوب منهم الحناجر، و ملأت الدموع المحاجر، و ابتلّت ذيولك بمائها، لا- بل تضرّجت بدمائها، فحيّهم عنّى تحيّة منفصل، و ودّعهم و داع مرتحل. ثم اعطف عليهم ركابك، و مهّد لهم جنابك، و قل لهم إذا سألنى عن المنازل بعد سكانها، و الرّبوع بعد ظعن أظعانها، بماذا أجيبه، و بماذا يسكن وجيبه . فسيقولون لك هى البلاقع المقفرات، و المعارف التى أصبحت نكرات: [السريع]

صمّ صداها وعفا رسمهاو استعجمت عن منطق السائل

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۷

قل لهم: كيف الرّوض و آسه؟ و عمّ اذا تتأرّج أنفاسه؟ عهدى به و الحمام يردّد أسجاعه، و الذّباب يغنى به هزجا فيحكّ بذراعه ذراعه، و غصونه تعتنق، و أحشاء جداوله تصطفق، و أسحاره تتنسّم و آصاله تغتبق ، كما كانت بقية نضرته، و كما عهدتها أنيقة خضرته، و كيف التفاته عن أزرق نهره، و تأنّقه فى تكليل إكليله بيانع زهره. و هل رقّ نسيم أصائله ، و صفت موارد جداوله؟ و كيف انفساح ساحاته، و التفاف دوحاته؟ و هل تمتدّ كما كانت مع العشىّ فينانة سرحاته؟

عهدى بها، المديدة الظّلال، المزعفرة السّربال، لم تحدّق الآن به عيون نرجسه، و لا صدّ بساط سندسه. و أين منه مجالس لذّاتى، و معاهد غدواتى و روحاتى؟ إذ أبارى فى المجون لمن أبارى، و أسابق إلى اللّذات كلّ من يجارى . فسيقولون لك: ذوت أفنانه، و انقصفت أغصانه، و تكدّرت غدرانه، و تغيّر ريحه و ريحانه، و أقفرت معالمه، و أخرست حمائمه، و استحالت به حلل خمائله، و تغيّرت وجوه بكره و أصائله، فإن صلصل حنين رعد فعن قلبى لفراقه خفق، و إن تلألأ برق فعن حرّ حشاى ائتلق، و إن سحّت السّحب فمساعدة لجفنى، و إن طال بكاؤها فعنّى، حيّاها اللّه تعالى منازل، لم تزل بمنظوم الشّمل أواهل. و حين انتثرت نثرت أزهارها أسفا، و لم تثن الريح من أغصانها معطفا، أعاد اللّه تعالى الشّمل فيها إلى محكم نظامه، و جعل الدهر الذى فرّقه يتأنّق فى أحكامه. و هو سبحانه يجبر الصّدع، و يعجّل الجمع، إنه بالإجابة جدير، و على ما يشاء قدير. إيه بنىّ، كيف حال من استودعتهم أمانتك، و ألزمتهم صونك و صيانتك، و ألبستهم نسبك، و مهّدت لهم حسبك؟ اللّه فى حفظهم فهو اللّائق بفعالك، و المناسب لشرف خلالك، ارع لهم الاغتراب لديك، و الانقطاع إليك، فهم أمانة اللّه تعالى فى يديك، و هو سبحانه يحفظك بحفظهم، و يوالى بلحظك أسباب لحظهم، و إن ذهبتم إلى معرفة الأحوال، فنعم اللّه ممتدّة الظّلال، و خيراته ضافية السّربال؛ لو لا الشوق الملازم، و الوجد الذى سكن الحيازم.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۸

و وقفت من شعره على قصيدة من جملة رسالة، أثبتها و هى : [الطويل]

أ للبرق يبدو تستطير الجوانحو للورق تشدو تستهلّ السّوافح

و قلبی للبرق الخفوق مساعدو وجدی للورق الثکالی مطارح

إذا البرق أوری فی الظلام زنادی فللوجد فی زند الصّبابة قادح

و کم وقفة لی حیث مال بی الهوی‌أغادی بها شکوی الجوی و أراوح

تنازعنی منها الشّجون فأشتکی‌و یکثر بثّی عندها فأسامح

أبثّ شجونی و الحمام یصیخ لی‌و یسعدنی فیما تبیح التّبارح

و تطرب أغصان الأراک فتنثنی‌إلی صفحة النهر الصّقیل تصافح

فتبتسم الأزهار منها تعجّبافتهدی إلیها عرفها و تنافح

کذلک حتی ماد عطف مثقّفی و طرفی أبدی هزّة و هو مارح

فلمّا التظی وجدی ترنّم صاهلافقلت: أمثلی یشتکی الوجد نابح ؟

صرفت عدوّ البید أرخو عنانه و قلت له: شمّر فإنّی سابح

تهیّأ لقطع البید و اعتسف السّری‌سیلقاک غیظان بها و ممایح

فحمحم لو یسطیع نطقا لقال له بمثلی تلقی هذه و تکافح

و حمّلته عزما تعوّد مثلهفقام به مستقبلا من یناطح

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۵۹ و یمّمت بیدا لم أصاحب لجوّها سوی جلد لا یتّقی منه فاضح

و ماضی الغرارین استجدت مضاءه إذا جرّدت یوم الجلاد الصّفائح

و مندمج صدق الأنابیب نافذ به‌عند کرّی فی الحروب أفاتح

و سرت فلا ألقی سوی الوحش نافراو قد شردت عنّی الظّباء السوانح

تحدّق نحوی أعینا لم یلح لهاهنالک إنسیّ و لا هو لائح

و قد زأرت أسد تقحّمت غیلهافقلت: تعاوت إنها لنوابح

و کم طاف بی للخبر من طائف بها فلم أصغ سمعا نحوها و هو صائح

و یعرض لی وجها دمیما و منظراشنیعا له تبدو علیه القبائح

فما راعنی منه تلوّن حاله‌بل ایقظ عزمی فانثنی و هو کالح

فلمّا اکتست شمس العشیّ شحوبهاو مالت إلی أفق الغروب تنازح

تسربلت للإدلاج جنح دجنّةفها أنذا غرسی إلی القصد جانح

فخضت ظلام اللیل و النّجم شاخص‌إلیّ بلحظ طرفه لی لامح

یردّده شزرا إلیّ کأنماعلیّ له حقد به لا یسامح

و راقب من شکل السّماک نظیره‌خلا أنّ شکلی أعزل و هو رامح

یخطّ و میض البرق لی منه أسطراعلی صفحة الظّلماء فهی لوائح

إذا خطّها ما بین عینیّ لم أزل أکلّف دمعی نحوها فهو طامح

و ما زلت سرّا فی حشا النبل کامناإلی أن بدا من ناسم الصّبح فاتح

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۰ و هبّ نسیم الصبح فانعطفت له‌قدود غصون قد رقتها صوادح

تجاذبن من ذکری أحادیث لم تزل‌یردّدها منها مجدّ و مازح

و ملت إلی التّعریس لما انقضی السّری‌أروض له نفسی و عزمی جامح

و مال الكرى بى ميلة سكنت لهاعلى نصب الوعثاء منّى الجوارح

كم أخذت منه الشّمول بثارهافبات يسقّى و هو ريّان طافح

و قرّبت الأحلام لى كلّ مأمل فأدنته منىّ و هو فى الحقّ نازح

أرتنى وجوها لو بذلت لقربهاحياتى لمن بالقرب منه يسامح

لقلّ لها عمرى و ما ملكت يدىو حدّثت نفسى أنّ تجرى رابح

و ما زلت أشكو بيننا غصص النّوىو ما طوّحت بى فى الزمان الطوائح

فمنها ثغور للسّرور بواسملقربه و منها للفراق نوائح

تقرّبها الأحلام منّى و دونهامهامه فيها للهجير لوافح

و بحر طمت أمواجه و شآبيب و قفر به للسّالكين جوامح الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص ۲۶۰

قضيت حقوق الشوق فى زورة الكرى فإنّ زيارات الكرى لموانح

يقرّبن آمالا تباعد بينهاو تعبث فيها بالنفوس الطّوامح

فلمّا تولّى عنّى النوم أعقبت هموم أثارتها الشّجون فوادح

وعدت إلى شكوى البلاء و لم أزلأردّدها و العذر منّى واضح

و ما بلّغت عنى مشافهة الكرىتبلّغها عنّى الرياح اللّواقح

و حسبك قلب فى إسار اشتياقهو قد أسلمته فى يديه الجوانح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۱

وفاته: قال شيخنا أبو بكر بن شبرين: توفى بسجلماسة فى صفر عام ستة عشر و سبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد اللّه بن مقاتل

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

حاله: من كتاب الإكليل: نابغة مالقية، و خلف و بقيّة، و مغربى الوطن، أخلاقه مشرقيّة. أزمع الرحيل إلى المشرق، مع اخضرار العود و سواد المفرق ، فلمّا توسّطت السفينة اللّجج، و قارعت الثّبج ، مال عليها البحر فسقاها كأس الحمام، و أولدها قبل التمام، و كان فيمن اشتملت عليه أعوادها، و انضمّ على نوره سوادها، جملة من الطلبة و الأدباء، و أبناء السراة الحسباء، أصبح كلّ منهم مطيعا، لداعى الرّدى و سميعا، و أحيوا فرادى و ماتوا جميعا، فأجروا الدموع حزنا، و أرسلوا العبرات عليهم مزنا. و كأنّ البحر لمّا طمس سبل خلاصهم و سدّها، و أحال هضبة سفينتهم و هدّها، غار على نفوسهم النّفيسة و استردها . و الفقيه أبو بكر مع إكثاره، و انقياد نظامه و نثاره، لم أظفر من أدبه إلّا بالقليل التافه، بعد وداعه و انصرافه.

فمن ذلك قوله و قد أبصر فتى عاثرا : [الكامل]

و مهفهف هافى المعاطف أحورفضحت أشعّة نوره الأقمارا

زلّت له قدم فأصبح عاثرابين الأنام لعا لذاك عثارا

لو كنت أعلم ما يكون فرشت فىذاك المكان الخدّ و الأشفارا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۲

و قال متغزّلا : [الطويل]

أيا لبنى الرّفاء تنضى ظباؤهمجفون ظباهم و الفؤاد كليم

لقد قطّع الأحشاء منهم مهفهف‌له التّبر خدّ و اللّجين أديم

يسدّد إذ يرمى قسىّ حواجب‌و أسهمها من مقلتيه تسوم

و تسقمنى عيناه و هى سقيمة‌و من عجب سقم جناه سقيم

و يذبل جسمى فى هواه صبابة‌و فى وصله للعاشقين نعيم

وفاته: توفى فى حدود أخريات عام تسعة و ثلاثين و سبعمائة غريقا بأحواز الغبطة من ساحل ألمريّة.

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسى

ولد الشيخ أبى الطاهر، من أهل مالقة.

من كتاب الإكليل: نبيل فطن، متحرك ذهن، كان أبوه، رحمه اللّه، يتبرّم بجداله، و يخشى مواقع رشق نباله، و يشيم بأرقّ الاعتراض فى سؤاله، فيشفق من اختلال خلاله، إذ طريقه إنما هى أذواق لا تشرح، و أسرار لا تفضح. و كان ممن اخترم، وجدّ حبل أمله و صرم، فأفل عقب أبيه، و كان له أدب يخوض فيه.

فمن ذلك، و قد أبصر فتى و سيما على ريحانه: [البسيط]

بدر تجلّى على غصن من الآس‌يبرى و يسقم فهو الممرض الآسى

عادى المنازل إلّا القلب منزلة‌فما له و جميع الناس من ناس

و قال:

يا عالما بالسّرّ و الجهرو ملجأى فى العسر و اليسر

جد لى بما أملته منك‌مولاى و اجبر بالرّضا كسرى

وفاته: فى عام خمسة و سبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوى

من أهل ألمريّة، يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بنسبه، و قد مرّ ذكر أبيه فى العمّال.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۳

حاله: هذا الرجل من أبناء النّعم، و ذوى البيوتات، كثير السكون و الحياء، آل به ذلك أخيرا للوثة لم يستفق منها، لطف اللّه به. حسن الخطّ، مطبوع الأدب، سيّال الطبع، معينه. و ناب عن بعض القضاة، و هو الآن رهين ما ذكر، يتمنّى أهله وفاته ، و اللّه ولىّ المعافاة بفضله .

و جرى ذكره فى الإكليل بما نصّه : من أولى الخلال البارعة و الخصال، خطّا رائقا، و نظما بمثله لائقا، و دعابة يسترها تجهّم، و سكوتا فى طيّه إدراك و تفهّم. عنى بالرواية و التقييد، و مال فى النظم إلى بعض التوليد، و له أصالة ثبتت فى السّرو عروقها، و تألّقت فى سماء المجادة بروقها، و تصرّف بين النيابة فى الأحكام الشرعية، و بين الشهادات العملية المرعية.

شعره: و من شعره فيما خاطبنى به، مهنئا فى إعذار أولادى، أسعدهم اللّه، افتتح ذلك بأن قال:

قال يعتذر عن خدمة الإعذار، و يصل المدح و الثناء على بعد الدار، و ذلك بتاريخ الوسط من شعبان فى عام تسعة و أربعين و سبعمائة : [الكامل]

لا عذر لى عن خدمة الإعذار و لئن نأى وطنى و شطّ مزارى

أو عاقنى عنه الزمان و صرفه‌تقضى الأمانى عادة الأعصار

قد كنت أرغب أن أفوز بخدمتيو أحطّ رحلى عند باب الدار

بادى المسرّة بالصنيع و أهلهمتشمّرا فيه بفضل إزارى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۴ من شاء أن يلقى الزمان و أهلهو يرى جلا الإشعاع فى الأفكار

فليأت حىّ ابن الخطيب ملبّيافيفوز بالإعظام و الإكبار

كم ضمّ من صيد كرام فضلهم يسمو و يعلو فى ذوى الأقدار

إن جئت ناديه فنب عنّى و قلنلت المنى بتلطف و وقار

يا من له الشرف القديم و من له الحسب الصميم العدّ يوم فخار

يهنيك ما قد نلت من أمل بهفى الفرقدين النّيّرين لسارى

تجلاك قطبا كلّ تجر باذخأملان مرجوّان فى الإعسار

عبد الإله و صنوه قمر العلافرعان من أصل زكا و نجار

ناهيك من قمرين فى أفق العلاينميهما نور من الأنوار

زاكى الأرومة معرق فى مجدهجمّ الفضائل طيّب الأخبار

رقّت طبائعه وراق جمالهفكأنما خلقا من الأزهار

و حلت شمائل حسنه فكأنماخلعت عليه رقّة الأسحار

فإذا تكلّم قلت طلّ ساقطأو وقع درّ من نحور جوارى

أو فتّ مسك الحبر فى قرطاسهبالروض غبّ الواكف المدرار

تتبسّم الأقلام بين بنانهفتريك نظم الدرّ فى الأسطار

فتخال من تلك البنان كمائماظلّت تفتّح ناضر النّوّار

تلقاه فيّاض الندى متهلّلايلقاك بالبشرى و الاستبشار

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۵ بحر البلاغة قسّها و أيادهاسحبانها خبر من الأخبار

إن ناظر العلماء فهو إمامهمشرف المعارف، واحد النّظّار

أربى على العلماء بالصّيت الذىقد طار فى الآفاق كل مطار

ما ضرّه إن لم يجىء متقدّمابالسّبق يعرف آخر المضمار

إن كان أخّره الزمان لحكمةظهرت و ما خفيت كضوء نهار

الشمس تحجب و هى أعظم نيّر و ترى من الآفاق إثر درارى

يا ابن الخطيب خطبتها لعلاكمبكرا تزفّ لكم من الأفكار

جاءتك من خجل على قدم الحياقد طيّبت بثنائك المعطار

و أتت تؤدّى بعض حقّ واجبعن نازح الأوطان و الأوطار

مدّت يد التّطفيل نحو علاكمفتوشّحت من جودكم بنضار

فابذل لها فى النّقد صفحك إنهاتشكو من التّقصير فى الأشعار

لا زلت فى دعة و عزّ دائمو مسرّة تترى مع الأعمار

و من السّلطانيات قوله من قصيدة نسيبها: [الطويل]

تبسّم ثغر الدهر فى القضب الملدفأذكى الحياء خجلة و جنة الورد

و نبّه وقع الطّلّ ألحاظ نرجس‌فمال إلى الوسنان، عاد إلى الشّهد

و ثمّ لسبر الروض فى مسكة الدّجى‌نسيم شذا الخير كالمسك و النّدّ

و غطّى ظلام الليل حمرة أفقه‌كما دار مسودّ العذار على الخدّ

و باتت قلوب الشّهب تخفق رقّةلما حلّ بالمشتاق من لوعة الوجد

و أهمى عليه الغيم أجفان مشفق‌يذكّره فاستمطر الدّمع للخدّ

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۶

و منها:

كأن لم أقف فى الحىّ وقفة عاشق‌غداة افترقنا و النّوى رندها يعدى

و ناديت حادى العيس عرّج لعلّنى‌أبثّك وجدى إن تمرّ على نجد

فقال اتّئد يا صالح ما لك ملجأسوى الملك المنصور فى الرّفق و الرّفد

و ممّا خاطبنى به قوله: [الخفيف]

علّلونى و لو بوعد محالو حلّونى و لو بطيف خيال

و اعلموا أننى أسير هواكم‌لست أنفكّ إنما عن عقال

فدموعى من بينكم فى انسكاب‌و فؤادى من سحركم فى اشتغال

يا أهيل الحمى كفانى غرامى‌حسبى ما قد جرّ ... ال

من مجيرى من لحظ ريم ظلوم‌حلّل الهجر بعد طيب الوصال

ناعس الطّرف أسمر الجفن منى‌طال منه الجوى بطول الليالى

بابلىّ اللّحاظ أصمى فؤادهو رماه من غنجه بنبال

و كسا الجسم من هواه نحولاقصده فى النّوى بذاك النحال

ما ابتدا فى الوصال يوما بعطف‌مذ روى فى الغرام باب اشتغال

ليس لى منه فى الهوى من مخبرغير تاج العلا و قطب الكمال

علم الدين عزّه و سناهذروة المجد بدر أفق الجلال

هو غيث النّدى و بحر العطاياهو شمس الهدى فريد المعالى

إن وشى فى الرقاع بالنقش قلناصفحة الطّرس حلّيت باللآلى

أو دجا الخطب فهو فيه شهاب‌راية الصبح فى ظلال الضلال

أو ينى العضب فهو فى الأمن ماض‌صادق العزم ضيق المجال

لست تلقى مثاله فى زمان‌جلّ فى الدّهر يا أخى عن مثال

قد نأى حبّى ما له عن ديارى‌لا لجدوى و لا لنيل نوال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۷ لكن اشتقت أن أرى منه وجهانوره فاضح لنور الهلال

و كما همت فيه ألثم كفّاقد أتت بالنّوال قبل السؤال

سأل ابن الخطيب عذرا أجابت‌تلثم النّعل قبل شسع النعال

و توفّى حقّ الوزارة عمن‌هو ملك لها على كل حال

محمد بن محمد بن الشّديد

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: ذكر فى الإكليل بما نصّه : شاعر مجيد حوك الكلام، و لا يقصر فيه عن درجة الأعلام. رحل إلى الحجاز لأوّل أمره فطال بالبلاد المشرقية ثواؤه، و عمّيت أنباؤه، و على هذا العهد وقفت له على قصيدة بخطّه غرضها نبيل، و مرعاها غير و بيل، تدلّ على نفس و نفس، و إضاءة قبس، و هى: [الوافر]

لنا فى كلّ مكرمة مقامو من فوق النجوم لنا مقام

روينا من مياه المجد لمّاوردناها و قد كثر الزحام

و منها:

فنحن هم و قل لى من سوانالنا التّقديم قدما و الكلام

لنا الأيدى الطّوال بكلّ ضرب يهزّ به لدى الروع الحسام

و نحن اللّابسون لكلّ درعيصيب السّمر منهنّ انثلام

بأندلس لنا أيام حربمواقفهنّ فى الدنيا عظام

ثوى منها قلوب الرّوم خوفا يخوّف منه فى المهد الغلام

حمينا جانب الدين احتسابافها هو لا يهان و لا يضام

و تحت الراية الحمراء منّاكتائب لا تطاق و لا ترام

بنو نصر و ما أدراك ما همأسود الحرب و القوم الكرام

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۸ لهم فى حربهم فتكات عمروفللأعمار عندهم انصرام

يقول: عداتهم مهما ألمّواأتونا ما من الموت اعتصام

إذا شرعوا الأسنّة يوم حربفحقّق أنّ ذاك هو الحمام

كأنّ رماحهم فيها نجومإذا ما أشبه الليل الغمام

أناس تخلف الأيام ميتابحيّ منهم فلهم دوام

رأينا من أبى الحجاج شخصاعلى تلك الصفات له قيام

موقّى العرض محمود السجاياكريم الكفّ مقدام همام

يجول بذهنه فى كلّ شىءفيدركه و إن عزّ المرام

قويم الرأى فى نوب الليالىإذا ما الرأى فارقه القوام

له فى كلّ معضلة مضاءمضاء الكفّ ساعده الحسام

رؤوف قادر يغضى و يعفوو إن عظم اجتناء و اجترام

تطوف ببيت سؤدده القوافى كما قد طاف بالبيت الأنام

و تسجد فى مقام علاه شكراو نعم الرّكن ذلك و المقام

أفارسها إذا ما الحرب أخنت على أبطالها و دنا الحمام

و ممطرها إذا ما السّحب كفّتو كفّ أخى الندى أبدا غمام

لك الذكر الجميل بكلّ قطرلك الشرف الأصيل المستدام

لقد جبنا البلاد فحيث سرنارأينا أنّ ملكك لا يرام

فضلت ملوكها شرقا و غرباو بتّ لملكها يقظا و ناموا

فأنت لكلّ معلوّة مدارو أنت لكلّ مكرمة إمام

جعلت بلاد أندلس إذا ماذكرت تغار مصر و الشآم

مكان أنت فيه مكان عزّو أوطان حللت بها كرام

وهبتك من بنات الفكر بكرالها من حسن لقياك ابتسام

فنزّه طرف مجدك فى حلاهافللمجد الأصيل بها اهتمام

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۶۹

محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد ابن أبى الخصال الغافقى

الإمام البليغ، المحدّث الحجّة، يكنى أبا عبد اللّه. أصله من فرغليط من شقورة، من كورة جيّان، و سكن قرطبة و غرناطة.

حاله: قال ابن الزّبير عند ذكره: ذو الوزارتين، أبو عبد اللّه بن أبى الخصال.

كان من أهل المعارف الجمّة، و الإتقان لصناعة الحديث، و المعرفة برجاله، و التقييد لغريبه، و إتقان ضبطه، و المعرفة بالعربية و اللغة و الأدب، و النّسب و التاريخ، متقدما فى ذلك كله. و أما الكتابة و النظم، فهو إمامهما المتفق عليه، و المتحاكم فيهما إليه.

و لما ذكره أبو القاسم الملّاحى بنحو ذلك قال: لم يكن فى عصره مثله، مع دين و فضل و ورع.

قال أبو عمرو ابن الإمام الإستجّى فى سمط الجمان، لما ذكره: البحر الذى لا يماتح و لا يشاطر، و الغيث الذى لا يساجل و لا يقاطر، و الروض الذى لا يفاوح و لا يعاطر، و الطّود الذى لا يزاحم و لا يخاطر، الذى جمع أشتات المحاسن، على ماء غير ملح و لا آسن؛ و كثرت فواضله، فأمنت المماثل و المحاسن، الذى قصرت البلاغة على محتده، و ألقيت أزمة الفصاحة فى يده، و تشرّفت الخطابة و الكتابة باعتزائهما إليه، فنثل كنانتها، و أرسل كمائنها، و أوضح أسرارها و دفائنها، فحسب الماهر النّحرير، و الجهبذ العلّامة البصير إذا أبدع فى كلامه، و أينع فى روض الإجادة نثاره و نظامه، و طالت قنى الخطيّة الذبل أقلامه، أن يستنير بأنواره، و يقتضى بعض مناهجه و آثاره، و ينثر على أثوابه مسك غباره، و ليعلم كيف يتفاضل الخبر و الإنشاء، و يتلو إنّ الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء.

و عضّه العقور أبو نصر فى قلائده، حيث قال : «هو و إن كان خامل المنشأ نازله، لم ينزله المجد منازله، و لا فرّع للعلاء هضابا، و لا ارتشف للسّنا رضابا، فقد تميّز بنفسه، و تحيّز من أبناء جنسه، و ظهر بذاته، و فخر بأدواته».

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۰

مشيخته: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير فى الصلة : روى عن الغسانى، و الصّدفى، و أبى الحسن بن الباذش، و أبى عمران بن تليد، و أبى بحر الأسدى، و أبى عبد اللّه النّفزى، و جماعة غيرهم.

تواليفه: قال الأستاذ: و أمّا كتبه و شعره و تواليفه الأدبية، فكل ذلك مشهور، متداول بأيدى الناس، و قلّ من يعلم بعده، أن يجتمع له مثله، رحمه اللّه.

من روى عنه: روى عنه ابن بشكوال، و ابن حبيش، و ابن مضاء و غيرهم، و كل ذلك ذكره فى رحاله، و هو أعرف بتقدّمه فى احتفاله.

شعره: و له شعر كثير، فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحاق بن خفاجة:

[الكامل]

هبّ النسيم هبوب ذى إشفاقيذهبن الهوى بجناحه الخفّاق

و كأنما صبح الغصون بنشوةباحت لها سرائر العشاق

و إذا تلاعبت الرياح ببانه‌لعب الغرام بمهجة المشتاق

مه يا نسيم فقد كبرت عن الصّبالم يبق من تلك الصّبابة باق

إن كنت ذاك فلست ذاك و لاأنا قد أذنت مفارقى بفراق

و لقد عهدت سراك من عدد الهوى‌و الموت فى نظرى و فى استنشاق

أيام لو عنّ السّلوّ لخاطرى‌قرّبته هديا إلى أشواقى

الهوى إلفى و البطالة مركبى‌و الأمن ظلّى و الشباب رواقى

فى حيث قسّمت المدامة قسمة‌ضيزى لأن السكر من أخلاقى

لا ذنب للصّهباء أنى غاصب‌و لذاك قام السكر باستحقاق

و لقد صددت الكأس فانقبضت بهامن بعدها انبسطت يمين السّاقى

و تركت فى وسط النّدامى خلّة‌هامت بها الوسطى من الأعلاق

فاستسرفونى مذكرين و عندهم‌أنى أدين اللهو دين نفاق

و حبابها نفث الحباب و ربماسدكت يد الملسوع منه براق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۱ و كأنه لما توقّر فوقها نور تجسّم من ندى الأحداق

لو بارح نفح النّوى فى روضة‌فأثارها و سرى عن الأحداق

و لقد جلوا و اللّه يدرأ كيدهم‌فتّانة الأوصاف و الأعراق

أغوى بها إبليس قدما آدم و السّرّ يرمى فى هواها الباقى

تاللّه أصرف نحوها وجد الرضالو شعشعت برضا أبى إسحاق

و من نسيبه : [المنسرح]

و ليلة عنبريّة الأفق‌رويت فيها السرور من طرق

و كنت حرّان فاقتدحت بهانارا من الرّاح برّدت حرقى

وافت بها عاطلا و قد لبست‌غلالة فصّلت من الحدق

فاجا بها الدهر من بنيه دجى لقيته كالإصباح فى نسق

قامت لنا فى المقام أوجههم‌و راحهم بالنجوم و الشّفق

و أطلع البدر من ذرى غصن‌تهفو عليه القلوب كالورق

من عبد شمس بدا سناه و هل‌ذا النور إلّا لذلك الأفق

مدّ بحمراء من مدامته‌بيضاء كفّ مسكينة العبق

فخلتها وردة منعّمة‌تحمل من سوسن على طبق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۲ يشرب فى الراح حين يشربها ما غادرت مقلتاه من رمق

و قال : [المنسرح]

يا حبذا ليلة لنا سلفت‌أغرت بنفسى الهوى و ما عرفت

دارت بظلمائها المدام فكم‌نرجسة من بنفسج قطفت

و قال فى مغنّ زار، بعده أغبّ و شطّ المزار : [الكامل]

وافى و قد عظمت علىّ ذنوبه‌فى غيبة قبحت بها آثاره

فمحا إساءته لنا إحسانهو استغفرت لذنوبه أوتاره

و قال يعتذر عن استبطاء مكاتبة : [الطويل]

أ لم تعلموا و القلب رهن لديكميخبّركم عنى بمضجره بعدى؟

فلو قلّبتنى الحادثات مكانكملأنهبتها و فرى و أوطأتها خدّى

أ لم تعلموا أنى و أهلى و واحد فداء و لا أرضى بتفدية وحدى؟

و من قوله فى غرض المدح يخاطب تاشفين بن على، و يذكر الوقعة بكركى، يقول فيها: [البسيط]

اللّه أعطاك فتحا غير مشتركو ردّ عزمك عن فوت إلى درك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۳ أرسل عنان جواد أنت راكبهو اضمم يديك ودعه فى يد الملك

حتى يصير إلى الحسنى على ثقةيهدى سبيلك هاد غير مؤتعك

قد كان بعدك للأعداء مملكةحتى استدرّت عليهم كورة الفلك

سارت بك الجرد أو طار الفضاء بهاو الحين قد قيّد الأعداء فى شرك

فما تركت كميّا غير منعفرو لا تركت نجيعا غير منسفك

ناموا و ما نام موتور على حنقأسدى إذا فرصة ليست من السلك

فصبّحتهم جنود اللّه باطشةو الصبح من عبرات الفجر فى مسك

من كل مبتدر كالنّجم منكدرتفيض أنفسهم غيظا من المسك

فطاعنوكم بأرماح و ما طعنتو ضاربوكم بأسياف و لم تحك

تعجّل النّحر فيهم قبل موسمهو قدّم الهدى منهم كلّ ذى نسك

فالطير عاكفة و الوحش واقفةقد أثقلتها لحوم القوم عن حركك

عدت على كل عاد منهم أسربعثن فى حنجر رحب و فى حنك

كلى هنيئا مريئا و اشكرى ملكاقرتك أسيافه فى كل معترك

فلو تنضّدت الهامات إذ نشرتبالقاع للغيظان بالنّبك

أبرح و طالب بباقى الدهر ماضيهفيوم بدر أقامه الفىء فى فدك

و كم مضى لك من يوم بنت لهفى ماقط برماح الحظّ مشتبك

بالنّقع مرتكم بالموت ملتئمبالبيض مشتمل بالشمر محتبك

فحص القباب إلى فحص الصعابإلى أريولة مداسات إلى السّكك

و كم على حبر محمود و جارتهللرّوم من مرتكل غير متّرك

وفّيت للصّفر حتى قيل قد غدرواسموت تطلب نصر اللّه بالدّرك

فأسلمتهم إلى الإسلام غدوتهمو أذهب السيف ما بالدّن من حنك

يا أيها الملك السامى بهمّتهإلى رضى اللّه لا تعدم رضى الملك

ما زلت تسمعه بشرى و تطلعهأخرى كدرّ على الأجياد منسلك

بيّضت وجه أمير المؤمنين بهاو الأرض من ظلمة الإلحاد فى حلك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۴ فاستشعر النّصر و اهتزّت منابرهبذكر أروع للكفار محتنك

فأخلدك و لمن والاك طاعتهخلود برّ بتقوى اللّه ممتسك

وافيت و الغيث زاخر قد بكى طربالمّا ظفرت و كم بلّله من الضّحك

و تمّم اللّه ما أنشأت من حسن‌بكل منسبك منه و منتمك

و عن قريب تباهى الأرض من زهيرسماها بها غضّة الحبك

فعد و قد و اعتمد و احمد و سد و أبدو قل وصل و استطل و استول و انتهك

و حسبك اللّه فردا لا نظير له‌تغنيك نصرته عن كل مشترك

و من قوله فى غرض الرثاء، يرثى الفقيد أبا الحسن بن مغيث : [البسيط]

الدهر ليس على حرّ بمؤتمن‌و أىّ علق تخطّته يد الزمن

يأتى العفاء على الدنيا و ساكنهاكأنه أدبر لم يسكن إلى سكن

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط هلّا بكيت فراق الرّوح للبدن؟

نور تقيّد فى طين إلى أجل‌و انحاز علوا و خلّى الطين فى الكفن

كالطير فى شرك يسمو إلى درك‌حتى تخلّص من سقم و من درن

إن لم يكن فى رضى اللّه اجتماعهمافيا لها صفقة تمّت على غبن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۵ يا شدّ ما افترقا من بعد ما اعتنقا أظنّها محرقة كانت على دخن

و ربّ سار إلى وجه يسرّ به‌وافى و قد نبت المرعى على الدّمن

أتى إلى اللّه لا سمع و لا بصريدعو إلى الرّشد أو يهدى إلى السّنن

فى كل يوم فراق لا بقاء له‌من صاحب كرم أو سيّد قمن

أعيا أبا حسن فقد الذين مضوافمن لنا بالذى أعيا أبا حسن

كأنّ البقية فى قوم قد انقرضوافهاج ما شاء ذاك القرن من شجن

يعدّ فدا و فى أثوابه رمز من‌كل ذى خلق عمرو و ذى فطن

و إنّ من أوجدتنا كلّ مفتقدحياته لعزيز الفقد و الظّعن

من للملوك إذا خفّت حلومهم‌بما يقاوم ذاك الطيش من سكن

و منها:

يا يونس لا تسر أصبحنا لوحشتنانشكو اغترابا و ما بنّا عن الوطن

و يا مطاعا مطيعا لا عناد له‌فى كل أمر على الإسلام مؤتمن

كم خطت كارتجاج البحر مبهمةفرّجتها بحسام سلّ من لسن

طود المهابة فى الجلا و إن جذبت‌عنانه خلوة هزّت ذرى وتر

أكرم به سببا تلقى الرسول به‌لخمس واردة فى الفرض و السّنن

ناهيك من منهج سمّ القصور به‌هوى فمن قدر عال إلى فدن

من كل وادى التّقى يسقى الغمام به‌فيستهل شروق الضّرع باللبن

تجمّلت بك فى أحسابها مضرو أصل مجدك فى جرثومة اليمن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۶ من دولة حولها الأنصار حاشدةفى طامح شامخ الأركان و القنن

من الذين هم رووا و هم نصروامن عيسة الدّين لا من جذوة الفتن

إن يبد مطّلع منهم و مستمع‌فارغب بنفسك عن لحظ و عن أذن

ما بعد منطقه و شى و لا زهرو لا لأعلاق ذاك الدّرّ من ثمن

أقول وفينا فضل سؤددهأستغفر اللّه ملء السّر و العلن

محمد و مغيث نعم ذا عوضاهما سلالة ذاك العارض الهتن

تقبّلا هديه فى كل صالحةنصر السّوابق عن طبع و عن مرن

ما حلّ حبوته إلّا و قد عقداحبا بما اختار من أيد و من منن

غرّ الأحبّة عند حسن عهدهماو إن يؤنس فى الأثواب و الجنن

علما و حلما و ترحيبا و تكرمةللزائرين و إغضاء على زكن

يا وافد الغيث أوسع قبره نزلاوروما حول ذاك الدّيم من ثكن

و طبق الأرض و بلا فى شفاعتهفنعم رائد ذاك الرّيف و اليمن

و أنت يا أرض كونى مرّة بأبىمثوى كريم ليوم البعث مرتهن

و إن تردّت بترب فيك أعظمهفكم لها فى جنان الخلد من ردن

و من شعره قوله مخمّسا، كتب بها، و قد أقام بمراكش يتشوق إلى قرطبة:

[الطويل]

بدت لهم بالغور و الشّمل جامعبروق بأعلام العذيب لوامع

فباحت بأسرار الضمير المدامعو ربّ غرام لم تنله المسامع

أذاع بها من فيضها لا يصوّب ألا فى سبيل الشّوق قلب مؤثّلبركب إذا شاء و البروق تحمل

هو الموت إلّا أننى أتحمّلإذا قلت هذا منهل عزّ منهل

و راية برق نحوها القلب يجنب أبى اللّه إمّا كلّ بعد فثابتو إما دنوّ الدار منهم ففائت

و لا يلفت البين المصمّم لافتو يا ربّ حىّ البارق المتهافت

غراب بتفريق الأحبّة ينعب الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۷ خذوا بدمى ذاك الوسيق المضرّجاو روضا بغيض العاشقين تأرّجا

عفى اللّه عنه قاتلا ما تحرّجاتمشّى الرّدى فى نشره و تدرّجا

و فى كل شىء للمنيّة مذهب سقى اللّه عهدا قد تقلّص ظلّهحيا قطره يحيى الربا مستهلّه

وعى به شخصا كريما أجلّهيصحّ فؤادى تارة و يعلّه

و يلمّه بالذكر طورا و يشعب رمانى على قرب بشرخ ذكائهفأعشت جفونى نظرة من ذكائه

و غصّت بأدنى شعبة من سمائهشعابى و جاء البحر فى غلوائه

فكلّ بقرب ردع خدّيه يركب أ لم يأته أنّى ركنت قعوداو أجمعت عن وفز الكلام قعودا

و لم أعتصر للذّكر بعدك عوداو أزهقنى هذا الزمان صعودا

فربع الذى بين الجوانح سبسب على تلك من حال دعوت سميعاو ذكّرت روضا بالعقاب مريعا

و تملأ الشعب المذحجى جميعاو سربا بأكناف الرّصافة ريعا

و أحداق عين بالحمام تقلّب و لم أنس ممشانا إلى القصر ذى النّخلبحيث تجافى الطود عن دمث سهل

و أشرف لا عن عظم قدر و لا فضلو لكنه للملك قام على رجل

يقيه تباريح الشمال و يحجب فكم وجع ينتابه برسيسهو يرتحل الفتى بأرجل عيسه

أبق أمّ عمرو فى بقايا دريسه كسحق اليمانى معتليه نفيسه

فرقعته تسبى القلوب و تعجب و بيضاء للبيض البهاليل تعتزى و تعتزّ بالبان جلالا و تنتزى

سوى أنها بعد الصّنيع المطرّزكساها البلى و الثّكل أثواب معوز

يبكى و تبكى للزائرين و تندب الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۸ و كم لك بالزّهراء من متردّدو وقفة متّسق المجامع مقصد

يسكن من خفق الجوانح باليدو يهتك حجب النّاصر بن محمد

و لا هيبة تخشى هنالك و ترهب لنعم مقام الخاشع المتنسّكو كانت فى محلّ العبشمين المملّك

متى يورد النّفس العزيزة يسفكو إن يسم نحو الأبلق الفرد يملك

و أى مرام رامه يتصعّب قصور كان الماء يعشق مبناهافطورا يرى تاجا بمفرق أعلاها

و طورا يرى خلخال أسوق سفلاهاإذا زلّ وهنا عن ذوائب يهواها

يقول هوى بدرا أو انقضّ كوكب أتاها على رغم الجبال الشّواهقو كلّ منيف للنجوم مراهق

و كم دفعت فى الصّدر منه بعانقفأودع فى أحشائها و المفارق

حسابا بأنفاس الرياح يذرب هى الخود من قرن إلى قدم حسناتناصف أقصاها جمالا مع الأدنى

و درج كأفلاك مبنى على مبنىتوافقن فى الإتقان و اختلف المعنى

و أسباب هذا الحسن قد تتشعّب فأين الشّموس الكالفات بها ليلاو أين الغصون المائسات بها ميلا

و أين الظّباء السابحات بها ذيلاو أين الثّرى رجلا و أين الحصا خيلا

فوا عجبا لو أن من يتعجّب كم احتضنت فيها القيان المزاهراو كم فاوحت فيها الرّياض المجامرا

و كم ساهرت فيها الكواكب سامراو كم قد أجاب الطير فيها المزامرا

عظيم من الدنيا شعاع مطنّب كأن لم يكن يقضى بها النّهى و الأمرو يجبى إلى خزائنها البرّ و البحر

و يسفر مخفورا بذمّتها الفخرو يصبح مختوما بطينتها الدهر

و أيامه تعزى إليها و تنسب

الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۲۷۸

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۷۹ و مالك عن ذات القسىّ النّواضحو ناصحة تعزى قديما لناصح

و ذى أثر على الدهر واضحيخبر عن عهد هنالك صالح

و يعمر ذكر الذاهبين و يخرب تلاقى عليه فيض نهر و جدولتصعّد من سفل و أقبل من عل

فهذا جنوبىّ و ذلك شمألى و ما اتفقا إلّا على خير منزل

و إلّا فإن الفضل منه مجرّب كأنهما فى الطّيب كانا تنافرافسارا إلى وصل القضاء و سافرا

و لمّا تلاقى السابقان تناظرافقال ولىّ الحق مهلا تظافرا

فكلّكما عذب المجاجة طيّب أ لم يعلما أن اللّجاج هو المقتو أن الذى لا يقبل النّصف منبتّ

و ما منكما إلّا له عندنا وقتفلما استبان الحقّ و اتجه السّمت

تقشّع من نور المودة غيهب و إن لها بالعامريّة لمظهراو مستشرفا يلهى العيون و منظرا

و روضنا على شطّى خضارة أخضراو جوسق ملك قد علا و تجبّرا

له ترة عند الكواكب تطلب أغيّره فى عنفوان المواردو أثبته فى ملتقى كل وارد

و أبرزه للأريحىّ المجاهدو كلّ فتى عن حرمة الدين زايد

حفيظته فى صدره تتلهّب تقدّم عن قصر الخلافة فرسخاو أصحر بالأرض الفضاء ليصرخا

فحالته أرض الشّرك فيها منوّخاكذلك من جاس الدّيار و دوّخا

فردعته فى القلب تسرى و ترهب أولئك قوم قد مضوا و تصدّعواقضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودّعوا

فهل لهم ركز يحسّ و يسمع؟تأمّل فهذا ظاهر الأرض بلقع

إلّا أنهم فى بطنها حيث غيّبوا الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۰ أ لست ترى أن المقام على شفاو أن بياض الصّبح ليس بذى خفا

و كم رسم دار للأجنّة قد عفاو كأنّ حديثا للوفود معرّفا

فأصبح وحش المنتدى يتجنّب و للّه فى الدّارات ذات المصانع أخلّاء صدق كالنجوم الطّوالع

أشيع بينهم كلّ أبيض ناصعو أرجع حتى لست يوما براجع

فياليتنى فى قسمتى أتهيّب أقرطبة لم يثننى عنك سلوانو لا بمثل إخوانى بمغناك إخوان

و إنى إذا لم أسق ماءك ظمآنو لكن عدانى عنك أمر له شان

و موطنى آثار تعدّ و تكتب لك الحقّ و الفضل الذى ليس يدفعو أنت لشمس الدّين و العلم مطلع

و لولاك كان العلم يطوى و يرفعو كل التّقى و الهدى و الخير أجمع

إليك تناهى و الحسود معذّب أ لم تك خصّت باختيار الخلائفو دانت لهم فيها ملوك الطّوائف

و عضّ ثقاف الملك كلّ مخالفبكل حسام مرهف الحدّ راعف

به تحقن الآجال طورا و تسكب إلى ملكها انقاد الملوك و سلّمواو كعبتها ندا الوفود و يمّموا

و فيها استفادوا شرحهم و تعلّمواو عاذوا بها من دهرهم و تحرّموا

فنكّب عنهم صرفه المتسحّب علوت فما فى الحسن فوقك مرتقىهواؤك مختار و تربك منتقى

و جسرك للدنيا و للدّين ملتقىو بيتك مربوع القواعد بالتّقى

إلى فضله لأكباب تنضى و تضرب تولّى خيار التابعين بقاءهو خطّوا بأطراف العوالى فناءه

و مدّوا طويلا صيته و ثناءه فلا زال مخلوع عليه سناءه

و لا زال سعى الكائدين يخيّب الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۱ و بالغ فيه كلّ أروع أصيدطويل المعالى و المكارم و اليد

و شادوا و جادوا سيّدا بعد سيّدفبادوا جميعا عن صنيع مخلّد

يقوم عليه الثناء و يخطب مصابيحه مثل النجوم الشّوابكتمزّق أثواب النجوم الحوالك

و تحفظه من كل لاه و سالكأجادل تنقضّ انقضاض النّيازك

فإبشارهم بالطبطبية تنهب أجدك لم تشهد بها ليلة القدرو قد جاش برّ الناس منه إلى بحر

و قد أسرجت فيه جبال من الزّهرفلو أن ذلك النّور يقبس من فجر

لأوشك نور الفجر يفنى و ينضب كأن للثّريّات أطواد نرجس ذوائبه تهفو بأدنى تنفّس

و طيب دخان النّدّ من كل معطّسو أنفاسه فى كل جسم و ملبس

و أذياله فوق الكواكب تسحب إلى أن تبدّت راية الفجر تزحفو قد قضّى منهما الذى لا يسوّف

تولّوا و أزهار المصابيح تقطفو أبصارها صونا تغضّ و تطرف

كما تنصل الأرماح ثم تركّب سلام على غيابها و حضورهاسلام على أوطانها و قصورها

سلام على صخرائها و قبورهاو لا زال سور اللّه من دون سورها

فحسن دفاع اللّه أحمى و أرهب و فى ظهرها المعشوق كل مرفّعو فى بطنها الممشوق كل مشفع

متى تأته شكوى الظّلامة ترفعو كل بعيد المستغاث مدفّع

من اللّه فى تلك المواطن يقرب و كم كربة ملء الجوانح و القلبطرقت و قد نام المواسون من صحب

بروعتها قبر الوالى لى وهبّو ناديت فى التّرب المقدّس يا ربّ

فأبت بما يهوى الفؤاد و يرغب الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۲ فيا صحبى حان قبلك مصرعىو كنت على عهد الوفا و الرّضا معى

فحطّ بضاحى ذلك السّرى مضجعىو ذرنى فجار القوم غير مروّع

فعندهم للجار أهل و مرحب رعى اللّه من يرعى العهود على النّوىو يظهر بالقول المحبّر ما نوى

و لبيته من مستحكم الودّ و الهوىيرى كلّ واد غير واديه مجتوى

و أهدى سبيله الذى يتجنّب كتابته: و كتابة ذى الوزارتين، رحمه اللّه، كالشمس شهرة، و البحر و القطر كثرة؛ و نحن نثبت له شيئا من ذلك لئلّا يخلو هذا الكتاب من شىء من بيانه. كتب يراجع الوزير أبا بكر بن عبد العزيز، من رسالة كتب بها إليه مع حاج يضرب القرعة:

أطال اللّه بقاء وليّى و إمامى الذى له إكبارى و إعظامى، و فى سلكه اتّسامى و انتظامى، و إلى ملكه انتسابى و اعتزائى، و بودّه افتخارى و انتزائى، للفضائل مجيبا و مبديا، و للمحامد مشتملا و مرتديا، و بالغرائب متحفا و مهديا، و لا زال الرّخاء و أزل، وجدّ من المصافاة و هزل، و سحت من المراعاة و جزل. وصل كتابه صحبة عرّاف اليمامة، و فخر نجد و تهامة، يقرّظه و يزكّيه، و يصفه بالخبّ يفسّره و يجليه، و الخفىّ يظهره و يبديه. و لعله رائد، لابن أبى صائد، أو هاد للمسيح الدّجال قائد. أشهد شهادة إنصاف، أن عنده لعضبا صاف، و لو كان هناك ناظر صادق طاف، و للّه خفايا الألطاف، لقلت هو باد غير خاف، من بين كل ناعل و حاف. و سأخبرك، أيّدك اللّه، بما اتّفق، و كيف طار و نعق، و توسّد الكرامة و ارتفق، طرق له وصفك و نعتك، و ثقّفه بريك و نحتك، و رفعه للعيون جدّك و بختك، و امتدت نحوه النواظر، و استشرفه الغائب و الحاضر، و تسابق إليه النّابه و الخامل، و ازدحم عليه العاطل و العامل. هذا يلتمس مزيدا، و ذاك يبتغى حظا جديدا، و هذا يطلب تقليدا، و ذلك يسلّ إلى مغاليقه إقليدا.

فكلما حزب، و غلّ و جلب، حلب و استدرّ، و تلقاه و إن ساءه الغيب بما سرّ. و كنت واتغت جملة من الأعيان، و وافقت ثلّة من جلّة الإخوان، على تمشية أمره، و توشية ذكره؛ فلمّا صدقت تلك الفرقة، و استوت بهم تلك الفرقة، أحضرناه للسّبار، و أقعدناه للنّقد و الاختيار، و أردنا أن نقف على جلايا تلك الأخبار، فأحضرنا طحنا و نطعا، و سرينا عنه من الوحشة قطعا، و قلنا له خذ عفوك، و لا توردنا إلّا صفوك، و لا تصانعنا فى الكريهة التى نراها، و الحادثة تستفظع ذكراها؛ فما عندنا جهل، و ما منّا إلّا محتنك كهل، لا يتكاده حزن و لا يستخفّه سهل، فسكن جائش فوره، و ضرب بلحيته على زوره، ثم صعّد فينا النظر و صوّب، و استهلّ صارخا و ثوّب، و تحرّج من الكذب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۳

و تحوّب، و قال: لست للعشرة خابطا، و لا للطّرف غامضا، و لا عن الصدق إذا صدع حائدا، و لا للغدر ممّن وقع منه ذائدا، و لا بمعجزات النبوّة لاعبا، و لا لصريح الجدّ مداعبا، و لا تطيبنى مسألة و لا حلوان، و لا تستفزّنى نضائد كثيرة و لا ألوان. إنما هو رسم و خطّ، و رفع و حطّ، و نحس و سعد، و نقد و وعد، و يوم وغد. فقلنا له الآن صحّت الوفادة، و أينعت الإرادة. ثم نظر إلينا نظر المستقلّ، و اجتذب النّطع اجتذاب المدلّ، و نثل الطّحن و هاله، و أداره حتى استدار هاله، ثم قال: يا أيها الملأ هذا المبتدأ، فأيكم يبدأ. فرمقنى القوم بأبصارهم و فغروا و كبروا، وليتهم عند ذلك صفّروا، فقلت: يا قوم قد عضضت على ناجذى حلما، و قتلت شأنى كلّه علما، و عقدت بينى و بين غد سلما، فكيف أستكشف عما أعرف، و أسبقهم عمّا لا يستبهم.

على الرحمن توكلت، و على الشيطان تركّلت، و من كسبى أكلت، و فى مبرك السّلامة بركت، و جسيمات الأمور تركتنى و تركت،

و النفس المطمئنة رجوت، و لعلنى قد نجوت، و أصبت فيما نحوت. فلحظتنى عند هذه المقالة عينه، و طوانى صدقه و مينه.

ثم صار القوم دونى أنجية، و أعدّ له كل تورية و تعمية. فقال قائل منهم: تعالوا نشترك فى ضمير، و نرمه بهذا الطاغية ابن رذمير، ففى كل قلب منه ندب كبير، و السؤال عنه دين و أدب، فإن أصابه استرحنا من النّصب و الشّخوص، و حرنا من العموم إلى الخصوص، و إن أخطأه فهو لما سواه أخطأ، و لما يدّعيه و يريده منه أبطأ. فقالوا: نعم ما عرضت، و أحسن بما رويت و فرضت. فلمّا رأيناه يثقل التّعريض، و يحكم التقرير و التعويض، قلنا له: حقّق ضميرك كل التحقيق، وضع مسبحتك فى الدقيق. فابتدر ما أمر، و حسر عن ذراعه و شمّر، و مرت أصبعه فى خطّه مرّ الذّر المتهالك، و وقعت وقع القطر المتدارك، لا تمس الطّحن إلّا تحليلا، و غمزا كالوهم قليلا، فطورا يستقيم سبيلا، و تارة يستدير إكليلا، و آونة يأتى بالسماء و نجومها قبيلا. فكان هنالك لنعش من بنات، و للثّريا من أخوات، و طير قابضات، و صافّات و أسراب ناشرات خافقات.

فلمّا استوفى عدده، و بلغ أمده، و ختم طرائقه و قدده، و أعطى الأصول و فروعها، و تدبّر تفاريقها و جموعها، فجمع و تقبّض، و فتر ثم انتفض، و صعّد ذهنه و تسافه، و أخذ الطّحن فسافه؛ و زفر و شهق، و عشّر و نهق، و ألصق بظهره حشاه، و كتم الرّبو ثم أفشاه، و قال: هذا الذى كنت أخشاه، عميتم الأثر، و كتمتم حقيقة الخبر، و عثرتم خاطى فما عثر، و نثرتم نظام الحدس فما انتثر. سألتم عن روح شارد، و شيطان مارد، و صادر مع اللّحظات وارد، لا يوطن دارا، و لا يأوى قرارا، و لا يطعم النّوم إلّا غرارا . نعم أمره عندى مستقر، هو زنديق مستتر؛ و شهاب من شهب الكفر مستمر.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۴

ثم رجّع البصر و اختصر، و عاد إلى الحساب يتقرّاه، و الصواب يتحرّاه، و تتبّع أديم الطّحن ففراه، و قال: أعوذ بالله من شرّ ما أراه. إلى كم أرى فى غلاء و بلاء؟ كأنى لست ذا أمرار و أحلاء، تاللّه لو كانت قرعة رفعة و علاء؛ ما غاب عنى اللّحيانى ذو السّبلة، و لواجهنا البياض ذو الغرّة المستقلّة مواجهة حسان لجبلة. النّحس على هذه الروح قد رتّب؛ و كتب عليه من الشقاء ما كتب، و أخرج النّصرة الداخلة من العتب.

ثم أشار إلى الحمرة، و كأنما وضع يده على جمرة، و قال: كوسج نعيّ، و سناط الوجه شقيّ، و ثقاف و طريق، و جماعة و تفريق، و قبض خارج، و منكوس مارج. ثم وضع عمامته، و لولب هامته، و أمال وجهه فجرا طلقا، ثم عرضه مجنا مطرقا، و عقد أنامله عضّا، و أدمى صدره دعّا و رضّا، و قطع بصره لمحا و غضّا، و تكفّأ و تقلّع، و أدلع لسانه فاندلع. فقلنا: شرّ تأبّطه، أو شيطان يتخبّطه، أو قرين يستنزله و يختله، أو رؤى فى الذرة و الغاب يفتله. ثم تجاحظ و تحاذر، و تضاءل و تنازر، و قال: و الذى أحيا عازر، و أخرج إبراهيم من آزر، و ملك عنان الريح و أذعن له كل شىء بالسجود و التّسبيح، إنه لمن عبّاد المسيح، هيهات هيهات، لا أضعضع بظنّ، و لا يقعقع لى بشنّ، و لا أنازع من هذه الفنون فى فنّ. قد ركبت أثباج البحار، و قطعت نياط المفاوز و القفار. و شافهنى الحرم و البيت، و صافحنى الحجر الكميت، و أحرمت و لبّيت، و طفت و وفيت، وزرت المصطفى صلى اللّه عليه و سلم، و تحفّيت. ثم ملت على عدن، و انحدرت عن اليمن، و استسقيت كل راعدة، و أتيت كل قاعدة؛ و رأيت صاحب الجمل قسّ بن ساعدة، و وردت عكاظ، و صدّقت الحفّاظ، وقدت العصية بنسع، و مسحت الشامات بأخمس و تسع، و وقفت حيث وقف الحكمان، و شهدت زحف التّركمان، و كيف تصاولت القروم، و غلبت الرّوم، و هزم المدبر المقبل، و اكتسحت الجحاش الإبل. فقلنا: للّه أنت، لقد جليت عن نفسك، و أربى يومك على أمسك، و لقد صدق مطريك، و وفت صحيفة تزكّيك، و ما كانت فراستنا لتخيب فيك. فماذا تستقرى من اللوح، و ترى فى ذلك الروح؟ بعيشك ألا ما أمتعتنا بالإفشاء و البوح! فرجع فى البحث أدراجه، و طالع كواكبه و أبراجه، و ظلّ على مادة الطّحن يرقم و يرمق، و يفتق و يرتق. ثم جعل يبتسم، و قال: أحلف بالله و أقسم، لقد استقام النّسم، و إنه لكما أرسم و أسم، و إنى لا أجده إلّا لاغبا مبهورا، و منكودا مقهورا، و لن يلبث إلّا شهورا. قد أفل طالع جدّه، و فلّ حدّه، و أتى عليه نقى خدّه، وصىّ لم يملك أبوه و ملك جدّه، فقلنا: صرّحت و أوضحت، و شهرت هذا المستور و فضحت، و إن ساعدك قدر، و كان لك عن هذا الورود صدر،

فحظك مبتدر، و خطّك صاف لا يشوبه كدر. فقال: هذا أمر قد آن أو كان، و سيأتيكم الخبر الآن، فانفصلنا و أصغينا الآذان، و جعلنا نتلقى الرّكبان، فلم يرعنا إلّا النّعمى الناجمة، و البشرى الهاجمة، بما

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ۲، ص: ۲۸۵

بان، فأدهنا فى شانه، و لم يكن يعاوده خوف طغيانه، فإذا الخبر لم يخط صماخه، و كأنما كان عودا وافى مناخه، أو طائرا أمّ أفراخه. فلم ينشب أن أقبل يصمد نحونا أى صمد، و يتعرضنا على عمد، تعرّض الجوزاء للنجوم؛ و ينقضّ انقضاض نيازك النجوم، و قال: أ لم يأن أن تدينوا لى بالإكبار، و تعلموا أنى من الجهابذة الكبار؟

فقلنا: منك الإسجاح، فقد ملكت و منك و لك النجاح، أيّة سلكت. فأطرق زهوا، و أعرض عنا لهوا، و قال: اعلموا أن القرعة لو طوت أسرارها، و منعتنى أخبارها، لمزّقت صدارها، و ذروت غبارها، و لكان لى عنها أوسع منتدح، و أنجد زناد يقدح، أين أنتم عن رصدى الأحلاك، و علمى بالأفلاك؟ أنا فى مرج الموج، و أوج الأوج، و المتفرد بعلم الفرد و الزّوج، و مسترط السّرطان، و مستدير الدّبران، و بائع المشترى بالميزان، و القابض بيوم الحساب و العمل، على روق الثّور و ذنب الحمل، أعقد نصل العقرب، و أقيّد الأبعد و الأقرب، لصيد أوابدها بالدقائق و الدّرج، حتى اضطرّ سارحها إلى الحرج، و أصبحها فى أضيق منعرج، أنا استذكرت بالأنبار، فرحة الإقبال و ترحة الإدبار، و طالعت أقليدس فاستنبطته، و صارعت المجسطى فجسطته، و ارتمطت إلى الأرتماطيقا، و أطقت الألوطيقا، و لحظت التحليل بحلّ ما عقده، و انتضيته ما مطل به الجهابذة فنفّذه. و عاينت زحل، حين استقلّ على بعيره و رحل، و ضايقته فى ساحته، و حصرته فى مساحته، و حضرت قرانه، و شهدت تقدّمه و مرانه، و شاهدته شفرا بشفر، و ناجانى برقا يعدّ فى الكفر، و تخريبه لملك الصّفر، و تفريقه لبلاد اللّطينة، و إنجاز الوعد فى فتح قسنطينة. أنا عقدت رشا الدّلو، و ذروت غبار الحوت للفلو. أنا اقتدحت سقط الجوزهر، فلاح بعد خفائه و ظهر. أنا استثرت الهلال من مكامن سرره، و أخذت عليه ثنايا سفره، و قددت قلامته من ظفره، و دللت طير الصّاير على شجره، فجنيت المرّ من ثمره، أنا طرقت الزّهرة فى خدرها، و صافحتها من الفكرة بيد لم تدرها. أنا أذكيت على ذكاء فظلّت تلتهب، و أحرزتها من الوهم شطنا أجذبها به فتنجذب. أنا أنعى للمعتبرين حياتها، فيشبهون الحسنة و يتحرّون أوقاتها، حتى تنتشر بعد الطىّ حياتها، و تستقيل من العثار آياتها.

أنا انتضيت للشباب شرخا، و أضرمت للمرّيخ عقارا و مرخا، حتى أتغانى بملاحم حروبه، و حوادث طلوعه و غروبه، و تلمّظه إلى النّجيع، و ولوغه فى مهجة البطل السّجيع. أنا أبرى من اللّمم، و أشفى من الصّمم، و أنقل العطس إلى الشّمم. فقلنا:

أمّا الأولى، فقد سلّمنا لك جميعها، و أمّا هذه الثلاثة فلن تستطيعها. قال: فلم تعجزون و لا تستخزون؟ فقلنا: من كان له علاج فبنفسه يبدأ، و نغب بغيره. و لسنا نريدك، و لكن تهتزّ يدك. قال: أما من بينهم روى، و ألقى فى روعه ما ألقى فى روعى، فمثله كالصّارم، حسنه فى فرنده، لا غمده، و جماله فى حدّه لا فى خدّه،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ۲، ص: ۲۸۶

و المرء كما قيل بأصغريه، لا بمنخريه، و الشأن فى الحيزوم، لا فى الخيشوم، و فى الذّكرين، لا فى الأنثيين، و بعد، فهو كلام ظاهره إجمال، و باطنه احتمال، و سأنبئكم بغزارة سيله، و فجر ليله. أما الأفطس فيدلى الضّغنة، و يتزوج فى آل جفنة. فإن اللّه أتمّ، جاء الولد أتمّ، و إن نام عرق خاله، بقى الولد بحاله. و أما الأصمّ، فيخرج عن الغلام، و بلا فال، و يطلب فى بنى السّميعة بركة الاسميّة و الفال، فإن اللّه أراد، ظفر بالمراد، و جاء ابنه أسمع من قراد . فأحسّ من بعض الحاضرين تمريضا، و عاين طرفا غضيضا، فتعكّر و تشذّر، و طوّف و حذّر، و قال صاحب الشريعة، سمّاهم بنى السّميعة، قوموا يا بنى اللّكيعة، فقد قطعتم رزقى، و آذيتم طرقى، و أذللتم ضربى و طرقى، و سددتم طوقى، و أخذتم على أفقى غربى و شرقى. ذرونى للتى هى للبليّة تجنى، ثم الوجد يعنى، لو شرب نواديه إثر تجنّى.

ثم نجا بعزمته سميلا، و أرسل بنات نعش ذيلا، و قد أفاد بما استصحب من ميامنك ليلا، كذّبنى أيّدك اللّه عند نواه، و لم يطلعنى طلع ما نواه؛ و ما ذاك إلّا لمطمع لواه، و مغنم هواه. فرفعت لى بعد وداعه نجوة، و رمتنى بشخصه فجوة، فقلت: ما أراك إلّا غائل،

أورثت عنك الحبائل. فسراك سرى قين، و حديثك مين، أ لم تعبر دجيلا، و يمّمت سهيلا؟ فقال: طربت إلى الأصفية الصّغار، و شاقنى الشوق بين الطّواغيت و الأصفار. فقلت له: هلمّ إلى خطّ نعيده، و حظّ نستفيده. فقال: لو لا أن تقولوا الساعة متى، و تطالبونى بإحياء الموتى، لما أجمعت إلى الغرب غروبا، و لأريتكم من الحذق ضروبا. ثم قال: إن لى بالحضرة أفراخا، و أمّا استصرخت عليها استصراخا، و انسلخت منها انسلاخا، و أعيا علىّ أمره فلم أعلم له ظعنا و لا مناخا. فلبثت كذلك أياما، ثم اعتمّ علىّ أمره اعتياما، و لم أعرف له إنجادا و لا اهتماما، فإذا به و قد أضمرت عنه بأسا، و لم أطمع فيه رأسا، قد أشبّ لى شبابا، و لمعت صلعته شهابا، تكتنفه صرّة، و بيمناه قوصرة ، و تؤود يسراه جرّة. فقلت له: قاتلك اللّه، ما أشدّ فقداتك إلّا فقدتك، و ما أذكر وجداتك إلّا وجدتك، أين أفراخك، و الأمّ التى جذبها استصراخك؟ فقال: الصعلوك، لو أعلم مذاهبه، تحرّم مناهبه، و تحدم مراهبه. ذرنى و علاجى، أحاجى و أداجى، و أعاين و أناجى، و أتقلب فى بركة دعاء الباجى. فقلت له: مالك و للميت، و رحم اللّه من سمّيت. قال: لمّا أذن اللّه فالتأمت الشّيمة، و تمزّقت عنى المشيمة، هممت بالسّرق، و لففت فى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۷

الخرق، و فارقت من الضيق منتداه، و أفلتتنى يداه؛ فحنّكنى السعد بتمر المدينة، و سقانى من ماء البلدة الأمينة، و عوّذنى بدعوات متينة. فها أنا كما ترى أتهادى و أجتذب، و أستحلى و أستعذب. فقلنا: لعمرك إنه لفضل عميم، لو لا الصّميم، و إنها لمنقبة، لو لا العقبة، و أثرة ملتمسة، لو لا العطسة، فقال: دعنا من زخاريفك، و أغضض من عنان تصاريفك. البازل لا يكون إلّا ذميما، و الليث لا يوجد إلّا شميما. ثم قام و حمل، و ابتدر و ارتجل: [مجزوء الخفيف]

عيشنا كلّه خدعفاترك اللوم عنك ودع

أنا كالليث و الليوث بأرسائها ترع

و لها الأوجه السّيمه من يلقها يرع

أىّ حسن لمازنبيد الدّلّ يخترع؟

أنا كالسّيف حدّهلا يبالى بما وقع

إنما الحسن للمهاة و للظّبى يا لكع

فقلت: تبّا لك سائر اليوم، إنك لتريش و تبرى، و تقدّ و تفرى، و تحاسن و تقابح، و تهارش و تنابح، و تحبّ و تتأمل، و تحسن و تغلغل، و تشاعر و تراجز، و تناطح و تناجز. و أنت على هذا كله مصرّ، ما جزاؤك إلّا ريح فيها صرّ، فما هو إلّا أن غفلت عنه لمحة طرف، أو نفحة عرف، ثم التفتّ و إذا به قد أفلس، و كأنما كان برقا خلّس، و لم أدر أقام أو جلس.

و محاسنه القطر الذى لا يعدّ، و الأمر الذى يأخذه الحدّ. و كفى بهذه الرسالة دليلا على جلالة مقداره، و تدفّق بحاره و فخاره؛ لما اشتملت عليه من بلاغة و بيان، و بساط حال أنت على خبره بعيان، و علوم ذات افتنان، خلّد اللّه عليه الرحمة، و ضاعف له المنّة و النعمة.

مولده: بأوائل ربيع الثانى عام خمسة و ستين و أربعمائة .

وفاته: من خطّ الحافظ المحدّث أبى القاسم بن بشكوال، رحمه اللّه: كان ممن أصيب أيام الهرج بقرطبة، فعظم المصاب به، الشيخ الأجلّ، ذو الوزارتين، السيد الكامل، الشهير الأثير، الأديب، اللغوى، السّرى، الكاتب البليغ، معجزة زمانه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۸

و سابق أقرانه، ذو المحاسن الجمة، الجليلة الباهرة، و الأدوات الرفيعة الزكية، الطاهرة الكاملة، المجمع على تناهى نباهته، و حمد خصاله و فصاحته، من لا يشقّ غباره، و لا تلحق آثاره، معجزة زمانه فى صناعة النثر و النظم، أبو عبد اللّه بن أبى الخصال، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه و نضّر وجهه. ألفى مقتولا قرب باب داره بالمدينة، و قد سلب ما كان عليه، بعد نهب داره، و استئصال حاله، و

ذهاب ماله، و ذلك يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة من سنة أربعين و خمسمائة. فاحتمل إلى الرّبض الشرقى بحومة الدرب، فغسّل هنالك و كفّن، و دفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده، و نعى إلى الناس و هم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة. فكثر التفجّع لفقده، و التأسّف على مصاب مثله، و أجمعوا على أنه كان آخر رجال الأندلس علما و حلما، و فهما و معرفة، و ذكاء و حكمة و يقظة، و جلالة و نباهة، و تفننا فى العلوم. و كان له، رحمه اللّه، اهتمام بها، و تقدم فى معرفتها و إتقانها. و كان، رحمه اللّه، صاحب لغة و تاريخ و حديث، و خبر و سير، و معرفة برجال الحديث مضطلعا بها، و معرفة بوقائع العرب و أيام الناس، و بالنثر و النظم. و كان جزل القول، عذب اللفظ، حلو الكلام، عذب الفكاهة، فصيح اللسان، بارع الخطّ حسنه و متقنه. كان فى ذلك كله واحد عصره، و نسيج وحده، يسلّم إليه فى ذلك كله، مع جمال منظره، و حسن خلقه، و كرم فعاله، و مشاركته لإخوانه. و كان مع ذلك كله جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم، مسارعا لمهماتهم، نهاضا بتكاليفهم، حافظا لعهدهم، مكرما لنبهائهم، واسع الصدر، حسن المجالسة و المحادثة، كثير المذاكرة، جمّ الإفادة. له تصانيف جليلة نبيهة، ظهر فيها علمه و فهمه، أخذها الناس عنه مع سائر ما كان يحمله و يتقنه، عن أشياخه الذين أخذ عنهم، و سمع منهم، و قرأ عليهم.

و قال غيره: قتل بدرب الفرعونى بقرب رحبة أبان، بداخل مدينة قرطبة، قرب باب عبد الجبّار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة، يوم قيام ابن حمدين، و اقتتاله مع يحيى بن على بن غانية المسّوفى الملثّم المرابطى يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذى الحجة عام أربعين و خمسمائة. قتله بربر المصامدة رجّالة أهل دولة اللثام لحسن ملبسه، و لم يعرفوه، و قتلوا معه ابن أخته عبد اللّه بن عبد العزيز بن مسعود، و كان أنكحه ابنته، فقتلا معا. و كان محمد خيرة الشيوخ، و عبد اللّه خيرة الأحداث، رحمهما اللّه تعالى.

محمد بن مفضل بن مهيب اللخمى

يكنى أبا بكر، من أهل شلب من العليا.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۸۹

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان منقبضا عن الناس، أديبا، شاعرا، خمّس عشرينيات الفازازى، رحمه اللّه تعالى. و ذكره صاحب الذيل، و قال لى شيخنا أبو البركات، و هو جدّه، أبو أبيه، ما معناه: كان شريفا، عالى الهمة، عظيم الوقار، ألوفا، صموتا، نحيف الجسم، آدم اللون، خفيف العارض، مقطّب الوجه، دائم العبوس، شامخ الأنف، إلّا أنه كان رجلا عالما راسخا، عظيم النزاهة، حافظا للمروءة، شهير الذكر، خطيبا مصقعا، مهيبا كشهرته، قديم الرياسة، يعضّد حديثه قديمه. و استقرّ بألمرية، لمّا تغلّب العدو على بلد سلفه.

و لمّا توفى شيخ المشايخ؛ أبو إسحاق بن الحجاج، تنافس الناس من البلدين، و غيرهم، فى خطبة بنته. قال شيخنا أبو البركات: و من خطّه نقلت، و كان ابن مهيب واحدا منهم فى الإلحاح بالخطبة، متقدما فى حلبتهم، بجيوش الأشعار.

و رام غلبته ذوو اليسار، من حيث كان بحمراء جيش الإعسار، فأذلّهم بالمقابلة فى عقر الدار، فلم يراجعوا من الغنيمة إلّا بالفرار. قلت: و جلب فى هذا المعنى شعرا كثيرا، ناسب الغرض. و نال من المتغلب على ألمريّة، على عهده، حظوة، فاستظهر به تارة على معقل مرشانة، و تارة على الرسالة إلى الحضرة الحفصية بتونس. و لما آب من سفره إليها، سعى به لديه بما أوجب أن يحجر عليه التّصرف، و سجنه بمنزله. فلمّا قصد ألمرية الغالب بالله، مستخلصا إياها من يد الرئيس أبى عبد اللّه بن الرّميمى، و نزل بمدينتها، و حاصر قصبتها، وقع اختيار الحاصر و المحصور على تعيين ابن مهيب، بمحاولة الأمر، و عقد الصلح، رضى بدينه و أمانته، فعقد الصلح بينهما على أن يسلم ابن الرميمى القصبة، و يعان على ركوب البحر بماله و أهله و ولده، فتأتّى ذلك و اكتسب عند الغالب بالله، ما شاء من عزّة و تجلة.

وقفنى شيخنا أبو البركات على ظهير سلطانى، صدر عن الأمير الغالب بالله، يدل على جلالة قدره، نصّه:

هـذا ظهير كريم، أظهر العنايـة الحافلـة لمسـتوحيها و مسـتحقّها، و أجراه من الرعايـة الكاملة على الحبّ طرقها. أمر بإحكام أحكامه، و التزام العمل بفصوله و أقسامه، الأمير أبو عبـد اللّه محمـد بن يوسف بن نصـر نصـر اللّه أعلامه، و أدام لإقامـة قسط العـدل أيامه، لوليّه العليّ المكانة، و صفيّه الملىء بأثرتى المعرفة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۰

و الدّيانـة، الحرىّ بمـا اختصّه، أيّـده اللّه، من الحفـظ لمرتبته الساميـة و الصّـيانة. للشـيخ الفقيه، الجليل، العالم، الأوحـد، العلم، الأتقى، الأزهر، الفاضل، الخطيب الأرفع، المحـدّث الثقة، الرّاوية، الصالح، السّـنى، الحافظ، الحافل، الماجد، السّـرى، الطاهر، المكرّم، المبرور، الكامـل، أبى بكر ابن الشـيخ الـوزير الأجـلّ، الفقيه، الحسـيب، الأصـيل، الأمجـد، المكرم، المـبرور، الأفضـل، المرحوم، أبى عمرو بن مهيب، أدام اللّه عزّة جانبه، و وصل بالعلم و العمل ارتقاء مراتبه، أقام به الشّواهد على اعتقاده، أنه أخلص أوليائه ودّا، و أفضلهم قصدا، و أكرمهم عهـدا، حين ظهرت له، أيّـده اللّه، آثار آرائه الأصـيلة، و بانت فى الصـلاح و الإصـلاح ميامن مناقبه الجميلة، و وجب له من العنايـة و المزيّـات أتمّ ما توجبه معارفه، و تقتضـيه مجادته، و زهادته، التى لا يفنّـد فى وصـفها واصف. و أعلن بأنه دام عزّه، أحقّ من حفظت عليه مرتبـة صـدور العلمـاء الراسـخين فى العلم، و أبقيت مزيّـة مـا تميز به التّقى و الـورع الكـافى و الحلم، و برع بصـلة العنـاية بجـانبه، لما أهّلته إليه معرفته من نفع المتعلمين، و إرشاد من يسترشـده فى مسائل الـدين من المسـلمين، و أفصـح بأنه أولى مخصوص بالتجلّة و التوقير، و أجـدر منصوص على أن قـدره لـديه معتمد بالتكريم و التكبير. و أمر، أعلى اللّه أمره، أن يسـتمرّ له و لزوجه الحرّة الأصـيلة الزكيـة، التقيـة الصالحـة، المصونـة المكرمـة المبرورة، عائشة بنت الشـيخ الفقيه الجليل العالم الصالح السّـنى، الزاهد الفاضل، المرحوم المقـدس، الأرضـى، أبى إسـحاق ابن الحاج؛ ما اطّردت به العادة لهما قـديما و حديثا، و تضـمنه الظهيران الكريمان، المؤرخ أحدهما بالعشـر الأواخر لشوال عام خمسة و ثلاثين و سـتمائة، من صرف النظر فى أعشارهما و زكواتهما إليهما، ليضعا ذلك فى أحقّ الوجوه، و يؤدّيـا فيه حقّ للّه تعـالى، مـا مثلهما علما و دينا من يؤدّيه، موكولا ذلك للّه، إلى ما لـديهما، من نشـر الأمانـة، مصـروفا إلى نظرهما الجارى مع العلم و الديانـة، و تجديـد أحكام ما بأيـديهما من الظّهائر و الأوامر القديمة و الحديثة، المتضـمنة تسويغ الأملاك، على اختلافهـا، و تبـاين أجناسـها و أوصافهـا، لهمـا و لأعقـاب أعقابهمـا، على التأبيـد و التّخليـد، و المحاشـاة من اللّوازم، و المعـاوز و المغـارم، و أن يطّرد لشـركائهما، و عمرة أملاكهمـا، و وكلائهمـا، و حواشـيهما، و من اتصـل بهما، جميل العنايـة، و حفيل الرعايـة، و موصول الحمايـة، الاسـتمرار الـذى يطّرد العمل به مدى الأيام، و تتوالى التّمشـية له من غير انصـرام على الدوام، موفى بذلك، ما يحقّ لجـانب الفقيـه العـالم، الأوحـد الأسـنى، أبى بكر، أدام اللّه عزته، من حظـوظ الإجلالـ، منتهى فيه إلى أبعـد آمـاد العنايـات الشـريفة، الفسـيحة المجال، مقضى على حقّ ما انفرد به من العلم، و اتصف به من الديانة، اللذين أضفيا عليه ملابس البهاء و الجلال. فمن وقف على هذا الظهير الكريم من الولاة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۱

و العمّال، و سائر ولاة الأشـغال، و ليتلقّه بغاية الائتمار و الامتثال، إن شاء اللّه. و كتب فى الثانى عشر من ذى الحجة عام ثلاثة و أربعين و ستمائة.

مشيخته: أخذ عن أبى العباس أحمد بن منذر الإشبيلى، تلا عليه بإشبيلية، و على عباس بن عطية أبى عمرو. و روى عن أبى محمد عبد الكبير الإشبيلى، و صـحب أبا الحسن بن زرقون، و تفقّه عليه. و انتقل إلى ألمريـة، فصـحب أبا إسـحاق البليفيقى و أخـذ عنه، و تزوج ابنته. و أجاز له أبو عبد اللّه بن هشام الشّواش و غيره. ثم انتقل آخر عمره إلى سبتة.

شعره: نقلت من خطّ شيخنا أبى البركات قوله فى غرض الوصية: [الطويل]

أليل النّوى، هل من سبيل إلى فجر؟و يا قلب، كم تأسى و يا دمع، كم تجرى

أبى القلب إلّا أن يهيم بحبّكمو أن تبرحوا إلّا القليل عن الفكر

رحّلت عنكم لا بقلبى و إنماتركت لديكم حين ودّعتكم سرّى

أعود بدهر الوصل من حين هجركمو ربّ وصال مستعاد من الهجر

لتلعاب نفسى لست أنفق قربكملزهدى فيكم بل حرصت على البرّ

تقطّع أكباد عليكم صبابةفاصبر فإنّ الخير أجمع فى الصبر

و بالقلب من لا يصلح الصبر عنهمو إن كان خيرا فهو عنهم من الشّرّ

فلولاهم ما كنت أحسب ساعةفقدتكم فيها عيانا من العمر

ألا يا أخى فاسمع وصاتى فإنهاأتتك ، لعمرى، من أخ سالم الصّدر

يحبّك فى ذات الإله و يبتغىبحبّك عند اللّه مدّخر الأجر

ألا إنما التوفيق كنت من أهله مراعاة حقّ اللّه فى السّرّ و الجهر

بتوحيده فى ذاته و صفاتهو أفعاله أيضا و فى النّدّ و الأمر

فثابر على القرار و الأثر الذىيصحّ عن المختار و السّادة الغرّ

و عدّ لك الخيرات عما سواهاو كن بها مستمسكا أبد الدهر

إذا يسلك الشيطان فجّا سوى الذىسلكت و لا يلفى سبيلا إلى مكر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۲ و فرّق من الأجناس حاشا تقيّهمفقد ظهر الإفساد فى البرّ و البحر

و لا تنسنى و اذكر أخاك بدعوةفإنك منه يا أخى لعلى ذكر

قال شيخنا أبو البركات: و من شعره، و من خطّه نقلت: [الكامل]

للصالحين إلى الصلاح طريقرحبت بهم و غدت عليك تضيق

صرفوا النفوس من الهوى عن صوبهافغدت إلى طلب النّجاة تتوق

منها بعد أبيات:

يا قرّة العين استمع من ناصحفى صدره قلب عليك شفيق

أنت الشّقيق ولادة و لذلك لىروح لروحك فى الخلوص شقيق

لا تخدعنّك ترّهات أحدثتو خزعبلات للجهول تروق

و اعكف على القرآن دهرك و اجتمعفالشّغل عنك لغيره تفريق

إنّ الحديث و فقهه و علومههذا الذى للمؤمنين يليق

و اهجر بنى الدنيا فإنّ بهجرهميتضاعف الإيمان و التصديق

و الحق بقوم قد عنوا بتجارةنفقت لهم يوم القيامة سوق

و احفظ لسانك عن أذيّة مسلمفسبابه قال الرسول فسوق

لا تبك همّ الرزق فهو مقدّرو العبد طول حياته مرزوق

و لترض بالرحمن ربّا حاكماودع الفضول فمنه ضلّ فريق

حلّوا عقال عقولهم و تحكّموإنّ التحكم بالعقول مروق

و لقد أتتك نصيحتى و لشمسهافى أفق حبّك يا حبيب شروق

فكن القريب مكانه من نفعهافمكان سدّتها إليك سحيق

و اصطد بيارى العزم أطيار الرضافأخوك غاية بازه التّحليق

و لتجعل التسبیح شأنک إنهفی الصّعب ممن شأنه التّصفیق

و اقنع بعلم الوحی علما ثم لایذهب بک التّشقیق و التوفیق

لا ترض فیه بالدنیّة و لتمتعطشا إذا لم تسق منه رحیق

ما کلّ علم یهتدی بحصولهمنه الرّکیک نعم و منه رقیق

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۳ کمدارک الأصوات منها طیّبتسلو النفوس به و منه نهیق

و علیکم منّی تحیّة من لهقلب إلیکم أجمعین مشوق

و قال: ألفیت بخطه ما نصّه: و کان بعض السفهاء قد کتب إلیّ بیتین من شعر و هما: [الطویل]

إلیک، أبا بکر، رفعت وسیلتیو مثلک من تلقی إلیه الوسائل

غرقت ببحر الذّل یوما و لیس لیبأرضکم إلّا اهتمامک ساحل

و أساء المحاولة فی دفعها، فصرفته، و لم أقف علیهما، فضرب علیهما، و کتب فی ظهرهما: [الطویل]

حللت، أبا بکر، بموطن عزةفأنسیت ما قد کنت فیه من الذّلّ

و أصلک من کبر و کن متکبّراو کیف یطیب الفرع من ذلک الأصل؟

و کتبت إلیه صحبة دراهم وجّهت بها إلیه: [الطویل]

جفوت و ما زال الجفاء سجیّةلمثلک ما إن زال تبلی بها مثلی

و ما قلت فی أصلی فکذبة فاجررأی الفرع محمودا فعاب علی الأصل

و بالإفک ما عثرت لا بحقیقةفما الکبر من شأنی و لا کنت فی ذلّ

و ما زلت، و اللّه، الحمید مکرّماو فی نائبات الدهر للعقد و الحلّ

و لو کنت من یتّقی اللّه لم تکنتمرّ متی تسخط و عند الرّضا تحلی

أما قلت أنی ساحل لک عندماغرقت ببحر الذّلّ فی زمن المحل؟

و کیف نسخت المدح بالذّمّ قبل أنتبثّ لی الشکوی و تدلی بما تدلی

و لکنّ لؤم الطّبع یحمل أهلهعلی الصّعب من سبّ الکرام أو النّیل

إذا کان بعض الکبر نقصا فإنهعلیک من الأوغاد یحسب فی الفصل

و ما الذّلّ إلّا ما أتی بک نحونافقیرا من التّقوی سلیبا من العقل

و مطلوبک الدّنیا فخذها خسیسةتوافی خسیس النّفس و القول و الفعل

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۴ و ما الجود إلّا ما أصبت مکانهو مهما فقدت الأصل لا عار فی البخل

و مثلک من یجفی و یقلب خاسئافلست لإسداء الصّنیعة بالأهل

و لکننی عوّدت نفسی عادةمن البذل لم أعدل بها قطّ عن نذل

فخذها، لحاک اللّه، غیر مبارکلسعیک فیها یا ابن خانیة النّعل

و مثلی من یؤذی فیحتمل الأذیو لکنه قد یدرأ الجهل بالجهل

و قد قال من لا شکّ فی قوله من حکمة إنما القتل أذهب للقتل

فإن زدتنا زدنا و إن کنت نادماقبلناک أخذا فی أمورک بالعدل

ففی کل شیء لست عنک مقصّرابما شئت من قطع و ما شئت من وصل

قال الشیخ: قول الهاجی: و أصلک من کبر، معناه التعریض یکون سلف أبی بکر بن مهیب، علوا فی أنفسهم و تکبروا، فثاروا بسبب

ذلك بطبيرة و جهاتها، ثار منهم عبد الرحمن جدّ أبى بكر، ثم حسن، ثم عامر أخوه، و إلى هذا أشار أبو بكر بن مهيب بقوله فى بعض شعره: [الكامل]

إن لم أكن ملكا فكنت رئيسا و أنشد فى الصلة الزبيرية ، قوله رحمه اللّه: [الكامل]

أملى من الدنيا المباحة كسرةأبقى بها رمقى و دار نابيه

قد أضرب الزمان عن سكانهافكأنها فى القفر دار خاليه

و من شعره فى المقطوعات: [الطويل]

ترحّل صبرى و الولوع مقيمو صحّ اشتياقى و السّلوّ سقيم

فياليت شعرى هل أفوز بعطف منزيّنت خدّى وردا عليه أقوم ؟

و يا جنّة قد حيل بينى و بينهابقلبى من شوقى إليك جحيم

دخوله غرناطة: قال الشيخ: دخل غرناطة مرتين، أخبرنى بذلك الشيخ القاضى أبو الحسن بن عبيدة، و هو بصير بأخباره، إذ هو من أصحاب سلفه، و ممن رافق جدّه فى الكتب عن بعض الأمراء مدة، و فى الخطابة بألمريّة أخرى.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۵

وفاته: توفى بسبتة أول ليلة من جمادى الآخرة عام خمسة و أربعين و ستمائة.

محمد بن عبد اللّه بن داود بن خطاب الغافقى

حاله: من صلة ابن الزبير: كان كاتبا بارعا، شاعرا مجيدا، له مشاركة فى أصول الفقه و علم الكلام، و غير ذلك، مع نباهة و حسن فهم، ذو فضل و تعقل، و حسن سمت. و ورد على غرناطة، و استعمل فى الكتابة السلطانية مدة، و كان معلوم القدر، معظّما عند الكافة. ثم إنه رجع إلى مرسية، و قد ساءت أحوالها، فأقام بها مدة، ثم انفصل عنها، و قد اشتدّت أحوالها، و استقر بالعدوة بعد مكابدة.

قلت: أخبرنى شيخنا أبو الحسن الجياب، رحمه اللّه، قال: كان شكس الأخلاق، متقاطبا، زاهيا بنفسه؛ ابتدأ يوما كتابا مصدّرا بخطبته، فقال فيه يصف صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم «عفوة العفوة»، و تركه لأمر عرض له، فنظر إليه الفقيه عمر اللّوشى، و هو كاتب المقام السلطانى، فظنّ لقصوره أنه وهم، و أراد «الصفوة» فأصلحه، فلمّا عاد و نظر إليه مزّقه، و كسر الآلة، و قال: لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل إلى هذا القدر، و يتسوّر به الإصلاح على قلم يطمع بعد فى مقامه.

و انصرف، و استقرّ بتلمسان، كاتبا عن سلطانها أبى يحيى يغمراسن بن زيّان.

و زعموا أن المستنصر أبا عبد اللّه ابن الأمير أبى زكريا، استقدمه على عادته فى استدعاء الكتّاب المشاهير و العلماء، و بعث إليه ألف دينار من الذهب العين، فاعتذر و ردّ عليه المال، و كانت أشقّ ما مرّ على المستنصر، و طهر له علوّ شأنه، و بعد همّته.

مشيخته: روى عن القاضيين أبى عيسى بن أبى السّداد، و أبى بكر بن محرز، و عن الأستاذ أبى بكر محمد بن محمد، المعروف بالقرشى، و قرأ و سمع على هؤلاء ببلده، و أجاز له كتابة أبو الربيع بن سالم و غيره.

شعره: من ذلك قوله: [الكامل]

اقنع بما أوتيته تنل الغنىو إذا دهتك ملمّة فتصبّر

و اعلم بأنّ الرزق مقسوم فلورمنا زيادة ذرّة لم نقدر

و اللّه أرحم بالعباد فلا تسلأحدا تعش عيش الكرام و تؤجر

و إذا سخطت لبؤس حالك مرةو رأيت نفسك قد غوت فلتبصر

و انظر إلى من كان دونك تذكرلعظيم نعمته عليك و تشكر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۶

و مما قاله فى صباه: [الكامل]

يا دعوة شاك ما قد دهاه من لحاظ رشاك

ظبى تصدّى للقلوب يصيدهامن ناظريه فى سلاح شاك

و رمى و إن قالوا رنا عن فاترساج عليه سيمة النّسّاك

قد كنت أحذر بطشه لو أننىأبصرت منه مخايل الفتّاك

أو ما عليه و لا عليه حاكميحمى ثغورك أو يحوط حماك

أو ما لجارك ذمّة مرعيّةأبذا يظلّ دم الغريب طلاك؟

إنى استنمت إلى ظلالك ضلّةفإذا ظباؤك ماضيات ظباك

ما لى أخاطب بانة ما أن تعىقولا و لا ترثى لدمعة باك؟

أكريمة الحيّين، هل لمتيّمرحمى لديك فأرتجى رحماك؟

أصبتنى بعد المشيب و ليس منعذر لمن لم يصبه ثراك

لولاك ما جذبت عنانى لوعةو اللّه يشهد أننى لولاك

لمّا دعا داعى هواك أجبتهمن لا يجيب إذا دعت عيناك؟

أصليتنى نار الصّدود و إنّنىراض بأن أصلى و لا أسلاك

و أبحت ما منع التشرّع من دمىبالله من أفتاك قتل فتاك؟

و تركت قلبى طائرا متخبّطابشباك ختلك أو بطعن سباك

و منعت أجفانى لذيذ منامهاكى لا يتيح لى الكرى لقياك

و لقد عجبت و أنت جدّ بخيلةكأن أعرت الشمس بعض حلاك

إنى لأيأس من وصلك تارةلكن أعلّل مطمعى بعلاك

أسماك أنك قد خفضت مكانتىهلّا خلعت علىّ من سيماك؟

إنى معنّاك المتيم فليكنحظّى لديك مناسبا مغناك

تثنى معاطفك الصّبا خوطيّةو كذا الصّبا فصباك مثل حماك

أبعدتنى منها بطعنة رامحأ لذاك سمّتك الورى بسماك؟

أ أموت من عطش و ثغرك موردفيه الحياة استودعتها فاك؟

هلا تنى عن حلوة فلعلّةوضعت أداة النفى فى اسم لماك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۷

و قال يجيب أبا عبد اللّه بن خميس، رحمه اللّه، عن قصيدة بعث بها إليه أولها:

[الكامل]

رد فى حدائق مائها مرتادقد لذّ مورود و طاب مراد

زرق الأسنّة دون زرق حمامهاو ظبى كما رنت العيون حداد

هذه الأبيات: [الكامل]

نعم المراد لمن غدا يرتادمرعى يرفّ نباته و مهاد

سالت على العافى جداوله كماصالت على العادى ظبى تناد

فشددت رحل مطيتى منه إلى‌حيث السيادة تبتنى و تشاد

و ركبت ناجية مبارية الصّباخضراء فوق خضارة تعتاد

يغتادها سكانها قلّب على‌من كان من سكانها استبداد

عجبا لهم أحلامهم عاديّةتمضى عليهم حكمها أعواد

خبّر تلمسانا بأنى جئتهالمّا دعانى نحوها الرّواد

و أعاقها سمعا و لم أر حسنهاإلّا أناسا حدّثوا فأجادوا

و لربّ حسن لا ثواه ناظرو يراه لا يخفى عليه فؤاد

و دخلتها فدخلت منها جنّةسكانها لا تخفى و لا حياد

و رأيت فضلا باهرا و مكارماو علا تغاضر دونها التّعداد

أهل الرّواية و الدراية و النّدىفى نورهم أبدا لنا استمداد

فهم إذا سئلوا بحار معارفولدى السكينة و النهى أطواد

درجاتها ينحطّ عنها غيرهمو من الورى قتر و منه و هاد

فأجلّهم و أحلّهم من مهجتى‌بمكانة ما فوقها مزداد

و أودّ حين أخطّ أطيب ذكرهم‌لو أنّ أسود مقلتىّ مداد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۸

و قال يخاطبه و قد وقف على بعض قصيدة: [الكامل]

رقّت حواشى طبعك ابن خميس‌فهفا قريضك بى وهاج رسيسى

و لمثله يصبو الحليم و يمترى‌ما للشروق به و سير العيس

لك فى البلاغة و البلاغة بعض ماتحويه من أثر محلّ رئيسى

نظم و نثر لا تبارى فيهمامهّدت ذاك و ذا بعلم الطّوس

و قال عند وفاته و ربما نسبت لغيره: [الخفيف]

ربّ أنت الحليم فاغفر ذنوبى‌ليس يعفو عن الذنوب سواكا

ربّ ثبّت عند السؤال لسانى‌و أقمنى على طريق هداكا

ربّ كن لى إذا وقفت ذليلاناكس الرأى أستحى أن أراكا

ربّ من لى و النار قد قربت لى‌و أنا قد أبحت عهد حماكا؟

ربّ مالى من عدّة لمآلى‌غير أنى أعددت صدق رجاكا

ربّ أقررت أنّنى عبد سوءحلمك الجمّ غرّه فعصاكا

ربّ أنت الجواد بالخير دومالم تزل راحما فهب لى رضاكا

ربّ إن لم أكن لفضلك أهلاباجترائى فأنت أهل لذاكا

نثره: و من نثره ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية:

كتبته، كتب اللّه لكما فوزا بالحسنى، و أجناكما من ثمرات إحسانه أكثر ما يجنى. من إشبيلية، و حالى بحمد اللّه حسنة، و نفسى بحبّ قربكما مرتهنة، و علىّ بما لديكما من السّراوة التى جبلتما على فطرتها، و امتزتما فى الاجتلاء بغرّتها، علم لا يدخله الشكّ، و نسبتى

إلى ودّكما الذى لبسته معلما، و تقلّدته محرما، لا يعبّر عن معناها إلّا بما لا يزال و لا ينفكّ. فلنثن عنان القلم عن مداده، و نأخذ فى حديث سواه. وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر، و لقينا الإفانت على ميلين، و فزنا بما ظهر من بشره و اعتنائه بقرار الخاطر، و قرة العين، و نزلنا فى الأخبية

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۲۹۹

خارج البلد، موضعا يعرف بالقنب ، قد تفجّر عيونا، و جمع ماؤه و هواؤه من المحاسن فنونا، و عرض علينا النزول فى الدّيار داخل المدينة، فرأينا المقام فيه أحد الأسباب المسعدة على حفظ الصحة المعينة، و رغبنا عن المدينة لحرّها الوهاج، و غبارها العجاج، و مائها الأجاج. و لمّا ثاب من النشاط البارح، و استقلّ من المطىّ الرازح، طفت فى خارجها و داخلها، و وقفت على مبانيها المشيّدة و منازلها، و رأيت انسياب أراقشها، و تقصيت آثار طريانتها و براقشها، فشاهدت من المبانى العتيقة، و المنارة الأنيقة، ما يملأ أعين النّظّار، و ينفسح فيه مجال الاعتبار، على أنى ما رأيتها إلّا بعد ما استولى عليها الخسف، و بان عنها الظّرف، و نبا عنها الطّرف، فلا ترى من مغانيها إلّا طللا دارسا، و لا تلمح من بدائعها إلا محيّا عابسا، لكن الرائى إذا قدّر وضعها الأول، و ركب و همه من مبانيها ما تحلّل، و تخيّل فى ذهنه حسنها و تمثل، تصور حسنا يدعو إلى المجون، و يسلى عن الشجون، لو لا أنها عرضت لأشمط راهب، لما دان إلّا بدن و لا- تقرّب بغير قارب، و حسبى أن أصفها بما يقيها من القبول، و أقول إنها فى البلاد بمنزلة الربيع من الفصول، و لو لا- أن خاطرى مقسّم، و فكرى حدّه مثلم، لقضيت من الإطناب و طرا، و لم أدع من معاهدها عينا إلّا وصفتها و لا أثرا.

وفاته: توفى بتلمسان يوم عاشوراء سنة ست و ثمانين و ستمائة.

محمد بن عبد اللّه بن محمد بن لب الأمى

يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن الصايغ، بالصاد المهملة، و الغين المعجمة، من أهل ألمريّة.

حاله: من خطّ شيخنا أبى البركات فى «الكتاب المؤتمن على أنباء أبناء الزمن»: كان سهلا، سلس القياد، لذيذ العشرة، دمث الأخلاق، ميّالا إلى الدّعة، نفورا عن النّصب، يركن إلى فضل نباهة و ذكاء، يحاسب بها عند التحصيل و الدراسة و الدّؤوب على الطلب، من رجل يجرى من الألحان على مضمار لطيف،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۰

و لم يكن له صوت رخيم، يساوق انطباعه فى التّلحين، يخبر ذلك بالأوتار.

و حاول من ذلك بيده مع أصحابه، ما لاذ به الظرفاء منهم. و استعمل بدار الأشراف بألمرية، فأحكم تلك الطريقة فى أقرب زمان، و جاء زمامه يروق من ذلك العمل شأنه . ثم نهضت به همّته إلى أرفع من ذلك، فسار إلى غرناطة، و قرأ بها العربية و غيرها، و انخرط فى سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة. ثم رحل إلى بلاد المشرق فى حدود العشرين و سبعمائة، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها علّة كان يشكوها، و أخذ فى إقراء العربية بها، و عرف بها إلى أن صار يدعى بأبى عبد اللّه النحوى. قال شيخنا المذكور: و رأى فى صغره فأرة أنثى، فقال: هذه قرينة، فلقّب بذلك، و صار هذا اللقب أغلب عليه من اسمه و معرفته.

و جرى ذكره فى التاج بما نصه : لجّ معرفة لا- يغيض ، و صاحب فنون يأخذ فيها و يفيض. نشأ ببلده مشمّرا عن ساعد اجتهاده، و شارك فى قنن العلم و وهاده، حتى أينع روضه، وفهق حوضه. ثم أخذ فى إراحة ذاته، و شام بارقة لذّاته، ثم سار فى البطالة سير الجموح، و واصل الغبوق بالصّبوح، حتى قضى وطره، و سيم بطره، و ركب الفلك، و خاض اللّجج الحلك، و استقرّ بمصر على النعمة العريضة، على شكّ فى قضائه الحجّة العريضة، و هو اليوم بمدرستها الصالحية، نبيه المكانة، معدود فى أهل العلم و الديانة.

مشيخته: قرأ بألمرية على المكتّب أبى عبد اللّه الميرقى، و أخذ عن شيخ الجماعة أبى الحسن بن أبى العيش، و قرأ بالحضرة على الخطيب أبى الحسن القيجاطى و غيره. و أخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبى حيّان، و انتفع به و بجاهه.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۱

شعره: قال شيخنا أبو البركات: و كان أخذ من قرض جيد الشعر بالحظّ الوافر.

فمن شعره ما نقله إلينا الحاج الحافظ المكتّب أبو جعفر بن غصن، حسبما قيّده عنه بمصر : [الكامل]

بعد المزار ولوعة الأشواق حكما بفيض مدامع الآماق

و حفوق نجدىّ النسيم إذا سرىأذكى لهيب فؤادى الخفّاق

أ معلّلى إنّ التّواصل فى غدمن ذا الذى لغد فديتك باق؟

إنّ الليالى سبّق قد أقبلتو إذا تولّت لم تنل بلحاق

عج بالمطىّ على الحمى، سقى الحماصوب الغمام الواكف الرّقراق

فيه لذى القلب السليم وداده‌قلب سليم يا له من راق

قلب غداة فراقهم فارقته‌لا كان فى الأيام يوم فراق

يا ساريا و الليل ساج عاكف‌يفرى الفلا بنجائب و نياق

عرّج على مثوى النّبىّ محمدخير البريّة ذى المحلّ الراقى

و رسول ربّ العالمين و من له‌حفظ العهود و صحّة الميثاق

الظّاهر الآيات قام دليلهاو الطّاهر الأخلاق و الأعراق

بدر الهدى البادى الذى آياته و جبينه كالشمس فى الإشراق

الشّافع المقبول من عمّ الورىبالجود و الإرفاد و الإرفاق

و الصّادق المأمون أكرم مرسل‌سارت رسالته إلى الآفاق

أعلى الكرام ندى و أبسطهم يداقبضت عنان المجد باستحقاق

و أشدّ خلق اللّه إقداما إذاحمى الوطيس و شمّرت عن ساق

أمضاهم و الخيل تعثر فى القنا و تجول سبحا فى الدّم المهراق

من صيّر الأديان دينا واحدامن بعد إشراك مضى و نفاق

و أحلّنا من حرمة الإسلام فى‌ظلّ ظليل وارف الأوراق

لو أنّ للبدر المنير كماله‌ما ناله كسف و نكس محاق

لو أنّ للبحرين جود يمينه‌أمن السّفين غوائل الإغراق

لو أنّ للآباء رحمة قلبه‌ذابت نفوسهم من الإشفاق

ذو العلم و الحلم الخفىّ المنجلىو الجاه و الشّرف القديم الباقى

آياته شهب و غرّ بنانه‌سحب النّوال تدرّ بالأرزاق

ماجت فتوح الأرض و هو غياثهاو ربت ربى الإيمان و هو الساقى

ذو رأفة بالمؤمنين و رحمةو هدى و تأديب بحسن سياق

و خصال مجد أفردت بالخصل فى‌مرمى الفخار و غاية السّبّاق

ذو المعجزات الغرّ و الآى التى‌كم آية فقدت و هنّ بواقى

ثنت المعارض حائرا لمّا حكت‌فلق الصّباح و كان ذا إفلاق

يقظ الفؤاد سرى و قد هجع الورى‌لمقام صدق فوق ظهر براق

و سما و أملاك السّماء تحفّهحتى تجاوزهنّ سبع طباق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۳

منها:

يا ذا الذى اتصل الرّجاء بحبلهو انبتّ من هذا الورى بطلاق

حبّى إليك وسيلتى و ذخيرتىإنى من الأعمال ذو إملاق

و إليك أعملت الرّواحل ضمّراتختال بين الوخد و الإعناق

نجبا إذا نشرت حلى تلك العلا تطوى الفلا ممتدّة الأعناق

يحدو بهنّ من النّحيب مردّدو تقودهنّ أزمّة الأشواق

غرض إليه فوّقتنا أسهماو هى القسىّ برين كالأفواق

و أنختها بفنائك الرّحب الذىوسع الورى بالنائل الدفّاق

و قرى مؤمّلك الشفاعة فى غدو كفى بها هبة من الرزّاق

و عليك يا خير الأنام تحيّةنحيى النفوس بنشرها الفتّاق

تتأرّج الأرجاء من نفحاتها أرج النّدىّ بمدحك المصداق

منها :

قسما بطيب تراب طيبة إنهمسك الأنوف و إثمد الأحداق

و بشأن مسجدها الذى برحابهلمعامل الرّحمن أىّ نفاق

لأجود فيه بأدمع أسلاكهامنظومة بترائب و تراق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۴ أغدو بتقبيل على حصبائهو على كرائم جدره بعناق

و عليك ذا النّورين تسليم لهنور يلوح بصفحة المهراق

كفؤ النبىّ و كفؤ أعلى جنّةحيزت له بشهادة و صداق

و على أبى السّبطين من سبق الألىسبقوا إلى الإسلام أىّ سباق

الطاهر الصّهر ابن عمّ المصطفىشرف على التّعميم و الإطلاق

مبدى القضايا من وراء حجابهاو مفتّح الأحكام عن إغلاق

يغزو العداة بغلظة فيهدّهم بصوارم تفرى الفقار رقاق

راياته لا شىء من عقبانهابمطار يوم وغى و لا بمطاق

و على كرام ستّة عثرت بهمعند النظام ليالى النّسّاق

ما بين أروع ماجد نيرانهجنح الظلام تشبّ للطرّاق

و أخى حروب صدّه رشف القناعمّا قدود مثلهنّ رقاق

ما غرّدت شجوا مطوّقة و ماشقّت كمام الرّوض عن أطواق

و على القرابة و الصّحابة كلّهمو التابعين لهم ليوم تلاق

و لمّا سنّى اللّه فى الرّوم الوقعة المبيرة و الوقيعة الشهيرة التى أجلت عن قتل مليكهم معركتها، و انتهت للفتح معركتها و حركتها، و عمّت الإسلام بإتعاس فلّ الكفر بركتها، قدم مع الوفود من أهل بلده، و هنّأ أمير المسلمين بفتحه ذلك، و طلوع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۵

ولده، فقال: [الكامل]

أ مليك أم بدر الدّجى الوضّاحو حسامه أم بارق لمّاح؟

أعلى المسالك ما بنته يد التّقىو عمادها الأعلام و الأرماح

و أحقّ من يدعى خليفة ربّهملك خلافته هدى و نجاح

كأمير أندلس و ناصرها الذىأفنى العداة حسامه السّفاح

أسمى الملوك أبو الوليد المرتضىو أعزّ من شرفت به الأمداح

هو دوحة الملك العلىّ فروعهاو براحتيه ترزق الأدواح

و بمحو رسم عداته بلبانه نطق الكتاب و خطّت الألواح

بدر الكمال لو أنّ بدرا مثلهلم يبد خشية نوره الإصباح

بحر النّوال لو أنّ بدرا مثلهلارتاع خشية فيضه الملّاح

و لمثله قاد الجياد عدوّهفخبا له قدح و خاب قداح

أهواه شيطان الهوى فى لجّةإنّ الهوى بأليفه طمّاح

طمع الشّقىّ أضلّه و أذلّه كل المطالع للغبىّ فصاح

فأبادهم و ملوكهم فتح بداو بسعد جدّك ربّنا فتّاح

و فواصل تبرى بهنّ مفاصلو صفائح يفرى بهنّ صفاح

لم تفن كلّهم سيوف الهند بلسيوف جودك فى النفوس جراح

ما زال حىّ عداك يحسد ميتهمو يحثّ فوتا عاجلا فيراح

فاقتل كبيرهم و أحيى صغيرهمو اسب النّساء فما عليك جناح

تسبيح ما حاط العداة و ما حمواو حماك يا منصور ليس يباح

يا أمّة الكفران تفنيدا و هللجفون أعمى ينجلى مصباح؟

أ تركتم بطرو وحيدا مفردايشدو عليه الطائر الصيّاح؟

و جوان يرتشف الندى فنديمهغربانه و وساده الصّفّاح الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۳۰۵

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۶ و كذلك المطران جاد رسومهقطر المنايا الصارم الطّفّاح

أرؤوس تبيضّ النعام بمرجناأصنافكم هذى أم الأشباح؟

ما للمطامير اشتكت من ضيقهابالمال و الأسرى و هنّ فساح؟

جارت بكم أبطالنا فكأنكم كشح و جيش المسلمين و شاح

تبّا لرومىّ يهيم براحةأ يرام عن خيل الإله براح؟

قصّت قوادمكم فما إقدامكمو الليل جنح الكفر تغيض جناح

هذا فلا تستعجلوا ببلادكمسترون كيف يكون الاستفتاح

قد انثنت بطحاؤنا بحطامكمو نباتها الرّيحان و التفاح

تاللّه ما كنتم بأول عسكر أمل النجاح و حينه يجتاح

القسّ غرّكم ليهلك نسلكمبسيوفنا إن إفكه لصراح

كم ذا يسخّركم و يسخر منكمغدرا و مكرا إنه لوقاح

منها:

و فوارس نشأوا لنهب فراس‌طلبوا انتشاء للدّما لا الراح

أربوا على الأسد الهزبر بسالةمع أنهم غرّ الوجوه صباح

خاضوا بحار الحرب يطمو بحرهاو وطيسها حامى الصّلى لفّاح

ما هم ببذل نفوسهم و نفيسهمو عن النوال أو النّزال سجاح

و إذا هم ذكروا بناد فانتشق‌مسكا تضوّع عرفه النفّاح

فغدا و راح النصر يقدم جمعهمو يحفّهم حيث اعتدوا أو راحوا

سنّاك مولانا بسعد مقبل‌خلصاء قد عمّتهم الأفراح

و بنجلك البدر الذى آفاقه‌ملك و هالته هدى و صلاح

بدر البدور فلا بدار عليهو بذا أنارت أربع و بطاح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۷ فلكم عدوّ ما أفلّ بزوغه‌خسفت به الأوجال و الأتراح

و هنا و نالك بالأمير تجدّدكلّ بحبّك نفسه ترتاح

قد جاء بعد العسر يسر شامل‌قد جاء بعد الشّدة الإنجاح

فالحمد للّه الذى قد خصّناو لنا بحمدك بعده إفصاح

و على المقام المولوىّ تحيّة‌كالزّهر إذ تهدى شذاه رياح

ما خطّ مدحك فى الطّروس محبّرو محا دياجير الأصيل صباح

و قال يرثى الخطيب ببلده، الشهير الفاضل، أبا الحسن بن شعيب، رحمه اللّه:

[الطويل]

بوادى لقد حملت ما ليس لقواه‌فراق و لا من شرف الأرض تقواه

بليت بذا التفريق فاصبر فربمابلغت بحسن الصبر ما تتمنّاه

شجا كلّ نفس فقد أنفس جوهرتعدّ و لا تحصى كرام سجاياه

بكى كلّنا حزنا عليه كما بكى‌لفرقته محرابه و مصلّاه

فلله خطب جليل لقد رمى‌أجلّ خطيب بالجلالة مصماه

فلولاكم يغلب تأسّينا الأسىو لم يشمل الشّمل التفجّع لولاه

فلم يبق إلّا من جفا جفنه الكرىو من جانبت وصل المضاجع جنباه

وفاء المرّى وفّى فوفّى أجرهو أصفى بإصفاء الإله و صافاه

أبى الحسن العدل الرّضا المحسن الذى‌أتته بأضعاف الزيادة حسناه

خطيب جلا فصل الخطاب بيانهو أعدل قاض فاضل فى قضاياه

و جسم الهدى الرّحب السبيل و روحهو لفظ العلى الفخر الأصيل و معناه

مطيع رفيع خاضع متواضع‌كريم حليم طاهر القلب أوّاه

متى يمش هونا ليس إلّا لمسجدتمد خجلا أرض بها حطّ نعلاه

تكلّمه عرف و ذكر و حكمةتلذّ بها الأسماع ما كان أحلاه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۸ كذا صمته خوف و فكر و خشيةفما زال يخشى اللّه و الكلّ يخشاه

يصوم و قد طال النهار مهجّراو تبحر بالليل التغمّض عيناه

فكم دارس أحياه من أربع التّقاو كم غاسق من حندس الليل أحياه

فيا طيّبا أصلا و ذكرا و تربةو منه استفاد الطّيب أطيب ريّاه

و فى حرقة تحنو و مرأى و باطنا و أمن سنا شمس الضحى من محيّاه

محيّا يروّى الناظرين تهلّلافتعرفه فى الصالحين بسيماه

بحبّك هامت كلّ نفس منيبةكذا من أحبّ اللّه حبّبه اللّه

فما أنعم الأرض التى بك قدّستو آثر ذيّاك الضريح و أنداه

بشراك إنّا قد شغلنا بحزنناو رضوان بشراه بذلك بشراه

عزا لأهليه الأهلة أنهملهم يعترى من بعده العزّ و الجاه

نال شعيب فى الزمان بدورهو لم تكن الشمس المنيرة إلّاه

أعزّى أولى الإيمان كلّا بفقدهنعم و أسنّيه بحبّه مأواه

سقى اللّه و سمىّ الحيا ذلك الثرىو غاداه صوب الغاديات و ميّاه

كما قد سقاه ليلة الدّفن ربّهمن الغيث و كّاف السحاب و أسخاه

ترضّوا عن القاضى الإمام خطيبكمفقد رضى الرحمن عنه و أرضاه

و صلّوا على هادى الأنام نبيّكمصلاة بها يمحو المسىء خطاياه

عليك سلام اللّه ما الروض فاح إنسرت سحرا ريح الصّبا بخزاماه

وفاته: توفى، رحمه اللّه، فى رمضان، تحقيقا من سنة خمس على شكّ و سبعمائة، أخبرنى بذلك من يوثق به.

محمد بن عبد اللّه بن الحاج البضيعة

من أهل مالقة، و تردّد كثيرا على الحضرة، مسترفدا و منشدا، و فى غير ذلك من الأغراض، يكنّى أبا عبد اللّه.

حاله و شعره: من الإكليل: شاعر اتخذ النظم بضاعة، و ما ترك السعى فى مذاهبه ساعة، أجرى فى الملا، لا فى الخلا، و جعل ذكره دلوه من الدّلا، و ركض

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۰۹

فى حلبة النجبا النجائب، و رمى فى الخواطى بسهم صائب، فخرج بهرجه و نفق، و ارتفد بسببه و ارتفق. و هو الآن قد سالمته السنون، و كأنّما أمن المنون، من رجل مكفوف الأذى، حسن الحالة إلّا إذا، هذا قلت، ثبت هذا و المذكور حىّ، و قد مات، رحمه اللّه.

و من شعره: [الطويل]

رجائى فى المولى العظيم عظيمغنيت به حيث الغناء مديم

و حسبى الرجا فيمن عليه معوّلىحديث حديث لم يزل و خديم

و ما عرفت نفسى سوى باب فضلهعلى ثقة أنّ الكريم كريم

فإن قيل عنّى مذنب قلت سيّدكفيل بغفران الذنوب رحيم

و ما اعتصم المملوك إلّا بحبلهفجانبه نعمى لنا و نعيم

رضاه سبيل للنجاة و حبّهطريق لجنّات النّعيم قديم

و أنشد يوما الأمير ثالث الأمراء من بنى نصر يهنيه بالملك و يعزّيه :

[الوافر]

على من تنشر اليوم البنود؟و تحت لواء من تسرى الجنود؟

و قال : على هذا الكذا، الذى بين يديك، فخجل، و عظم استظراف الحاضرين لذلك.

وفاته: توفى فى كذا و سبعمائة.

محمد بن عبد اللّه بن فطيس

يكنى أبا عبد اللّه، من أهل مالقة. و قال الأستاذ : من بيت فطيس الألبيريين.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۰

حاله: قال: طبيب ماهر، و أديب شاعر؛ كان فى أيام بنى حسّون، يخفّ عليهم، و له فيهم أمداح كثيرة. يذكر أنه دخل يوما على القاضى أبى مروان بن حسّون، بعد انقطاع عن زيارته، فعتبه القاضى، فاعتذر، ثم أنشد: [مخلع البسيط]

يا حاملا من علاه تاجاو من سنا وجهه سراجا

لو كان رودى عديل ودّىلكنت من بابك الرّتاجا

إن لم يعرّج عليك شخصىنفسى و روحى عليك عاجا

و ذكره ابن عسكر فى كتابه.

محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمى ذو الوزارتين

يكنى أبا عبد اللّه، رندى النشأة، إشبيلى الأصل، يرجع بيته، و بيت بنى حجاج، و بيت بنى عباد، إلى جرثومة واحدة. و انتقل سلفه إلى رندة فى دولة بنى عباد، و يحيى جدّ والده هو المعروف بالحكيم لطبّه. و قدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن نصر، إثر قفوله من الحج فى رحلته التى رافق فيها العلّامة أبا عبد اللّه بن رشيد الفهرى، فألحقه السلطان بكتّابه، و أقام يكتب له فى ديوان الإنشاء، إلى أن توفى هذا السلطان، و تقلّد الملك بعده ولىّ عهده أبو عبد اللّه المخلوع، فقلّده الوزارة و الكتابة، و أشرك معه فى الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدّانى، فلمّا توفى أبو سلطان أفرده السلطان بالوزارة، و لقّبه ذا الوزارتين، و صار صاحب أمره، إلى أن توفى بحضرة غرناطة قتيلا نفعه اللّه تعالى، غدوة يوم الفطر، مستهل شوال سنة ثمان و سبعمائة، و ذلك لتاريخ خلع سلطانه، و خلافة أخيه أمير المسلمين، أبى الجيوش، مكانه.

حاله: كان ، رحمه اللّه تعالى، علما فى الفضيلة و السّراوة، و مكارم الأخلاق، كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحرمة، عالى الهمة، كاتبا بليغا، أديبا،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۱

شاعرا، حسن الخطّ، يكتب خطوطا على أنواع كلّها جميلة الانطباع، خطيبا، فصيح القلم، زاكى الشّيم، مؤثرا لأهل العلم و الأدب، برّا بأهل الفضل و الحسب، نفقت بمدته للفضائل أسواق، و أشرقت بإمداده للفضائل آفاق . و من «عائد الصلة»:

كان ، رحمه اللّه، فريد دهره سماحة، و بشاشة، و لوذعيّة، و انطباعا، رقيق الحاشية، نافذ العزمة، مهتزّا للمديح، طلقا للأمل، كهفا للغريب، برمكى المائدة ، مهلّبى الحلوى ، ريّان من الأدب، مضطلعا بالرواية، مستكثرا من الفائدة. يقوم على المسائل الفقهية، و يتقدم الناس فى باب التّحسين و التّقبيح، و رفع راية الحديث و التّحديث، نفّق بضاعة الطلب، و أحيا معالم الأدب، و أكرم العلم و العلماء، و لم تشغله السياسة عن النظر، و لا عاقه تدبير الملك عن المطالعة و السماع و الإفراط فى اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها، و أثرت أنديته من ذخائرها. قام له الدّهر على رجل ، و أخدمه صدور البيوتات، و أعلام الرّياسات، و خوطب من البلاد النازحة، و أمّل من الآفاق النائية.

رحلته و نباهته: رحل إلى الحجاز الشريف من بلده، على فتاء سنّه، أول عام ثلاثة و ثمانين و ستمائة، فحجّ و زار، و تجوّل فى بلاد المشرق، منتجعا عوالى الرواية فى مظانّها، و منقّرا عنها عند مسنّى شيوخها، و قيّد الأناشيد الغريبة، و الأبيات المرقصة، و أقام بمكة شرّفها اللّه، من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة يأتى ذكرهم فى مشيخته. و انصرف إلى المدينة المشرّفة، ثم قفل مع الرّكب الشامى إلى دمشق، ثم كرّ إلى المغرب، لا يمرّ بمجلس علم أو تعلّم إلّا روى أو روّى. و احتلّ رندة، حرسها اللّه، أواخر عام خمسة و ثمانين و ستمائة، و أقام بها عينا فى قرابته، و علما فى أهله، معظّما عندهم ، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بنى حبيب، الوقيعة البرمكية . و ورد رندة فى أثر ذلك، فى شهر جمادى الآخرة من عام ستة و ثمانين و ستمائة، فتعرّض إليه، و مدحه ، و هنّأه بقصيدة طويلة

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۲

من أوليات شعره، أولها : [الرمل]

هل إلى ردّ عشيّات الوصال‌سبب أم ذاك من ضرب المحال؟

فلمّا أنشدها إياه، أعجب به، و بحسن خطّه و نصاعة ظرفه، فأثنى عليه، و استدعاه إلى الوفادة على حضرته، فوفد إليها فى آخر العام المذكور، فأثبته فى خواصّ دولته، و أحظاه لديه، إلى أن رقّاه إلى كتابة الإنشاء ببابه. و استمرّت حاله، معظّم القدر، مخصوصا بالمزية، إلى أن توفى السلطان، ثانى الملوك من بنى نصر، و تقلّد الملك بعده، ولىّ عهده أبو عبد اللّه، فزاد فى إحظائه و تقريبه، و جمع له بين الكتابة و الوزارة، و لقّبه بذى الوزارتين؛ و أعطاه العلامة، و قلّده الأمر، فبعد الصّيت، و طاب الذّكر، إلى أن كان من الأمر ما يأتى به الذكر قريبا إنشاء اللّه تعالى.

مشيخته: قرأ برندة على الشيخ النحوى أبى الحسن على بن يوسف العبدرى السّفاح، القرآن العظيم بالروايات السّبع، و العربية و غير ذلك. و على الخطيب بها أبى القاسم بن الأيسر، و أخذ عن والده جميع مرويّاته. و استجاز له فى صغره أعلام ذلك الزمان، و أخذ فى رحلته عن الجلّة من الجملة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر.

فمنهم أبو اليمن جار اللّه ابن عساكر، لقيه بالحرم الشّريف، و انتفع به، و استكثر من الرواية عنه. و منهم الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّانى، المعروف بابن هبة اللّه الحرانى. و منهم الشيخ الشريف أبو العباس أحمد بن عبد اللّه بن عمر بن معطى ابن الإمام الجزائرى- جزائر المغرب- نزيل بغداد. و منهم الشيخ أبو الصفا خليل بن أبى بكر بن محمد المرادى الحنبلى، لقيه بالقاهرة. و منهم الشيخ رضى الدين القسطمينى أبو بكر. و منهم الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدّمياطى، إمام الديار المصرية، فى الحديث و مؤرخها و حافظها. و منهم عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الخيمى، شهاب الدين أبو عبد اللّه، نزيل مشهد الحسين بن على، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التى أولها : [البسيط]

يا مطلبا ليس لى فى غيره أرب‌إليك آل التّقصّى و انتهى الطلب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۳

و منها البيت المشهور الذى وقع النزاع فيه :

يا بارقا بأعالى الرّقمتين بدالقد حكيت و لكن فاتك السّبب

و منهم عبد المولى يحيى بن حماد البعلبكى؛ مولده سنة إحدى عشرة و ستمائة. و منهم محمد بن بكر بن خلف بن أبى القاسم الصّيفار. و منهم الشيخ أبو الفضل الأديب جمال الدين بن أبى الخير بن على بن عبد اللّه بن رواحة. و منهم محمد بن يحيى بن عبد اللّه القرشى جمال الدين أبو صادق، و من تخريجه «الأربعون المرويّة بالأسانيد المصرية»، و سمع الحلبيّات من ابن عماد الحرّانى و الشيخ أبى الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة، و مولده سنة ثمان و تسعين و خمسمائة. و منهم الشيخ محمد بن عباس الأشعرى تقى الدين الحافظ أبو القاسم. و منهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد اللّه بن عبد المجيد الأنماطى. و منهم أبو البدر بن عبد اللّه بن أبى

الزبير، الكاتب المصرى. و منهم الشيخ عبد الرحيم بن عبد المنعم بن خلف التّدميرى. و من رؤساء شيوخه؛ الشيخ محيى الدين أبو الفضل. و منهم زينب بنت الإمام أبى محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على البغدادى، تكنّى أم الفضل، و سمعت من أبيها. و منهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الخراسانى، أبو عبد اللّه موقّر الدين، و ألبسه خرقة التصوف.

و منهم الشيخ محمد بن يحيى بن هبيرة الشّيبانى شرف الدين. و منهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عيسى بن عيسى بن يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل السّلفى. و منهم الشيخ على بن عبد الكريم بن عبد اللّه الدّمشقى، أبو الحسن؛ ولد سنة سبع و تسعين و خمسمائة. و منهم الشيخ غازى بن أبى الفضل بن عبد الوهاب الجلاوى.

و منهم الشيخ نور الدين على بن محمد أبى البركات الأنصارى المقرئ بحرم الخليل، سمع من أبى الحسن على بن شجاع. و منهم يوسف بن داود بن عيسى بن أيوب الحنفى.

و منهم الملك الأوحد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب. و منهم عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن على بن جعفر القرشى الزّهرى خطيب القدس. و منهم الشيخ عبد الحفيظ بن بدران، و يدعى علىّ الدين من أهل بانياس، سمع من ابن صيصرى.

و منهم الشيخ على بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدّسى. و منهم الشيخ محمد بن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۴

محمد بن سالم بن يوسف بن أسلم القرشى، جمال الدين. و منهم عبد الواسع بن عبد الكافى شمس الدين. و منهم الشيخ أحمد بن أحمد الزّجاجى البغدادى الإمام تقى الدين. و منهم عبد الجميل بن أحمد بن الزّجاج. و منهم فاطمة بنت إبراهيم بن محمد بن محمود بن جوهر البعلبكى، الشيخة الكاتبة الخيّرة أم الخير. و منهم الشيخ يوسف ابن أبى ناصر السفاوى. و منهم الشيخ عبد السلام بن محمد بن مزروع، أبو محمد عفيف الدين. و منهم الشيخ أحمد بن عثمان بن محمد الشافعى البخارى شمس الدين. و منهم الشيخ عبد اللّه بن خير بن أبى محمد بن خلف القرشى. و منهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عبد الباقى بن على الصّواف شرف الدين. و منهم الشيخ على بن محمد بن أبى القاسم بن محمد بن محمد بن أبى بكر بن زريق الكاتب، لقيه بتونس. و منهم الشيخ سليمان بن على بن عبد اللّه الكاتب التّلمسانى عفيف الدين الصّوفى الأديب نزيل دمشق، و مولده بتلمسان. و منهم الشيخ محمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن الحسن بن عبد اللّه بن أحمد الميمونى البستى القسطلانى قطب الدين، الإمام المفتى شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة المعزّية. و منهم الشيخ عبد الكريم بن على بن جعفر القرشى جمال الدين.

و منهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الظاهر جمال الدين. و منهم محمد بن محمد بن إبراهيم النجاشى. و منهم الشيخ عبد اللّه بن محمد بن محمد بن أبى بكر الطبرى، إمام الروضة النبوية ثم الصخرة القدسية. و منهم الشيخ فخر الدين عثمان بن أبى محمد بن إسماعيل بن جندرة. و منهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلى بن أنسكرت فخر الدين. و منهم الشيخ ثابت بن على بن عبد العزيز بن قاسم بن عبد الرازق، سمع على ابن المغير البغدادى. و منهم الشيخ أمين الدين أبو الهامات جبريل بن إسماعيل بن سيد الأهل الغسانى. و منهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد اللّه الأندلسى الأصل شرف الدين، سمع من علم الدين الشيخونى و غيره. و منهم الشيخ محمد بن محمد الشامى الشافعى الدمشقى، إمام مسجد أبى بكر الصديق، رضى اللّه عنه، يدعى شمس الدين، سمع من الزبيدى. و منهم الشيخ يحيى بن الخضر بن حاتم الأنصارى، يعرف بابن عزّ الدولة.

و أجاز له جماعة، منهم ابن عماد الحرّانى، و منهم ابن يحيى بن محمد بن محمد الهمدانى كمال الدين، و سمع من ابن الزّجّاج و ابن رواح الحميرى. و منهم الشيخ عبد الملك أبو المعالى بن مفضل الواسطى، عرف بابن الجوزى، سمع على جماعة، منهم شعيب الزعفرانى. و منهم الشيخ محمد بن أحمد بن ياسر بن شاكر الحاكمى. و منهم الإمام مفتى المسلمين، رضى اللّه عنه. و منهم أبو عبد اللّه محمد بن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۵

أبى بكر بن خليل العسقلانى المكّى. و منهم الخطيب أبو عبد اللّه محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن رحيمة الكنانى، خطيب بجايه. و منهم قاضى القضاة ببلاد إفريقية أبو العباس ابن الغمّاز البلنسى، لقيه بتونس. و منهم الفقيه العلّامة الوزير أبو القاسم محمد بن عبد اللّه بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزى الكلبى. و منهم الشيخ أبو محمد عبد اللّه بن يوسف الخلابى. و منهم الشيخ المغربى أبو محمد الحجاج بن يوسف بن إبراهيم بن عتّاب، لقيه بتونس. و منهم الشيخ الفقيه أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن يربوع السّبتى. و منهم الإمام قدوة النحاة أبو الحسين عبيد اللّه بن أحمد بن عبيد اللّه بن أحمد بن عبد اللّه بن أبى الربيع القرشى. و منهم الإمام أبو على ناصر الدين منصور بن أحمد بن عبد الحق الزّواوى المشدالى، من أهل بجاية. و منهم الخطيب القاضى أبو عمرو إسحاق بن أبى إسحاق بن عبد الوهاب الرّندى، إلى طائفة كبيرة من أهل المشرق و المغرب.

محنته: أغرى به الأمير ولى العهد، بسبب أمور اختلف فيها، منها أبيات فى هجو الدولة النصرية، اللّه أعلم بصحة نسبتها إليه، فأوقع به، و ناله بين يديه نكال كبير أفلت منه برفق، و اختفى مدة فى المآذن المقفلة و الأماكن الخفية، حتى أصحى له جوّ سخطه، و قضى اللّه بردّ أمره إليه، و استيلائه على ما وراء بابه.

من روى عنه: أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبى العاصى، و تدبّج معه رفيقه عبد اللّه بن رشيد و غير واحد. و كان ممدوحا، و ممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى، و الرئيس أبو الحسن بن الجيّاب، و ناهيك بهما. و من بديع مدح ابن الجياب له، قصيدة رائية رائقة، يهنّئه فيها بعيد الفطر، منها فى أولها : [البسيط]

يا قادما عمّت الدنيا بشائرهأهلا بمقدمك الميمون طائره

و مرحبا بك من عيد تحفّ بهمن السعادة أجناد تظاهره

قدمت فالخلق فى نعمى و فى جذلأبدى بك البشر باديه و حاضره

و الأرض قد لبست أثواب سندسهاو الرّوض قد بسمت منه أزاهره

حاكت يد الغيث فى ساحاته حللالمّا ساقها دراكا منك باكره

فلاح فيها من الأنوار باهرهاوفاح فيها من النّوّار عاطره

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۶ و قام فيها خطيب الطّير مرتجلاو الزّهر قد رصّعت منه منابره

موشّى ثوب طواه الدّهر آونةفها هو اليوم للأبصار ناشره

فالغصن من نشوة يثنى معاطفهو الطّير من طرب تشدو مزاهره

و للكمام انشقاق عن أزاهرهاكما بدت لك من خلّ ضمائره

للّه يومك ما أذكى فضائلهقامت لدين الهوى فيه شعائره

فكم سريرة فضل فيك قد خبئتو كم جمال بدا للناس ظاهره

فافخر بحقّ على الأيام قاطبةفما لفضلك من ندّ يظاهره

فأنت فى عصرنا كابن الحكيم إذاقيست بفخر أولى العليا مفاخره

يلتاح منه بأفق الملك نور هدىتضاءل الشمس مهما لاح زاهره

مجد صميم على عرش السّماك سماطالت مبانيه و استعلت مظاهره

وزارة الدّين و العلم الذى رفعتأعلامه و النّدى الفيّاض زاخره

و ليس هذا ببدع من مكارمهساوت أوائله فيه أواخره

يلقى الأمور بصدر منه منشرحبحر و آراؤه العظمى جواهره

راعی أمور الرّعایا معملا نظراکمثل علیاه معدوما نظائره

و الملک سیّر فی تدبیره حکماتنال ما عجزت عنه عساکره

سیاسة الحکم لا بطش یکدّرهافهو المهیب و ما تخشی بوادره

لا یصدر الملک إلّا عن إشارتهفالرّشد لا تتعدّاه مصائره

تجری الأمور علی أقصی إرادتهکأنما دهره فیه یشاوره

و کم مقام له فی کل مکرمةأنست موارده فیها مصادره

ففضلها طبّق الآفاق أجمعهاکأنه مثل قد سار سائره

فلیس یجحده إلّا أخو حسدیری الصباح فیعشی منه ناظره

لا ملک أکبر من ملک یدبّرهلا ملک أسعد من ملک یؤازره

یا عزّ أمر به اشتدّت مضاربهیا حسن ملک به ازدانت محاضره

تثنی البلاد و أهلوها بما عرفواو یشهد الدهر آتیه و عابره

بشری لآمله الموصول مأملهتعسا لحاسده المقطوع دابره

فالعلم قد أشرقت نورا مطالعهو الجود قد أسبلت سحّا مواطره

و الناس فی بشر و الملک فی ظفرعال علی کلّ عالی القدر قاهره

و الأرض قد ملئت أمنا جوانبهابیمن من خلصت فیها سرائره

و الی أیادیه من مثنی و واحدة تساجل البحر إن فاضت زواخره

فکلّ یوم تلقّانا عوارفهکساه أمواله الطّولی دفاتره

فمن یؤدّی لما أولاه من نعمشکرا و لو أنّ سحبانا یظاهره

یا أیها العبد بادر لثم راحتهفلثمها خیر مأمول تبادره

و افخر بأن قد لقیت ابن الحکیم علیعصر یباریک أو دهر تفاخره

ولّی الصیام و قد عظّمت حرمتهفأجره لک وافیه و وافره

و أقبل العید فاستقبل به جذلاو اهنأ به قادما عمّت بشائره

و من مدح الرئیس أبی محمد عبد المهیمن الحضرمی له قوله: [الطویل]

تراءی سحیرا و النسیم علیلو للنّجم طرف بالصباح کلیل

و للفجر نهر خاضه اللیل فاعتلتشوی أدهم الظّلماء منه خجول

بریق بأعلی الرّقمتین کأنهطلائع شهب و السماء تجول

فمزّق ساجی اللیل منه شرارةو خرّق ستر الغیم منه نصول

تبسّم ثغر الروض عند ابتسامهو فاضت عیون للغمام همول

و مالت غصون البان نشوی کأنهایدار علیها من صباه شمول

و غنّت علی تلک الغصون حمائملهنّ حفیف فوقها و هدیل

إذا سجعت فی لحنها ثم قرقرتیطیح خفیف دونها و ثقیل

سقی اللّه ربعا لا یزال یشوقنیإلیه رسوم دونها و طلول

و جاد رباه کلّما ذرّ شارقمن الودق هتّان أجشّ هطول

و ما لی أستسقی الغمام و مدمعی‌سفوح علی تلک العراص همول؟

و عاذلة باتت تلوم علی السّری‌و تکثر من تعذالها و تطیل

تقول إلی کم ذا فراق و غربة‌و نأی علی ما خیّلت و رحیل

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۸ ذرینی أسعی للّتی تکسب العلاسناء و تبقی الذّکر و هو جمیل

فأمّا ترینی من ممارسة الهوی‌نحیلا فحدّ المشرفیّ نحیل

و فوق أنابیب الیراعة صفوة‌تزین و فی قدّ القناة ذبول

و لو لا السّری لم یحتل البدر کاملاو لا بات منه للسّعود نزیل

و لو لا اغتراب المرء فی طلب العلالما کان نحو المجد منه وصول

و لو لا نوال ابن الحکیم محمدلأصبح ربع المجد و هو محیل

وزیر سما فوق السّماک جلالة‌و لیس له إلّا نجوم قبیل

من القوم أمّا فی النّدیّ فإنهم‌هضاب و أمّا فی النّدی فسیول

حووا شرف العلیاء إرثا و مکسباو طابت فروع منهم و أصول

و ما جونة هطّالة ذات هیدب‌مرتها شمول مرجف و قبول

لها زجل من رعدها و لوامع‌من البرق عنها للعیون کلول

کما هدرت وسط القلاص و أرسلت‌شقاشقها عند الهیاج فحول

بأجود من کفّ الوزیر محمدإذا ما توالت للسّنین محول

و لا روضة بالحسن طیّبة الشّذاینمّ علیها أذخر و جلیل

و قد أذکیت للزّهر فیها مجامرتعطّر منها للنسیم ذیول

و فی مقل النّوّار للطّلّ عبرة‌تردّدها أجفانها و تحیل

بأطیب من أخلاقه الغرّ کلّماتفاقم خطب للزمان یهول

حویت، أبا عبد الإله، مناقباتفوت یدی من رامها و تطول

فغرناطة مصر و أنت خصیبهاو نائل یمناک الکریمة نیل

فداک رجال حاولوا درک العلاببخل و هل نال العلاء بخیل؟

تخیّرک المولی وزیرا و ناصحافکان له مما أراد حصول

و ألقی مقالید الأمور مفوّضاإلیک فلم یعدل یمینک سول

و قام بحفظ الملک منک مؤیّدنهوض بما أعیا سواک کفیل

وساس الرعایا منک أشوس باسل‌مبید العدا للمعتفین منیل

و أبلج وقّاد الجبین کأنماعلی وجنتیه للنّضار مسیل

تهیم به العلیاء حتی کأنهابثینة فی الحبّ و هو جمیل

له عزمات لو أعیر مضاؤهاحسام لما نالت ظباه فلول

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۱۹ سری ذکره فی الخافقین فأصبحت‌إلیه قلوب العالمین تمیل

و أغدی قریضی جوده و ثناؤه‌فأصبح فی أقصی البلاد یجول

إلیک أیا فخر الوزارة أرقلت‌برحلی هوجاء الثّجاء ذلول

فليت إلى لقياك ناصية الفلابأيدى ركاب سيرهنّ ذميل

تسدّدنى سهما لكل ثنيّةضوامر أشباه القسىّ نحول

و قد لفظتنى الأرض حتى رمت إلىذراك برحلى هوجل و هجول

فقيّدت أفراسى به و ركائبىولذّ مقام لى به و حلول

و قد كنت ذا نفس عزوف و همّةعليها لأحداث الزمان دحول

و تهوى العلا حظى و تغرى بضدّهلذاك اعترته رقّة و نحول

و تأبى لى الأيام إلّا إدالةفصونك لى أنّ الزمان مديل

فكل خضوع فى جنابك عزّةو كل اعتزاز قد عداك خمول

شعره: و بضاعته فى الشعر مزجاة، و إن كان أعلم الناس بنقده، و أشدّهم تيقّظا لمواقعه الحسنة و أضدادها. فمن ذلك قوله، و رفعه إلى السلطان ببلده رندة، و هو إذا ذاك فتى يملأ العين أبّهة، و يستميل القلوب لباقة، و هى، و من خطه نقلت :

[الرمل]

هل إلى ردّ عشيّات الوصالسبب أم ذاك من ضرب المحال؟

حالة يسرى بها الوهم إلىأنها تثبت برءا باعتلال

و ليال ما تبقّى بعدهاغير أشواقى إلى تلك اللّيالى

إذ مجال الوصل فيها مسرحىو نعيمى آمر فيها و وال

و لحالات التّراضى جولةمزجت بين قبول و اقتبال

فبوادى الخيف خوفى مسعدو بأكناف منى أسنى نوال

لست أنسى الأنس فيها أبدالا و لا بالعذل فى ذاك أبالى

و غزال قد بدا لى وجههفرأيت البدر فى حال الكمال

ما أمال التّيه من أعطافهلم يكن إلّا على فضل اعتدال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۰ خصّ بالحسن فما أنت ترىبعده للناس حظّا فى الجمال

من تسلّى عن هواه فأنابسواه عن هواه غير سال

فلئن أتعبنى حبّى لهفكم نلت به أنعم حال

إذ لآلى جيده من قبلىو وشاحاه يمينى و شمالى

خلّف النوم لى السّهد بهو ترامى الشّخص لا طيف الخيال

فيداوى بلماه ظمئىمزجك الصّهباء بالماء الزّلال

أو إشادات بناء الملك الأوحد الأسمى الهمام المتعالى

ملك إن قلت فيه ملكالم تكن إلّا محقا فى المقال

أيّد الإسلام بالعدل فماأن ترى رسما لأصحاب الضّلال

ذو أياد شملت كلّ الورىو معال يا لها خير معال

همّة هامت بأحوال التقىو صفات بالجلالات حوال

وقف النّفس على إجهادهابين صوم و صلاة و نوال

و منها فى ذكر القوم الموقع بهم :

و فريق من عتاة عاندواأمره فاستوجبوا سوء نكال

غرّهم طول التّجافى عنهممع شيطان لهم كان موال

فلقد كانت بهم رندة أوأهلها فى سوء تدبير و حال

و لقد كان النّفاق مذهبافاشيا بين هاتيك التلال

ما يعود اليوم إلّا بادروابرواة و نكيرات ثقال

طوّقوا النّعمى فلمّا أنكرواطوّقوا العدل بذى البيض العوال

ماطل الدهر بهم غريمهفهو الآن و فى بعد المطال

و لقد كنت غريم الدهر إذشدّنى جورهم شدّ عقال

و لكم نافرته مجتهداعندما ضاق بهم صدر احتمالى

أعقبوا جزاء ما قد أسلفوافى الدّنا و يعقبوه فى المآل

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۱

و هى طويلة و منها:

أيها المولى الذى نعماؤهأعجزت عن شكرها كنه المقال

ها أنا أنشدكم مهنّئامن بديع النّظم بالسّحر الحلال

فأنا العبد الذى حبّكملم يزل و اللّه فى قلبى و بالى

أورقت روضة آمالى لكمو تولّاها الكبير المتعالى

و اقتنيت الجاه من خدمتكمفهو ما أذخره من كنز مال

و منها:

يا أمير المسلمين هذهخدمة تنبىء عن أصدق حال

هى بنت ساعة أو ليلةسهلت بالحبّ فى ذاك الجلال

ما عليها إذ أجادت مدحهامن بعيد الفهم يلغيها و قال

فهى فى تأدية الشكر لكمأبدا بين احتفاء و احتفال

و كتب، رحمه اللّه، يخاطب أهله من مدينة تونس :

حىّ حىّ بالله يا ريح نجدو تحمّل عظيم شوقى و وجدى

و إذا ما بثثت حالى فبلّغمن سلامى لهم على قدر ودّى

ما تناسيتهم و هل فى مغيبىهم نسونى على تطاول بعدى

بى شوق إليهم ليس يعزىلجميل و لا لسكّان نجد

يا نسيم الصّبا إذا جئت قوماملئت أرضهم بشيح و رند

فتلطّف عند المرور عليهمو حقوقا لهم علىّ فأدّ

قل لهم قد غدوت من وجدهم فىحال شوق لكلّ رند و زند

و إن استفسروا حديثى فإنىباعتناء الإله بلّغت قصدى

فله الحمد إذ حبانى بلطفعنده قلّ كلّ شكر و حمد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۲

قال شيخنا أبو بكر ولده: وجدت بخطّه، رحمة اللّه عليه، رسالة خاطب بها أخاه أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها : [الكامل]

ذكر اللّوى شوقا إلى أقمارهفقضى أسى أو كاد من تذكاره

و علا زفير حريق نار ضلوعهفرمى على وجناته بشراره

لو كنت تبصر خطّه فى خدّهلقرأت سرّ الوجد من أسطاره

يا عاذليه أقصروا فلربما أفضى عتابكم إلى إضراره

إن لم تعينوه على برحائه لا تنكروا باللّه خلع عذاره

ما كان أكتمه لأسرار الهوىلو أنّ جند الصّبر من أنصاره

ما ذنبه و البين قطّع قلبهأسفا و أذكى النار فى أعشاره

بخلّ اللّوى بالساكنيه و طيفهمو حديثه و نسيمه و مزاره

يا برق خذ دمعى و عرّج باللّوىفاسفحه فى باناته و عراره

و إذا لقيت بها الذى بإخائهألقى خطوب الدّهر أو بجواره

فاقر السلام عليه قدر محبتىفيه و ترفيعى إلى مقداره

و المم بسائر إخوتى و قرابتىمن لم أكن لجوارهم بالكاره

ما منهم إلّا أخ أو سيّدأبدا أرى دأبى على إكباره

فاثبت لذاك الحىّ أنّ أخاهمفى حفظ عهدهم على استبصاره

ما منزل اللذات فى أوطانه كلّا و لا السّلوان من أوطاره

و قال، رحمه اللّه، فى غرض كلّفه سلطانه القول فيه : [الوافر]

ألا و أصل مواصلة العقارودع عنك التخلّق بالوقار

و قم و اخلع عذارك فى غزاليحقّ لمثله خلع العذار

قضيب مائس من فوق دعصتعمّم بالدّجى فوق النهار

و لاح بخدّه ألف و لامفصار معرّفا بين الدرارى

رمانى قاسم و السين صادبأشفار تنوب عن الشّفار

و قد قسمت محاسن و جنتيه‌على ضدّين من ماء و نار

فذاك الماء من دمعى عليهو تلك النار من فرط استعارى

عجبت له أقام بربع قلبى‌على ما شبّ فيه من الأوار

ألفت الحبّ حتى صار طبعافما أحتاج فيه إلى ادّكار

فما لى عن مذاهبه ذهاب‌و هذا فيه أشعارى شعارى

و قال العلّامة ابن رشيد فى «ملء العيبة» : لما قدمنا المدينة سنة ۶۸۴ ه، كان معى رفيقى الوزير أبو عبد اللّه بن أبى القاسم الحكيم، و كان أرمد ، فلمّا دخلنا ذا الحليفة أو نحوها، نزلنا عن الأكوار، و قوى الشوق لقرب المزار، فنزل و بادر إلى المشى على قدميه احتسابا لتلك الآثار، و إعظاما لمن حلّ فى تلك الديار، فأحسّ بالشفاء، فأنشد لنفسه فى وصف الحال قوله: [الطويل]

و لمّا رأينا من ربوع حبيبنابيثرب أعلاما أثرن لنا الحبّا

و بالتّرب منها إذ كحلنا جفوناشفينا فلا بأسا نخاف و لا كربا

و حين تبدّى للعيون جمالهاو من بعدها عنّا أديلت لنا قربا

نزلنا من الأكوار نمشى كرامةلمن حلّ فيها أن نلمّ به ركبا

نسحّ سجال الدّمع فى عرصاتهاو نلثم من حبّ لواطئه التّربا

و إن بقائى دونه لخسارةو لو أنّ كفّى تملأ الشرق و الغربا

فيا عجبا ممن يحبّ بزعمهيقيم مع الدعوى و يستعمل الكتبا

و زلّات مثلى لا تعدّ كثيرة و بعدى عن المختار أعظمها ذنبا

و من شعره قوله : [السريع]

ما أحسن العقل و آثارهلو لازم الإنسان إيثاره

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۴ يصون بالعقل الفتى نفسهكما يصون الحرّ أسراره

لا سيما إن كان فى غربةيحتاج أن يعرف مقداره

و قوله رحمه اللّه : [البسيط]

إنى لأعسر أحيانا فيلحقنىيسر من اللّه إنّ العسر قد زالا

يقول خير الورى فى سنّة ثبتت(أنفق و لا تخش من ذى العرش إقلالا)

و هو من أحسن ما قاله رحمه اللّه.

و من شعره قوله : [الطويل]

فقدت حياتى بالفراق و من غدابحال نوى عمّن يحبّ فقد فقد

و من أجل بعدى من ديار ألفتهاجحيم فؤادى قد تلظّى و قد وقد

و حكى أن ذا الوزارتين المترجم، لما اجتمع مع الفقيه الكاتب ابن أبى مدين، أنشده ابن أبى مدين : [الطويل]

عشقتكم بالسّمع قبل لقاكمو سمع الفتى يهوى لعمرى كطرفه

و حبّبنى ذكر الجليس إليكمفلمّا التقينا كنتم فوق وصفه

فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم قوله : [البسيط]

ما زلت أسمع عن علياك كلّ سناأبهى من الشمس أو أجلى من القمر

حتى رأى بصرى فوق الذى سمعتأذنى فوفّق بين السّمع و البصر

و من نظمه مما يكتب على قوس : [الكامل]

أنا عدّة للدين فى يد من غداللّه منتصرا على أعدائه

أحكى الهلال و أسهمى فى رجمهالمن اعتدى تحكى رجوم سمائه

قد جاء فى القرآن أنى عدّةإذ نصّ خير الخلق محكم آيه

و إذا العدوّ أصابه سهمى فقدسبق القضاء بهلكه و فنائه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۵

و من توقيعه ما نقلته من خط ولده أبى بكر فى كتابه المسمى ب «الموارد المستعذبة»، و كان بمدينة وادى آش الفقيه الكذا أبو عبد اللّه محمد بن غالب الطريفى، فكتب يوما إلى الشيخ خاصة والدى أبى جعفر بن داود، قصيدة طويلة على روى السّين، يشتكى فيها من جور مشرف بلدهم إذ ذاك أبى القاسم بن حسّان، منها: [البسيط]

فيا صفىّ أبى العباس، كيف تروأنت كيّس من فيها من اكياس

ولّوه إن كان ممّن ترتضون بهفقد دنا الفتح للأشراف فى فاس

و منها يستطر ذكر ذى الوزارتين، رحمه اللّه:

للشرق فضل منه أشرقت شهب‌من نورهم أقبسونا كل مقباس

فوقع عليها رحمة اللّه تعالى عليه و رضوانه : [البسيط]

إن أفرطت بابن حسّان غوائلهفالأمر يكسوه ثوب الذّل و الياس

و إن تزلّ به فى جوره قدم‌كان الجزاء له ضربا على الرّاس

فقد أقامنى المولى بنعمته‌لبثّ أحكامه بالعدل فى الناس

كتابته: و هى مرتفعة عن نمط شعره، فمن ذلك رسالة كتبها عن سلطانه فى فتح مدينة قيجاطة :

من الأمير فلان، أيده اللّه و نصره، و وفّقه لما يحب حتى يكون ممن قام بفرض الجهاد و نشره. إلى ابننا الذى نمنحه الحبّ و الرضى، و نسأل اللّه أن يهبه الخلال التى تستحسن و الشّيم التى ترتضى، الولد الأنجب، الأرضى، الأنجد، الأرشد، الأسعد، محمد، و إلى اللّه تعالى إسعاده، و تولى بالتوفيق و الإرشاد سداده،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۶

و أطلع عليه من أنباء الفتوح المبشّرة بالنصر الممنوح ما يكمل من بغيته فى نصر دين الإسلام و يسنى مراده.

أما بعد حمد اللّه، الذى جعل الجهاد فى سبيله أفضل الأعمال، الذى يقربه إلى رضاه، و ندب إليه بما وعد من الثواب عليه، فقال: يا أيها النبى، حرّض المؤمنين على القتال، تنبيها على محل الثقة، بأن الفئة القليلة من أوليائه، تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه، و تدارك دين الإسلام بإنجاز وعده فى قوله، و لينصرنّ اللّه من ينصره، على رغم أنف من ظن أنه خاذله، تعالى اللّه عن خذلان جنده. و الصلاة و السلام على نبيّه و رسوله و مجتباه، لهداية الخلق لسلوك سبيل الحق، و العمل بمقتضاه. قال تعالى فيما أنزل: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ تحريضا على أن يمحو ظلام ضلالهم بنور هداه صلى اللّه عليه و سلم، و على آله الأبرار، و أصحابه الأشداء على الكفار، الذين جرّدوا فى نصرة دينه صوارم العزم و أمضوا ظباه، و فتحوا ما زوّى له من مشارق الأرض و مغاربها حتى عمّ الإسلام حدّ المعمور و منتهاه. فإنّا كتبنا لكم، كتب اللّه لكم من سماع البشائر ما يعود بتحويل الأحوال، و أطلع عليكم من أنباء الفتوح ما يلوح بآفاق الآمال، مبشرا باليمن و الإقبال. من قيجاطة، و بركات ثقتنا باللّه وحده، تظهر لنا عجائب مكنونات ألطافه، و تجنينا ثمار النصر فى إبّان قطافه، و تسخّر لنا ورد مشرع الفتح فترد عذب نطافه، و الحمد للّه الذى هدانا لأن نتقلّد نجادها، و نمتطى جوادها، و نستورى زنادها، و نستفتح بها مغالق المآرب، و لطائف المطالب، حتى دخلت الملّة الحنيفية فى هذه الجزيرة الأندلسية أغوارها و أنجادها. و قد تقرّر عند الخاص و العام، من أهل الإسلام، و اشتهر فى جميع الأقطار اشتهار الصبح فى سواد الظلام، أنّا لم نزل نبذل جهدنا فى أن تكون كلمة اللّه هى العليا، و نسمح فى ذلك بالنفوس و الأموال رجاء ثواب اللّه لا لغرض دنيا. و أنّا ما قصّرنا فى الاستنصار و الاستنفار ، و لا قصرنا عن الاعتضاد لكلّ من أمّلنا معونته و الاستظهار، و لا اكتفينا بمطوّلات الرسائل و بنات الأفكار، حتى اقتحمنا بنفوسنا لجج البحار، و سمحنا بالطّارف من أموالنا و التّلاد، و أعطينا رجاء نصرة الإسلام موفور الأموال و البلاد، و اشترينا بما أنعم اللّه به علينا ما فرض اللّه على كافة أهل الإسلام من الجهاد، فلم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۷

يكن بين تلبية المدعوّ و زهده، و بين قبوله و ردّه، إلّا كما يحسو الطائر ماء الثّماد و يأبى اللّه أن يكل نصر هذه الجزيرة إلى سواه، و أن يجعل فيها سببا إلّا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته و نجواه. و لمّا أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغربية إلى مثاويه ، و بقى المسلمون يتوقّعون حادثا ساءت ظنونهم لمباديه، ألقينا إلى الثقة باللّه تعالى وحده يد الاستسلام، و شمّرنا عن ساعد الجدّ و الاجتهاد فى جهاد عبدة الأصنام، و أخذنا بمقتضى قوله تعالى: وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أخذ الاعتزام، فأمدّنا اللّه تعالى بتوالى البشائر، و نصرنا بألطاف أغنى فيها خلوص الضمائر عن قوّاد العساكر، و نفلنا على أيدى قوّادنا و رجالنا من السّبايا و الغنائم ما عدّ ذكره فى الآفاق

كالمثل السائر وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها ، و كيف يحصيها المحصى أو يحصرها الحاصر. و حين أبدت لنا العناية الربّانيّة وجوه الفتوح سافرة المحيّا، و انتشقنا نسيم النّصر الممنوح عبق الرّيّا، استخرنا اللّه تعالى فى الغزو بأنفسنا و نعم المستخار، و كتبنا إلى من قرب من عمّالنا بالحضّ على الجهاد و الاستنفار. و حين وافى من خفّ للجهاد من الأجناد و المطوّعين، و غدوا بحكم رغبتهم فى الثواب على طاعة اللّه مجتمعين، خرجنا بهم و نصر اللّه تعالى أهدى دليل، و عناية اللّه بهذه الفئة المفردة من المسلمين، تقضى بتقريب البعيد من آمالنا، و تكثير القليل. و نحن نسأل اللّه تعالى أن يحملنا على جادّة الرّضا و القبول، و أن يرشدنا إلى طريق يفضى إلى بلوغ الأمنية و المأمول ، إلى أن حللنا عشيّة يوم الأحد ثانى يوم خروجنا بمقربة حصن اللّقوة فأدرنا به التّدبير، و استشرنا من أوليائنا من تحققنا نصحه فيما يشير، فاقتضى الرأى المقترن بالرّشاد، المؤذن بالإسعاد، قصد قيجاطة لما رجى من تيسير فتحها، و أملا فى إضاءة فجر الأمانى لديها، و بيان صبحها، فسرنا نحوها فى جيش يجرّ على المجرّة ذيل النقع المثار، و يضيق عن كثرته واسع الأقطار، و يقرّ عين الإسلام بما اشتمل عليه من الحماة و الأنصار، تطير بهم نيّاتهم بأجنحة العزم إلى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۸

قبض أرواح الكفار. فلمّا وصلنا إلى وادى على مقربة منها نزلنا به نريح الجياد، و نكمل التأهّب للقتال و الاستعداد، و بات المسلمون ليلتهم يسألون اللّه تعالى بأن يمنحهم الإعانة بتأييده و الإمداد. و حين فجر الفجر و أنار النهار، و قدحت به الأصباح زند الأنوار، ركبنا إليها و العساكر قد انتظمت عقودها، و السيوف قد كادت تلفظها غمودها، و بصائر الأولياء المجاهدين قد لاح من نصر اللّه تعالى معهودها. فلمّا وصلناها وجدنا ناسنا قد سبقوا إليها بالبوس، و هتكوا ستر عصمتها المحروس، و أذن لها بزوال النعم و ذهاب النفوس، فعاجلها الأولياء بالقتال، و أهدوا إليها حمر المنايا من زرق النّصال، و رشقوا جنودها بالنّبال، و جدّوا بنات الآجال، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به لاذوا بالفرار من الأسوار، و ولّوا الأدبار، و ودّعوا الديار و ما فيها من الآثار. و تسنّم المسلمون ذروة البلد الأول فملكوه، و خرقوا حجاب السّتر المسدول عليه و هتكوه، و تسرعوا إلى البلد الثانى و قد ملأ النصارى أسواره من حماة رجالهم، و انتقوهم من متخيّرى أبطالهم، ممن وثقوا بإقدامه فى حماية ضلالهم، فحمل عليهم المسلمون حملة عرّفوهم بها كيف يكون اللّقاء، و صرفوهم إلى ما تنصرف إليه أرواحهم من الشّقاء، و أظهروا لهم من صدق العزائم ما علموا به أن لدين الإسلام أنصارا لا يرغبون بأنفسهم عن الذّبّ عنه و حماية راياته، و لا يصدرون إلا إلى طاعة اللّه ابتغاء مرضاته. و بادر جماعة إلى إضرام باب المدينة بالنيران، و عقدوا تحت سماء العجاج منها سماء الدّخان، و رموا النصارى من النّبال بشهب تتبع منهم كل شيطان. فهزم اللّه النصارى، و ولوا أدبارهم، و قذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فأخلوا بروجهم و أسوارهم، و تسنّمها المسلمون معلنين شعار الإسلام، رافعين من الرايات الحمر كواكب فى سماء السّعادة تبشّر بتيسير كل مرام. و دخلوا المدينة فألفوا بها من القوت و العتاد، و المتاع الفاخر الذى يربو على التّعداد، ما ملأ كلّ يمين و شمال، و ظهروا عليها بعد بلوغ الأمانى على الكمال، و قتلوا بها من الحماة أعداء أبدوا فى حماية ضلالهم ماضى الفنا و الاعتزام، و أعملوا فيهم ماضى العوامل و شبا الإضرام. و ارتفع النصارى إلى القصبة لائذين بامتناعها، معتصمين بعلوّها و ارتفاعها، متخيّلين لضلالهم، و عدم استبصارهم أن نور الهدى لا يحلّ بديارهم. فرأينا أن نرقى الرجال إلى أبراج البلد و أسواره، و أمرناهم أن يبيتوا طول ليلتهم مضيّقين على من اعتصم بالقصبة فى حصاره، و عمدنا بالعسكر المظفر إلى موضع استيطانه من المحلة المنصورة و استقراره. فلمّا بدا ضوء الصباح بنور الإشراق، و لاح وجه الغزالة طارحا شعاعه على الآفاق، أمرنا بترتيب العساكر على القصبة للحصار، و عيّنّا لكل جماعة منهم جهة يبادرون إلى منازلتها بالقتال أشدّ البدار، فانتهى المسلمون من ذلك إلى غاية لم تخطر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۲۹

للكافرين ببال، و جرّعوهم كؤوس المنايا، و أداروا بها بنات الحنايا، فأفضت السّجال و أظهر الكفار، مع وقوعهم فى بحر الموت صبرا و طمعوا أن يقيموا بذلك لصلبانهم عذرا. فلما رأوا من عزمنا ما لم تتخيله ظنونهم و أوهامهم، و صابرهم المسلمون عند النزال مصابرة عظم فيها إقدامهم و ثبتت أقدامهم، ألقوا بأيديهم إلى التّهلكة إلقاء من هاله لمعان الأسنّة و اهتزاز رديني القنا، و لاذوا بطلب الأمان

لياذ الغريق بالساحل بعد ما أشرف على الفنا، و هبط زعيمهم مقتحما خطر تلك المسالك، متضرّعا تضرع من طمع فى الحياة بعد ما أخذته أيدى المهالك، و شرط أن يملّكنا القصبة، و يبقى خديما لنا بما بيده من البلاد الكثيرة و الكتيبة المنتخبة، فلم نظهر له عند ذلك قبولا، و لم نجعل له إلى تكميل ما رغب فيه سبيلا، فقاده البأس الشديد إلى الإذعان، و رغب أن يكمل ما نريده على شرط الأمان. فأسعفنا رغبته على شروط، بعد عهد المسلمين بمثلها، و هيّئت الأسباب بما نعتمده من الثقة بالله وحده فى أمورنا كلها، و ذلك على كذا و كذا. و حين كملت الشروط حقّ التكميل، و ظهرت لنا منه أمارات الوفاء الجميل، دخلنا القصبة حماها اللّه، و قد أغنى يوم النصر عن شهر السلاح، كما أغنى ضوء الصبح عن نور المصباح، و رفعت على أبراجها حمر الأعلام، ناطقة عن الإسلام، بالتعريف و الإعلام. و فى الحين وجهنا من يقبض تلك الحصون، و يزيل ما بها من جرم الكفر المأفون، أمناء رجالنا.

فالحمد للّه على هذه النعمة التى أحدثت للقلوب استبشارا، و خفضت علم التثليث و رفعت للتوحيد منارا، و أظهرت للملّة الحنيفية على أعدائها اعتلاء و استكبارا. و هذا القدر من الفتح و إن كان سامى الفخر، باقى الذكر بقاء الدهر، فإننا لنرجو من فضل اللّه أن يتبعه بما هو أعلى منه متانة، و أعظم فى قلوب أهل الإيمان موقعا و أعز مكانة، و أن يرغم بما يظهر على أيدينا من عز الإسلام، أنف من أظهر له عنادا و خذلانا. فاستبشروا بهذا الفتح العظيم و بشّروا، و اشكروا اللّه عليه، فواجب أن تشكروا. و قد كتبنا هذا، و نحن على عزمنا فى غزو بلاد الكفار، و السعى الحميد إلى التنكيل بهم و الإضرار، و المسلمون أعزهم اللّه فى أرضهم يشنون المغار، و يمتلكون الأنجاد منها و الأغوار، و يكثرون القتل و الأسار، و يحكّمون أينما نزلوا السّيف و النار، و السلام.

و من نثر آخر إجازة ما صورته :

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۰

و ها أنا أجرى منه على حسن معتقده، و أكله فى هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودّده، و أجيز له و لولديه، أقرّ اللّه بهما عينه، و جمع بينهما و بينه، رواية جميع ما نقلته و حملته ، و حسن اطلاعه يفصّل من ذلك ما أجملته، فقد أطلقت لهم الإذن فى جميعه، و أبحت لهم الحمل عنى و لهم الاختيار فى تنويعه. و اللّه سبحانه و تعالى يخلّص أعمالنا لذاته، و يجعلها فى ابتغاء مرضاته. قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامدا للّه عزّ و جلّ، و مصلّيا و مسلما.

وفاته: قتل، رحمه اللّه، صبيحة عيد الفطر من عام ثمانية و سبعمائة ، و ذلك لتاريخ خلع سلطانه. و استولت يد الغوغاء على منازله، شغلهم بها مدبّر الفتنة خيفة من أن يعاجلوه قبل تمام أمره، فضاع بها مال لا يكتب، و عروض لا يعلم لها قيمة من الكتب، و الذّخيرة و الفرش و الآنية و السلاح و المتاع و الخرثىّ، و أخفرت ذمّته ، و تعدّى به عدوة القتل إلى المثلة ، وقانا اللّه مصارع السوء، فطيف بشلوه، و انتهب فضاع و لم يقبر، و جرت فيه شناعة كبيرة، رحمه اللّه تعالى.

مولده: برندة ظهر يوم الاثنين الحادى و العشرين من ربيع الأول المبارك، من عام ستين و ستمائة. و ممّن رثاه شيخنا أبو بكر بن شبرين رحمه اللّه تعالى بقوله :

[الطويل]

سقى اللّه أشلاء كرمن على البلىو ما غضّ من مقدارها حادث البلا

و ممّا شجانى أن أهين مكانهاو أهمل قدر ما عهدناه مهملا

ألا اصنع بها يا دهر ما أنت صانعفما كنت إلّا عبدها المتذلّلا

سفكت و ما كان الرّقوء نوالهلقد جئتها شنعاء فاضحة الملا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۱ بكفّى سبنتى أزرق العين مطرق عدا فغدا فى غيّه متوغّلا

لنعم قتيل القوم فى يوم عيدهقتيل تبكّيه المكارم و العلا

ألا إنّ يوم ابن الحكيم لمثكلفؤادى، فما ينفكّ ما عشت مثكلا

فقدناه فى يوم أغرّ محجّل‌ففى الحشر نلقاه أغرّ محجّلا

سمت نحوه الأيام و هو عميدهافلم تشكر النّعمى و لم تحفظ الولا

تعاورت الأسياف منه ممدّحاكريما سما فوق السّماكين منزلا

و خانته رجل فى الطّواف به سعت‌فناء بصدر للعلوم تحمّلا

و جدّل لم يحضره فى الحىّ ناصرفمن مبلغ الأحياء أنّ مهلهلا

يد اللّه فى ذاك الأديم ممزّقا تبارك ما هبّت جنوبا و شمألا

و من حزنى أن لست أعرف ملحداله فأرى للتّرب منه مقبلا الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۳۳۱

رويدك يا من قد غدا شامتا بهفبالأمس ما كان العماد المؤمّلا

و كنّا نغادى أو نراوح بابهو قد ظلّ فى أوج العلا متوقّلا

ذكرناه يوما فاستهلّت جفونانبدمع إذا ما أمحل العام أخضلا

و مازج منه الحزن طول اعتبارناو لم ندر ما ذا منهما كان أطولا

و هاج لنا شجوا تذكّر مجلس‌له كان يهدى الحىّ و الملأ الألى

به كانت الدنيا تؤخّر مدبرامن الناس حتما أو تقدّم مقبلا

لتبك عيون الباكيات على فتى‌كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلا

على خادم الآثار تتلى صحائحاعلى حامل القرآن يتلى مفصّلا

على عضد الملك الذى قد تضوّعت‌مكارمه فى الأرض مسكا و مندلا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۲ على قاسم الأموال فينا على الذى‌وضعنا لديه كلّ إصر على علا

و أنّى لنا من بعده متعلّل‌و ما كان فى حاجاتنا متعلّلا

ألا يا قصير العمر يا كامل العلايمينا لقد غادرت حزنا مؤثّلا

يسوء المصلّى أن هلكت و لم تقم‌عليك صلاة فيه يشهدها الملا

و ذاك لأنّ الأمر فيه شهادةو سنّتها محفوظة لن تبدّلا

فيا أيها الميت الكريم الذى قضى‌سعيدا حميدا فاضلا و مفضّلا

لتهنك من ربّ السماء شهادةتلاقى ببشرى وجهك المتهلّلا

رثيتك عن حبّ ثوى فى جوانحى‌فما ودّع القلب العميد و ما قلا

و يا ربّ من أوليته منك نعمةو كنت له ذخرا عتيدا و موئلا

تناساك حتى ما تمرّ بباله‌و لم يذّكر ذاك النّدى و التّفضّلا

يرابض فى مثواك كلّ عشيّةصفيف شواء أو قديدا معجّلا

لحى اللّه من ينسى الأذمّة رافضاو يذهل مهما أصبح الأمر مشكلا

حنانيك يا بدر الهدى فلشدّ ماتركت بدور الأفق بعدك أفّلا

و كنت لآمالى حياة هنيئةفغادرت منى اليوم قلبا مقتّلا

فلا و أبيك الخير ما أنا بالذى‌على البعد ينسى من ذمامك ما خلا

فأنت الذى آويتنى متغرّباو أنت الذى أكرمتنى متطفّلا

فإن لم أنل منك الذى كنت آملافما كنت إلّا المحسن المتفضّلا

فآليت لا ينفكّ قلبى مكمداعليك و لا ينفكّ دمعى مسبلا

محمد بن عبد الرحمن العقيلى الجراوى

من أهل وادى آش، و سكن غرناطة.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۳

حاله: فقيه أديب متطبّب، متفنن فى علوم جمة، شاعر مطبوع، يكنّى أبا بكر.

مدح الأمير على بن يوسف اللمتونى بقوله: [مجزوء الكامل]

رحلوا الركائب موهنافأذاع عرفهم السّنا

و الحلى قد أغرى بهملمّا ترنّم معلنا

كم حفّ حول حماهممن كلّ خطّار القنا

قال أبو جعفر بن الزبير، ينفك منها قصائد: [الكامل]

رحلوا الركاب موهّنا ليكتمواظعن الحمول و هل توارى الأنجم؟

فأذاع سرّهم السّنا و رمى بهمفلّ الذميل شذاهم المتنسّم

كم حفّ حمل قبابهم و ركابهممن ليث غاب فى براثنه الدم

من كل خطّار القناة مموّهبين الرحيل نصبه يستسلم

و هى طويلة، خاطب بها أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين. و قال فى وصف القصيدة: [الطويل]

أيا ملكا يسمو بسعد مساعدو قدر على علو الكواكب صاعد

نظمت قصيدا فى علاك مضمّناثلاث قواف فى ثلاث قصائد

إذا فصلت أغنى عن البعض بعضهاو إن وصلت كانت ككعب و ساعد

فأجازه بظهير كريم بتحرير ماله و تنويهه.

محمد بن عبد الرحمن المتأهل

من أهل وادى آش، يعرف بعمامتى.

حاله: من التاج: ناظم أبيات، و موضح غرر و شيات، و صاحب توقيعات رفيعات، و إشارات ذوات شارات. و كان شاعرا مكثارا، و جوادا لا يخاف عثارا.

أدخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه، بعد انتشار سلكه، و خروج الحضرة عن ملكه، و استقراره بوادى آش، مروع البال، معلّلا بالآمال، و قد بلغه دخول طبرنش فى طاعته، فأنشده من ساعته: [مجزوء الكامل]

خذها إليك طبرنشاشفّع بها وادى الأشا

و الأمّ تتبع بنتهاو اللّه يفعل ما يشا

و من نوادره العذبة يطلب خطة الحسبة: [الطويل]

أنلنى يا خير البريّة خطّةترفّعنى قدرا و تكسبنى عزّا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۴ فأعتزّ فى أهلى كما اعتزّ بيدقعلى سفرة الشطرنج لما انثنى فرزا

فوقع الأمر بظهر رقعته ما ثبت فى حرف النون عند ذكره، و الاحتجاج بفضله.

وفاته: كان حيّا بعد سنة سبع عشرة و سبعمائة. وفد على الحضرة مرات كثيرة.

محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسى

اشارة

من أهل وادى آش، يكنى أبا بكر.

حاله: كان عالما، صدرا، حكيما، فيلسوفا، عارفا بالمقالات و الآراء، كلفا بالحكمة المشرقية، محققا، متصوفا، طبيبا ماهرا، فقيها، بارع الأدب، ناظما، ناثرا، مشاركا فى جملة من الفنون.

مشيخته: روى عن أبى محمد الرّشاطى، و عبد الحق بن عطية و غيرهما.

حظوته و دخوله غرناطة:

اختصّ بالريس أبى جعفر، و أبى الحسن بن ملحان. قال ابن الأبار فى تحفته : و كتب لوالى غرناطة وقتا.

تواليفه: رسالة حيّ بن يقظان، و الأرجوزة الطبيّة المجهولة، و غير ذلك.

شعره: قال: و هو القائل من قصيدة فى فتح قفصة سنة ست و سبعين ، و أنفذت إلى البلاد : [الطويل]

و لمّا انقضى الفتح الذى كان يرتجىو أصبح حزب اللّه أغلب غالب

و أنجزنا وعد من اللّه صادقكفيل بإبطال الظنون الكواذب

و ساعدنا التّوفيق حتى بيّنتمقاصدنا مشروحة بالعواقب

و أذعن من عليا هلال بن عامرأبيّ و لبّى الأمر كلّ مجانب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۵ وهبّوا إذا هبّ النسيم كما سرىو لم يتركوا بالشّرق علقة آئب

يغصّ بهم عرض الفلا و هو واسع و قد زاحموا الآفاق من كل جانب

كأنّ بسيط الأرض حلقة خاتمبهم و خضمّ البحر بعض المذانب

و مدّ على حكم الصغار لسلمنايديه عظيم الروم فى حال راغب

يصرّح بالرؤيا و بين ضلوعهنفس مذعور و نفرة راهب

وعى من لسان الحال أفصح خطبةو ما و ضحت عنه فصاح القواضب

و أبصر متن الأرض كفّة حاملعليه و إصراه فى كفّ حالب

أشرنا بأعناق الجياد إليكمو عجبا عليكم من صدور الرّكائب

إلى بقعة قد بيّن اللّه فضلهابمن حلّ فيها من وليّ و صاحب

على الصّفوة الأدنين منّا تحيةتوافيهم بين الصّبا و الجنائب

و له أيضا : [الطويل]

ألمّت و قد نام الرقيب و هوّماو أسرت إلى وادى العقيق من الحمى

و راحت إلى نجد فرحت منجّداو مرّت بنعمان فأضحى منعّما

و جرّت على ترب المحصّب ذيلهافما زال ذاك التّرب نهبا مقسّما

تناقله أيدى التّجار لطيمةو يحمله الدارىّ أيّان يمّما

و لمّا رأت أن لا ظلام يجنّهاو أنّ سراها فيه لن يتكتما

سرت عذبات الرّيط عن حرّ وجههافأبدت شعاعا يرفع اليوم مظلما

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۶ فكانّ تجلّيها حجاب جمالهاكشمس الضّحى يعشى بها الطّرف كلّما

و لمّا رأت زهر الكواكب أنهاهى التير الأسمى و إن كان باسما

بكت أسفا أن لم تفز بجوارهاو أسعدها صوب الغمام فأسجما

فجلّت يمجّ القطر ريّان بردهافتنفضه كالدّر فذّا و توأما

يضمّ علينا الماء فضل زكاتهاكما بلّ سقط الطّلّ نورا مكمّما

و يفتق نضح الغيث طيب عرفهانسيم الصّبا بين العرار منسّما

جلت عن ثناياها و أومض برقها فلم أدر من شقّ الدّجنّة منهما

و ساعدنى جفن الغمام على البكافلم أدر وجدا أيّنا كان أسجما

و نظم سمطى ثغرها و وشاحهافأبصرت درّ الثغر أحلى و أنظما

تقول و قد ألممت أطراف كمّهايدى و قد أنعلت أخمصها الفما

نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبايسهّل صعبا أو يرخّص مأثما

فأقصرت لا مستغنيا عن نوالهاو لكن رأيت الصّبر أوفى و أكرما

و قال : [الوافر]

أتذكر إذ مسحت بفيك عينى و قد حلّ البكا فيها عقوده

ذكرت بأن ريقك ماء وردفقابلت الحرارة بالبروده

و قال: [الوافر]

سألت من المليحة برء دائىبرشف برودها العذب المزاج

فما زالت تقبّل فى جفونىو تبهرنى بأصناف الحجاج

و قالت إنّ طرفك كان أصلالدائك فليقدّم فى العلاج

وفاته: توفى بمراكش سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة، و حضر السلطان جنازته.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۷

محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد اللّه ابن عيّاش التّجيبى البرشانى

اشارة

من أهل حصن برشانة المحسوب فى هذه العمالة، يكنى أبا عبد اللّه، كاتب الخلافة.

حاله: قال القاضى أبو عبد اللّه بن عبد الملك : كان كاتبا بارعا، فصيحا، مشرفا على علوم اللسان، حافظا للّغات و الآداب، جزلا، سرىّ الهمّة، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع ، نفّاعا بجاهه و ماله، كثير الاعتناء بطلبة العلم و السعى الجميل لهم، و إفاضة المعروف على قصّاده، مستعينا على ذلك بما نال من الثروة و الحظوة و الجاه عند الأمراء من بنى عبد المؤمن، إذ كان صاحب القلم الأعلى على عهد المنصور و ابنه، رفيع المنزلة و المكانة لديهم، قاصدا الإعراب فى كلامه، لا يخاطب أحدا فى كلامه من الناس، على تفاريق أحوالهم، إلّا بكلام معرب، و ربما استعمله فى مخاطبة خدمته و أمته، من حوشىّ الألفاظ، ما لا يكاد يستعمله ، و لا يفهمه إلّا حفّاظ

اللغة من أهل العلم، عادة ألفها و استمرّت حاله عليها.

مشيخته: روى عن أبى عبد اللّه بن حميد، و ابن أبى القاسم السّهيلى، و ابن حبيش، و روى عنه بنوه أبو جعفر، و أبو القاسم عبد الرحمن، و أبو جعفر بن عثمان، و أبو القاسم البلوى.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۸

تواليفه: له اختصار حسن فى إصلاح المنطق، و رسائل مشهورة، تناقلها الناس، و شعر يحسن فى بعضه.

جاهه: حدّث الشيخ أبو القاسم البلوى، قال : كنت أخفّ إليه ، و أشفع عنده فى كبار المسائل، فيسرع فى قضائها. و لقد عرضت لبعض أصحابى من أهل بلاد الأندلس حاجة مهمّة كبيرة، وجب علىّ السعى فيها، و التماس قضائها وفاء لربّها، و لم يكن لها إلّا ما قدرته من حسن نظره فيها، و رجوته من جميل أثره فى تيسير أمرها، و كان قد أصابه حينئذ التياث لزم من أجله داره، و دخلت عليه عائدا، فأطال السؤال عن حالى، و تبسّط معى فى الكلام، مبالغة فى تأنيسى، فأجّلت ذكر الحاجة ، و رغبت منه فى الشّفاعة عند السلطان فى شأنها، و كان مضطجعا، فاستوى جالسا، و قال لى: جهل الناس قدرى، و كرّرها ثلاثا، فى مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين؟ هات الدّواة و القرطاس، فناولته إياهما، فكتب برغبتى، و رفعه إلى السلطان، فصرف فى الحين معلّما، فاستدعانى، و دفعه إلىّ، و قال: يا أبا القاسم، لا أرضى منك أن تحجم عنى فى التماس قضاء حاجة تعرّضت لك خاصة، و إن كانت لأحد من معارفك عامة، كبرت أو صغرت، فألتزم قضاءها، و علىّ الوفاء، فإن لكل مكسب زكاة، و زكاة الجاه بذله.

و حدّثنى شيخى أبو الحسن بن الجيّاب، عمن حدّثه من أشياخه، قال: عرض أبو عبد اللّه بن عيّاش و الكاتب ابن القالمى على المنصور كتابين، و هو فى بعض الغزوات، فى كلب البرد، و بين يديه كانون جمر. و كان ابن عياش بارع الخطّ، و ابن القالمى ركيكه، و يفضله فى البلاغة، أو بالعكس الشكّ منى. و قال المنصور: أى كتب لو كان بهذا الخط؟ و أى خطّ لو كان بهذا الكتب؟ فرضى ابن القالمى، و سخط ابن عياش. فانتزع الكتاب من يد المنصور، و طرحه فى النار و انصرف. قال: فتغيّر وجه المنصور، و ابتدر أحد الأشياخ، فقال: يا أمير المؤمنين، طعنتم له فى الوسيلة التى عرّفته ببابكم، فعظمت غيرته لمعرفته بقدر السبب الموصل إليكم. فسرّى عن المنصور، و قال لأحد خدّامه: اذهب إلى السّبى، فاختر أجمل نساء الأبكار؛ و أت بابن عياش؛ فقل له: هذه تطفىء من خلقك. قال ابن عياش يخاطب ولده، و قد حدّث الحديث: هى أمّك، يا محمد، أو فلان.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۳۹

بعض أخباره مع المنصور و محاورته الدّالة على جلالة قدره:

قال ابن خميس: حدّثنى خالى أبو عبد اللّه بن عسكر أن الكاتب أبا عبد اللّه بن عيّاش، كتب يوما كتابا ليهودى، فكتب فيه، و يحمل على البرّ و الكرامة. فقال له المنصور: من أين لك أن تقول فى كافر، و يحمل على البرّ و الكرامة؟ فقال: ففكّرت ساعة، و قد علمت أن الاعتراض يلزمنى، فقلت: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: إذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه، و هذا عام فى الكافر، و غيره. فقال: نعم هذه الكرامة، فالمبرة أين أخذتها؟ قال: فسكتّ و لم أجد جوابا. قال: فقرأ المنصور: «أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم» لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . قال: فشهدت بذلك، و شكرته.

شعره: من شعره : [الطويل]

بلنسية، بينى عن العليا سلوةفإنك روض لا أحنّ لزهرك

و كيف يحبّ المرء دارا تقسّمتعلى صارمى جوع و فتنة مشرك؟

و ذكره الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس فى «زاد المسافر» عند اسم ابن عيّاش، قال: اجتمعنا فى ليلة بمرّاكش، فقال أبو عبد اللّه بن

عيّاش: [البسيط]

و ليلة من ليالى الصّفح قد جمعتإخوان صدق و وصل للدهر مختلس

كانوا على سنّة الأيام قد بعدوافألّفت بينهم لو ساعد الغلس

و قال من قصيدة: [الكامل]

أشفارها أم صارم الحجّاج؟و جفونها أم فتنة الحلّاج؟

فإذا نظرت لأرضها و سمائهالم تلف غير أسنّة و زجاج

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۰

و قال فى المصحف الإمام، المنسوب إلى عثمان بن عفان، لما أمر المنصور بتحليته بنفيس الدّرّ من قصيدة :

و نفّلته من كلّ ملك ذخيرةكأنهم كانوا برسم مكاسبه

فإن ورث الأملاك شرقا و مغربافكم قد أخلّوا جاهلين بواجبه

و ألبسته الياقوت و الدرّ حليةو غيرك قد روّاه من دم صاحبه

كتابته: قال ابن سعيد فى المرقصات و المطربات : أبو عبد اللّه بن عيّاش، كاتب الناصر و غيره، من بنى عبد المؤمن، و واسطة عقد ترسيله، قوله فى رسالة كتبها فى نزول الناصر على المهدية بحرا و برا، و استرجاعها من أيدى الملثّمين:

و لما حللنا عرى السّفر، بأن حللنا حمى المهديّة، تفاءلنا بأن تكون لمن حلّ بساحتها هديّة، فأحدقنا بها إحداق الهدب بالعين، و أطرنا لمختلس وصالها غربان البين، فبانت بليلة باستيّة، و صابح يوما صافحته فيه يد المنية. و لما اجتلينا منها عروسا قد مدّ بين يديها بساط الماء، و توجهت بالهلال و قرّطته بالثّريا و وشّحت بنجوم السّماء، و السّحب تسحب عليها أردانها فترتديها تارة متلثّمة، و طورا سافرة، و كأنما شرفاتها المشرفة أنامل مخضبة بالدّياجى، مختتمة بالكواكب الزّاهرة، تضحى عن شنب لا تزال تقبّله أفواه المجانيق، و تمسى باسمة عن لعس لا تبرح ترشفه شفاه سهام الحريق، خطبناها فأرادت التّنبيه على قدرها، و التوفير فى إعلاء مهرها، و من خطب الحسناء لم يغله المهر فتمنّعت تمنّع المقصورات فى الخيام، و أطالت إعمال العامل فى خدمتها و تجريد الحسام، إلى أن تحقّقت عظم موقعها فى النفوس، و رأت كثرة ما ألقى لها من نثار الرءوس، جنحت إلى الإحصان بعد النّشوز، و رأت اللّجاج فى الامتناع من قبول الإحسان لا يجوز، فأمكنت زمامها من يد خاطبها، بعد مطاولة خطبها و خطابها، و أمتعته على رغم رقيها بعناقها و رشف رضابها، فبانت معرّسا حيث لا حجال إلّا من البنود، و لا خلوق إلّا من دماء أبطال الجنود، فأصبح و قد تلألأت بهذه البشائر وجوه الأفكار؛ و طارت بمسارها سوائح البرارى و سوانح البحار. فالحمد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۱

للّه الذى أقرّ الحقّ فى نصابه، و استرجعه من أيدى غصّابه، حمدا يجمع شمل النّعم، و يلقحها كما تلقح الرياح الدّيم، فشنّفوا الأسماع بهذه البشائر، و املئوا الصّدور بما يرويه لكم من أحاديثها كل وارد و صادر، فهو الفتح الذى تفتّحت له أبواب السماء، و عمّ الخير و اليمن به بسيطى الشّرق و الماء؛ فشكر اللّه عليه، فرض، فى كل قطر من أقطار الأرض.

دخل غرناطة، مرتادا، و متعلما، و مجتازا.

مولده: ببرشانة بلده، عام خمسين و خمسمائة.

وفاته: توفى بمراكش فى شهر رجب الفرد من عام ثمانية عشرة و ستمائة، رحمه اللّه.

محمد بن على بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهمدانى

من أهل وادى آش، يكنى أبا القاسم و يعرف بابن البرّاق .

حاله: قال ابن عبد الملك : كان محدّثا حافظا، راوية مكثرا، ثقة ضابطا ، شهر بحفظ كتب كثيرة من الحديث و غيره، ذا نظر صالح فى الطّبّ ، أديبا بارعا، كاتبا بليغا، مكثرا لجيّده ، سريع البديهة فى النظم و النثر، و الأدب أغلب عليه. قال أبو القاسم ابن المواعينى: ما رأيت فى عباد اللّه أسرع ارتجالا منه.

مشيخته: روى عن أبى بحر يوسف بن أحمد بن أبى عيشون، و أبى بكر بن زرقون، و ابن قيد ، و ابن إبراهيم بن المل، و ابن النّعمة و صحبه ، و لقيه بمرّاكش، و وليد بن موفق، و أبى عبد اللّه بن يوسف بن سعادة، و لازمه أزيد من ست سنين و أكثر عنه، و ابن العمرسى، و أبى العباس بن إدريس، و الخرّوبى، و تلا عليه بالسّبع،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۲

و أكثر عنه، و عرض عليه من حفظه كثيرا، و ابن مضاء، و أبى على بن عرب ، و أبى القاسم بن حبيش، و ابن عبد الجبار، و أبى محمد بن سهل الضرير، و عاشر و قاسم بن دحمان، و أبى يوسف بن طلحة. و أجاز له أبو بكر بن العربى، و ابن خير، و ابن مندلة ، و ابن تمارة ، و أبو الحسن شريح، و ابن هذيل، و يونس بن مغيث، و أبو الجليل مفرج بن سلمة، و أبو عبد اللّه حفيد مكى، و أبو عبد الرحمن بن مساعد، و أبو عامر محمد بن أحمد السالمى، و أبو القاسم ابن بشكوال، و أبو محمد بن عبيد اللّه، و أبو مروان البيّاضى، و ابن قزمان، و أبو الوليد بن حجاج.

من روى عنه: روى عنه ابنه أبو القاسم، و أبو الحسن بن محمد بن بقى الغسّانى، و أبو عبد اللّه محمد بن يحيى السّكرى، و أبو العباس النّباتى، و أبو عمرو بن عيّاد، و هو أسنّ منه، و أبو الكرم جودى.

تواليفه: صنّف فى الأدب مصنّفات منها «بهجة الأفكار، و فرجة التّذكار، فى مختار الأشعار»، و «مباشرة ليلة السّفح» ، و مقالة فى الإخوان، خرّجها من شواهد الحكم، و مصنّف فى أخبار معاوية، و «الدّر المنظم فى الاختيار المعظّم»، و «مجموع فى الألغاز» ، و «روضة الحدائق، فى تأليف الكلام الرائق»، مجموع نظمه و نثره، و ملقى السبل فى فضل رمضان، و قصيدته فى ذكر النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و خطرات الواجد فى رثاء الواحد، و رجوع الإنذار بهجوم العذار، إلى غير ذلك.

محنته: غرّبه الأمير ابن سعد من وطنه، و ألزمه سكنى مرسية، ثم بلنسية.

و لما مات ابن سعد آخر يوم من رجب سبع و ستين و خمسمائة، عاد إلى وطنه و استقرّ به يفيده الدّية، إلى آخر عمره.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۳

شعره: و شعره كثير. فمن ذلك القصيدة الشهيرة فى مدح رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و ذكر صحابته : [الكامل]

بالهضب هضب زرود أو تلعاتهاشاقتك هاتفة على نغماتها

مصدورة تفتنّ فى ترجيعها فيبين نفث السّحر فى نفثاتها

إن راقها رأد الضحى أو راعهاجنح الدّجى سيّان فى ذكراتها

هذا يمتّعها و ذاك يشوقهاو الموت فى يقظاتها و سناتها

و لو التّعلل بالكرى ينتابهانضحت فزور الطّيف برح شكاتها

لكنّ بين جفونها و منامها حربا تثير النهب فى كرّاتها

و لئن نطقت لها به فتقوّلمن للرّياح بملتقى هبّاتها؟

مطلولة الفرعين تلحفها الرّبى كنفا و تلثمها لمى زهراتها

و يسيغها ماء النّخيلة جرعةلغياضها من مجتنى نخلاتها

منها:

يا من تبلّج نوره عن صادع‌بالواضحات الغرّ من آياتها

يا شارعا فى أمّة جعلت بهوسطا نالت مستدام حياتها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۴ فى دار خلد لا يشيب وليدهاحيث الشّباب يرفّ فى جنّاتها

و تسنّم الرّضوان فى أكنافهاو تنسّم الرّيحان من جنباتها

يا مصطفاها يا مرفّع قدرهايا كهفها يا منتهى غاياتها

يا منتقاها من أرومة هاشميا هاشم الصّلبان فى نزاوتها

يا خاضدا للشّرك شوكة حزبهيا يافعا للعرب فى جمراتها

قلت: نقل الشيخ أزيد من ذلك أو ضعفه أو نحوه. إلى أن قال: و هى طويلة، قلت: و ثقيلة الرّوح. و لقد صدق فى قوله.

و من شعره: [السريع]

يا بدر تمّ طالعا فى الحشابرّح بى منك أوان المغيب

حظّك من قلبى تعذيبهو حظّه منك الأسى و الوجيب

فمن يكن يزهى بلبس المنىفإن زهوى بلحاس النّحيب

فى ساعة قصر أنيابهاغيبته لى و حضور الرقيب

لعلّ من باعد ما بينايفرّج الكربة عمّا قريب

و قال: [الكامل]

رشّوا القباب بأدمع مفضوضةذوى للفراق و أكبد تتصرّم

فللنّفس فى تلك الرّبوع حبيبةو القلب فى إثر الوداع مقسّم

هل لى بهاتيك الظّبا إلماعة؟أم هل لذاك السّرب شمل ينظم؟

حقّا فقدت الذّات عند فراقهمفالشّخص يوجد و الحقيقة تعدم

وفاته: توفى ببلده لثلاث بقين من رمضان ست و تسعين و خمسمائة . قال أبو القاسم المواعينى: عثر فى مشيه فسقط، فكان سبب منيّته، و دخل غرناطة فى غير ما وجهة منها، راويا عن أبى القاسم بن الفرس، و مع ذلك فهو من أحوازها و بنيّاتها.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۵

محمد بن على بن محمد بن على بن محمد ابن خاتمة الأنصارى

من أهل ألمريّة، يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: من كتاب الإكليل ما نصّه : ممن ثكلته اليراعة، و فقدته البراعة، تأدّب بأخيه ، و تهذّب، و أراه فى النظم المذهب، و كساه من التفهّم و التعليم البرد المذهّب، فاقتفى و اقتدى، و راح فى الحلبة و اغتدى، حتى نبل و شدا، و لو أمهله الدهر لبلغ المدى. و أما خطّه فقيد الأبصار، و طرفة من طرف الأمصار، و اعتبط يانع الشّبيبة، مخضرّ الكتيبة.

شعره: [البسيط]

كفّوا الملام فلا أصغى إلى العذلعقلى و سمعى عن العذّال فى شغل

يقول فى هذه القصيدة:

هزل المحبّة جدّ و الهوان هوىو الصّبّ يتلف بين الجدّ و الهزل

من مسعدى و فؤادى لا يساعدنىأو من شفيعى و ذلّى ليس يشفع لى

أعلّل النّفس بالآمال أطمعهاحتى وقعت من التّعليل فى علل

لئن كنت تجهل ما فى الحبّ من محنأنا الخبير فغيرى اليوم لا تسل

أنا الذى قد حلبت الحبّ أشطرهفلم يفدنى لا حولى و لا حيل

لا أشرب الرّاح كى أحلو براحتهالكن لأدفع ما بالنّفس من كسل

و لا أجول بطرفى فى الرياض سوىذكرى لأيامنا فى ظلّها الأول

أنا العهد مضى ما كان أعذبهلم يبق لى غير آيات من الخبل

كم فديتك يا قلبى و أنت علىتلك الغوايۀ لم تبرح و لم تزل

فاختر لنفسك إما أن تصاحبنىحلوا و إلّا فدعنى منك و ارتحل

فقد تبعتك حتى سرت من شغفىو لوعتى فى الهوى أعجوبۀ المثل

الإحاطۀ فى أخبار غرناطۀ، ج۲، ص: ۳۴۶

و من شعره : [الرمل]

و مض البرق فثار القلقو مضى النّوم و حلّ الأرق

و ينعانى من غرامى قد شكاو دموعى من ولوعى تنطق

و دليلى فى غليلى زفرتىو عذابى بانتحابى أصدق

و حسودى من وقودى رقّ لى ضمّنا فيها الحمى و الأبرق

و عشيّات تقضّت باللّوىفى محيّا الدهر منها رونق

إذ شبابى و التّصابى جمعاو رياض الأنس غضّ مونق

شتّ يوم البين شملى ليت ماخلق البين لقلب يعشق

آه من يوم قضى لى فرقۀشاب منّى يوم حلّت مفرق

و من ذلك: [الطويل]

أيا جيرۀ الحىّ الممنّع جارهسقى ريقكم دمعى إذا بخل الوبل

متى غبتم عنّى فأنتم بخاطرىو إن تقصدوا ذلّى فقد لذّنى الذّلّ

عذابكم قرب و بخلكم ندىو إذلالكم عزّ و هجرانكم وصل

و أنتم نعيمى لا نعمت بغيركمو روضى لا ماء أريد و لا ظلّ

و من ظريف نزعاته قوله : [البسيط]

الرّفع نعتكم لا خانكم أملو الخفض شيمۀ شأنى و الهوى دول

هل منكم لى عطف بعد بعدكم؟إذ ليس لى منكم يا سادتى بدل

الإحاطۀ فى أخبار غرناطۀ، ج۲، ص: ۳۴۷

وفاته: اعتبط فى الطاعون فى أوائل ربيع الأول عام خمسين و سبعمائۀ. ورد إلى الحضرۀ غير ما مرۀ.

محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الزّهرى

من أهل قرطبۀ، يكنى أبا بكر.

حاله: نسيج وحده أدبا و ظرفا و لوذعيّۀ و شهرۀ. قال ابن عبد الملك: كان أديبا بارعا، محسنا، شاعرا حلو الكلام، مليح التّندير، مبرّزا فى نظم الطريقۀ الهزليۀ، بلسان عوام الأندلس، الملقب بالزّجل. قلت : و هذه الطريقۀ بديعۀ يتحكّم فيها ألقاب البديع، و تنفسخ لكثير

مما يضيق سلوكه على الشاعر. و بلغ فيها أبو بكر مبلغا حجره اللّه عن سواه؛ فهو آيتها المعجزة، و حجّتها البالغة، و فارسها العلم، و المبتدى فيها و المتمّم، رحمه اللّه. و قال الفتح فيه : «مبرّز فى البيان، و محرز السّبق عند تسابق الأعيان، اشتمل عليه المتوكل على اللّه اشتمالا رقّاه إلى مجالس، و كساه ملابس، و اقتطع أسمى الرّتب و تبوّأها، و نال أسنى الخطط و ما تمالأها».

شعره: قال الفتح : و قد أثبت له ما يعلم به رفيع قدره، و يعرف كيف أساء الزمن بغدره، قوله : [الكامل]

ركبوا السيول من الخيول و ركّبوافوق العوالى السّمر زرق نطاف

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۸ و تجلّلوا الغدران من ماذيّهممرتجّة إلّا على الأكتاف

و كتب إليه ذو الوزارتين أبو عبد اللّه بن أبى الخصال يستدعيه إلى مجلس أنس: [البسيط]

إنى أهزّك هزّ الصّارم الخذمو بيننا كلّ ما تدريه من ذمم

ذا شاك من قطع أنس أنت و اصلهبما لديك من الآداب و الحكم

و شتّ شمل كرام أنت ناظمهو ردّ دعوة أهل المجد و الكرم

و لو دعيت إلى أمثالها لسعتإليك سعى مشوق هائم قدم

و إن نشطت لتصريفى صرفت لهوجهى و كنت من الأعوان و الخدم

و ما أريد سوى عفو تجود بهو فى حديثك ما يشفى من الألم

أنت المقدّم فى فخر و فى أدبفاطلع علينا طلوع السيّد العمم

فأجابه رحمه اللّه: [البسيط]

أتى من المجد أمر لا مردّ لهنمشى على الرأس فيه لا على القدم

لبّيك لبّيك أضعافا مضاعفةإنى أجبت و لكنّ داعى الكرم

لى همّة و لأهل العزّ مطمحهالا زلت فى كلّ مجد مطمح الهمم

و إنّ حقّك معروف و ملتزمو كيف يوجد عندى غير ملتزم؟

زفن و رقص و ما أحببت من ملحعندى و أكثر ما تدريه من شيم

حتى يكون كلام الحاضرين بهاعند الصّباح و ما بالعهد من قدم

يا ليلة السّفح هلّا عدت ثانيةسقى زمانك هطّال من الدّيم

و قال فى غرض النّسيب : [السريع]

يا ربّ يوم زارنى فيه منأطلع من غرّته كوكبا

ذو شفة لمياء معسولةينشع من خدّيه ماء الصّبا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۴۹ قلت له هب لى بها قبلةفقال لى مبتسما: مرحبا

فذقت شيئا لم أذق مثلهللّه ما أحلى و ما أعذبا

أسعدنى اللّه بإسعادهيا شقوتى يا شقوتى لو أبى

و قال: [المنسرح]

جئت لتوديعه و قد ذرفتعيناى من حسرة و عيناه

فى موكب البين باكيين و لاأصعب من موقف وقفناه

معانقا جيده على حذرفمن رآنى مقبّلا فاه

نغّص توديعه لعاشقهما كان من قبل قد تمنّاه

و قال يعتذر ارتجالا و أحسن ما أراد : [البسيط]

يا أهل ذا المجلس السّامى سراوته ما ملت لكننى مالت بى الرّاح

و إن أكن مطفئا مصباح بيتكم‌فكلّ من فيكم فى البيت مصباح

و قال يهنّئ بعرس: [الكامل]

صرفت إليك وجوهها الأفراحو تكنّفتك سعادة و نجاح

فاقض المآرب فى زمان صالحلا سدّ عنك من الزّمان صلاح

إن كان كالشمس المنيرة حسنهافالبدر أنت و ما عليك جناح

لا فرق بينكما لرأى فاستوىزىّ النساء قلادة و وشاح

هل يوقد المصباح عندكما مهجاو كلاكما ببهائه مصباح؟

أحرزت يا عبد العزيز محاسناكثرت فلم تستوفها الأمداح

يا من له كفّ تجود و أضلعمطوى على حفظ الوداد سجاح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۰ ما ألقت الحاجات دونى قفلهاإلّا و يمن يمينك المفتاح

فى كل ما تنحو إليه ملاحةو كذاك أفعال المليح ملاح

و من حكمه قوله : [الوافر]

كثير المال تبذله فيبقىو لا يبقى مع البخل القليل

و من غرست يداه ثمار جودففى ظلّ الثناء له مقيل

و قال رحمه اللّه : [الوافر]

و عهدى بالشّباب و حسن قدّىحكى ألف ابن مقلة فى الكتاب

فصرت اليوم منحنيا كأنىأفتّش فى التّراب على الشباب

و قال رحمه اللّه : [الرمل]

يمسك الفارس رمحا بيد و أنا أمسك فيها قصبه

و كلانا بطل فى حربهإن الاقلام رماح الكتبه

قال ابن عبد الملك: أنشدت على شيخنا أبى الحسن الرّعينى، قال: أخبرنا الراوية أبو القاسم بن الطّيلسان، قال: سألته، يعنى أبا القاسم أحمد بن أبى بكر هذا، أن ينشد شيئا من شعر أبيه المغرب، فأخرج لى قطعة بخط أبيه و أنشده. و قال:

أنشدنى أبى رحمه اللّه لنفسه: [المنسرح]

أحسن ما نيط فى الدّعاء لمنرتّب فى خطّة من الخطط

خلّصك اللّه من عوائقهاو دمت فى عصمة من الغلط

مقرّبا منك ما تسرّ بهو كل مكروهة على شحط

الكلّ بالعدل منك مغتبطو ليس فى الناس غير مغتبط

و ليس يخليك من أنا لكهامن عمل بالنّجاة مرتبط

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۱ فانفذ بعون للّه مجتهدابقلب صافى الضمير مرتبط

يا صاحب الأمر و الذى يدهنائلها للعفاة غير بطى

رفعتم يا بنى رفاعة ماكان من المعلوات فى هبط

و منبر الحق من سواه بكم‌فها هو الآن غير مختلط

و انضبط الأمر و استقام لكم‌و لم يكن قبل ذا بمنضبط

أتيت فى كل ما أتيت به‌فالغيث بعد الرجاء و القنط

جللت عمّن سواك منزلة‌فلست ممّن سواك فى نمط

أنت من المجد و العلا طرف‌و كلّهم فى العلا من الوسط

كتابته: وقفت من ذلك على أفانين. منها فى استهلال شهر رمضان قوله:

سلام على أنس المجتهدين، و راحة المتهجّدين، و قرّة أعين المهتدين، و الذى زيّن اللّه به الدّنيا و أعزّ به الدين. شرّف اللّه به الإسلام، و جعل أيامه رقوما فى عواتق الأيام، و شهوره غررا فى جباه الأعلام، و حلّ به عن رقاب الأمة قلائد الآثام، و نزّه فيه الأسماع عن المكاره و صان الأفواه من رفث الكلام. أشهد أن اللّه أثنى عليك، و أدخل من شاء الجنّة على يديك، و خصّك من الفضائل بما يمشى فيه التّفسير حتى يكلّ، و يسأم ذلك اللسان و يملّ، و أبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظّلّ، ذلك الذى يتهلل للسماء هلاله، و يهتزّ العرش لجلاله، و ترتج الملائكة فى حين إقباله، و تدخل الحور العين فى زينتها تكريما، و تلتزم إجلاله و تعظيما، و يهتدى فيه الناس إلى دينهم صراطا مستقيما، و تغلّ الشياطين على ما خيّلت، و تذوق و بال ما كادت به و تخيّلت، و يشمّر التّقىّ لعبادة ربّه ذيلا، و تهبط الملائكة إلى سماء الدنيا ليلا، و ينتظم المتّقون فى ديوانه انتظام السّلك، و يكون خلوف فم الصائم عند اللّه أطيب من ريح المسك، و تفتح الجنّة أبوابا، و يغفر لمن صامه إيمانا و احتسابا، جزاء من ربك عطاء حسابا، و بما فضّلك اللّه على سائر الشهور، و قضى لك بالشّرف و الفضل المشهور. فرضك فى كتابه، و مدحك فى خطابه، حيث قال: شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، هدى للناس و بيّنات من الهدى و الفرقان، يعنى تكبير الناس

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۲

عليك، و تقليب أحداقهم بالنظر إليك، حين لثمت بالسحاب، و نظرت من تحت ذلك النّقاب، و قد يمتاز الشّيب و إن استتر بالخضاب، حتى إذا وقف الأئمّة منك على الصّحيح، و صرّحوا برؤيتك كلّ التصريح، نظرت كل جماعة فى اجتماعها، و تأهّبت القرّاء لإشفاعها، و اندفعت الأصوات باختلاف أنواعها، و تضرعت الألباب، و طلبت المواقف أواخر الأعشار و الأحزاب، و ابتدئت ألم ذلك الكتاب، عند ما أوقدت قناديل كأنما قد بدت من الصباح، و رقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح، و اللّه نور السماوات و الأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، فأمّلك المسلمون فى سرّ و جهر، و حطّت أثقال السيئات عن كل ظهر، و التمست الليلة التى هى خير من ألف شهر، فنشط الصالحون بك صوما، و هجر المتهجّدون فى ليلك نوما، و أكملناك إن أذن اللّه ثلاثين يوما. فيا أيها الذى رحل، رحل بعد مقامه، و قام للسّفر من مقامه، و رأى من قضى حقّه و من قصّر فى صيامه، فمشى الناس إلى تشييعه، و بكوا لفراقه و توديعه، و ندم المضيّع على ما كان من تضييعه، و لم يثق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعضّ على كفّه ندما، و بكت عينه ماء و كبده دما. رويدا حتى أمرح فى ميدان فراقك، و أتضرّع إلى حنانك و إشفاقك، و أتشفى من تقبيلك و عناقك، و أسأل منك حاجة إن أراد اللّه قضاءها، و شاء نفوذها و إمضاءها، إذا أنت وقفت لربّ العالمين، فقبلك من قوم و ردّك فى وجوه آخرين. إن تثنى جميلا، فعسى يصفح لعهده و إن أساء، فعلم اللّه أنى نويت التوبة أولا و آخرا، و أملت الأداء باطنا و ظاهرا، و كنت على ذلك لو هدى اللّه قادرا، و إنما علم، من تقصير الإنسان ما علم، و للمرء ما قضى عليه به و حكم، و إن النفس لأمّارة بالسّوء إلّا من رحم، فإن غفر فبطوله و إحسانه، و إن عاقب فيما قدّمت يد العبد من عصيانه، فيا وحشة لهذه الفرقة، و يا أسفا على بعد الشّقة، و يا شدّ ما خلّفته لنا بفراقك من الجهد و المشقة، و لطالما هجر الإنسان بك ذنبه، و راقب إعظاما لكربه، و شرحت إلى أعمال البرّ قلبه. و مع هذا أتراك ترجع و ترى، أم تضمّ علينا دونك أطباق الثّرى؟ فيا ويلتا إن حلّ الأجل، و لم أقض دينك، و رجعت و قد حال الموت بينى و بينك، فأغرب، لا جعله اللّه آخر التوديع، و أىّ قلب يستطيع.

و قال فى استهلال شوال:

و لكل مقام مقال. اللّه أكبر هذا هلال شوّال قد طلع، و كرّ فى منازله و قطع، و غاب أحد عشر شهرا ثم رجع. ما لى أراه رقيق الاستهلال، خفيّ الهلال، و روحا تردّد فى مثل انملال؟ ما باله أمسى اللّه رسمه، و صحّح جسمه، و رفع فى شهور العام اسمه؟ على وجهه صفرة بيّنة، و نار إشراقه ليّنة، و أرى السحاب تعتمده و تقف،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۳

و تغشاه سويعة و تنصرف، ما أراه إلّا بطول ذلك المقام، و توالى الأهوال العظام، أصابه مرض فى فصل من فصول العام، فعادته كما يعاد المريض، و بكته الأيام الغرّ و الليالى البيض، و قلن: كلأك اللّه و كفاك، و حاطك و شفاك، و قل: كيف نجدك لا فضّ فاك، هذا على الظّن لا على التحقيق، و مجاز لا يحكم التّصديق. و ليبعد مثل هذا المقدار، أن يقدح فيه طول الغيب و تواتر الأسفار. أليس هو قد ألف مجالى الرّياح، و صحب برد الصّباح، و شاهد الأهوية مع الغدو و الرّواح، و طواها بتجربته طىّ الوشاح؟ ما ذاك إلّا أنّه رأى الشمس فى بعض الأيام ماشية، و الحسن يأخذ منها وسطا و حاشية، و دلائل شبابها ظاهرة فاشية، فوقع منها فى نفسه ما وقع، و ثبت على قلبه من النّظر ما زرع، و وقع فى شركها و حقّ له أن يقع. فرثت هى لحاله و أشفقت، و نهجت بوصالها و تأنّقت، و قطعت من معدن نيلها و أنفقت، و رأت أنها له شاكلة يبلغ أملها، و تبلغ مأمله، و لذلك ما مدّت لذيذ السّماح، فتعرّضت بالعشىّ و ارتصدها فى الصباح، مع ما أيقنّا به من الانقطاع، و يمسّنا من الاجتماع، كما نفد القدر، و صدر الخبر، و قال: تعلن لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، فوجد لذلك وجدا شديدا، و أذاقه مع الساعات شوقا جديدا، و أصبح بها دنفا، و أمسى عميدا، حتى سلب ذلك بهاه، و أذهب سناه، و ردّه النحول كما شاه، و لقى منها مثل ما لقى غيلان من ميّته، و جميل من بثينته، و حنّ إليها حنين عروة إلى عفراء، و موعدهما يوم وهب ناقته الصّفراء. على رسلك أنى وهمت، و حسبت ذلك حقّا و توهّمت، و الآن و قد فطنت، و أصبت الفصّ فيما ظننت، إنه لقى رمضان فى إقباله، و ضمّه نقصان هلاله، و صامه فجأة و لم يك فى باله، فأثّر ذلك فى وجهه الطّلق، و أضعفه كما فعل بسائر الخلق، وها هو قد أقبل من سفره البعيد، فقل هو هلال الفطر أو قل هو هلال العيد، فلقه صباح مشى الناس فيه مشى الحباب، و لبسوا أفضل الثياب، و برزوا إلى مصلّاهم من كل باب، فارتفعت همّة الإسلام، و شرفت أمة محمد عليه السلام، و خطب بالناس و دعا للإمام، عندما طلعت الشمس بوجه كدور المرآة، و لون كصفا المهراة، و خرج لا ينسيها ريم الفلاة. و قضوا السّنّة، و بذلوا الجهد فى ذلك و المنّة، و سألوا من اللّه أن يدخلهم الجنّة، ثم خطبوا حمدا للّه و شكرا، و ذكروه كذكرهم آباءهم أو أشدّ ذكرا، ثم انصرفوا راشدين، و افترقوا حامدين، و شبك الشيخ بيديه، و نظر الشّاب فى كفّيه، و رجعوا على غير الطريق الذى أتوا عليه، فلقد استشفى من الرّؤية ذو عينين، و تذكّر العاشق موقف البين، و شقّ المتنزّه بين الصّفين، فنقل عينيه من الوشى إلى الدّيباج، و وجوه كضوء السّراج، و عيون أقتل من سيف الحجّاج، و نظرات لا يدفع داؤها بالعلاج، و قد زيّنت العيون بالتكحيل، و الشعور بالتّرجيل، و كرّر السّواك على مواضع التّقبيل، و طوّقت الأعناق بالعقود، و ضرب الفكر فى صفحات الخدود، و مدّ بالغالية

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۴

على مواضع السجود، و أقبلت صنعاء بأوشيتها، و عنت بأرديتها، و دخلت العروس فى حليتها، و رقمت الكفوف بالحنّاء، و أثنى على الحسن و هو أحقّ بالثناء، و طلّقت التّوبة ثلاثا بعد البناء، و غصّ الذّراع بالسّوار، و تختّم فى اليمين و اليسار، و أمسكت الثياب بأيدى الأبكار، و مشت الإماء أمام الأحرار، و تقدمت الدّايات بالأطفال الصّغار، و امتلأت الدّنيا سرورا ، و انقلب الكلّ إلى أهله مسرورا. و بينما كانت الحال كما نصصت، و الحكاية كما قصصت، إذ تلألأت الدنيا برقا، و امتدّ مع الأفقين غربا و شرقا، و ردّ لمعانه عيون الناظرين زرقا، و لو لا أنه جرّب حتى يدرى، لقيل قد طلعت مع الشمس شمس أخرى، حتى أقبل من شرفت العرب بنسبه، و فخر الإسلام بسببه، من انتسب إلى زهرة و قصىّ، و ازدانت به آل غالب و آل لؤى، من إذا ذكر المجد فهو ممسك بعده، أو الفضل فهو لابس برده، أو الفخر فهو واسطة عقده، أو الحسن فهو نسيج وحده، الذى رفع لواء العليا، و عارضت مكارمه صوب الحيا، و حكت

محاسنه زهرة الحياة الدنيا. فأما وجهه فكما شرقت الشمس و أشرقت، و غربت كواكب سمائها و شرقت، و تفتّحت أطواق الليل عن غرر مجده و تشقّقت.

و لو لا حيا يغلب عليه، و خفر يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، و غارت لنوره كواكب الأسحار، و لكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، لا يحفل بالصبح إذا انفلق، و لا بالفجر إذا عمّ آفاق الدّجا و طبّق، و لو بدا للمسافر فى ليله لطرق، و قد عجم الأبنوس على العاج، و أدار جفنا كما عطف على أطفالها النّعاج، يضرب بها ضرب السيف، و يلمّ بالفؤاد إلمام الطّيف، و يتلقّاها السّحر تلقّى الكريم للضيف. لو جرّدها على الرّيم لوقف، أو على فرعون ما صرف من سحره ما صرف، أو على بسطام ابن قيس لألقى سلاحه و انصرف. و أما أدواته فكما انشقّت الأرض عن نباتها، و أخذت زخرفها فى إنباتها، و نفح عرف النّسيم فى جنباتها، يتفنّن أفانين الزهر، و يتقلب تقلّب الدهر، و تطلع له نوادر كالنجوم الزهر، لو أبصره مطرّف ما شهر بخطّه، و لا جرّ من العجب ذيل مرطه، و لا كان المخبر معه من شرطه. و أما أنه لو قرىء على سحبان كتابه، و انحدر على نهره عبابه، و ملأت مسامعه أطنابه و أسبابه، ما قام فى بيانه و لا قعد، و لنزل عن مقامه الذى إليه صعد، و لا خلّف من بلاغته ما وعد. لعمرك ما كان بشر بن المعتمر يتفنّن للبلاغة فنونا، و لا يتقبّلها بطونا و متونا، و لا أبو العتاهية ليشرطها كلاما موزونا، و لا نمّق الحسن بن سهل الألفاظ، و لا رفع قسّ بن ساعدة صوته بعكاظ، و لا أغاظ زيد بن على هشاما بما أغاظ، و أما مكارمه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۵

فكما انسكب الغيث عن ظلاله، و خرج الودق من غلاله، فتدارك النّعمة عن فوتها، و أحيا الأرض بعد موتها، ذلك الشريف الأجلّ، الوزير الأفضل، أبو طالب ابن القرشى الزّهرى، أدام اللّه اعتزازه، كما رقم فى حلل الفخر طرازه، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها، و أشرق وجه الأرض لإشراقها، و التفّت الثياب بالثياب، و ضمّ الرّكاب بالرّكاب، و لا عهد كأيام الشباب، فوصل القريب البعيد، و هنّوه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع ركابه و سلّمت، و جرت كلاما و به تكلّمت، فقلت: تقبّل اللّه سعيك، و زكّى عملك، و بلّغك فيما تودّه أملك، و لا تأمّلت وجها من السّرور إلّا تأمّلك، و نفعك بما أوليت، و أجزل حظّك على ما صمت و صلّيت، و وافقتك لعلّ و ساعدتك ليت، و هنّاك عيد الفطر و هنّأته، و بدأك بالمسرات و بدأته، و تبرّأ لك الدهر مما تحسد و برّأته. و هكذا بحول اللّه أعياد و اعتياد، و عمر فى دوام و عزّ فى ازدياد، و السّنّة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد، و أقرأ عليك سلام اللّه ما أشرق الضّحى، و دام الفطر و الأضحى.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة، و تردّد إليها غير ما مرة، و أقام بها، و امتدح ابن أضحى و ابن هانى، و ابن سعيد و غيرهم من أهلها. قال ابن سعيد فى «طالعه»:

و قد وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة، و اجتماعه بجنّته بقرية الزاوية من خارجها، بنزهون القليعية الأديبة، و ما جرى بينهما، و أنها قالت له بعقب ارتجال بديع، و كان لبس غفارة صفراء: أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل، إلّا أنّك لا تسرّ النّاظرين، فقال لها: إن لم أسرّ الناظرين، فأنا أسرّ السامعين، و إنما يطلب سرور الناظرين منك، يا فاعلة يا صانعة. و تمكّن السّكر من ابن قزمان، و آل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه فى البركة، فما خرج منها إلّا و ثيابه تقطر، و قد شرب كثيرا من الماء، فقال:

اسمع يا وزير ثم أنشد : [السريع]

إيه أبا بكر و لا حول لى‌بدفع أعيان و أنذال

و ذات فرج واسع دافق‌بالماء يحكى حال أذيالى

غرّقتنى فى الماء يا سيدى‌كفّره بالتغريق فى المال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۶

فأمر بتجريده، و خلع عليه ما يليق به، و لم يمرّ لهم بعد عهدهم بمثله.

و لم ينتقل ابن قزمان من غرناطة، إلّا بعد ما أجزل له من الإحسان، و مدحه بما هو فى ديوان أزجاله.

محنته: جرت عليه بابن حمدين محنة كبيرة عظم لها نكاله، بسبب شكاسة أخلاق كان موصوفا بها، و حدّة شقى بسببها. و قد ألمّ الفتح فى قلائده بذلك، و اختلّت حاله بآخرة، و احتاج بعد انفصال أمر مخدومه الذى نوّه به.

وفاته: توفى بقرطبة لليلة بقيت من رمضان سنة خمس و خمسين و خمسمائة، و الأمير ابن سعد يحاصر قرطبة رحمه اللّه.

محمد بن غالب الرّصافى

يكنى أبا عبد اللّه، بلنسى الأصل، سكن غرناطة مدة، ثم مالقة.

حاله: قال الأستاذ : كان فحلا من فحول الشعراء، و رئيسا فى الأدباء، عفيفا، ساكنا، و قورا، ذا سمت و عقل. و قال القاضى : كان شاعرا مجيدا، رقيق الغزل، سلس الطبع، بارع التّشبيهات، بديع الاستعارات، نبيل المقاصد و الأغراض، كاتبا بليغا، ديّنا، و قورا، عفيفا، متفقها، عالى الهمة، حسن الخلق و الخلق و السّمت، تام العقل، مقبلا على ما يعنيه من التّعيش بصناعة الرّفى التى كان يعالجها بيده، لم يبتذل نفسه فى خدمة، و لا تعرض لانتجاع بقافية، خلا وقت سكناه بغرناطة، فإنه امتدح و اليها حينئذ، ثم نزع عن ذلك، راضيا بالخمول حالا، و القناعة مالا، على شدّه الرغبة فيه، و اغتنام ما يصدر عنه.

أخبار عقله و سكونه: قال الفقيه أبو الحسن شاكر بن الفخّار المالقى، و كان خبيرا بأحواله: ما رأيت عمرى رجلا أحسن سمتا، و أطول صمتا، من أبى عبد اللّه الرصافى. و قال غيره من أصحابه: كان رفّاء، فما سمع له أحد من جيرانه كلمة فى أحد. و قال أبو عمرو بن سالم: كان صاحبا لأبى، و لقيته غير ما مرة، و كان له الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۳۵۶

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۷

موضع يخرج إليه فى فصل العصير، فكنت أجتاز عليه مع أبى فألثم يده، فربما قبّل رأسى، و دعا لى، و كان أبى يسأله الدعاء فيخجل، و يقول: أنا و اللّه أصغر من ذلك.

قال: و كان بإزائه أبو جعفر البلنسى، و كان متوقّد الخاطر، فربما تكلم مع أحد التجار، فكان منه هفوة، فيقول له جلساؤه: شتّان و اللّه بينك و بين أبى عبيد اللّه فى العقل و الصمت، فربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها، فما يزيد على التبسم. فلما كان أحد الأيام، جاء البلنسى ليفتح دكانه، فتعمّد إلقاء الغلق من يده، فوقع على رأس أبى عبد اللّه، و هو مقبل على شغله، فسال دمه، فما زاد على أن قام و مسح الدم، ثم ربط رأسه، و عاد إلى شغله. فلمّا رأى ذلك منه أبو جعفر ترامى عليه، و جعل يقبّل يديه، و يقول: و اللّه ما سمعت برجل أصبر منك، و لا أعقل.

شعره: و شعره لا نهاية فوقه رونقا و مائية، و حلاوة و طلاوة، و رقّة ديباجة، و تمكّن ألفاظ، و تأصّل معنى. و كان، رحمه اللّه، قد خرج صغيرا من وطنه، فكان أبدا يكثر الحنين إليه، و يقصر أكثر منظومه عليه. و محاسنه كثيرة فيه، فمن ذلك قوله : [الطويل]

خليلىّ، ما للبيد قد عبقت نشرا؟و ما لرؤوس الرّكب قد رنّحت سكرا؟

هل المسك مفتوقا بمدرجة الصّبا؟أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا؟

خليلىّ، عوجا بى قليلا فإنه‌حديث كبرد الماء فى الكبد الحرّى

قفا غير مأمورين و لتتصدّيا على ثقة للمزن فاستسقيا القطرا

بجسر معان و الرّصافة أنه‌على القطر أن يسقى الرّصافة و الجسرا

بلادى التى ريشت قويدمتى بهافريخا و أورثتنى قرارتها وكرا

مبادئ أنيق العيش فى ريّق الصّبا؟أبى اللّه أن أنسى اغترارى بها غرّا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۸ لبسنا بها ثوب الشباب لباسهاو لكن عرينا من حلاه، و لم تعرا

أ منزلنا عصر الشبيبة ما الذىطوى دوننا تلك الشبيبة و العصرا؟

محلّ أغرّ العهد لم نبد ذكرهعلى كبد إلا امترى أدمعا حمرا

أكلّ مكان كان فى الأرض مسقطالرأس الفتى يهواه ما عاش مضطرّا

و لا مثل مدحوّ من المسك تربةتملّى الصّبا فيه حقيبتها عطرا

نبات كأنّ الخدّ يحمل نورهتخال لجينا فى أعاليه أو تبرا

و ماء كترصيع المجرّة جلّلتنواحيه الأزهار و اشتبكت زهرا

أنيق كريّان الحياة التى خلت طليق كريعان الشّباب الذى مرّا

و قالوا: هل الفردوس ما قد وصفته؟فقلت: و ما الفردوس فى الجنّة الأخرى

بلنسية تلك الزّمرّدة التىتسيل عليها كلّ لؤلؤة نهرا

كأنّ عروسا أبدع اللّه حسنهافصيّر من شرخ الشّباب لها عمرا

توبّد فيها شعشعانيّة الضّحى مضاحكة الشمس البحيرة و البحرا

تزاحم أنفاس الرياح بزهرهانجوما فلا شيطان يقربها ذعرا

و إن كان قد مدّت يد البين بيننامن الأرض ما يهوى المجدّ به شهرا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۵۹ هى الدّرّة البيضاء من حيث جئتها أضاءت و من للدّرّ أن يشبه البدرا؟

خليليّ، أن أصدر لها فإنها هى الوطن المحبوب أوكله الصّدرا

و لم أطو عنها الخطو هجرا لها إذافلا لثمت نعلى مساكنها الخضرا

و لكنّ إجلالا لتربتها التىتضمّ فتاها النّدب أو كهلها الحرّى

أكارم، عاث الدهر ما شاء فيهمفبادت لياليهم فهل أشتكى الدهرا؟

هجوع ببطن و ارض قد ضرب الرّدىعليهم قبيبات فويق الثّرى غبرا

تقضّوا فمن نجم سالك ساقط أبى اللّه أن يرعى السّماك أو النّشرا

و من سابق هذا إذا شاء غايةو غير محمود جياد العلا خضرا

أناس إذا لاقيت من شئت منهمتلقّوك لا غثّ الحديث و لا غمرا

و قد درجت أعمارهم فتطلّعواهلال ثلاث لو شفا رقّ أو بدرا

ثلاثة أمجاد من النّفر الألىزكوا خبرا بين الورى و زكوا خبرا

أثكّلتهم ثكلا دهى العين و الحشافعجّر ذا أمّا و سجّر ذا جمرا؟

كفى حزنا أنى تباعدت عنهمفلم ألق من سرّى منها و لا سرّا

و إلّا متى أسلو بهم كلّ راكبليظهر لى خيرا تأبّط لى شرّا

أباحثه عن صالحات عهدتهاهناك فيسبينى بما يقصم الظّهرا

محيّا خليل غاض ماء حياتهو ساكن قصر ضرّ مسكنه القبرا

و أزهر كالإصباح قد كنت أجتلىسناء كما يستقبل الأرق الفجرا

فتى لم يكن خلو الصّفات من النّدىو لم يتناس الجود أصرم أم أثرا

يصرّف ما بين اليراعة و القناأناملة لا بل هواطله الغرّا

طويل نجاد السيف لان كأنماتخطّى به فى البرد خطّيّة سمرا

سقته على ما فيك من أريحيةخلائق هنّ الخمر أو تشبه الخمرا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۰ و نشر محيّا للمكارم لو سرتحميّاه فى وجه الأصيل لما اصفرّا

هل السّعد إلّا حيث حطّ صعيدهلمن بلّ فى شفرى ضريح له شفرا؟

طوين الليالى طيّهنّ و إنماأطوين عنّى التّجلّد و الصّبرا

فلا حرمت سقياه أدمع مزنةترى مبسم النّوار عنبر معترّا

و ما دعوتى للمزن عذرا لدعوتىإذا ما جعلت البعد عن قربه عذرا

و قال يرثى أبا محمد بن أبى العباس بمالقة : [الكامل]

أبنى البلاغة، فيم حفل النادى؟هبها عكاظ، فأين قسّ إياد؟

أما البيان، فقد أجرّ لسانهفيكم بفتكته الحمام العادى

عرشت سماء علاكم ما أنتممن بعد ذلكم الشّهاب الهادى

حطّوا على عمد الطريق فقد خبا لألاء ذاك الكوكب الوقّاد

ما فلّ لهذمه الصّقيل و إنمانثرت كعوب قناكم المنآد

إيه عميد الحىّ غير مدافعإيه فدى لك غابر الأمجاد

ما عذر سلك كنت عقد نظامهإن لم يصر بردا إلى الآباد؟

حسب الزمان عليك ثكلا أن يرىمن طول ليل فى قميص حداد

يومى بأنجمه لما قلّدتهمن درّ ألفاظ و بيض أياد

كثف الحجاب فما ترى متفضلافى ساعة تصغى به و تنادى

ألمم بربعك غير مأمور فقدغصّ الفناء بأرجل القصّاد

خبرا يبلّغه إليك و دونهأمن العداة و راحة الحسّاد

قد طأطأ الجبل المنيف قذالهللجار بعدك و اقشعرّ الوادى

أعد التفاتك نحونا و أظنّهمثل الحديث لديك غير معاد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۱ و امسح لنا عن مقلتيك من الكرىنوما تكابد من بكا و سهاد

هذا الصباح و لا تهبّ إلى متىطال الرّقاد و لات حين رقاد

و كأنما قال الرّدى نم وادعاسبقت إلى البشرى بحسن معاد

أموسّدا تلك الرخام بمرقدأخشن به من مرقد و وساد

خصبت بقدرك حفرة فكأنهامن جوفها فى مثل حرف الضّاد

وثّر لجنبك من أثاث مخيّمترب النّدى و صفائح أنضاد

يا ظاعنا ركب السّرى فى ليلةطار الدليل بها و حاد الحادى

أعزز علينا إن حططت بمنزلتبلى عن الزّوار و العوّاد

جار الأفراد هنالك جيرة سقيا لتلك الجيرة الأفراد!

الساكنين إلى المعاد، قبابهممنشورة الأطناب و الأعماد

من كل ملقية الجراب بمضربناب البلى فيه عن الأوتاد

بمعرّس السّفر الألى ركبوا السّرىمجهولة الغايات و الآماد

سيّان فيهم ليلة و نهارهاما أشبه التّأويب بالإسناد

لحق البطون من اللّعب على الطّوى و على الرّواحل عنفوان الزاد

للّه هم فلشدّ ما نفضوا من امتعة الحياة حقائب الأجساد

يا ليت شعرى و المنى لكك جنّةو الحال مؤذنة بطول بعاد

هل للعلا بك بعدها من نهضةأم لانقضاء نواك من ميعاد؟

بأبى و قد ساروا بنعشك صارم كثرت حمائله على الأكتاد

ذلّت عواتق حامليك فإنّهم شاموك فى غمد بغير نجاد

نعم الذّماء البرّ ما قد غوّرواجثمانه بالأبرق المنقاد

علياء خصّ بها الضريح و إنمانعم الغوير بأبؤس الأنجاد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ٢، ص: ٣٦٢ أبنى العباس، أىّ حلاحل سلبتكم الدّنيا و أىّ مصاد

هل كان إلّا العين وافق سهمهاقدرا فأقصد أيّما إقصاد؟

أخلل بمجد لا يسدّ مكانهبالإخوة النّجباء و الأولاد

و لكم يرى بك من هضاب لم يكن لولاك غير دكادك و وهاد

ما زلت تنعشها بسيبك قابضامنها على الأضباع و الأعضاد

حتى أراك أبا محمد الرّدى كيف انهداد بواذخ الأطواد

يا حرّها من جمرة مشبوبةيلقى لها الأيدى على الأكتاد

كيف العزاء و إنها لرزيّةخرج الأسى فيها عن المعتاد

صدع النّعاة بها فقلت لمدمعى كيف انسكابك يا أبا الجوّاد؟

لك من دمى ما شئت غير منهنهصب كيف شئت معصفر الأبراد

بقصير مجتهد و حسبك غايةلو قد بلغت بها كبير مراد

أمّا الدموع فهنّ أضعف ناصرلكنّهنّ كثيرة التّعداد

ثم السّلام و لا أغبّ قرارهو أرتك صوب روائح و غواد

تسقيك ما سفحت عليك يراعةفى خدّ قرطاس دموع مداد

و من غراميّاته و إخوانيّاته قوله من قصيدة : [البسيط]

عاد الحديث إلى ما جرّ أطيبهو الشيء يبعث ذكر الشيء عن سبب

إيه عن الكدية البيضاء إنّ لهاهوى بقلب أخيك الواله الوصب

راوح بها السّهل من أكنافها و أرح ركابنا ليلنا هذا من التّعب

و انضح نواحيها من مقلتيك و سل عن الكثيب الكريم العهد فى الكتب

و قل لسرحته يا سرحة كرمت على أبى عامر: عزّى عن السّحب

يا عذبة الماء و الظلّ أنعمى طفلاحيّيت ممسية ميّادة القضب

ما ذا على ظلّك الألمى و قد قلصت أفياؤه لو ضفا شيئا لمغترب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ٢، ص: ٣٦٣ أهكذا تنقضى نفسى لديك ظماالله فى رمق من جاركك الجنب

لولاك يا سرح لم يبق الفلا عطلامن السّرى، و الدّجى خفاقة الطّنب

و لم نبت نتقاضى من مدامعنادينا لتربك من رقراقها السّرب

إنّا إذا ما تصدّى من هوى طلل‌عجنا عليه فحيّيناه عن كثب

مستعطفين سخيّات الشؤون له‌حتى تحاك عليه نمرق العشب

سلى خميلتك الرّيّا بأيّة ماكانت ترفّ بها ريحانة الأدب

عن فتية نزلوا عليا سرارتهاعفت محاسنهم إلّا من الكتب

محافظين على العليا و ربّتماهزّوا السجايا قليلا بابنة العنب

حتى إذا ما قضوا من كأسها وطراو ضاحكوها إلى حدّ من الطّرب

راحوا رواحا و قد زيدت عمائمهم‌حلما و دارت على أبهى من الشّهب

لا يظهر السّكر حالا من ذوائبهم‌إلّا التفاف الصّبا فى ألسن العذب

المنزلين القوافى من معاقلهاو الخاضدين لديها شوكة العرب

و من مقطوعاته قوله : [الطويل]

دعاك خليل و الأصيل كأنه‌عليل يقضّى مدة الزمن الباقى

إلى شطّ منساب كأنّك ماؤه‌صفاء ضمير أو عذوبة أخلاق

و مهوى جناح للصّبا يمسح الرّبى‌خفىّ الخوافى و القوادم خفّاق

و فتيان صدق كالنجوم تألّفواعلى النّأى من شتّى بروج و آفاق

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۴ على حين راح البرق فى الجو مغمداظباه و دمع المزن فى جفنه راق

و جالت بعينى فى الرياض التفاتةحبست بها كأسى قليلا عن السّاقى

على سطر خيرىّ ذكرتك فانثنى‌يميل بأعناق و يرنو بأحداق

وقف وقفة المحبوب منه فإنهاشمائل مشغوف بمرآك مشتاق

وصل زهرات منه صفر كأنهاو قد خضلت قطرا محاجر عشّاق

و قال، و كلفها فى حائك، و هو بديع : [البسيط]

قالوا و قد أكثروا فى حبّه عذلى لو لم تهم بمذال القدر مبتذل

فقلت لو أنّ أمرى فى الصّبابة لى‌لاخترت ذاك و لكن ليس ذلك لى

فى كلّ قلب عزيزات مذلّلةللحسن و الحسن ملك حيث جلّ ولى

علّقته حبىّ الثّغر عاطره‌درّىّ لون المحيّا أحور المقل

إذا تأمّلته أعطاك ملتفتاما شئت من لحظات الشّادن الوجل

هيهات أبغى به من غيره بدلاأخرى الليالى و هل فى الغير من بدل؟

غزيّل لم تزل فى الغزل جائلةبنانه جولان الفكر فى الغزل

جذلان تلعب بالمحواك أنمله‌على السّدى لعب الأيام بالأمل

ما إن ينى تعب الأطراف مشتغلاأفديه من تعب الأطراف مشتغل

ضربا بكفّيه أو فحصا بأخمصه‌تخبّط الظّبى فى أشراك محتبل

و قال : [الكامل]

و مهفهف كالغصن إلّا أنّه‌سلب التّثنّى النوم عن أثنائه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۵ أضحى ينام و قد تخدّد خدّهعرقا فقلت الورد رشّ بمائه

و قال : [الوافر]

أدرها فالغمامة قد أجالتسيوف البرق فى لمم البطاح

وراق الروض طاووسا بهيّاتهبّ عليه أنفاس الرياح

تقول و قد ثنى قزح عليهثياب الغيم معلمة النواح

خذوا للصّحو أهبتكم فإنىأعرت المزن قادمتى جناح

و قال : [الطويل]

أدرها على أمر فما ثم من باسو إن جدّدت آذانها ورق الآس

و ما هى إلّا ضاحكات غمائملواعب من و مض البروق بمقياس

و وفد رياح زعزع النّهر مدّه كما وطئت درعا سنابك أفراس

و قال فى وصف مغنّ محسن : [الكامل]

و مطارح ممّا تجسّ بنانهصوتا أفاض عليه ماء وقاره

يثنى الحمام فلا يروح لوكرهطربا و رزق بنيه فى منقاره

و قال يصف جدول ماء عليه سرحة، و لها حكاية معروفة : [الكامل]

و مهدّل الشّطّين تحسب أنهمتسيّل من درّة لصفائه

فاءت عليه مع العشيّة سرحةصدئت لفيئتها صفيحة مائه

فتراه أزرق فى غلالة سمرةكالدّراع استلقى بظلّ لوائه

نثره: قال من مقامة يصف القلم : [المتقارب]

قصير الأنابيب لكنهيطول مضاء طوال الرّماح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۶ إذا عبّ للنفس فى دامسو دبّ من الطّرس فوق الصّفاح

تجلّت به مشكلات الأمورو لان له الصّعب بعد الجماح

فلو لا هو لغدت أغصان الاكتساب ذاوية، و بيوت الأموال خاوية، و أسرعت إليها البوسى، و أصبحت كفؤاد أمّ موسى، فهو لا محالة تجرها الأربح، و ميزانها الأرجح. به تدرّ ألبانها، و تثمر أفنانها، و تستمرّ أفضالها و إحسانها، و هو رأس مالها، و قطب عمّالها و أعمالها. و صاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، و تحكّم فى طيّها و نشرها، و هو قطب مدارها، و جهينة أخبارها، و سرّ اختيارها و اختبارها، و مظهر مجدها و فخارها، يعقد الرّايات لكل وال، و يمنحهم من المبرّة كلّ صافية المقيل ضافية السّربال، يطفى جمرة الحرب العوان، و يكايد العدوّ بلا صارم و لا سنان، يقدّ المفاصل، و يتخلل الأباطح و المعاقل، و يقمع الحواسد و العوذال.

وفاته: توفى بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من رمضان سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة. و قبره مشهور بها.

محمد بن قاسم بن أبى بكر القرشى المالقى

من أهل مالقة، و سكن غرناطة و تردد إليها.

حاله: كان لبيبا لوذعيّا، جامعا لخصال؛ من خطّ بارع، و كتابة، و نظم، و شطرنج، إلى نادر حار، و خاطر ذكى، و جرأة. توجّه إلى العدوة، و ارتسم بها طبيبا؛ و تولّى النظر على المارستان بفاس فى ربيع الثانى من عام أربعة و خمسين و سبعمائة.

شعره: أنشدنى بمدينة فاس عام ستة و خمسين، فى وجهتى رسولا إلى المغرب، قوله فى رجل يقطع فى الكاغد: [المجتث]

أبا علىّ حسيناأين الوفا منك أينا؟

قد بيّن الدمع وجدىو أنت تزداد بينا

بلّت لحاظك قلبى تاللّه ما قلت مينا

قطّ المقصّ لهذاسبب الصّبّ مينا

بقيت تفتر حسناو دمت تزداد زينا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۷

و قال أيضا: [البسيط]

فضل التجارات باد فى الصناعاتلو لا الذى هو فيها هاجر عات

حاز الجمال فأعيانى و أعجزنىو إن دعيت بوصّاف و نعّات

و كان شديد المغالطة، ذاهبا أقصى مذاهب القحة، يحرّك من لا يتحرك، و يغضب من لا يغضب. عتب يوما جدّته على طعام طبخته له، و لم يستطبه، و كان بين يديه القط يصدعه بصياح طلبه، فقال له: ضجرا، خمسمائة سوط، فقالت له جدّته: لم تعط هذه السياط للقط، إنما عنيتنى بها، و أعطيتها باسم القط، فقال لها:

حاش للّه يا مولاتى، و بهذا البخل تدرينى أو الزحام عليها، بل ذلك للقط حلالا طيبا، و لك أنت ألف من طيبة قلب، فأرسلها مثلا، و ما زلنا نتفكّه بذلك، و كان فى هذا الباب لا يشقّ غباره.

مولده: بمالقة عام ثلاثة و سبعمائة.

وفاته: بعث إلىّ الفقيه أبو عبد اللّه الشّديد، يعرفنى أنه توفى فى أواسط عام سبعة و خمسين و سبعمائة.

محمد بن سليمان بن القصيرة

أبو بكر، كاتب الدولة اللّمتونية، و علم وقته.

حاله: قال ابن الصيرفى: الوزير الكاتب، الناظم، الناثر، القائم بعمود الكتابة، و الحامل لواء البلاغة، و السابق الذى لا يشقّ غباره، و لا تخمد أبدا أنواره. اجتمع له براعة النثر، و جزالة النظم، رقيق النّسيج، حصيف المتن، رقعته ما شئت فى العين و اليد. قال ابن عبد الملك : و كان كاتبا مجيدا، بارع الخطّ، كتب عن يوسف بن تاشفين .

مشيخته: روى عن أبى الحجاج الأعلم، و أبى الحسن بن شريح، و روى عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملجوم، لقيه بمرّاكش .

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۸

شعره: و هو عندى فى نمط دون ما وصف به. فمن ذلك قوله من قصيدة أنحى فيها على ابن ذى النّون، و مدح ابن عباد، عند خلع ابن جهور، أبى الوليد، و تصيير قرطبة إليه: [الطويل]

فسل عنه أحشاء ابن ذى النون هل سرىإليها سكون منذ زلزلها الذّعر؟

و هل قدّرت مذ أوحشته طلائع الظهور عليه أنّى تؤنسه الخمر؟

أ لم يجن يحيى من تعاطيك ظلّهسجا لك هيهات السّهى منك يا بدر

لجاراك و استوفيت أبعد غايةو آخره عن شأوك الكفّ و العثر

فأحرزت فضل السّبق عفوا و كفّهعلى رغمه مما توهّمه صفر

و يا شدّ ما أغرته قرطبة و قدأبشرتها خيلنا فكان لك الدّرّ

و منها:

أتتك و قد أزرى ببهجة حسنهاو لا أنها من جور مالكها طمر

فألبستها من سابغ العدل حلّةزهاها بها تيه و غازلها كبر

و جاءتك متفالا فضمّخ حيّهاو إزدانها من ذكرك المعتلى عطر

و أجريت ماء الجود فى عرصاتهافروّض حتى كاد أن يورق الصّخر

و طاب هواء أفقها فكأنهاتهبّ نسيما فيه أخلاقك الزّهر

و ما أدركتهم فى هواك هوادةو ما ائتمروا إلّا لما أمر البرّ

و ما قلّدوك الأمر إلّا لواجبو ما جئته فيه المجرّب و الغمر

و بوّأهم فى ذروة المجد معقلاحرام على الأيام إلمامه حجر

و أوردهم من فضل سيبك مورداعلى كثرة الوارد مشرعه غمر

فلولاك لم تفصل عرى الإصر عنهمو لا انفكّ من ربق الأذى لهم أسر

أعدت نهار ليلهم و لطالماأراهم نجوم الليل فى أفقه الظهر

و لا زلت تؤويهم إلى ظلّ دوحةمن العزّ فى أرحابها النّعم الخضر

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۶۹

كتابته: و هى من قلّة التصنّع و الإخشوشان، بحيث لا يخفى غرضها، و لكل زمان رجاله. و هى مع ذلك تزينها السذاجة، و تشفع لها الغضاضة. كتب عن الأمير يوسف بن تاشفين ولاية عهده لولده:

«هذا كتاب تولية عظيم جسيم، و توصية حميم كريم، مهدت على الرّضا قواعده، و أكّدت بيد التقوى مواعده و معاقده، و سدّدت إلى الحسنى مقاصده، و أبعدت عن الهوادة و الهوى مصادره و موارده. أنفذه أمير المسلمين، و ناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، أدام اللّه أمره، و أعزّ نصره، و أطال فيما يرضيه منه، و يرضى به عنه عمره، غير محاب، و لا تارك فى النصيحة للّه و لرسوله و المسلمين موضع ارتياب لمرتاب، للأمير الأجل أبى الحسن عليّ ابنه، المتقبّل هممه وشيمه، المتأثّل حلمه و تحلّمه، الناشىء فى حجر تقويمه و تأديبه، المتصرّف بين يدى تخريجه و تدريبه، أدام اللّه عزّه و توفيقه، و نهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه، و قد تهمّم بمن تحت عصاه من المسلمين، و هدى فى انتقاء من يخلفه هدى المتّقين، و لم ير أن يتركهم بعد سدى غير مدينين، و اعتام فى النّصاب الرفيع و اختار و استنصح أولى الرأى و الدين، و استشار فلم يوقع بعد طول تأمل، و تراخى مدة، و تمثل اختياره، و اختبار من فاوضه فى ذلك من أولى التقوى و الحنكة و استشارة الأعلية، و لا صار بدونهم الارتياد و الاجتهاد إلّا إليه، و لا التقى روّاد الرأى و التشاور إلّا لديه. فولّاه عن استحكام بصيرة، و بعد طول مشورة، عهده، و أفضى إليه الأمر و النهى، و القبض و البسط عنده بعده، و جعله خليفته السّيّاد فى رعاياه مسّيده، و أوطأ عقبه جماهير الرجال، و ناط به مهمات الأمور و الأعمال، و عهد إليه أن يتّقى اللّه ما استطاع، و لا يعدل عن سمت العدل و حكم الكتاب و السّنّة فى أحد عصا أو أطاع، و لا ينام عن حماه الحيف و الخوف بالاضطجاع، و لا يتليّن دون معلن شكوى، و لا يتصام عن مستصرخ لذى بلوى، و أن ينظم أقصى البلاد و أدناها فى سلك تدبيره، و لا يكون بين القريب و البعيد بون فى إحصائه و تقديره. ثم دعا، أدام اللّه تأييده، لمبايعته، أدام اللّه عزّه و نصره، من حضر ودنا من المسلمين، فلبّوا مسرعين، و أتوا مهطعين، و أعطوا صفقة إيمانهم متبرّعين متطوعين، و بايعوه على السمع و الطاعة، و التزام سنن الجماعة، و بذل النصيحة جهد الاستطاعة، و مناصفة من ناصفه، و محاربة من حاربه، و مكايدة من كايده، و معاندة من عانده، لا يدّخرون فى ذلك على حال المنشط مقدرة، و لا يحتجون فى حالتى الرضا و السخط إلى معذرة. ثم أمر بمخاطبة سائر أهل البلاد لمبايعته، كل طائفة منهم فى بلدها، و تعطيه كما أعطاه من حضر صفقة يدها، حتى ينتظم فى التزام طاعته القريب و البعيد، و يجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغائب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۰

و الشهيد، و تطمئنّ من أعلام الناس و خيارهم نفوس قلقة، و تنام عيون لم تزل مخافة إقذائها مورقة، و يشمل الناس كافة السرور و الاستبشار، و تتمكن لديهم الدّعة و يتمهّد القرار، و تنشأ لهم فى الصلاح آمال، و يستقبلهم جدّ صالح و إقبال. و اللّه يبارك لهم بيعة رضوان، و صفقة رجحان، و دعوة يمن و أمان، إنه على ما يشاء قدير، لا إله إلا هو، نعم المولى و نعم النصير. شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنه فوق هذا من بيعته، و لقيه حملة عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل، و أعطى صفقته طائعا متبرعا بها. و باللّه التوفيق. و كتب بحضرة قرطبة فى ذى الحجة سنة ست و تسعين و أربعمائة».

دخل غرناطة غير ما مرّة، وحده، و فى ركاب أميره.

وفاته: توفى فى جمادى الآخرة من عام ثمانية و خمسمائة.

محمد بن يوسف بن عبد اللّه بن إبراهيم التميمى المازنى

من أهل سرقسطة، و دخل غرناطة، و روى عن أبى الحسن بن الباذش بها، يكنى أبا الطاهر. و له المقامات اللّزوميات المعروفة.

حاله: كان كاتبا لغويا شاعرا، معتمدا فى الأدب، فردا، متقدما فى ذلك فى وقته، و له المقامات المعروفة، و شعره كثير مدوّن.

مشيخته: روى عن أبى على الصّدفى، و أبى محمد بن السيد، و أبى الحسن بن الأخضر، و أبى عبد اللّه بن سليمان، المعروف بابن أخت غانم، و أبى محمد بن عتّاب، و أبى الحسن بن الباذش، و أبى محمد عبد اللّه بن محمد التّجيبى الدّكلى، و أبى القاسم بن صوابه، و أبى عمران بن أبى تليد، و غيرهم. أخذ عنه القاضى أبو العباس بن مضاء، أخذ عنه الكامل للمبرّد، قال: و عليه اعتمد فى تقييده. و روى عنه المقرئ المسنّ الخطيب أبو جعفر بن يحيى الكتامى، و ذكره هو و ابن مضاء.

وفاته: توفى بقرطبة ظهر يوم الثلاثاء، الحادى و العشرين من جمادى الأولى، سنة ثمان و ثلاثين و خمسمائة، بزمانة لازمته نحوا من ثلاثة أعوام، نفعه اللّه.

شعره: [الوافر]

أيا قمر، أتطلع من وشاحعلى غض فاخر من كل راح؟

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۱ أدار السّحر من عينيه خمرامعتّقة فأسكر كلّ صاح

و أهدى إذ تهادى كلّ طيبكخوط البان فى أيدى الرياح

و أحيا حين حيّا نفس صبّغدت فى قبضة الحبّ المتاح

و سوّغ منه عتبى بعد عتبو علّلنى براح فوق راح

و أجنانى الأمانى فى أمانو جنح الليل مسدول الجناح

و قال أيضا: [الكامل]

و منعّم الأعطاف معسول اللّمىما شئت من بدع المحاسن فيه

لمّا ظفرت بليلة من وصلهو الصّبّ غير الوصل لا يشفيه

أنضحت وردة خدّه بنفسىو ظللت أشرب ماءها من فيه

و قال أيضا: [الكامل]

حكت السّلاف صفاته بحبابهامن ثغره و مذاقها من رشفه

و تورّدت فحكت شقائق خدّهو تأرّجت فيسيمها من عرفه

وصفت فوق أديمها فكأنهامن حسن رونق و جنتيه و لطفه

لعبت بألباب الرجال و غادرت أجسامهم صرعى كفعلة طرفه

«و من الغرباء فى هذا الحرف»

محمد بن حسن العمرانى الشريف

من أهل فاس.

حاله: كان جهويا ساذجا، خشن البزة، غير مرهف التّجنـد، ينظم الشـعر، و يذكر كثيرا من مسائل الفروع، و معاناة الفرائض، يجعجع بها فى مجالس الدّروس، فشقى به المدرسون، على و تيرة من صحة السّجية، و حسن العهد، و قلّة التصنّع.

و جرى ذكره فى الإكليل : كريم الانتماء، مستظل بأغصان الشجرة الشّمّاء، من رجل سليم الضمير، ذى باطن أصفى من الماء النّمير، له فى الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله، و مضاء نصوله.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۲

فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أمير المسلمين، و قد أمر له بكسوة:

[الطويل]

منحت منحت النّصر و العزّ و الرضاو لا زلت بالإحسان منها مقرّضا

و لا زلت للعليا جنى و مكارما و للأمر، للملك العزيز، مقيّضا

و لا زالت الأملاك باسمك تتّقىو جيشك وفرا يملأ الأرض و الفضا

و لا زلت ميمون النّقيبة ظافرامهيبا و وهّابا و سيفك منتضى

تقرّ به الدّين الحنيف و أهلهو تقمع جبّارا و تهلك مبغضا

وصلت شريف البيت من آل هاشمو خوّلته أسنى مراد و مقتضى

وجدت بإعطاء اللّجين و كسوةستكسى بها ثوبا من النور أبيضا

و ما زالت الأنصار تفعل هكذافعال علىّ فى الزمان الذى مضى

هم نصروا الهادى و آووا و جدّلوابحدّ ذباب السيف من كان معرضا

فخذ ذا أبا الحجاج من خير مادحلخير مليك فى البريّة مرتضى

فقد كان قبل اليوم غاض قريضهفلمّا رأى الإحسان منك تفيّضا

و نظم الفتى يسمو على قدر ما يرىمن الجود مهما ينقضى نيله انقضى

و من حكم القول اللّهى متح اللّهىو من مدح الأملاك يرجو التّعرّضا

فلا زال يهديك الشريف قصائداينال بها منك المودة و الرضى

و قال يخاطب من أخلفته بوارق الأمل فيه، و خابت لديه وسائل قوافيه:

[البسيط]

الشّعر أسنى كلام خصّ بالعربو الجود فى كل صنف خير مكتسب

و أفضل الشعر أبيات يقدّمهافى صدر حاجته من كان ذا أدب

فما يوفّى كريم حقّ مادحهلو كان أولاه ما يحويه من نشب

المال يفنى إذا طال الثواء بهو المدح يبقى مدى الأزمان و الحقب

و قد مدحت لأقوام ذوى حسبفيما ظننت و ليسوا من ذوى حسب

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۳ مدحتهم بكلام لو مدحت بهدهری أمنت من الإملاق و النّصب

فعاد مدحی لهم هجوا يصدّقهمن لؤمهم عودتی عنهم بلا أرب

فكان ما قلت من مدحهم كذباأستغفر اللّه من زور و من كذب

و قال فی غرض يظهر من الأبيات، يخاطب السلطان: [الكامل]

ما لی أری تاج الملوك و حولهعبدان لا حلم و لا آداب

فكأنه البازی الصّيود و حولهنغر يقلّب ريشه و غراب

يا أيها الملك الكرام جدودهأسنی المحافل غيرها أتراب

أبدلهما بالبيض من صفّيهماإن العبيد محلّها الأبواب

وفاته: توفی فی حدود ثمانية و أربعين و سبعمائة أو بعد ذلك .

محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادی ابن العشاب

قرطبی الأصل، تونسی الولادة و المنشأ، ابن نعمة و غذی جاه و حرمة.

حاله: كان حييّا فاضلا كريما، سخيّا. ورد علی الأندلس، مفلتا من نكبة أبيه، و قد عركته عرك الرّحی لثقالها، علی سنن من الوقار و الدّيانة و الحما، يقوم علی بعض الأعمال النبيهة.

و جری ذكره فی الإكليل بما نصّه : جواد لا يتعاطی طلقه، و صبح فضل لا يماثل فلقه. كانت لوالده ، رحمه اللّه تعالی ، من الدول الحفصيّة منزلة لطيفة المحلّ، و مفاوضة فی العقد و الحلّ، و لم يزل تسمو به قدم النّجابة، من العمل إلی الحجابة. و نشأ ابنه هذا مقضیّ الديون، مفدّی بالأنفس و العيون. و الدهر ذو ألوان،

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۴

و مارق حرب عوان ، و الأيام كرات تتلقّف، و أهوال لا تتوقّف، فألوی بهم الدهر و أنحی ، و أغام جوّهم بعقب ما أصحی ، فشملهم الاعتقال، و تعاورتهم النّوب الثقال، و استقرّت بالمشرق ركابه، و حطّت به أقتابه، فحجّ و اعتمر، و استوطن تلك المعاهد و عمر، و عكف علی كتاب اللّه تعالی فجوّد الحروف، و أحكم الخلف المعروف، و قيّد و أسند، و تكرّر إلی دور الحديث و تردّد، و قدم علی هذا الوطن قدوم النّسيم البليل، علی كبد العليل. و لمّا استقرّ به قراره، و اشتمل علی جفنه غراره، بادرت إلی مؤانسته، و ثابرت علی مجالسته، فاجتليت للسّرو شخصا، و طالعت ديوان الوفاء مستقصا.

شعره: و شعره ليس بحايد عن الإحسان، و لا غفل من النكت الحسان. فمن ذلك ما خاطبنی به : [الطويل]

بيمن أبی عبد الإله محمدتيمّن هذا القطر و انسجم القطر

أفاض علينا من جزيل عطائهبحورا تديم المدّ ليس لها جزر

و أنسنا لمّا عدمنا مغانياإذا ذكرت فی القلب من ذكرها عبر

هنيئا بعيد الفطر يا خير ماجدكريم به تسمو السّيادة و الفخر

و دمت مدی الأيام فی ظلّ نعمةتطيع لك الدنيا و يعنو لك الدهر

و ممّا خاطب به سلطانه فی حال الاعتقال: [البسيط]

لعلّ عفوك بعد السّخط يغشانيوما فينعش قلب الوالد العانی

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۵ مولای، رحماك، إنی قد عهدتك ذاحلم و عفو و إشفاق و تحنان

فاصرف حنانك ثمّ اعطف علیّ وجدبرحمة منك تحيی جسمی الفانی

فقد تناهى الأسى عندى و عذّبنىو شرّد النوم عن عينى و أعيانى

و حقّ آلائك الحسنى و ما لك منطول و فضل و إنعام و إحسان

إنى و لو حلّت البلوى على كبدىو أسكبت فوق خدّ دمعى القانى

لوائق بحنان منك يطرقنىعمّا قريب و عفو عاجل دان

دامت سعودك فى الدنيا مضاعفةتذلّ من دان طوعا كلّ سلطان

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى

يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن عبد الملك، من أهل مرّاكش، و سكن غرناطة.

حاله: من عائد الصلة : كان، رحمه اللّه، غريب المنزع، شديد الانقباض، محجوب المحاسن، تنبو العين عنه جهامة، و غرابة شكل، و وحشة ظاهر ، فى طىّ ذلك أدب غضّ، و نفس حرّة، و حديث ممتع، و أبوّة كريمة، أحد الصابرين على الجهد، المتمسكين بأسباب الحشمة، الراضين بالخصاصة. و أبوه قاضى القضاة، نسيج وحده، الإمام العالم، التاريخى، المتبحّر فى الأدب ، تقلّبت به أيدى الدهر بعد وفاته لتبعة سلّطت على نسبه ، فاستقرّ بمالقة، متحارفا مقدورا عليه، لا يهتدى لمكان فضله، إلّا من عثر عليه جزافا.

شعره: [السريع]

من لم يصن فى أمل وجههعنك فصن وجهك عن ردّه

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۶ و اعرف له الفضل و عرّف به حيث أحلّ النّفس من قصده

و مما خاطبنى به قوله : [الوافر]

وليت ولاية أحسنت فيهاليعلم أنها شرفت بقدرك

و كم وال أساء فقيل فيهدنىّ القدر ليس لها بمدرك

و أنشدنى فى ذلك أيضا رحمة اللّه عليه : [الوافر]

وليت فقيل أحسن خير والففاق مدى مداركها بفضله

و كم وال أساء فقيل فيه دنا فمحا محاسنها بفعله

و ممّا خاطب به السلطان يستعديه على من مطله من العمال، و عذّر عليه واجبه من الطعام و المال: [مخلع البسيط]

مولاى نصرا ، فكم يضامن ما له غيرك اعتصام

أمرت لى بالخلاص فامرر لى عنده المال و الطعام

فقال ما اعتاده جواباو حسبى اللّه و الإمام

هذا مقام و لا فعالبغير مولاى و السلام

وفاته: فقد فى وقيعة على المسلمين من جيش مالقة بأحواز إستّبة فى ذى قعدة من عام ثلاثة و أربعين و سبعمائة.

محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد ابن خميس الحجرى حجر ذى رعين التّلمسانى

يكنى أبا عبد اللّه، و يعرف بابن خميس .

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۷

حاله: من عائد الصلة : كان، رحمه اللّه، نسيج وحده زهدا و انقباضا، و أدبا و همّة، حسن الشّيبة، جميل الهيئة، سليم الصّدر، قليل التّصنّع، بعيدا عن الرّياء و الهوادة عاملا على السياحة و العزلة، عالما بالمعارف القديمة، مضطلعا بتفاريق النّحل، قائما على صناعة

العربية و الأصلين، طبقة الوقت فى الشعر، و فحل الأوان فى النظم المطوّل، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، و مزج الجزالة بالسّلاسة، و وضع الألفاظ البيانيّة مواضعها، شديد الانتقاء و الإرجاء، خامد نار الرّوية، منافسا فى الطريقة منافسة كبيرة. كتب بتلمسان عن ملوكها من بنى زيّان، ثم فرّ عنهم، و قد أوجس منهم خيفة، لبعض ما يجرى بأبواب الملوك. و بعد ذلك بمدة، قدم غرناطة، فاهتزّ الوزير ابن الحكيم لتلقّيه، و متّ إليه بالوسيلة العلمية، و اجتذبه بخطبة التلميذ، و استفزّه بتأنيسه و برّه، و أقعده للإقراء بجواره. و كان يروم الرّحلة، و ينوى السفر، و القضاء يثبّطه. حدّثنى شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب، قال: بلغ الوزير أبا عبد اللّه الحكيم أنه يروم السفر، فشقّ ذلك عليه، و كلّفنا تحريك الحديث بحضرته. و جرى ذلك، فقال الشيخ: أنا كالدّم بطبعى، أتحرّك فى كل ربيع.

شعره: و شعره بديع، فمن ذلك قوله يمدح أبا سعيد بن عامر، و يذكر الوحشة الواقعة بينه و بين أبى بكر بن خطّاب : [الوافر]

مشوق زار ربعك يا إمامامحا آثار دمنتها التثاما

تتبّع ريقة الطّلّ ارتشافافما نفعت و لا نقعت أواما

و قبّل خدّ وردتها جهاراو ما راعى لضرّتها ذماما

و ما لحريم بيتك أن يدانىو لا لعلىّ قدرك أن يساما الإحاطة فى أخبار غرناطة ؛ ج ۲ ؛ ص ۳۷۷

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ۲، ص: ۳۷۸ و لكن عاش فى رسم لمغنى تجشّمه سلاما و استلاما

تنفّس روضة المطلول و هنافحنّ و شمّ ريّاه فهاما

تلقى طيب ب ... ته حديثاروت مسندا عنه النّعاما

فيا نفس الصّبا إن جئت ساحاو لم تعرف لساكنها مقاما

و أخطأت الطريق إلى حماهافردّتك العرادة و الخزاما

فلا تبصر بسرحتها قضيباو لا تذعر بمسرحها سواما

و عانق قربانتها ارتباطاو صافح كفّ سوسنها التزاما

و نافح عرف زهرتها كباتعاطك ماء ريقتها مداما

و يا برقا أضاء على أوال‌يمانيّا متى جئت الشّآما

أثغر إمامة أنت ابتساماأم الدّرّ الأوامى انتظاما؟

خفقت ببطن واديها لواو لحت على ثنيّتها حساما

أمشبه قلبى المضنى احتداماعلى م ذدت عن عينى المناما؟

و لم أسهرتنى و طردت عنى‌خيالا كان يأتينى لماما؟

و أبلغ منه تأريقا لجفنى‌كلام أثخن الأحشا كلاما

تعرّض لى فأيقظت القوافىو لو ترك القطا يوما لناما

و قيل و ما أرى يومى كأمسى‌جدعت رواطبا و قلبت هاما

و جرّعت العدوّ سمّا زعافافكان لحسد موتا زواما

دعوت زعيمهم ذاك ابتياساورعت خميسهم ذاك اللّماما

نزعت شواه كبشهم نطاحاو لم أترك لقرمهم سناما

أضام و فى يدى قلبى لماذاأضام أبا سعيد أو علاما؟

به و بما أذلق من لسانى‌أفل الصارم العضب انهزاما

و غرام الوزير أبى سعيدأصرفه إذا شئت انتقاما

به و بنجله البرّ انتصارىلما أكلوه من لحمى حراما

أعثمن بن عامر لا تكلنىلدهر علّم الشحّ الغماما

وردت فلم أرد إلّا سراباو شمت فلم أشم إلّا جهاما

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۷۹ قطعت الأرض طولا ثم عرضاأزور بنى ممالكها الكراما

و جاجانى على كرم نداهمو أعجلت الخوافى و القداما

و ذلّلت المطامع من إبائىو قبّلت البراجم و السّلاما

و من أدبى نصبت لهم حبالاأصيد بها النّعام و لا النّعامى

فلم أر مثل ربعى دار أنسو لم أر مثل عثمن إماما

و لا كأبيه أو كنى أبيهأبىّ يحيى غيوثا أو رهاما

كفانى بابن عامر خفض عيشو رفع مكاتبى إلّا أضاما

و إنى من ولائك فى يفاعأقابل منهم بدرهم التّماما

و من شعره، رحمه اللّه، قوله : [الطويل]

تراجع من دنياك ما أنت تاركو تسألها العتبى و ها هى فارك

تؤمّل بعد التّرك رجع ودادهاو شرّ وداد ما تودّ التّرائك

حلا لك منها ما خلا لك فى الصّبافأنت على حلوائه متهالك

تظاهر بالسّلوان عنها تجمّلافقلبك محزون و ثغرك ضاحك

تنزّهت عنها نخوة لا زهادةو شعر عذارى أسود اللون حالك

ليالى تغرى بى و إن هى أعرضتزنانب من ضوّاتها و عواتك

غصون قدود فى حقاف روادفتمايل من ثقل بين الأرائك

تطاعننى منهن فى كل ملعبثدىّ كأسنان الرماح فواتك

و كم كلّة فيها هتكت و دونهاصدور العوالى و السّيوف البواتك

و لا خدن إلّا ما أعدت ردينهلطالبها أو ما تحيّر هالك

تضلّ فواد المرء عن قصد رشدهفواتر ألحاظ للظّبا الفواتك

و فى كل سنّ لابن آدم و إن تطلسنوه طباع جمّة و عوائك

و إلّا فما لى بعد ما شاب مفرقىو أعجز رأيى عجزهنّ الرّكارك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸۰ أجوب إليها كلّ بيداء مملقترافقنى فيها الرجال الحواتك

و أسترشد الشّهب الشوابك جاراذا اشتبهت فيها علىّ المسالك

نهازز أمثال الجياد تؤودةاغوارب أمثال الهضاب توامك

ظماء و ما غير السّماوة موردو ينحى و ما دون الصآة مبارك

ذواهل عن عضّ الرجال ظهورهاإذا ما اشتكت عضّ السروج المواركك

إذا ما نبا عن سنبك الأرض سنبكهلعن فلانت تحتهنّ السّنابك

تقدّ بنا فى كل قاع و فدفدبوائكها و المنغيات الدّراهك

فأمامها رىّ كالسحاب موالعو أمامها ركّا كالرّياح بواشك

قلاص بأطواف الجديل بوالعو جرد لأوساط الشّكيم عوالك

ترامى بها نياقها كلّ مرتمىفهنّ نواح للرّدى أو هوالك

و كم منزل خلّيته لطلابهاتعفّيه تعدى السّافيات السّواهك

يمرّ به زوّاره و عفاتهو ما إن به إلّا لصوق حبائك

و آثارتنا تقادم عهدهمو هنّ عليه جاثيات بوارك

لوارب أفراس و نؤى حذاءثلاث أثاف كالحمام سوادك

تمرّ عليه نسمة الفجر مثلماتمرّ على طيب العروس المداوك

و أركب كالشّهد ينفح بردهلمجهول حسىّ ما له للدّهر مبانك

و يطلبها منّى غريم مماحكو يمطلنى منها عديم مماعك

أحاول منها ما تعذّر فى الصّباو من دونه وقع الحمام المواشك

يسلّى الفتى منها و إن راق حسنهاحسائف لا تحصى هنا و مبارك

فمنها ملال دائم لا تملّهتزوّر إفك عن رضى الحق آفك

تهاون بالإفك الرجال جهالةو ما أهلك الأحياء إلّا الأفايك

تزن طول تسهادى و قدرى تململىطوال الليالى و النجوم النّوابك

تغير على الدهر منه جحافل كأن مدوّم الرّجم فيها نيازك

فليت الذى سوّدت فيها معوّض بما بيّضت منى دجاها الحوالك

ألا لا تذكّرنى تلمسان و الهوىو ما دهكت منّا الخطوب الدّواهك

فإنّ ادّكار ما مضى من زمانهالجسمى و للصّبر الجميل لناهك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸۱ و لا تصفن أمواهها لى فإنهالنيران أشواقى إليها محاركو من حال عن عهد أو اخفر ذمّةفإنى على تلك العهود لرامك

سقى منزلى فيها و إن محّ رسمهعهاد الغوادى و الدّموع السّوافك

و جادت ثرى قبر بمسجد صالحرواعدها و المدخمات الحواشك

و لا أقلعت عن دار يونس مزنةيروّى صداه قطرها المتدارك

إلى أن يروق النّاظرين رواؤهاو يرضى الرّعاوى نبتها المتلاحك

و يصبح من حول الحيا فى عراصهازراق تحاكى بسطها و درانك

و لا برحت منه ملائكة الرّضى تصلّى على ذاك الصّدى و تبارك

و طوبى لمن روى منازله الحياو بشرى لمن صلّت عليه الملائك

ألا ليت شعرى هل تقضّى لبانتىإذا ما انقضت عشر عليها دكادك

و هل مكّن الطّيف المغبّ زيارةفيرقب أو تلقى إليه الرّوامك

و هل تغفل الأيام عنها بقدر ماتؤدى إليها بالعتاب الحالك

و يا ليت شعرى أى أرض تقلّنىإذا كلّ عن رحلى الجلال اللكالك

و أى غرار من صفاها يحثنىإذا فقدتنى مسّها و الدّكادك

إذا جهل الناس الزمان فإننىبدونهم دون الأنام لحاتك

تثبّت إذا ما قمت تعمل خطوةفإن بقاع الأرض طرّا شوائك

و لا تبذلن وجها لصاحب نعمةفما مثل بذل الوجه للسّتر هاتك

تجشّم إن استطعت و احذر أذاهمو لا تلقهم إلّا و هرّك شانك

فكلّ على ما أنعم اللّه حاسدو كلّ إذا لم يعصم اللّه حاسك

و لا تأس ريبة الزمان فإنهبمن فات منّا لا محالة فاتك

تمنّى مصاب بربر و أعارهو ترضى ذكامى فارس و الهنادك

و بدّرت ليل الجون حوض لجاجها و تعرف إقدامى عليها المهالك

فما أذعنت إلّا إلىّ عشارو لا أصفقت إلّا علىّ الشكاشك

و لا قصدت إلا فنائى وقودهاو لن أملت إلّا قتامى الضرارك

به شرفت أذواؤها و ملوكهاكما شرفت بالنّويهار البرامك

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸۲ فلا تدعون غيرى لدفع ملمّةإذا ما دهى من حادث الدهر داهك

فما إن لذاك الصوت غيرى سامعو ما إن لبيت المجد بعدى سامك

يغصّ و يشجى نهشل و مجاشعبما أورثتنى حمير و السكاسك

تفارقنى روحى التى لست غيرهاو طيب ثنائى لاصق بى صائك

و ما ذا عسى ترجو لداتى و أرتجىو قد شمطت منا اللّحا و الأفانك

يعود لنا شرخ الشّباب الذى مضىإذا عاد للدّنيا عقيل و مالك

و من شعره أيضا قوله: [الكامل]

سحّت بساحك يا محلّ الأدمعو تصرّمت سقّا عليك الأضلع

و لطالما جادت ثرى الآمال منجاوى مؤمّلك الغيوث الهمّع

للّه أيام بها قضّيتهاقد كنت أعلم أنها لا ترجع

فلقد رشفت بها رضاب مدامةبنسيم أنفاس البديع تشعشع

فى روضة يرضيك منها أنهامرعى لأفكار النّدام و مشرع

تجرى بها فقر سكنت رهانهاأجدى بميدان الكلام و أسرع

فقر كريعان الشباب و عهدنابجنابها و هو الجناب الأمنع

نفّاثة الأنواء فى عقد الثّرىو النّفث فى عقد الثّرى لا يمنع

حتى إذا حاك الربيع برودهاو كسا رباها و شيه المتنوّع

بدأت كمائم زهرها تبدى بهابدعا تفرّق تارة و تجمّع

قد صمّ منها ما تجمّع مغلقإذ بتّ منها ما تفرّق مصقع

و كلاهما مهما أردت مسالمو محارب و مؤمّن و مروّع

كلّ له شرع البيان محلّلو منكر فى مثل هذا مدفع

حيث ازدهت أنوار كلّ حديقةأدبا ينظّم تارة و يسجّع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸۳ فمرجّل من رقمها و مهلّلو مسمّط من نظمها و مصرّع

أبدى البديع بها بدائع صنعهفمجنّس و مبدّل و مرصّع

و موشّح و مرشّح و مصدّرو مكرّر و مفرّع و متبّع

كلّ يروق بها بحسن روائهو إذا تزين به كلامك تبرع

و لقد غدوت بها و فى وكناتهاطير لها فوق الغصون ترجّع

بمطهّم الفكر الذى ما إن لهإلّا بمستنّ الأدلّة مرتع

قيد المطالب لا نزال نحبّهبين الجياد لعتقه أو يوضع

أرمى به الأمد البعيد و إنهحمل يضلّ به الدليل الأصمع

من بعد ما عفت السّوارى سبلهو محت معالمه الرّياح الأربع

لكننى جدّدت داثر رسمهفطريقه من بعد ذلك مهيع

أوضحت فهم حدوده و ضروبهو الكلّ فى كلّ المسالك ينفع

حتى وردت من السماع مواردافيها لظمآن المباحث مكرع

مع كل مصقول الذكاء فحدسهلذكاء أسرار الطبائع مطلع

يرتاد من نجع العناصر نجعةفيها مصيف للعقول و مربع

لا شىء أبدع من تجاورها و مايبدى بها ذاك التجاور أبدع

فإذا تشعشع مزجها أورى بهانار الحباحب مرجها المتشعشع

فمكين سرّ حياته بحبابهامن بعد قدح زنادها مستودع

و هنا تفاض عليه صورته التىلبهائها شمّ الطبائع تخضع

من واهب الصّور التى قد خصّهابديع حكمته الحكيم المبدع

ربّ له فى كل شىء حكمةيقضى بها البدعىّ و المتشرّع

و حللت من أرض الرياضة أربعانفسى الفداء لها و هذى الأربع

قامت زواياها فما أوتادهاإلّا تقوّم ما تقيم الأضلع

و تناسب أقدارها نسبا لهالو كنت تبصرها فروع فرّع

فأجلّ ما قد سمته بحلولهامن بارق لجناب رشدى يلمع

لا شك أنّ وراءه مطرا لهفى كل ضرب من قياسى موقع

بحر روىّ مترع ملّاحهمن فيضه هذا الرّوىّ المترع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸۴ لم لا أضيع بها عهاد مدامعىإنى إذا لعهودها لمضيّع

خلّىّ، لو لم تسعدانى فى البكالقطعت من حبليكما ما يقطع

أ رأيتما نفسا تفارق جسمهاو به تنعّمها و لا تتوجّع؟

عظمت رزيّتها و أىّ رزيّةظلّت لها أكبادنا تتصدّع

هذى حمامك، يا علىّ، سواجعو أخالها أسفا عليها تسجع

إن طارحتنى ورقها فبأضلعىشوق يطارحه ادّكار موجع

آه على جسمى الذى فارقتهلا كنت ممّن جسمه لا يرجع

و من العجاب رجوع ما أودى بهدهر بتشتيت الأحبّة مولع

الجور منه إذا استمرّ طبيعةو العدل منه إذا استقام تطبّع

هذى عقوبة زلّة سلفت بهامن أكل طعمته التى لا تشبع

قد كنت أمنع رسخ نفسى قبلهاو اليوم أوجب أنّه لا يمنح

لم لا و قد أصبحت بعد محلّةفيها السحائب بالرغائب تهمع؟

دار يدرّ الرزق من أخلاقهاو لكم دعا داع بها من يوضع

و كأنّ مجلسها البهىّ بصدرهاملك بأعلى دسته متربّع

و كأنّ مجمر عنبر بفنائهايذكى و ما قد سيف منه يسطع

و كأنها المتوكلية بهجةو علىّ بن الجهم فيها يبدع

فى حجر ضبّ خافض بجوارهمن كان قبل له العوامل ترفع

يا نفثة المصدور كم لك قبلهامن زفرة بين الجوانح تسفع

و عساك تنقع غلّة بك إنهابجحيم ما أسبلته لا تنقع

للّه أنت مذاعة أودعتهامن كل سرّ بالضمائر يودع

بدويّة فى لفظها و نظامهاحضرية فيما به يترجّع

لم لا تشفع فى الذى أشكو بهاو مثالها فى مثله يتشفّع؟

كملت و ما افترعت فأىّ خريدةلو كان يفرعها همام أروع

بارت علىّ فأصبحت لحيائهامنى بضافى مرطها تتلفّع

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج ٢، ص: ٣٨٥

و من شعره قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد اللّه بن الحكيم، و هى من مشاهير أمداحه : [الطويل]

سل الرّيح إن لم تسعد السّفن أنواءفعند صباها من تلمسان أنباء

و فى خفقان البرق منها إشارةإليك بما تنمى إليها و إيماء

تمرّ الليالى ليلة بعد ليلةو للأذن إصغاء و للعين إكلاء

و إنى لأصبو للصّبا كلّما سرتو للنّجم مهما كان للنّجم إصباء

و أهدى إليها كلّ حين تحيّةو فى ردّ إهداء التحية إهداء

و أستجلب النوم الغرار و مضجعىقتاد كما شاءت نواها و سلّاء

لعلّ خيالا من لدنها يمرّ بىففى مرّه بى من جوى الشوق إبراء

و كيف خلوص الطّيف منها و حولها عيون لها فى كلّ طالعة راء

و إنى لمشتاق إليها و منبئببعض اشتياقى لو تمكّن إنباء

و كم قائل تفنى غراما بحبّهاو قد أخلقت منها ملاء و أملاء

لعشرة أعوام عليها تجرّمتإذا مضى قيظ بها جاء إهراء

يطنّب فيها عائثون و خرّب و يرحل عنها قاطنون و أحياء

كأنّ رماح الذاهبين لملكهاقداح، و أموال المنازل أبداء

فلا تبغين فيها مناخا لراكبفقد قلّصت منها ظلال و أفياء

و من عجبى أن طال سقمى و نزعهاو قسّم إضناء علينا و إطناء

و كم أرجفوا غيظا بها ثم أرجأوافيكذب إرجاف و يصدق إرجاء

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸۶ يردّدها عيّابها الدّهر مثلمايردّد حرف الفاء فى النطق فأفاء

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى‌ترى و هل لعمر الأنس بعدك إنساء ؟

و هل للظى الحرب التى فيك تلتظى‌إذا ما انقضت أيام بوسك إطفاء؟

و هل لى زمان أرتجى فيه عودةإليك و وجه البشر أزهر و ضّاء؟

فواسيئى حالى إن هلكت و لم أقل‌لصحبى بها الغرّ الكرام ألا هاؤا

و لم أطرق الدّير الذى كنت طارقاكعادى و بدر الأفق أسلع مشناء

أطيف به حتى تهرّ كلابهو قد نام عسّاس و هوّم سبّاء

و لا صاحب إلّا حسام و لهذمو طرف لخدّ الليل مذ كان و طّاء

و أسحم قارىّ كشعرى حلكةتلألأ فيه من سنى الصبح أضواء

فما لشرابى فى سواك مرارة و لا لطعامى دون بابك إمراء

و يا دارى الأولى بدرب حلاوة و قد جدّ عيث فى بلاها و إرداء

أما آن أن يحمى حماك كعهدهو تجتاز أحماش عليك و أحماء؟

أما آن أن يعشو لنارك طارق‌جنيب له رفع إليك و دأداء؟

يرجّى نوالا أو يؤمّل دعوةفما زال قار فى ذراك و قرّاء

أحنّ لها ما أطّت النّيب حولهاو ما عاقها عن مورد الماء أظماء

فما فاتها منى نزاع على النّوىو لا فاتنى منها على القرب إجشاء

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۸۷ كذلك جدّى فى صحابى و أسرتىو من لى به من أهل ودّى إن فاؤوا

و لو لا جوار ابن الحكيم محمدلما فات نفسى من بنى الدهر إقماء

حمانى فلم تنتب محلّى نوائب‌بسوء و لم ترزأ فؤادى أرزاء

و أكفاء بيتى فى كفالة جاههفصاروا عبيدا لى و هم لى أكفاء

يؤمّون قصدى طاعة و محبةفما عفته عافوا و ما شئته شاءوا

دعانى إلى المجد لذى كنت آملافلم يك لى عن دعوة المجد إبطاء

و بوّأنى من هضبة العزّ تلعةيناجى السّها منه صعود و طأطاء

يشيّعنى منها إذا سرت حافظو يكلأنى منها إذا نمت كلّاء

و لا مثل نومى فى كفالة غيرهو للذّئب إلمام و للصّلّ إلماء

بغيضة ليث أن بمرقب خالب‌تندّ كسا فيه و تقطع أكساء

إذا كان لى من نائب الملك كافل‌ففى حيثما هوّمت كنّ و إدفاء

و إخوان صدق من صنايع جاههيبادرنى منهم قيام و إيلاء

سراع لما يرجى من الخير عندهمو من كلّ ما يخشى من الشّرّ أبراء

إليك أبا عبد الإله صنعتهالزوميّة فيها لوجدى إفشاء

مبرّاة مما يعيب لزومهاإذا عاب إكفاء سواها و إيطاء

أذعت بها السّرّ الذى كان قبلهاعليه لأحناء الجوانح إضناء

و إن لم يكن كلّ الذى كنت آملاو أعوز إكلاء فما عاز إكماء

و من يتكلّف مفحما شكر منّهفما لى إلى ذاك التكلّف إلجاء

إذا منشد لم يكن عنك و منشئفلا كان إنشاد و لا كان إنشاء

الإحاطهٔ فى أخبار غرناطهٔ، ج۲، ص: ۳۸۸

و من شعره قوله: [المتقارب]

أطار فؤادى برق ألاحاو قد ضمّ بعد لوكر جناحا

كأنّ تألّقه فى الدّجىحسام جبان يهاب الكفاحا

أضاء و للعين إغفاءهتلذّ إذا ما سنا الفجر لاحا

كمعنى خفىّ بدا بعضهو زيد بيانا فزاد اتّضاحا

كأن النجوم و قد غربتنواهل ماء صدرن قماحا

لواغب باتت تجدّ السّرىفأدركها الصبح روحى طلاحا

و قد لبس الليل أسمالهفمحّت عليه بلا و انصياحا

و أيقظ روض الرّبا زهرهفحيّا نسيم صباه الصّباحا

كأنّ النهار و قد غالهامبيت مال حواه اجتياحا

أتى يستفيض دموعى امتياحاو يلهب نار ضلوعى اقتداحا

فلم يلق دجن انتحابى شحيحاو لم يلف زند اشتياقى شحاحا

و لو لا توقّد نار الحشالأنفدت ماء جفونى امتياحا

و ممّا يشرّد عنى الكرىهديل حمام إذا نمت صاحا

ينوح علىّ و أبكى لهفأقطع ليلى بكا أو نياحا

أعين، أريحى أطلت الأسىعليك و ما زدت إلّا انتزاحا

دعينى أرد ماء دمعى فلمأرد بعد مائك ماء قراحا

أحنّ إليك إذا سفت ريحاو أبكى عليك إذا ذقت راحا

و أفنى التياحا إليك و كمأشحت بوجهى عنك اتّشاحا

و لو لا سخائم قوم أبواإيابى ركبت إليك الرّياحا

أباحوا حماى و كم مرهٔحميت حمى عرضهم أن يباحا

و دافعت عنهم بشعرى انتصارافكان الجزاء جلائى المتاحا

أباعوا ودادى بخسا فسلأكان سماحهم بى رباحا؟

و أغروا بنفسى طلابهاسرارا فجاءوا لقتلى صراحا

و آلوا يمينا على أنّ ماتوهّمت لم يك إلّا مزاحا

فشاورت نفسى فى ذا فمارأت لى بغير الفلاهٔ فلاحا

فبتّ أناغى نجوم الدّجىنجاء فلم ألق إلّا نجاحا

الإحاطهٔ فى أخبار غرناطهٔ، ج۲، ص: ۳۸۹ أجوب الدياجير وحدى و لامؤانس إلّا القطا و السّراحا

و إلّا الثعالب تحتس فىمبيتى فتملأ سمعى ضباحا

أجوز الأفاحيص فيحا قفاراو أعرو الأداحىّ غبرا فساحا

فأعيى شوارد هذى عداءو أعلو لواغى تلك صياحا

و جوّاب بدو إذا استنبحواأجابوا عواء و أمّوا النّباحا

يرون قتالى فى الحجر حلّاو إذهاب نفسى فيه مباحا

قصدت هناهم فلم أخطهمأعاجم شوس العيون قباحا

فسل كيف كان خلاصى منأ سارهم أسرى أم سراحا؟

و لا مثل بيت تيمّمتهفلم ألف إلّا الغنا و السّماحا

عيابا ملاء و نيبا سماناو غيدا خدالا و عودا أقاحا

و إلّا أعاريب شمّ الأنوفكرام الجدود فصاحا صباحا

و إلّا يعافير سود العيونيرين فساد المحبّ صلاحا

يردّدن فينا لحاظا مراضايمرّضن منّا القلوب الصّحاحا

و تحت الوجاح طلا ربرب لو أنّ القيان رفعن الوجاحا

أرانى محاسن منه فلمأطق عن حماه بقلبى براحا

محيّا و سيما و فرعا أثيثاو قدّا قويما و ردفا رداحا

و أبدى لعينى بدائع لميدع لى عقلا بها حين راحا

إذا لم يرد غير سفك دمىفحلّ و بلّ له ما استباحا

و ما زلت سمحا بنفسى كذامتى ما رأيت الوجوه الملاحا

و بابن رشيد تعوّذت منهواه فقد زدت فيه افتضاحا

و قد ضاق صدرى عن كتمهو أودعته جفن عينى فباحا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۰ و بابن رشيد تعوّذت منخطوب أجلن علىّ القداحا

ألحّ الزمان بأحداثهفألقيت طوعا إليه السّلاحا

أعاد شبابى مشيبا كماسمعت و صيّر نسكى طلاحا

و فرّق بينى و بين الأهيلو لم ير ذا عليه جناحا

أخى و سميىّ، أصخ مسعدالشجو حزين إليك استراحا

فقد جبّ ظهرى على ضعفهكداما و أدهى شواتى نطاحا

و طوّح بى عن تلمسان ماظننت فراقى لها أن يتاحا

و أعجل سيرى عنه و لميدعنى أودّع تلك البطاحا

نأى بصديقك عن ربعهفكان له النّأى موتا صراحا

و كان عزيزا على قومهإذا هاج خاضوا إليه الرّماحا

فها هو إن قال لم يلتفتإليه امتهانا له و اطّراحا

عجبت لدهرى هذا و ماألاقى مساء به و صباحا

لقد هدّ منّى ركنا شديداو ذلّل منّى حياء لقاحا

وقيت الرّدى من أخ مخلصلو اسطعت طرت إليه ارتياحا

و إنى على فيح ما بينالأتبع ذاك الشّذا حيث فاحا

أحنّ إليه حنين الفحولو نوح الحمام إذا هو ناحا

و أسأل عنه هبوب النّسيمو خفق الوميض إذا ما ألاحا

و إن شئت عرفان حالى و مايعانيه جسمى ضنى أو صحاحا

فقلب يذوب إليك اشتياقاو صدر يفاح إليك انشراحا

و غرس وداد أصاب فضاءنديّا و صادف أرضا براحا

كراسخ مجد تأثّلتهفلم تخش بعد عليه امتصاحا

و علياء بوّئتها لو بغىسموّا إليها السّماك لطاحا

مكارم جمّعت أفذاذهافكانت لعطف علاك و شاحا

و درس علوم تهيم بهاعمرت الغدوّ به و الرّواحا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۱ نشأت عن الخير و اعتدتهفلم تدر إلّا التّقى و الصّلاحا

و قمت لها أيّما رحلةكسحت المعارف فيها اكتساحا

بهرت رجال الحديث اقتداءو فتّ رجال الكمال اقتراحا

فما إن جليس إذا قلت قالأو أنّ الخطيب إذا لحت لاحا

و لو لم تحجّ بها مكةلحجّ الملائك عنك صراحا

و أما أنا بعد نهى النّهىفما زادنى الطّبع إلّا جماحا

أدير كؤوس هواى اغتباقاو أشرب ماء دموعى اصطباحا

فبرّد جواى بردّ جواب‌توبّخ فيه مشى الوقاحا

و هنّ بنيّات فكرى و قدأتيتك فاخفض لهنّ الجناحا

و من شعره، رحمه اللّه، و له يمدح ذا الوزارتين المتقدم ذكره، و يذكر غفارة وجّهها له مع هديّة: [الكامل]

كبت العدى، إنعامك البغت‌فلى الهناء و للعدى الكبت

يا من إلى جدوى أنامله‌يزجى السّفين و تزجر البخت

لولاك لم يوصل بناحيةو خد و لم يقطع بها دشت

لولاك لم يطلع بها نشرمنه و لم يهبط بها خبت

خوّلتنى ما لم تسعه يدى‌فأصابنى من كثره غمت

شتّى أياد كلما عظمت‌عندى تلكّأ خاطرى الهتّ

يعيا لسانى عن إذاعتهاو يضيق عن شكرى لها الوقت

و طّأت لى الدنيا فلا عوج‌فيما أرى منها و لا أمت

أمكنتنى منها فما ليدى‌ردء و لا لمقالتى عتّ

بالغت فى برّى و لا نسب‌أدلى إليك به و لا حسب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۲ لكنّ حسبى إن متّ به‌يوما إليك ودادى البحت

بوركت من رجل برؤيته‌يوسى الضّنى و يعالج الغتّ

لو سار فى بهماء مقفرةفى حيث لا ماء و لا نبت

لتفجّر الماء النّمير بهاو لأعشبت أرجاؤها المرت

لا تحسبنّ البخت نیل غنی‌نیل الرضا منه هو البخت

آلت جلالته و حقّ لهاأن لا یحیط بکنهها نعت

أظهرت دین اللّه فی زمن‌ما زال یغلب حقّه البهت

شیّدته و هددت ممتعضالضیاعه ما شیّد الجبت

أمّنت أرض المسلمین فلاذئب یخاف بها و لا لصت

و حفظتها من کل نائبةتخشی فأنت حفیظها الثّبت

و نهجت سبل المکرمات فمالمؤمّل عن غایه ألت

لم تبق غفلا من متالعهاإلّا و فیه لحائر برت

هادن طغاة الکفر ما هدأتحتی یجیء نهارها المحت

دعها تودّع فی معاقلهاما لم تعدّ جفاتها العفت

کم ذدتها عنّا و قد هبرتلهراشنا أشداقها الهرت

بوقوف طرفک عند شدّتهیبأی و یفخر ملکها الرّتّ

و الشّکر ما أظهرت من کرمفی ذاک تفصح عجمها المرت

لک من ممالکها و إن رغمتما جال فیه جوادک الحتّ

و لکلّ أصید من بطارقهافی کلّ أری له دعت

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۳ لو لا لباک البیض ما أرقتللقائها أفراسنا الکمت

عندی لمن ینتابه مقةو لمن ینیب لغیره مقت

و لو أنّ بیضک لم تسل لمّاذلّت أنوف طغاتها السّلت

یا ابن الحکیم أمنت صرف ردیأبدا له فی أثلتی نحت

و بیمنه أنّست من أملی‌ما لم یکن یوما له عرت

مثنی الوزارة موئلی و لهما دمت أملک قدرتی أقت

و ببأسه أطفی شرارة من‌یعثو و أقدح أنف من یعتو

عمّ الوری جودا و فضل غنی‌حتی تساوی العدّ و الغلت

و همی علی عال و منخفض‌لم یبق فوق لا و لا تحت

ظلّ إذا نصطاف معتدل‌عطر الشّذا و حیا إذا نشتو

یتضاءل الصبح المنیر إذالاقی سناه جبینک الصّلت

حتی کأن شمس الضحی قمرو کأنّ ضوء شعاعها فخت

و غریبة فی لطف صنعتهایمضی الزمان و ما لها أخت

ینأی النّدی بها إذا لبستو یتیه إن طویت بها النّخت

زنجیّة لکن لمحتدهافی الرّوم یعنو القسّ و الشّنت

مثل العروس علی منصّتهامن شأنها التّزیین و الزّتّ

لأکون أنحل ما أکون هدی‌فیها فیعبل جسمی الشّخت

و بمثل شیبی فوق حلکتهایبدو الوقار و یحفظ السّمت

تظهرننی بلباسها و بهعندی لها الإیثار ما عشت

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۴ لا زلت تؤثرنی بها أبداو لا تف من یشقی بذا السّلت

و بقیت تدرک ما ترید و ماتهوی بقاء ما له فتّ

و من شعره أیضا فی المدح قوله، رحمه اللّه، من قصیدة ثبتت فی دیوان مجموع من أمداحه منها قوله: [الکامل]

طرقتک و هنا أخت آل علاجو الرّکب بین دکادک و حراج

فی لیلة لیلاء لم ینبح بهاکلب و لم یصرخ أذین دجاج

أنّی اهتدت لمضللین توهّنوامنها لهتک دیاجر و دیاج

متسربلی برد الظّلام کأنهمفیه قداح فی رمایة ساج

وثقوا بمحمود السّری و تسلّموالمخارم مجهولة و فجاج

و منازل درس الرسوم بلاقعأخوین من هیج و من هجهاج

محّت معالمهنّ غیر مثلّم کسوار تاج أو کدملج عاج

و مواثل مثل الحمام جواثمورق و أسمج دائم التّشحاج

و مشجّج ما زال منهل الحیایبکی صداه بدمعه الثّجّاج

حتی أعاد لعوده أوراقهخضر الظّلال ذکیة الآراج

و کسا عراة عراصه من وشیهحللا تبوّر صنعة الدیباج

لا مثل لیلات مضین سریعةبردت حرارة قلبی المهتاج

أدرکت منها فی صبای مطالبیو قضیت منها فی شبابی حاجی

کم لیلة مرّت و لم یشعر بهاغیری و غیر منادمی و سراجی

بتنا ندیر إلی انبلاج صباحهاکأس الهوی صرفا بغیر مزاج

و تدیر أعیننا حدیث غرامنابمرامز من فضّها و أحاج

بمآرج النّفحات من دارین أوبمدارج النّسمات من درّاج

و خلوص ودّ فی نقاء سریرةکسلاف راح فی صفاء زجاج

أمحضته حظّی من الزمن الذیأعیا مرامی أهله و علاجی

و اخترت قرب جواره لخلوصهو ترکت کلّ مماذق مرّاج

ما فی زمانک غیره فاخلص لهغیبا و داهن من أردت وداج

لا تحفلنّ بغیره و استعفینبوقاره عن کل غمر ماج الإحاطة فی أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۳۹۴

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۵ اترک بنی الدنیا و أعرض عنهمفعساک تطعم لذّة الإثلاج

نزّهت نفسی عنهم بنوالهو حفظتها من جاهه بسیاج

أصبحت من آلائه و ولائهفی عزّة ضحیا و عزّ داج

و لو اننی عجت الرکاب میمّماأحدا سواه ما حمدت معاجی

طلق إذا احتلک الزمان أنار فیظلمائه کالکوکب الوهّاج

طود الرّصانة و الرّزانة و الحجابحر النّدی المتلاطم الأمواج

و غمامه الهامی علی آمالهمن غیر إرعاد و لا إرعاج

و هزبر آجام القنا الضّاری إذاسقطت عواتمها علی الأزجاج

ضمن الإله له علی أعدائهما شاء من ظفر و من إفلاج

أبقی أبو عبد الإله محمدما شاد والده أبو الحجّاج

و بنی أبو إسحاق قبل و صنوهرکنا الضعیف و معدنا المحتاج

و جری علی آثار أسلاف لهمدرجوا و کلّهم علی منهاج

ما منهم إلّا أعزّ مبارکمصباح لیل أو صباح عجاج

بیت بنوه من سراوة حمیرفی الذّروة العلیاء من صنهاج

کم کان فی الماضین من أسلافهممن ربّ إکلیل و صاحب تاج

أساس کل رئاسة و رؤوس کلل سیاسة و لیوث کل هیاج

أعیت نجوم اللیل من سهر و ماأعیا أبو موسی من الإدلاج

حتی أصارته لرحمة ربّهیوم العقاب وقیعة الأعلاج

و أقیم نجل أخیه بعد مقامهفیهم یطاعن مثله و یواج

فردا یلفّ کتائبا بکتائبو یکبّ أفواجا علی أفواج

حتی تجلّی دجن کلّ عجاجةعنهم و أمسک رعد کل ضجاج

من مثل یوسف فی قراع کتائبو لقاء أعداء و خوض لجاج؟

أو من یشقّ من الأنام غبارهفی ردّ آراء و نقض حجاج

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۶ إن خاض یوما فی بیان حقیقةأنهی عن الثّوری و الحلّاج

و إذا تکلّم فی الغریب و ضبطهلم یعبأ بالعتبیّ و الزّجّاج

أنست قصائد جرول أشعارهو أراجز العجلیّ و العجّاج

جمع الفصاحة و الصبّاحة و التقیو الجود فی وجد و فی إحراج

تخشاه أسد الغاب فی أجماتهاو الرّوم فی الأسوار و الأبراج

إنّا بنی قحطان لم نخلق لغیر غیاث ملهوف و منعة لاج

نبری طلی الأعراب فی الهیجا و فی اللأواء سوف نماری الأعراجی

بسیوفنا البیض الیمانیة التیطبعت لحزّ غلاصم و وداج

تأبی لنا الإحجام عن أعدائنایوم اللّقاء طهارة الأمشاج

أنصار خیر العالمین و حزبهو حماته فی الجحفل الرّجراج

و فداته بنفوسهم و نفیسهممن غدر مغتال و سبّة هاج

هم صفوة الخلق التی اختیرت لهو سواهم همج من الأهماج

إلّا الألی سبقوا بباهر فضلهممن سائر الأصحاب و الأزواج

و کفی بحکمتنا إقامة حجّةو برکننا من کعبة الحجّاج

و لنا مفاخر فی القدیم شهیرةکالصّبح فی وضح و فی إبلاج

منّا التّبابعة الذین ببابهم کانت تنیخ جباة کلّ خراج

و لأمرهم کانت تدین ممالک الدّنیا بلا قهر و لا إحراج

من يقتدح زندا فإنّ زنادهمفى الجود وارية بلا إخراج

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۷ أبوابهم مفتوحة لضيوفهم أبدا بلا قفل و لا مزلاج

و مما اشتهر من شعره قوله : [السريع]

أرّق عينى بارق من أثال كأنّه فى جنح ليلى ذبال

أثار شوقا فى ضمير الحشاو عبرتى فى صحن خدّى أسال

حكى فؤادى قلقا و اشتعالو جفن عينى أرقا و انهمال

جوانح تلفح نيرانهاو أدمع تنهلّ مثل العزال

قولوا و شاة الحبّ ما شئتمما لذّة الحبّ سوى أن يقال

عذرا للوّامى و لا عذر لىفزلّة العالم ما إن تقال

قم نطرد الهمّ بمشمولةتقصّر الليل إذا الليل طال

و عاطها صفراء ذمّيّةتمنعها الذّمّة من أن تنال

كالمسك ريحا و اللّمى مطعماو التّبر لونا و الهوى فى اعتدال

عتّقها فى الدّنّ خمّارهاو البكر لا تعرف غير الحجال

لا تثقب المصباح لا و اسقنىعلى سنى البرق و ضوء الهلال

فالعيش نوم و الرّدى يقظةو المرء ما بينهما كالخيال

خذها على تنغيم مسطارها بين خوابيها و بين الدّوال

فى روضة باكر وسميّهاأخمل دارين و أنسى أوال

كأنّ فأر المسك مغبوقة فيها إذا هبّت صبا أو شمال

من كلّ ساجى الطّرف ألحاظهمفوّقات أبدا للنضال

من عاذرى و الكلّ لى عاذل من حسن الوجه قبيح الفعال

من خلّبىّ الوعد كذّابهليّان لا يعرف غير المطال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۸ كأنه الدهر و أىّ امرئيبقى على حال إذا الدهر حال

أما ترانى آخذا ناقضاعليه ما سوّغنى من محال؟

و لم أكن قطّ له عائباكمثل ما عابته قبلى رجال

يأبى ثراء المال علمى، و هليجتمع الضّدّان: علم و مال؟

و تأنف الأرض مقامى بهاحتى تهادانى ظهور الرجال

لو لا بنو زيّان ما لذّ لى العيش و لا هانت علىّ اللّيال

هم خوّفوا الدهر و هم خفّفواعلى بنى الدهر خطاه الثّقال

ورثت من عامرهم سيّداغمر رداء الحمد عمر النّوال

و كعبة للجود منصوبةيسعى إليها الناس من كل حال

خذها أبا زيّان من شاعرمستملح النّزعة عذب المقال

يلتفظ الألفاظ لفظ النّوىو ينظم الآلاء نظم اللآل

مجاريا مهيار فى قوله(ما كنت لو لا طمعى فى الخيال)

و مما قال أيضا، و اشتمل ذلك على شيء من نظمه و نثره، و هذا الرجل مغرب النزعة، فى شفوف نظمه على نثره : [الكامل]

عجبا لها أ يذوق طعم وصالهامن ليس يطمع أن يمرّ ببالها؟

و أنا الفقير إلى تعلّة ساعةمنها، و تمنعنى زكاة جمالها

كم ذاد عن عينى الكرى متأنف يبدو و يخفى فى خفىّ مطالها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۳۹۹ يسمو لها بدر الدّجى متضائلاكتضاؤل الحسناء فى أسمالها

و ابن السّبيل يجيء يقبس نارهاليلا فتمنحه عقيلة مالها

يعتادنى فى النوم طيف خيالهافتصيبنى ألحاظها بنبالها

كم ليلة جادت به فكأنّمازفّت علىّ ذكاء وقت زوالها

أسرى فعطّلها و عطّل شهبهابأبى شذا المعطار من معطالها

و سواد طرّته كجنح ظلامهاو بياض غرّته كضوء هلالها

دعنى أشم بالوهم أدنى لمحة من ثغرها و أشمّ مسكة خالها

ما راد طرفى فى حديقة خدّهاإلّا لفتنته بحسن دلالها

أ نسيب شعرى رقّ مثل نسيمهافشمول راحك مثل ريح شمالها

و انقل أحاديث الهوى و اشرح غريب لغاتها و اذكر ثقات رجالها

و إذا مررت برامة فتوقّ من أطلائها و تمشّ فى أطلالها

و انصب لمغزلها حبالة قانصودع الكرى شركا لصيد غزالها

و أسل جداولها بفيض دموعهاو انضح جوانحها بفضل سجالها

أنا من بقيّة معشر عركتهمهذى النّوى عرك الرّحى بثفالها

أكرم بها فئة أريق نجيعهابغيا فراق العين حسن جمالها

حلّت مدامة وصلها و حلت لهمفإن انتشوا فبحلوها و حلالها

بلغت بهرمس غاية ما نالهاأحد وناء بها لبعد منالها

وعدت على سقراط صورة كأسهافهريق ما فى الدّن من جريالها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۰ و سرت إلى فاراب منها نفحةقدسيّة جاءت بنخبة آلها

ليصوغ من ألحانه فى حانهاما سوّغ القسيس من أرمالها

و تعلقت فى سهرورد فأسهرتعينا يؤرّقها طروق خيالها

فخبا شهاب الدّين لمّا أشرقتو خبا فلم يثبت لنور جلالها

ما جنّ مثل جنونه أحد و لاسمحت يد بيضا بمثل نوالها

و بدت على الشّوذىّ منها نفحة ما لاح منها غير لمعة آلها

بطلت حقيقته و حالت حالهفيما يعبّر عن حقيقة حالها

هذى صبابتهم ترقّ صبابةفيروق شاربها صفاء زلالها

اعلم أبا الفضل بن يحيى أننىمن بعدها أجرى على آسالها

فإذا رأيت مولّها مثلى فخذفى عذله إن كنت من عذّالها

لا تعجبنّ لما ترى من شأنهافى حلّها إن كان أو ترحالها

فصلاحها بفسادها و نعيمهابعذابها و رشادها بضلالها

و من العجائب أن أقيم ببلدةيوما و أسلم من أذى جهّالها

شغلوا بدنياهم أما شغلتهمعنّى فكم ضيّعت من أشغالها

حجبوا بجهلهم فإن لاحت لهمشمس الهدى عبثوا بضوء ذبالها

و إن انتسبت فإننى من دوحةتتقيّل الأقيال برد ظلالها

من حمير من ذى رعين من ذرى حجر من العظماء من أقيالها

و إذا رجعت لطينتى معنى فماسلسالهم بأرقّ من صلصالها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۱ للّه درّك أىّ نجل كريمةولدته فاس منك بعد حبالها

و لأنت لا عدمتك والد فخرهاو سماك سؤددها و بدر كمالها

اغلظ على من عاث من أنذالهاو اخشع لمن تلقاه من أبدالها

و البس بما أوليتها من نعمةحلل الثّناء و جرّ من أذيالها

خذها أبا الفضل بن يحيى تحفةجاءتك لم ينسج على منوالها

ما جال فى مضمارها شعر و لاسمحت قريحة شاعر بمثالها

و أثل أبا البركات من بركاتهاو ادفع محال شكوكه بمحالها

هذه، أمتع اللّه ببقائك، و أسعد بلقائك، و أراها بما تؤمّله من شريف اعتنائك، و ترجوه من جميل احتفائك، ما تعرف به من احتذائك، و تعترف له ببركة اعتفائك، كريمة الأحياء، و عقيلة الأموات و الأحياء، بنت الأذواء و الأقيال، و مقصورة الأسرّة و الحجال، بل أسيرة الأساوير و الأحجال، على أنها حليفة آلام و أوصاب، و أليفة أشجان و أطراب، صبابة أغراب من صيّابة أعراب، جاورت سيف بن ذى يزن فى رأس غمدان، و جاوزت مسلمة بن مخلد يوم جابية الجولان، و ذلقت لسان ابن أخته حسّان، فتضاءلت لرقة حدّه جسوم بنى عبد المدان، و قرّبه و ما شيم من غمده قيد ابن الإطنابة بين يدى النّعمان، قربت ببنى جفنة مزار جلّق، و سعرت لبنى تميم نار محلق، و مرّت على معتاد غالب فما أنست ناره، و طافت ببيت عبد اللّه بن دارم فلم ترض جواره، و لو حلّت بفنائه، و استحلّت ما أحلّ لها من مبذول حبائه، لاغتفر لها ما جنته ببطن أواره، و لحلّت لها حبوتا مجاشع و زراره، مزقت على مزيقيا حللا، و أذهبت يوم حليمة مثلا، و أركبت عنزا شرّ يومها يجدع جملا، و ناطت بأذن مارية قرطها، و جرّت على أثر الكندى مرطها، وقفها بين الدّخول فحومل فوقفت، و أنفها يوم دارة جلجل فأنفت منه و ما ألفت، عقر ناقته و انتهس عبيطها، و دخل خدر عنيزة و أمال غبيطها. أغرت أبا قابوس بزياد، و أسرجت للزبيدى فرس أبى داود و نافرت بحاتم طيّ كعب إياد، و ساورت للمساور، بمثل جوده السّائر. و لئن بلت الجعفرى لبيدا، فلقد استعبدت الأسدى عبيدا، و قطعت به فى أثر سليماه الأسدية بيدا، أرته المنيّة على حربة هندها الملحوب، و ما حال قريضه، دون جريضه، و أقفر من أهله ملحوب، و ما زالت تخبط فى شعاب الأنساب فترشد، و تنشد ضالتها اليمانية، فتنشد:

[الكامل]

إن كنت من سيف بن ذى يزنفانزل بسيف البحر من عدن

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۲ و ذر الشآم و ما بناه به الرومىّ من قصر و من فدن

تعلف سيل العرم و تردغسان، و تمهد لها أهضام تبالة فتقول: مرعى و لا كالسّعدان ، تساجل عن سميحة بابن خرام، و تناضل بسمير يوم خزام، و تنسى قاتل ستة آلاف، و كاسى بيت اللّه الحرام ثلاثة الأفواف، فلو ساجلت بنبعها أبا كرب، و أرته ضراعة خدّها التّرب، لساجلت به أخضر الجلدة فى بيت العرب، ماجدا يملأ الدّلو إلى عقد الكرب، بل لو حطت بفناء بيتها الحجرى رحلها، و ساجلت بفناء جدّها ذى رعين لاستوفت سجلها. كم عاذت بسيفها اليزنى، فأدركت ذحلها، و لاذت بركنها اليمنى، فأجزل محلها، و لو استسقت

بأوديتها لأذهبت محلها. كافحت عن دينها الحنيفيّ، فما كهم حسامها، و نافحت عن نبيّها الأمّيّ فأيّدت بروح القدس سهامها. سدّت باب الدرب دون بنى الأصفر، و شدّت لموته ثوب موت أحمر، و ما شغلها كسر تاج كسرى عن قرع هامة قيصر. و لقد حلّت من سنام نسبها اليعربى باسمك ذروة، و تعلّقت من ذمام نبيّها العربى بأوثق عروة. تفرّد صاحب تيماء بأبلقه الفرد فعزّ، و تمرّد ربّ دومة الجندل لما كان من مارد فى حرز، فما ظنك، أعزك اللّه، بمن حلّ من قدسى عقله، بمعقل قدس، يطار إليه فلا يطار، وراد من فردوس أدبه فى جنّة لا- يضام رائدها و لا- يضار. زها بمجاورة الملك، فازدهى رؤساء الممالك، و شغف بمجاورة الملك، فاشتغل عن مطالعة المسالك، أ يشقّ غباره، و على جبين المرزم مثاره، أو ينتهك ذماره، و قلب الأسد بيته و دار أخيه أسامة زاره. و لما قضت من أنديتها العربية أوطارها، و استوفت على أشرف منازعها الأدبية أطوارها، و عطّرت بنوافح أنفاسها الذّكية آثارها، و أطلعت فى ظلم أنفاسها الدّجوجية كواكبها النيّرة و أقمارها، عطفت على معقلتها الشاذلية فحلّت عقالها، و أمر لها فراق الوطن فلمّا استمرّ لها حلالها، استودعت بطنان تبالة آلها، و تركت أهضامها المخصبة و حلالها، أطلّت على دارات العرب فحيّت أطلالها، ودعت لزيارة أختها اليونانية أذواء حمير و أقيالها. أطمعتها بلمعيّة ألمعيّتها الأعجمية، و مثلها يطمع، و جاء بها من قدماء الحكماء كلّ أوحدى الأحوذية، فباتت تخبّ إليه و توضع، باحثة عن مركز دارتهم الفيثاغورية، آخذة فى إصلاح هيئتهم الإنكساغورية، مؤثرة لما تدلّ عليه دقائق حقائق بقايا علوم مقايسهم البرهانية، و تشير إليه رموز كنوز وصايا علماء نواميسهم الكلدانية، من مأثور تأثير لاهوتية قواهم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۳

السّيماوية، راغبة فيما يفاض على مادتها الجسمانية، و يطرأ على عاقليّتها الهيولانية، من علويات آثار مواهبها الربّانية، موافقة لمثلهم المفارقة أفضل موافقة، موافقة لما وافق من شوارد آرائهم الموفّقة أحسن موافقة. و تحت هذه الأستار محذرات أسرار أضرّ بها الإسرار، و طالما نكر معارفها الإنكار، و نقلت من صدور أولئك الصّدور إلى بطون هذه الأوراق، فى ظهور فوق دفاتر فلسفيات معانى علومهم الرّقاق. و فى تلك المغانى، أبكار معانى، سكن الجوانح و الصدور، بدل الأرائك و الخدور، و لحن فى دياجى، ظلم هذه الأحاجى، كأقمار فى أطمار بهرن و ما ظهرن، و سطعن و ما لمعن، فعشقن و ما رمقن، و استملحن و ما لمحن. أدرن خمور أجفانهن، على ماخوريات ألحانهن، فهيّجت البلابل، نغم هذه البلابل، و استفرغته الأكياس، مترعات تلك الأكواس. ما سحر بابل، كخمر بابل، و لا منتقى أغانيهن الأوائل، كحمائمكم الهوادل، إن وصلت هديلها بحفيف، وصلن ثقيلهن بخفيف. إيه أيها الشّمرى المشمعل، دعنا من حديثك المضمحل، سر بنا أيها الفارس النّدس ، من حظيرة النّفس، إلى حضرة القدس، صرّح بإطلاق الجمال، و جل من عالميّتك الملكوتية فى أفسح مجال، تمش بين مقاصر قصورها، و معاصر خمورها، رخىّ البال، مرخىّ السربال، فما ينسج لك على منوال، نادم عليها من شغف دنّ سقراط، إن استحسنت لها حسان فما يصلح لك صالح بن علاط، بت صريع محيّاها فقد أوصت بمعالجة عقير معاقرة عقارها بقراط، لا- تخش صاحب شرطتها فلا شرط له عليك و لا اشتراط، ما لك غير مبديك الأول، من قال امتثل الأمر و ما عليك من أمر وال. على رسلك ما هذا العجل، لا خطأ تتوقعه و لا خطل، أمكره أنت فى هذه الكريهة، أم بطل. لو علم أنك ضبارية هذا الخميس، و خبعثة ذلك الخميس، لما عانى اليمّ رسيس، شوقا إليك محمد بن خميس، على أن لا غالب اليوم لأنى غالب، و لا طالب يدرك شأو هذا الطالب، فقه بلا تفهق، و حذق فى تحذلق. أقسم أبا الفضل بما لك على أبى البركات من الفضل، ذلك العراقى الأرومة، لا هذا الفارسى الجرثومة، و إن يك ذلك، إسرائيلى الأصل، و هذا إسماعيلى الجنس، علوى الفضل. فلتلك الذات، شرف تلك الأدوات. قدّم لى غالبنا المذكور، من بأسه الغرّ لأرفع و أسمى من مقعد رقوطيّهم المشهور، من إغرناطة الحمراء، و من متبوّإ أبى أميّتهم المرحوم من جنّات جزيرتهم الخضراء، فيما لنت أبا الفضل من هذه العربجة، و ألوك، أ رأيت فى عمرك مثل هذا الصعلوك؟ لا و اللّه ما على ظهر هذه الغبرا، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة فى بنى غبرا. فأى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۴

شىء هذا المنزع؟ إيش، لا حال لنا معك و لا عيش، من يضحك على هذا الطيش. ما هذا الخبل، أخمار بك أم ثمل؟ ارجع إلى ما

كنت بصدده وقيت الزّلل، خذ فى الجدّ فما يليق بك الهزل، رقّ عن ذلك فحكّ لنا منه أرقّ غزل، ما ذا أقول؟ و أى عقل يطاوعنى على هذا المعقول؟ أفحمتنى، و اللّه، عن مكالمتكم هذه المحن، و منعتنى من طلب مسالمتكم ما لكم علىّ فى دنياكم هذه من الإحن. إن تكلمت كلمت، و إذا استعجمت عجمت. أما لهذه العلة آس، أم على هذه الفيلة مواس؟ ما حيلتى فى طبع بلدكم الجاسى؟ أما يلين لضعفى، أما يرقّ قلب زمانكم القاسى؟ ما هذه الدّمن، يا بنى خضراوات الدمن، أظهرتم المحن، فقلب لكم ظهر المجنّ . إن مرّ بكم الولى حمّقتموه، و إن زجركم العالم فجرتم عليه ففسّقتموه، و إذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به، فكفّرتموه و زندقتموه. كونوا فوضى، فما لكم اليوم مسرى سواه و اذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث شئتم، فقد أهملكم الرعاة. ضيّعتم النص و الشرائع، و أظهرتم فى بدعكم العجائب و البدائع. نفّقتم النّفاق، و أقمتم سوق الفسوق على ساق. استصغرتم الكبائر، و أبحتم الصّغائر، أين غيّكم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر؟ أين عالمكم الماهر، يرشد متعلّمكم الحائر. مات العلم بموت العلماء، و حكم الجهل بقطع دابر الحكماء. جرّد لنا شريعتك يا أفضل الشّارعين، أتمّ فيها موعظتك يا أفصح التابعين. لا، و اللّه، ما يوقظكم من هذا الوسن، وعظ الحسن، و لا ينقذكم من فتن هذا الزمن، إلّا سيف معلّمه أبى الحسن، و السلام.

قدم غرناطة فى أواخر عام ثلاثة و سبعمائة. و توفى فى يوم مقتل صاحبه الوزير أبى عبد اللّه بن الحكيم؛ فرّ من دهليز جاره فيمن كان بها من الأعلام، بعد أن نهبت ثيابه، حسبما جرى على غيره من الحاضرين، و هو يقول: هكذا تقوم الساعة بغتة.

و لقيه بعض قرابة السلطان، ممن كان الوزير قد وتره، فشرع الرّمح إليه، فتوسّل إليه برسول اللّه، فلم يقبل منه، و طعنه، فقتله يوم عيد الفطر عام ثمانية و سبعمائة، و آخر العهد به، مطّرحا بالعراء، خارج باب الفخّارين، لا يعلم قبره؛ لمكان الهرج فى تلك الأيام، نسأل اللّه جميل ستره، و ساء بأثر قتله إياه حال ذلك الرجل و فسد فكره، و شرد نومه و أصابته علّة رديّة، فكان يثب المرة بعد الأخرى، يقول: ابن خميس يقتلنى، حتى مات لأيام من مقتل المذكور.

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۵

محمد بن عمر بن على بن إبراهيم المليكشى

يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: كان فاضلا، متخلقا، أديبا، شاعرا، صوفيا، جميل العشرة، حسن الخلق، كريم العهد، طيّب النفس. كتب عن الأمراء بإفريقية، و نال حظوة، ثم شرّق و حجّ، و لقى جلّة، و وصل الأندلس عام ثمانية عشر و سبعمائة، فلقى بغرناطة حفاية، و انسحبت بها عليه جراية، ثم انصرف إلى وطنه، و ناله به اعتقال، ثم تخلّص من النّكبة، و أقام به، يزجى وقته إلى آخر عمره.

و جرى ذكره فى «الإكليل الزاهر» : كاتب الخلافة، و مشعشع الأدب المزرى بالسّلافة، كان، يرحمه اللّه، بطل مجال، و ربّ رويّة و ارتجال، قدم على هذه البلاد و قد نبا به وطنه، و ضاق ببعض الحوادث عطنه، فتلوّم بها تلوّم النسيم بين الخمائل، و حلّ بها محل الطّيف من الوشاح الجائل، و لبث مدة إقامته تحت جراية واسعة، و ميرة يانعة. ثم آثر قطره، فولّى وجهه شطره، و استقبله دهره بالإنابة، و قلّده خطّة الكتابة، فاستقامت حاله، و حطّت رحاله. و له شعر أنيق، و تصوّف و تحقيق، و رحلته إلى الحجاز سببها فى الخبر وثيق، و نسبتها فى الصالحات عريق.

شعره: نقلت من خطّ الوزير أبى بكر بن ذى الوزارتين، مما قيّد عنه، و كان خبيرا بحاله : [الطويل]

رضى نلت ما ترضين من كلّ ما يهوىفلا توقفينى موقف الذلّ و الشّكوى

و صفحا عن الجانى المسىء لنفسه كفاه الذى يلقاه من شدّة البلوى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۶ بما بيننا من خلوة معنويةأرقّ من النجوى و أحلى من السّلوى

قفى أتشكّى لوعة البين ساعةو لا يك هذا آخر العهد بالنّجوى

قفى ساعة فى عرصة الدار و انظرىإلى عاشق لا يستفيق من البلوى

و كم قد سألت الريح شوقا إليكمفما حنّ مسراها إلىّ و لا ألوى

فيا ريح، حتى أنت ممّن يغار بىو يا نجد، حتى أنت تهوى الذى أهوى

خلقت ولى قلب جليد على النّوىو لكن على فقد الأحبّة لا يقوى

و حدّث بعض من عنى بأخباره، أيّام مقامه بمالقة و استقراره، أنه لقى ليلة بباب الملعب من أبوابها ظبية من ظبيات الإنس، و فتنة من فتن هذا الجنس، فخطب وصالها، و اتّقى بفؤاده نصالها، حتى همّت بالانقياد، و انعطفت انعطاف الغصن الميّاد، فأبقى على نفسه و أمسك، و أنف من خلع العذار بعد ما تنسّك، و قال :

[الكامل]

لم أنس وقفتنا بباب الملعببين الرّجا و اليأس من متجنّب

وعدت فكنت مراقبا لحديثهايا ذلّ وقفة خائف مترقّب

و تدلّلت فذللت بعد تعزّزيأتى الغرام بكلّ أمر معجب

بدويّة أبدى الجمال بوجههاما شئت من خدّ شريق مذهب

تدنو و تبعد نفرة و تجنّيا فتكاد تحسبها مهاة الرّبرب

ورنت بلحظ فاتر لك فاتن أنضى و أمضى من حسام المضرب

و أرتك بابل سحرها بجفونهافسبت، و حقّ لمثلها أن تستبى

و تضاحكت فحكت بتيّر ثغرهالمعان نور ضياء برق خلّب

بمنظّم فى عقد سمطى جوهرعن شبه نور الأقحوان الأشنب

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۷ و تمايلت كالغصن أخضله النّدى ريّان من ماء الشبيبة مخصب

تثنيه أرياح الصّبابة و الصّبافتراه بين مشرّق و مغرّب

أبت الرّوادف أن تميل بميلهفرست و جال كأنه فى لولب

متتوّجا بهلال وجه لاح فىخلل السجوف لحاجب و محجّب

يا من رأى فيها محبّا مغرمالم ينقلب إلّا بقلب قلّب

ما زال مذ ولّى يحاول حيلةتدنيه من نيل المنى و المطلب

فأجال نار الفكر حتى أوقدتفى القلب نار تشوّق و تلهّب

فتلاقت الأرواح قبل جسومهاو كذا البسيط يكون قبل مركّب

و من مقطوعاته البديعة، مما سمع منه بغرناطة، حرسها اللّه، أيام مقامه بها قوله : [الطويل]

أرى لك يا قلبى بقلبى محبّةبعثت بها سرّى إليك رسولا

فقابله بالبشرى و أقبل عشيّةفقد هبّ مسك للنسيم عليلا

و لا تعتذر بالقطر أو بلل النّدىفأحسن ما يأتى النسيم بليلا

و نقلت من خط الفقيه القاضى أبى جعفر الرّعينى، مما أملاه علىّ بمنزله بغرناطة، قال: و حضرت فى عام ثلاثة عشر و سبعمائة، يوم إحرام الكعبة العليّة، و ذلك فى شهر ذى القعدة على اصطلاحهم فى ذلك، و صفته أن يتزيّن سدنة البيت من شيبة بأحسن زى، و يعمدوا إلى كرسى يصل فيه صاعده إلى ثلث الكسوة، و يقطعها من هنالك، و يبقى الثلثان إلى الموسم، و هو يوم مشهود عند سكان الحرم، يحتفل له، و يقوم المنشدون أدراج الكعبة ينشدون. فقلت فى ذلك: [الطويل]

أ لم ترها قد شمّرت تطلب الجدّاو تخبر أنّ الأمر قد بلغ الحدّا؟

فجدّ كما جدت إليها و شمّرعن السّاعد الأقوى تنل عندها سعدا

طوت بردها طيّ السّجلّ كنايةلأمر خفيّ سرّه طوت البردا

و أندت محيّاها فحيّى جمالهو قبّل على صوت المقى ذلك الخدّا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۸ فكم سترت سود البرود جمالهاو غطّته لكن عن سنها الرمدا

و كم خال ذاك الخال عما مقصّرعن العلم بالأنساب لا يعرف الحدّا

لقد سفرت عن وجهها الكعبة التىلها الحجر المسنىّ فى حسنها المبدا

و قالت ألا أين مكلّلى، قصدوا إلى جمالى فقد أبدى الحجاب الذى أبدا

فلبّت لها العشّاق من كل جانبيؤمّونها يستقربون لها البعدا

فمن ندف أشفى على تلف و منمحبّ على قرب يهيم بها وجدا

و من ساهر على النجوم و لم يذقبعينيه طعم النور أو يبلغ القصدا

يسائل عن بدر و بدر تجاههكذاك اشتراك اللفظ قد ينغص الخدا

و من مستهام لا يقرّ قراره كأنّ به من حرّ أشواقه وقدا

يقلّب قلبا بين جنبيه مورياأوار الأسى فيه فتحسبه زندا

إذا ما حدا حادى الرّكاب ركابه كأنّ قلوب الراكبين له نجدا

أحاد بها إن أنت جئت بها منىو نلت المنى و الأمن فانزل ورد وردا

و لا خوف هذا الخيف و التربة التىسرت بهما قد عيّن المصطفى عدّا

و فى عرفات فاعترف و انصرف إلىمشاعر فيها يرحم المالك العبدا

و إن كنت من أوفى العبيد جرائمافحسّن نبيل العقد من ربّك العقدا

لئن صدقت فيك الوعيد جرائمفعفوا جميل الصفح يصدقك الوعدا

وعد مفضيا للبيت طف و استلم و قمبها للمقام الرحب و اسجد و كن عبدا

ورد فى الثنا و الحمد و الشكر و اجتهدفمن عرف الإحسان زادته حمدا

و عج نحو فرض الحب و اقض حقوقهوزر قبر من أولاك من هديه رشدا

قال: و كنت فى زمن الحداثة، أفضّل الأصيل على السّحر، و أقول فيه رقّة المودّع و رقّة المعتذر. فلمّا كان أوان الأسفار، و اتصلت ليالى السير إلى أوقات

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۰۹

الأسحار، رأيت أفق الشرق، و وجدت القائل بفضل السّحر أصدق، فابتدأت راكبا، فلمّا جئت لذكر الجناب العلىّ النبوى، أتممت ماشيا، و أنا فى رملة بين مصر و عقبة إيله، و قلت: [البسيط]

ما أحسن الأفق الشرقىّ إسفارافكم هذا فى دجى الإدلاج أسفارا

إذا بدا سارت الأظعان هاديةله و صارت به الظلماء أنوارا

يجلو غياهب ليل طالما سدلتعلى المحبين فى الظلماء أستارا

و نمّ منه نسيم ثم ذا بعدعلى أحاديث كانت ثمّ أسرارا

سرت سحيرا فبرّت سرّ ذى سحرأهدت له ريح من يهواه معطارا

سرت ببانات أكناف اللّوى فغدت كأنّ دارين قد أصبحت دارا

طابت بطيبة أرواح معطرةبها فأصبح أفق الشوق عطّارا

كأنما فلق الإصباح حين بداخدّ و بهجة حسن الشمس قد وارى

حقى بدت و تبدّت حسن صورتهافعمّت الأرض أنجادا و أغوارا

كأنه دعوة المختار حين بدتدانت لها الخلق إعلانا و إصرارا

من نوره كل نور أنت تبصرهو نوره زاد للأبصار إبصارا

هدا به اللّه أقواما به سعدا لولاه كانوا مع الكفر كفّارا

هو الشّفيع الذى قالت شفاعتهللموبقين ألا لا تدخلوا النّارا

هو العفوّ عن الجانى و إن عظمتمن المسىء ذنوب كان غفّارا

هو الكريم الذى ما ردّ سائلهيوما و لو كرّر التّسآل تكرارا

هو الحبيب الذى ألقى محبتهفى كل قلب فقلبى نحوه طارا

أحبّه كلّ مخلوق و هام بهحتى الجمادات أحجارا و أشجارا

و انشقّ بدر الدّجى من نور غرّتهو انهلّت السّحب من كفّيه أنهارا

و من مقطوعاته، قال: و مما نظمته فى ليل السّرى، و تخيل طيف الكرى، مبدأ قصيد قصدته، أى معنى أردته، أشغل عنه ما بى منه: [الخفيف]

منع الهجر من سليمى هجوعافانثنى طبعها يريد الرّجوعا

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۰ بعثته ليلا يعلّل قلبامستهاما بها محبّا ولوعا

لم يجد غير طرف جفن قريحشاخصا نحوها يذرّ الدّموعا

و كتب إلى صديقه شيخنا أبى بكر بن شبرين من بجاية، و هو معتقل بقصبتها، و قد امتحنه بذلك أبو عبد اللّه بن سيد الناس: [الخفيف]

شرح حالى لمن يريد سؤالىإننى فى اعتقال مولى الموالى

مطلق الحمد و الثناء عليهو هو للعطف و الجميل موال

لا أرى للولاة فىّ احتكاماو ولىّ مال على كل وال

أرتجى بالمصاب تكفير ذنبىحسبما جاء فى الصّحاح العوالى

لا تدوم الدّنا و لا الخير فيهاو كذا الشّرّ ذا و ذا للزوال

فاغتنم ساعة الوصال و كم منمحنة و هى منحة من نوال

فإذا غبت عنك فاحضر تجدهاللجواب المفيد عن السؤال

فهى نور النهار و النور منهاو هى الأنس فى الليالى الطوال

فاستدمها تدم و لا تضج منهاو أدرها على اليمين و وال

فإنّ الكأس مجراها على اليمين، و مسراها لفى الصبح المبين، تغنى عن الإصباح و المصباح، و تدنى لهم معنى النور المشرق فى الوجوه الصّباح، و تجرى فى الأشباح، فتسرى فى الأرواح. و هذه الرسالة طويلة، فيها كل بديع من نظم و نثر.

فأجابه رحمه اللّه: [الخفيف]

أرغمن هذه القيود الثّقالربّ ودّ مصيره للتّغالى

طال صبرى على الجديدين حتى كدت مما لقيت أن يشفقا لى

إنّ بعض الرضا لديه فسيح أىّ مدّ به و أىّ ابتقال

حاش للّه أن أكون لشىءشاده الصانع القديم بغال

إن عندى من الثناء عليهلأمانى لم يملهنّ القالى

يا إمامى الذى بودّى لو أمكن نصلى إليه أوّار قال

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۱ ارج دنياك و ارج مولاك و اعلمأنّ راجى سواه غير مقال

و ابتغاء الثواب من ربّك اعملفهو يجزى الأعمال بالمثقال

و اغتنم غيبة الرّقيب ففيهالقلوب الرجال أىّ صقال

و أحل فى الوجود فكر غنىّعن ضروب الإنعام و الأحقال

و إذا الوقت ضاق وسّعه بالصّبر و لا تنس من شهير المقال

ربما تكره النفوس من الأمر له فرحة كحلّ العقال

لا غرو أن وقع توان، أو تلوّم دهر ذو ألوان، فالأمر بين الكاف و النون، و من صبر لم يبوء بصفقة المغبون، و للسعداء تخصيص، و مع التقريب تمحيص، و ما عن القضاء محيص، و المتصرف فى ماله غير معتوب، و قديم الحقيقة إلى الحيف ليس بمنسوب. و قد ورد خطاب عمادى أطاب اللّه محضره، و سدّد إلى المرامى العليّة نظره، ناطقا بلسان التفويض، سارحا من الرّضا فى الفضاء العريض، لائذا بالانقياد و التسليم، قائما على أسكفّة باب الأدب لمثابة حكم الحكيم.

و منها: و الوقائع عافاكم اللّه وعّياظ، و نحن هجود و فى الحىّ أيقاظ، و ما كل المعانى تؤديها الألفاظ. و هذا الفنا الذى نشأ عن الوقت، هو إن شاء اللّه عين البقيا.

و إذا أحبّ اللّه عبدا حماه الدنيا، و ما هى إلّا فنون، و جنون فنون، و حديث كله مجون. و قد يجمع اللّه الشتيتين، و لن يغلب عسر يسرين و لا باس، و يا خطب لا مساس، و أبعد اللّه الياس، و إنما يوفى الأجر الصابرون، و لا ييأس من روح اللّه إلّا القوم الكافرون. و هى طويلة بديعة.

أسمع بحضرة غرناطة لما قدم عليها و ارتسم فى جملة الكتاب بها، و حدّث عن رضى الدين أبى أحمد إبراهيم الطهرى، بسماعه من الشريف يونس بن يحيى الهاشمى، بسماعه من أبى الوقت طرّاد. و عن الإمام سراج الدين أبى حفص عمر بن طراد المعرى القاضى بالحرم الشريف، و عن شرف الدين أبى عبد اللّه محمد بن عبد الحميد الهمدانى، و عن الإمام بهاء الدين الخميرى عن أبى الطاهر السّلفى، و عن جماعة غيرهم، و كان وروده على الأندلس فى أوائل عام خمسة عشر و سبعمائة، و حضر بها غزوات، و لقى من كان بها من الأعلام. ثم انصرف عنها فى أوائل عام ثمانية عشر، و أحلّ بسبتة، فأكرم رئيسها أبو عمر يحيى بن أبى طالب العزفى قدومه، و أنزله بدار جليلة كان بها علو مطلّ على البحر، لم يتمكن من مفتاحه، لأمر اقتضى

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۲

ذلك، فكتب إليه: [الكامل]

يا صاحب البلد المليح المشرقما مثله فى مغرب أو مشرق

منها:

و خفضت عيشى فيه فارفع منزلىحتى أرى الدنيا بطرف مطرق

و تجول فى البلاد، و لقى من بها، و اتصل بالأمير أبى على بسجلماسة، و مدحه بقصيدة حفظ له منها: [الطويل]

فيا يوسفىّ الحسن و الصّفح و الرّضاتصدّق على الدنيا بسلطانك العدل

ثم اتصل بوطنه.

وفاته: نقلت من خط شيخنا أبى بكر المذكور: و فى عام أربعين و سبعمائة، توفى بتونس صاحبنا الحاج الفاضل المتصوّف، الكاتب أبو عبد اللّه محمد بن على المليكشى الشهير بابن عمر. صدر فى الطلبة و الكتاب، شهير ذو تواضع و إيثار، و قبول حسن، رحمه اللّه.

محمد بن على بن الحسن بن راجح الحسنى

من أهل تونس، يكنى أبا عبد اللّه.

حاله: هذا الرجل الفاضل، صاحب رواء و أبّهة، نظيف البزّة، فاره المركب، صدوف عن الملّة، مقيم للرسم، مطفّف فى مكيال الإطراء، جموح فى إيجاب الحقوق، مترام إلى أقصى آماد التوغّل، سخىّ اللسان بالثناء ثرثاره، فكه مطبوع، حسن الخلق، عذب الفكاهة، مخصوص حيث حلّ من الملوك و الأمراء بالأثرة، و ممّن دونهم بالمداخلة و الصّيحبة، ينظم الشّعر، و يحاضر بالأبيات، و يتقدّم فى باب التّحسين و التّقبيح، و يقوم على تاريخ بلده، و يثابر على لقاء أهل المعرفة و الأخذ عن أولى الرواية. قدم على الأندلس فى إحدى جمادين، عام خمسين و سبعمائة، مفلتا من الوقيعة بالسلطان أبى الحسن بالجهات الشرقية، بأيدى بنى زيّان و أحلافهم،

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۳

فمهّد له سلطانها، رحمه اللّه، كنف برّه، و أواه إلى سعة رعيه، و تأكّدت بينى و بينه صحبة.

شعره: كتبت إليه لأول قدومه بما نصّه: أحذو حذو أبيات، ذكر أنّ شيخنا أبا محمد الحضرمى خاطبه بها : [الطويل]

أمن جانب الغربىّ نفحة بارحسرت منه أرواح الجوى فى الجوانح

قدحت بها زند الغرام و إنماتجافيت فى دين السّلوّ لقادح

و ما هى إلا نسمة حاجريّةرمى الشوق منها كلّ قلب بقادح

رجحنا لها من غير شكّ كأنهاشمائل أخلاق الشّريف ابن راجح

فتى هاشم سبقا إلى كلّ عليّة و صبرا مغار الفتل فى كلّ فادح

أصيل العلا، جمّ السيادة، ذكرهطراز نضار فى برود المدائح

و فرقان مجد يصدع الشّكّ نورهحبا اللّه منه كلّ صدر بشارح

و فارس ميدان البيان إذا انتضىصحائفه أنست مضاء الصّفائح

رقيق كما راقتك نغمة ساجعو جزل كما راعتك صولة جارح

إذا ما احتبى مستحفزا فى بلاغةو خيض خضمّ القول منه بسابح

و قد شرعت فى مجمع الحفل نحوهأسنّة حرب للعيون اللّوامح

فما ضعضعت منه لصولة صادح و لا ذهبت منه بحكمة ناصح

تذكّرت قسّا قائما فى عكاظهو قد غصّ بالشّمّ الأنوف الجحاجح

ليهنك شمس الدين ما حزت من علاخواتمها موصولة بالفواتح

رعى اللّه ركبا أطلع الصبح مسفرالمرآك من فوق الرّبى و الأباطح

و منها:

أقول لقومى عندما حطّ كورهاو ساعدها السّعدان وسط المسارح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۴ ذروها و أرض اللّه لا تعرضوا لهابمعرض سوء فهى ناقة صالح

إذا ما أردنا القول فيها فمن لنابطوع القوافى و انبعاث القرائح

بقيت منى نفس و تحفة رائد و مورد ظمآن و كعبة مادح

و لا زلت تلقى الرحب و البرّ حيثماأرحت السّرى من كلّ غاد و رائح

فأجابنى بما نصه : [الطويل]

أمن مطلع الأنوار لمحة لامح‌تعار لمفقود عن الحىّ نازح؟

و هل بالمنى من مورد الوصل يرتوىغليل عليل للتواصل جانح؟

فيا فيض عين الدمع ما لك و الحمىو رند الحمى و الشّيح شيح المشايح

مرابع آرامى و مورد ناقتىفسقيا لها سقيا لناقة صالح

سقى اللّه ذاك الحىّ ودقا فإنهحمى لمحات العين عن لمح سامح

و أبدى لنا حور الخيام تزفّ فىحلى الحسن و الحسنى و حلى الملامح

ترى حىّ تلك الحور للحور مهيع يدلّ، و هل حسم لداء التّبارح؟

و يا دوحة الريحان هل لى عودةلعقر عقار الأنس بين الأباطح؟

و هل أنت إلّا طلّة حاتميّةتغصّ نواديها بغاد و رائح

أقام بها الفخر الخطيب منابرالترتيل آيات النّدى و المنائح

و شفّع بالإنجيل حمد مديحهو أوتر بالتّوراة شفع المدائح

و فرّق بالفرقان كلّ فريقةنأت عن رشاد فيه معنى النصائح

و هل هو إلّا للبريّة مرشدلكلّ هدى هاد لأرجح راجح

فبشرى لسان الدين ساد بكّ الورىو أورى الهدى للرّشد أوضح واضح

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۵ متى قلت لم تترك مقالا لقائلفإن لم تقل لم يغن حمد لمادح

فمن حام بالحىّ الذى أنت أهله و عام ببحر من عطائك طافح

يحقّ له أن يشفع الحمد بالثّناو يغدو بذاك البحر أسبح سابح

و يا فوز ملك دمت صدر صدورهو بشرى له قد راح أربح رابح

بآرائك التى تدلّ على الهدىو تبدى لمن خصصت سيل المناجح

ملكت خصال السّبق فى كل غايةو ملّكت من ملكت يا ابن الجحاجح

مطامح آمال لأشرف همّةأقلّ مراميها أجلّ المطامح

فدونكها يا مهدى المدح مدحةأحببت بها عن مدح أشرف مادح

تهنّيك بالعام الذى عمّ حمده مواهب هاتيك البحار الطوافح

فخذها سمىّ الفخر يا خير مسبلعلى الخلق إغضاء ستور التسامح

و دم خاطب العليا لها خير خاطبو أتوق توّاق و أطمح طامح

و تلقانى بمالقة عند قدومى من الرّسالة إلى المغرب، فى محرم عام ستة و خمسين و سبعمائة، و نظم لى هذه الأبيات، و لا حول و لا قوة إلا بالله: [الطويل]

قدومك ذا أبدى لذى الراية الحمراثغور الرّضى تعبر عن شنب البشرا

و أينع فجر الرّشد من فلق الهدىو كوّنه نهرا و فجّره فجرا

سرينا له كى يحمد السّير و السّرىو نرقب شمس الدين من فرعك الفجرا

و نصبح فی أحیاء للمنّ نستلمواطنکم شفعا و آثارکم وترا

و نخطب ما، یا ابن الخطیب، تشاء من کرائم ذاک الحیّ إذ نهز الشّعری

فقابلت بالإقبال و البرّ و الرّضیو أقریت من یقرا و أقررت من قرّا

فأبناء قدس الحمد حضرة قدسناو أقدامنا تملا و أمداحکم تقرا

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۶ هنیّا لنا نلنا و نلنا و لم نزلننال و لکن هذه المنّة الکبرا

رأینا وزیر الملد و الملک و اللّویو حزب اللّوی کلّ یشدّ به أزرا

سجدنا و کبّرنا و قلنا: رسولناأتی بالذی یرضی بشری لنا بشری

و یهنی الوری هذا الإیاب فإنّ فینتائجه للدّهر ما یسهر الدّهرا

أرانا سنا ذا الیوم أجمل منظرو جلّی لنا من وجهک الشمس و البدرا

أما و الذی أولیت من نعمة غدتتعلّمنا للمنعم الحمد و الشکرا

لأنت لسان الدّین للدّین حجّةتؤیّده سرّا و تعضده جهرا

بقیت لنا کتفا منیعا مشرفاو دمت له عضدا و دمت له نصرا

و دمنا بکم فی کلّ أمن و منّةندیر المنی خمرا و نصلی العدا جمرا

و من أمثل ما مدح به السلطان لأول قدومه بالنسبة إلی غیر ذلک من شعره:

[الطویل]

أما و العیون النّجل ترمق عن سحرو ورد ریاض الخدّ و الکأس و الخمر

و ریحانه و الرّاح و الظّلّ و الظّلیو نرجسه و الزّهر و النّور و النّهر

و نور جبین الشمس فی رونق الضّحیو هالة بدر التّمّ منتصف الشّهر

لقد قلّدت آراء یوسف ملکهقلائد نصر لن تبید مع الدّهر

و قد أیّد الإسلام منه بناصرنصیر و خیر النصر نصر بنی نصر

هم القوم أنصار النبیّ محمدبه عصبة الأعلام فی الیسر و العسر

و حسبک من قوم حموا سیّد الوریو قاموا بنصر الحقّ فی السّرّ و الجهر

سقی شرعة الإسلام ودق سیوفهمرحیق الأمانی طیّب العرف و النّشر

فأصبح روض الرّشد یعبق طیبهو دوح الهدی بالزّهر أزهاره تزری

فیا سائلی عنه و عن سطواتهإذا لاح محفوفا برایاته الحمر

و جزّ مع الإقدام جیشا عرمرماو شرّد بالتأیید شرذمة الکفر الإحاطة فی أخبار غرناطة ؛ ج۲ ؛ ص۴۱۶

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۷ لخلّیلة تنبیک عما وراءهاو لا غرو فالإفصاح یعرف بالعجز

فیا فوز من أدناه بالغنم و الغنیو یا ویل من أقصاه للقفر و الفقر

یمینا بما اختارت یداک و أحرزتمن الملک و التأیید و النّهی و الأمر

لقد أصعدت مجدی مدائحک التیو مجدک و العلیا مدحت بها شعری

و حقّ لمثلی یشفع الحمد بالثّناو یتلو معانیه مع الشّفع و الوتر

فأجنی ثمار الأنس من روضة المنیو أقطف زهر الحمد من شجر الشکر

و أشرب ماء الفوز عذبا ختامهرحیق براح السّمح فی أکؤس البشر

و لا برحت أمداحكم تعجز النهىو إلّا فكم تنجنى من العسر لليسر

و لا زالت الأقدار تخدم رأيكمو راياتكم ما دام نجم للسّرا يسرى

و كتب إلىّ فى غرض يظهر منه نصّ المراجعة، و حسبنا اللّه : [الطويل]

أما و الذى لى فى حلاك من الحمدو ما لك ملّاكى علىّ من الرّفد

لقد أشعرتنى النفس أنك معرضعن المسرف اللائى لفطرك يستجدى

فإن زلّة منّى بدت لك جهرةفصفحا فما و اللّه إذ كنت عن عمد

فراجعته بقولى : [الطويل]

أجلّك عن عتب يغضّ من الودّو أكرم وجه العذر منك عن الرّدّ

و لكننى أهدى إليك نصيحتىو إن كنت قد أهديتها ثم لم تجد

إذا مقول الإنسان جاوز حدّهتحوّلت الأغراض منه إلى الضّدّ

فأصبح منه الجدّ هزلا مذمّماو أصبح منه الهزل فى معرض الجدّ

فما اسطعت فيضا للعنان فإنهأحقّ السجايا بالعلاء و المجد

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۸

توفى يوم الخميس الثالث لشعبان عام خمسة و ستين و سبعمائة، و قد ناهز السبعين سنة، و دفن بروضتنا بباب إلبيرة، و أعفى شارب الشّعر من نابى مقصّه.

و غير هذه الدعوى قرارها تجاوز القضية.

محمد بن على بن عمر العبدرى

من أهل تونس، شاطبى الأصل، يكنى أبا عبد اللّه، صاحبنا.

حاله: كان فاضلا من أبناء النّعم، و أخلاف العافية، ولّى أبوه الحجابة بتونس عن سلطانها برهة، ثم عدا عليه الدهر، و اضطر ولده هذا إلى اللحاق بالمشرق، فاتصل به سكناه و حجّ، و آب إلى هذه البلاد ظريف النّزعة، حلو الضّريبة، كثير الانطباع، يكتب و يشعر، و يكلف بالأدب، ثم انصرف إلى وطنه. و خاطبنى إلى هذا العهد، يعرّفنى بتقلّده خطة العلّامة، و الحمد للّه.

و جرى ذكره فى كتاب «الإكليل» بما نصّه : غذىّ نعمة هامية، و قريع رتبة سامية، صرفت إلى سلفه الوجوه، و لم يبق بإفريقية إلّا من يخافه و يرجوه، و بلغ هو مدة ذلك الشرف، الغاية من التّرف. ثم قلب الدهر له ظهر المجنّ، و اشتدّ به الخمار عند فراغ الدّنّ، و لحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مبيرة و شدّة كبيرة، فامتزج بسكانه و قطّانه، و نال من اللّذّات ما لم ينله فى أوطانه؛ و اكتسب الشمائل العذاب، و كان كابن الجهم بعث إلى الرّصافة ليرقّ فذاب، ثم حوّم على وطنه تحويم الطّائر، و ألمّ بهذه المدينة إلمام الخيال الزائر، فاغتنمت صفقة ودّه لحين وروده، و خطبت موالاته على انقباضه و شروده، فحصلت منه على درّة تقتنى، و حديقة طيّبة الجنى.

شعره: أنشدنى فى أصحاب له بمصر قاموا ببرّه : [الطويل]

لكلّ أناس مذهب و سجيّةو مذهب أولاد النظام المكارم

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۱۹ إذا كنت فيهم ثاويا كنت سيّداو إن غبت عنهم لم تنلك المظالم

أولئك صحبى، لا عدمت حياتهمو لا عدموا السّعد الذى هو دائم!

أغنّى بذكراهم و طيب حديثهم كما غرّدت فوق الغصون الحمائم

و من شعره يتشوّق إلى تلك الديار، و يتعلل بالتذكار، قوله : [الوافر]

أحبّتنا بمصر لو رأيتمبكائى عند أطراف النهار

لكنتم تشفقون لفرط وجدىو ما ألقاه من بعد المزار

و من شعره: [الطويل]

تغنّى حمام الأيك يوما بذكرهمفأطرب حتى كدت من ذكرهم أفنى

فقلت: حمام الأيك لا تبك جيرةنأوا و انقضت أيام وصلهم عنّا

فقال و لم يردد جوابا لسائلألا ليتنا كنا جميعا بذا حقنا

و من جيد شعره الذى أجهد فيه قريحته، قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن فى ميلاد عام سبعة و أربعين و سبعمائة: [الطويل]

تقرّ ملوك الأرض أنّك مولاهاو أنّ الدّنا وقف عليك قضاياها

و منها:

طلعت بأفق الأرض شمسا منيرةأنار على كل البلاد محيّاها

حكيت لنا الفاروق حتى كأننامضينا بعين لا نكذّب رؤياها

و سرت على آثاره خير سيرةقطعنا بأنّ اللّه ربّك يرضاها

إذا ذكرت سير الملوك بمحفلو نادى بها النّادى و حسّن دنياها

فجودك روّاها و ملكك زانهاو عدلك زانها و ذكرك حلّاها

و أنت لها كهف حصين و معقلتلوذ بها أولى الأمور و أخراها

الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۲۰

و منها بعد كثير:

و منكم ذوو التّيجان و الهمم التىأناف على أعلى السّماكين أدناها

إذا غاب منهم مالك قام مالكفجدّد للبيت المقدّس علياها

بناها على التقوى و أسّس بيتهاأبو يوسف الزّاكى و سيّر مبناها

و أورثها عثمن خير خليفةو أحلم من ساس الأنام و أنداها

و قام عليّ بعده خير مالكو خير إمام فى الورى راقب اللّه

على بن عمر بن يعقوب ذو العلامذيق الأعادى حيثما سار بلواها

أدام اللّه و أعطى الخلافة وقتهاو نوّر أحلاك الخطوب و جلّاها

و وصلنى كتاب منه مؤرخ فى التاسع عشر من شهر شعبان المكرم من عام أربعة و ستين و سبعمائة، جدّد عهدى من شعره بما نصّه: [الطويل]

رحلنا فشرّقنا و راحوا فغرّبواففاضت لروعات الفراق عيون

فيا أدمعى منهلّة إثر بينهم كأنّ جفونى بالدموع عيون

فيا معهدا قد بنت عنه مكلّفابديلى منه أنّة و حنين

سقتك غوادى المزن كرّ عشيّةو دادك محلول النطاق هتون

فإن تكن الأيام لم تقض بينابوصل فما يقضى فسوف يكون

يعزّ علينا أن نفارق ربعكمو أنّا على أيدى الخطوب نهون

و لو بلّغتنى العير عنكم رسالةو ساعد دهر باللّقاء ضنين

لكنّا على ما تعلمون من الهوىو لكن لأحداث الزمان فنون

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۲۱

فهرس المحتويات

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر الخزرجی ۳

شيخ الغزاة و رئيس الجند الغربی لأول أمره ۵

الأحداث فی أيامه ۹

الحادثة التی جرت عليه ۱۱

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور ۱۴

ظرف السلطان و حسن توقيعه ۱۸

و من ملوك النصاری ۲۱

بعض مناقب الدولة لهذا العهد ۲۴

الجهاد فی شعبان من عام سبعة و ستين و سبعمائة ۴۳

الغزاة إلى حصن أشر ۴۵

الغزاة المعملة إلى أطريرة ۴۵

الغزاة إلى فتح جيّان ۴۶

الغزاة إلى مدينة أبدة ۴۶

مولده السعيد النّشيئة، الميمون الطلوع و الجيئة ۵۰

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجی الأنصاری ۵۱

الملوك على عهده ۵۴

محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن أبی عامر بن محمد بن أبی الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافری، المنصور بن أبی عامر ۵۷

غزواته و ظهوره على أعدائه ۵۸

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ابن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، لخمی النسب ۶۱

توقيعه و نثره فی البديهة ۶۶

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامی ۷۰

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۲۲

ما نقم عليه و وصم به ۷۱

بعض الأحداث فی أيامه، و نبذ من أخباره ۷۳

محمد بن يوسف بن هود الجذامی ۷۴

بعض الأحداث فی أيامه ۷۵

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن بن أيوب بن حامد بن زيد بن منخل الغافقی ۷۷

حاله و نباهته و محنته و وفاته ۷۷

خبر فی وفاته و معرجه ۷۸

محمد بن أحمد بن محمد الأشعری ۷۹

محمد بن فتح بن علی الأنصاری ۸۰

محمد بن أحمد بن علی بن حسن بن علی بن الزیات الکلاعی ۸۰

محمد بن علی بن عبد اللّه بن محمد بن الحاج ۸۱

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهیم بن أرقم النّمیری ۸۲

محمد بن محمد بن إبراهیم بن محمد بن إبراهیم بن محمد بن خلف بن محمد بن سلیمان بن سوار بن أحمد بن حزب اللّه بن عامر بن سعد الخیر بن عیّاش ۸۳

محمد بن عبد اللّه بن منظور القیسی ۱۰۱

محمد بن علی بن الخضر بن هارون الغسانی ۱۰۳

محمد بن یحیی بن محمد بن یحیی بن أحمد بن محمد بن أبی بکر بن سعد الأشعری المالقی ۱۰۶

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن محمد بن علی بن موسی بن إبراهیم بن محمد ابن ناصر بن حیّون بن القاسم بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علی بن أبی طالب رضی اللّه تعالی عنه ۱۱۰

محمد بن أحمد بن عبد الملک الفشتالی ۱۱۴

محمد بن محمد بن أحمد بن أبی بکر بن یحیی بن عبد الرحمن بن أبی بکر بن علی بن داود القرشی المقری ۱۱۶

من فصل الإقبال ۱۲۵

محمد بن عیاض بن محمد بن عیاض بن موسی الیحصبی ۱۴۴

محمد بن عیاض بن موسی بن عیاض بن عمر بن موسی بن عیاض الیحصبی ۱۴۵

محمد بن أحمد بن جبیر بن سعید بن جبیر بن محمد بن سعید بن جبیر بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبیر الکنانی ۱۴۶

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علی بن شبرین ۱۵۲

محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ۱۵۹

الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۲۳

محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ۱۶۱

محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدّوسی ۱۶۲

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ۱۶۲

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسی ۱۶۳

محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن یحیی ابن عبد الرحمن بن یوسف بن جزیّ الکلبی ۱۶۳

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهیم بن یحیی بن محمد بن الحکیم اللخمی ۱۷۲

محمد بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن محمد بن علی بن محمد اللّوشی

الیحصبی ۱۷۴

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهیم بن یحیی بن الحکیم اللخمی ۱۷۶

محمد بن محمد بن علی بن العابد الأنصاری ۱۸۱
محمد بن مالک المرّی الطّغنری ۱۸۲
محمد بن علی بن محمد بن عبد اللّه بن عبد الملک الأوسی ۱۸۳
محمد بن علی بن عبد اللّه بن علی القیسی العرادی ۱۸۴
محمد بن علی بن العابد الأنصاری ۱۸۵
محمد بن هانی بن محمد بن سعدون الأزدی الإلبیری الغرناطی ۱۸۶
محمد بن یحیی بن محمد بن یحیی بن علی بن إبراهیم بن علی الغسّانی البرجی الغرناطی ۱۹۰
محمد بن یوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن یوسف بن محمد الضّریحی ۱۹۶
و من السفر السابع المفتتح بقوله و من الطّارئین منهم فی هذا الباب ۲۰۷
محمد بن أحمد بن محمد بن أبی خیثمة الجبّائی ۲۰۷
محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن أحمد الإستجّی الحمیری ۲۰۷
محمد بن أحمد بن علی الهوّاری ۲۱۶
محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادی آشی ۲۲۰
محمد بن إبراهیم بن خیرة ۲۲۳
محمد بن إبراهیم بن علی بن باق الأموی ۲۲۴
محمد بن إبراهیم بن سالم بن فضیلة المعافری ۲۲۶
محمد بن إدریس بن علی بن إبراهیم بن القاسم ۲۲۸
شعره و دخوله غرناطة ۲۲۹
محمد بن محمد بن أحمد الأنصاری ۲۳۳
محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمی ۲۴۳
محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمی ۲۴۶
محمد بن محمد بن حزب اللّه ۲۴۹
محمد بن إبراهیم بن عیسی بن داود الحمیری ۲۵۲
الإحاطة فی أخبار غرناطة، ج۲، ص: ۴۲۴
محمد بن محمد بن عبد اللّه بن مقاتل ۲۶۱
محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القیسی ۲۶۲
محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوی ۲۶۲
محمد بن محمد بن الشّدید ۲۶۷
محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد بن أبی الخصال الغافقی ۲۶۹
محمد بن مفضل بن مهیب اللخمی ۲۸۸
محمد بن عبد اللّه بن داود بن خطاب الغافقی ۲۹۵
محمد بن عبد اللّه بن محمد بن لب الأمی ۲۹۹
محمد بن عبد اللّه بن الحاج البضیعة ۳۰۸

محمد بن عبد اللّه بن فطيس ۳۰۹
محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمى ذو الوزارتين ۳۱۰
[{جراوى ۳۳۲
محمد بن عبد الرحمن المتأهل ۳۳۳
محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسى ۳۳۴
حظوته و دخوله غرناطة ۳۳۴
محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد اللّه بن عيّاش التّجيبى البرشانى ۳۳۷
بعض أخباره مع المنصور و محاورته الدّالة على جلالة قدره ۳۳۹
محمد بن على بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهمدانى ۳۴۱
محمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى ۳۴۵
محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الزّهرى ۳۴۷
محمد بن غالب الرّصافى ۳۵۶
محمد بن قاسم بن أبى بكر القرشى المالقى ۳۶۶
محمد بن سليمان بن القصيرة ۳۶۷
محمد بن يوسف بن عبد اللّه بن إبراهيم التميمى المازنى ۳۷۰
«و من الغرباء فى هذا الحرف» محمد بن حسن العمرانى الشريف ۳۷۱
محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادى ابن العشاب ۳۷۳
محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى ۳۷۵
محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجرى حجر ذى رعين التّلمسانى ۳۷۶
محمد بن عمر بن على بن إبراهيم المليكشى ۴۰۵
محمد بن على بن الحسن بن راجح الحسنى ۴۱۲
محمد بن على بن عمر العبدرى ۴۱۸

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹